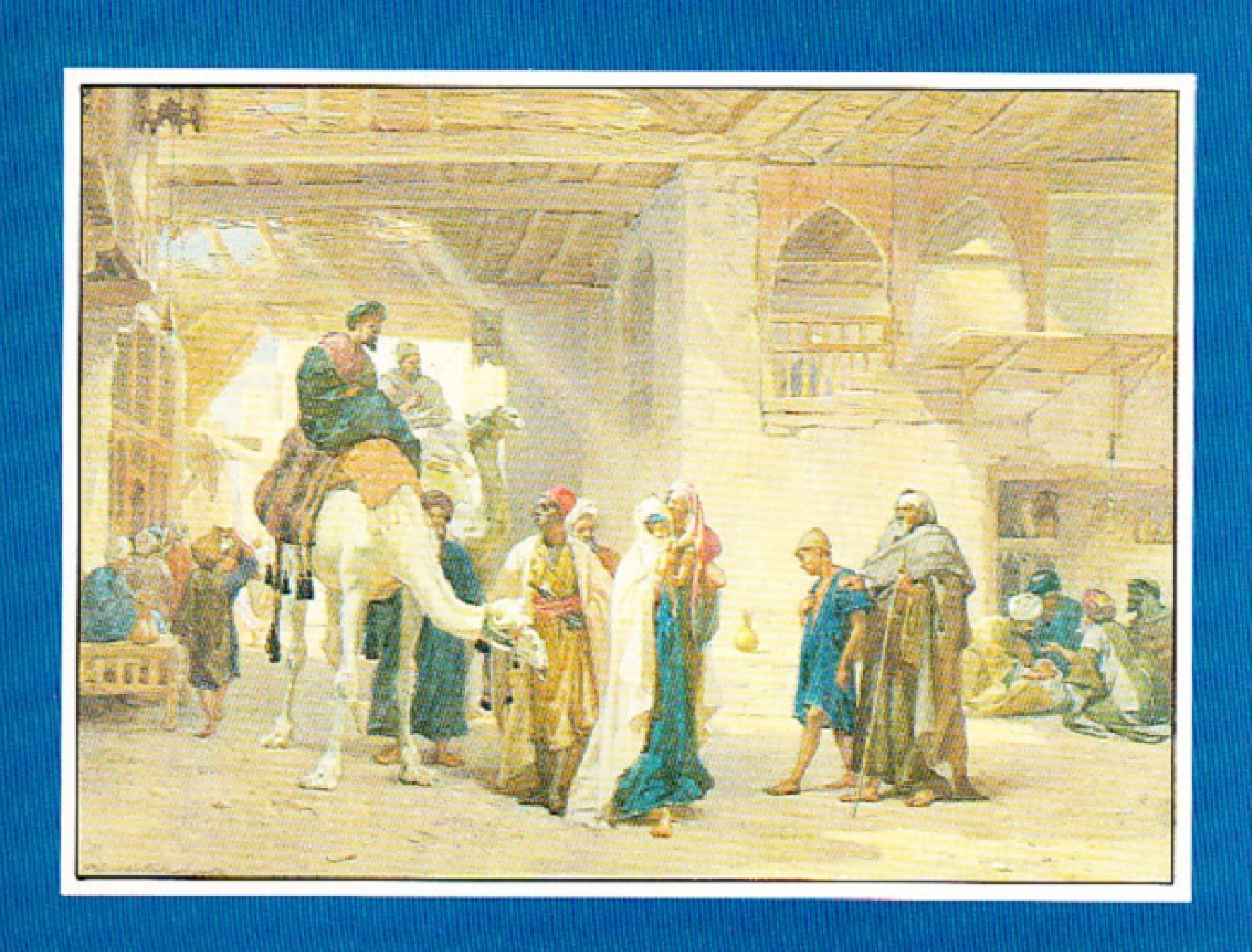
سمير عطا الله

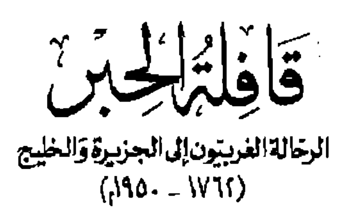
قافلة الحبر

الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج
(١٧٦٢ - ١٩٥٠م)



دار الساقي




قافلة الحبر
الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج
(١٧٦٢ - ١٩٥٠م)

صورة الغلاف :

Frederick Goodall, *Travellers*.
Courtesy Mathaf Gallery
24 Motcomb Street, London SW1

سمير عطا الله

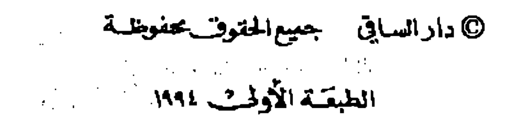
قافلة الحبر

الرحالة الغربيّون إلى الجزيرة والخليج

(١٧٦٢ - ١٩٥٠م)



الساقي



الطبعة الأولى ١٩٩٤

ISBN 1 85516 750 6

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت – لبنان

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١) ؛ فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI

London Office : 26 Westbourne Grove, London W2 5RH, Tel: 071-221 9347 ; Fax : 071-229 7492

مدخل

بدأت فكرة هذا الكتاب حوالى العام ١٩٨٠. ولـم تكن فكرة لكتاب ولا كانت، بصورة خاصة، فكرة لكتاب حول الجزيرة العربية. فقد اشتريت كتاباً قديماً من أحد أسواق لندن الأثريّة عن رحلة ألفونس دو لامارتين الشهيرة في الثلاثينات من القرن الماضي بعنوان «ذكريات من الشرق»، وبدأت أقرأه للمرة الأولى، مع أنني كنت قد سمعت عنه وأنا طفل. ثم عشت «مع» لامارتين شابًا حين أخذنا نتردّد في بيروت القديمة على مقهًى قيل إنه كان المنزل الذي استأجره الشاعر والنبيل الفرنسي خلال إقامته في بيروت حوالى العام ١٨٣٢. وكانت في الحديقة أيضاً شجرة الكينا الباسقة الضخمة التي كان المسيو دو لامارتين يجلس في ظلّها حين يدوّن يوميّاته وزياراته في ربوع لبنان. والواقع أننا في ذلك الوقت لم نعطِ المسيو دو لامارتين الكثير من الأهمية. فقد راح صاحب المقهى يعلّق على الجدران القديمة المبلّلة بتسرّبات المياه وآثار الزمن، رسائل تبادلها مع أصدقاء له، والردود عليها. وكان بين أولئك الأصدقاء جورج كاترو وشارل ديغول ونستون تشرشل. وثمة رسالة من إريك روميل أيضاً على ما أذكر.

قلّبتُ «ذكريات من الشرق» وهزّني في العمق تشابهٌ ما! في صيف عام ١٩٧٥ غادرت بيروت على ظهر الباخرة الإيطالية «إسبيريا» التي كانت يومها الباص البحري في حوض المتوسط. ولمّا تطلّعت خلفي والباخرة تنسحب في سكون تام من الميناء، كان الشعاع المنعكس على سطح المياه قد اختلط بظلال الأحراج الخضراء، وراحت بيروت، والتلال التي تتكيء عليها، والجبال التي تتكيء على التلال، تغيب خلفنا في الغروب ثم ضمّهاالظلام، وعرفنا عند ذلك أن الفجر سيطلع علينا في بلد آخر. لم تكن

تلك أول مرة أسافر فيها من بيروت على باخرة، لكنني الآن كنت أسافر وأنا لا أعرف إن كنت سأرى بيروت مرة أخرى. فهذه العروس الجميلة على المتوسط أقحمت في زمن النعي والخراب. ولذلك بقيتُ أتأملها حتى آخر خيطٍ في الغياب، وبَقِيَتْ في ذاكرتي، كالخوف والفرح، صورة المدينة الجميلة تدخل في نفسها كصورة في إطار، ونحن نبتعد، وصوت جدّتي، التي أحببت صمتها أكثر من أيّ شيء على الأرض، يقول لي في شيء من العقاب والتوسّل: «هل صحيح أنك عائد أم أنك تضحك عليّ؟»

فتحت كتاب «ذكريات من الشرق» فإذا ألفونس دو لامارتين يصف لحظة وصوله إلى ميناء بيروت صباح الخامس من أيلول/ سبتمبر ١٨٣٢، ذلك المشهد الذي تركته ذات يوم من تموز/ يوليو ١٩٧٥. لكن طبعاً، بروعة الشعراء:

«إنه واحد من أعظم وأروع الانطباعات التي عرفتها في كل رحلاتي الطويلة. هذه هي الأرض التي تتّجه إليها كل أفكاري الآن، كرحّالة وكإنسان. هذه هي التربة المقدسة للبلد الذي أحببته من مسافة بعيدة بحثاً عن آثار الإنسانية القديمة»!

بعد لامارتين، خطر لي أن أجمع ما استطعت من الكتب القديمة حول لبنان و«المشرق». ولبنان آنذاك، كان في أيّ حال، جزءاً من «المشرق» أو من «الأراضي المقدسة» التي بدأ يتوافد عليها الأوروبيون بأعداد هائلة: للسياسة! للأدب! للاستعمار. للتجارة. وللانبهار! ثم بدأت في جمع كتب الرحّالة عشوائيًّا وكيفما اتفق لي. مرة عن المغرب العربي، ومرة عن المشرق، بما في ذلك طبعاً مصر، ومرة عن الجزيرة العربية.

وخلال السنوات رأيت نفسي، أنا المسافر الصغير في عصر الطائرات والسيارات، غارقاً في هذا العالم الساحر الذي تركه لنا الرحّالة الغربيون الذين جابوا المغرب والمشرق والجزيرة، على الأقدام أحياناً، وعلى الجمال أحياناً أخرى، وعلى الخيل تارة، وعلى الحمير تارة أخرى، ودائماً في تلك الظروف المناخية والطبيعية الشديدة القسوة. وراحت الكتب القديمة تتكوّم على الرفوف مع كل رحلة إلى أسواق الكتب القديمة في نيويورك أو لندن أو باريس، وأحياناً مكتبات بيروت. ومع تراكم الكتب خطر لي للمرة الأولى أن أنتقل من القراءة إلى الكتابة، وأن أبدأ بالمشرق. ثم وقعت صدفة، على حكاية «السي محمود» في الصحراء الجزائرية أوائل القرن، وقلت في نفسي، أمام الرواية المذهلة، لماذا لا أبدأ في المغرب، مع «السي محمود» وقصته مع الماريشال ليوتيه ومأساته وأسرته وخروجها من روسيا إلى سويسرا وخروجه هو إلى عالم الصحراء! عذراً، قلنا «هو» في صورة عفوية حقًّا، أما الحقيقة فإن «السي محمود» لم يكن سوى المرأة الأسطورية إيزابيل إبرهارت، الروسية الهاربة إلى أوروبا، الأوروبية

التي اعتنقت الإسلام وأحبت الصحراء وعاشت فوق رمالها الحارقة حتى الموت، إلى جانب الزوج الجزائري سليمان، الذي اختارت أن تعيش حياته البسيطة بكل تفاصيلها! كرهتها الجالية الفرنسية في الجزائر وازدرتها بسبب علاقتها بالعرب، لكن الجنرال ليوتيه، كبير الفرنسيين هناك، ظلّ يعاملها كصديق! عاشت كاتبة فقيرة ومعدمة، لكن بعد وفاتها أخذت مؤلفاتها تثري الآخرين. ويوم ماتت قيل إنها أول مخلوق «يغرق» في الصحراء.

ماتت إيزابيل إبرهارت في العام ١٩٠٤ وهي في السابعة والعشرين من العمر. وخلال هذه الحياة القصيرة الخاطفة تركت خلفها أكواماً من الأساطير وغابات من الغموض، لدرجة أن ليوتيه قال عنها إن «أحداً لا يعرف أفريقيا مثلها»! عاشت إيزابيل إبرهارت حتى الثامنة عشرة من عمرها في إحدى ضواحي جنيف، مع أمها المتزوجة من جنرال روسي. كان جوّ البيت خانقاً على إيزابيل وإخوتها فراحوا يتركون الواحد بعد الآخر، وفي غضون ذلك كانت تدرس العربية، قراءة وكتابة، كما كانت تتعرّف إلى الإسلام من خلال أصدقاء كثيرين، ومن خلال قراءاتها. وفي أيار/ مايو ١٨٩٧ وصلت إلى عنّابة مع أمها وهنا أشهرت إسلامها وبدأت حياتها الجديدة. لكن بعد قليل توفيت والدتها فدفنتها في المقبرة الإسلامية تحت اسم فاطمة المنوبية. ومنذ تلك اللحظة اشترت حصاناً وارتدت ثياب الرجال وأخذت تتيه في الصحراء، تنام أينما كان وتأكل كيفما تيسّر. ولما نفد ما لديها من مال قليل عادت إلى جنيف، حيث هام بها وطلب يدها الديبلوماسي التركي «رشيد بك»، فقبلت على أساس أن الزواج سيحملها إلى العالم العربي، لكن حين عُيِّن الرجل سفيراً في استوكهولم، فسخت الخطوبة ومضت. عادت إلى باب الواد. إنه قدرها. لكن قبل أن تستقرّ نهائيًا في الجزائر عادت مرة أخيرة إلى باريس لكي تبحث عن صحيفة تكتب لها من هناك. ثم نراها في الجزائر مجدّداً العام ١٩٠٠، مطلع القرن. والآن سوف تلتقي سليمان أهني الجندي الجزائري الذي تهيم بها. تزوّجا في الفقر. لكنها بقيت ترتدي ثياب الرجال وظلّ الجزائريون، حتى الذين عرفوا أنها امرأة، ينادونها «السي محمود». وفيما انصرفت إلى المزيد من التعمّق في الإسلام وإلى التعبد، اتهمتها إحدى القبائل المنافسة بالتجسّس للفرنسيين وأقدم أحد المتحمسين على طعنها، وفيما هي بين الحياة والموت طلبت أن يغفر له. غير أن المحكمة العسكرية حكمت على الرجل بالسجن ٢٠ عاماً وعلى إبرهارت بمغادرة شمال أفريقيا! لم تُرِدِ الحكومة الفرنسية إثارة الناس. وهكذا عاد «السي محمود» إلى مرسيليا حيث راحت تكتب يوميّاتها وذكرياتها في باب الواد. مرسيليا كانت المنفى والمنفى كان في غرفة سوداء صغيرة على البحر. وهنا كتبت في «بلاد

الرمل» و«في ظل الإسلام الحار»، وهنا أيضاً التقت مع سليمان من جديد، وعاشا معاً في حي فقير خلف الميناء. لكن ليس إلى فترة طويلة. فقد حصلت هذه الروسية السلافية الأصل على الجنسية الفرنسية ولأنه لم يعد في إمكان أحد أن يمنعها من العودة إلى «المغرب الرائع والجميل» حيث راحت تكتب لصحيفة «الأخبار» المؤيدة للعرب وتحارب معهم. وفي العام ١٩٠٣ تعرّفت إلى الجنرال ليوتيه «وكانا يمضيان الوقت الطويل يتحدثات عن الجزائر» كما قال الجنرال كاترو فيما بعد. وبعد عام مات «السي محمود» منهكاً بالملاريا، تاركاً خلفه إحدى أكثر الأساطير إثارة وغموضاً.

لكن ليس هذا مكان روايتها الآن. ولم تكن أسطورة «السي محمود» الشيء الوحيد الذي يمكن أن يجتذب المرء للكتابة عن الرحّالة الذين ذهبوا إلى المغرب العربي. فقد كان هناك الكثير من الآثار الأدبية التي تركها الإسبان والإيطاليون والفرنسيون.

على أنني مع تزايد الكتب فوق الرفوف ومع ارتفاع عدد الجولات في المكتبات القديمة، كنت ازداد قناعة بأن مركز الانبهار الحقيقي لرحّالة الغرب، كان في الجزيرة العربية. وكان ذلك طبعاً، قبل النفط بزمان طويل. وسوف نكتشف أن هناك أكثر من نداء استجاب له هؤلاء القادمون من قلب الحضارة الأوروبية إلى الأرض البعيدة في مقلب البحر الأحمر والربع الخالي وبحر العرب. كان هناك أولاً، نداء الإسلام. ثم كان هناك نداء الصحراء وغموض الصحراء. ثم كانت هناك صورة «العربي الفارس» أو «العرق العربي الصافي» في نجد. وكانت هناك آلاف القصص والأساطير والحكايات التي اجتذبت الحالمين والرومانسيين إلى بلاد السندباد وطائر الرّخ ومصباح علاء الدين.

يختصر بيتر برنت جزيرة العرب بالقول إنها تلك المنطقة التي ظلّت الشمس طوال عشرين ألف عام تحوّلها، دون هوادة، إلى رمل وصخر. «لكن من شبه الجزيرة هذه أيضاً طلعت أكثر الهجرات خصوبة في تاريخ العالم، ومنها طلعت تلك الدعوة المشرقة المليئة بالإيمان لدرجة أن التجاوب الذي أثارته غيّر التاريخ في ثلاث قارات. ومع ذلك فإنه حتى هذا اليوم (١٩٧٧) لا يزال أهلها يعيشون حياة البداوة». البداوة هنا، كما سيقول لنا كارستن نايبور، أول الرحّالة وأشهرهم، تساوي الحرية: «الفقر لدى العربي الجوّال أمر طوعي تماماً. إنه يفضل الحرية على الثروة، والبساطة البدوية على حياة التقييد والضنك مهما كانت عوائدها».

هذه الحياة المطلقة، بين الرمل والفضاء، بين القمر والشمس، حرّكت مخيّلات الشعراء الغربيين بلا حساب. والروس أيضاً. من شيللر وشيلي وبايرون إلى لامارتين

وبوشكين. لكن فيما ظلّ الشعراء يحلّقون في مخيلاتهم على إيقاع القوافي الجميلة، انتقى الرحّالة والأكاديميون اللحاق بالقوافل الصعبة على أرض الصخر البركاني الحار والرمل الطيّار المتعدّد الألوان والظلال.

إنها قوافل الحبر، والورق، والريش الذي كانوا يكتبون به في تلك الأيام! والرحّالة الذين تبعوا مخيّلات الشعراء أو سبقوها، كانوا ينتمون هم أيضاً إلى عصر رومانسي واحد، وتلك الرومانسية هامت بالعربي، دون غيره من الآسيويين الآخرين، أو بالأحرى «بالبدوي الحرّ، الفقير، الشجاع والجميل» الذي وصفه السير ريتشارد بورتون بأنه «خليط نبيل حقًّا من العزم واللطف والكرم».

ليس جميع الرحّالة ريتشارد بورتون أو كارستن نايبور أو لويس بوركهارت. كان هناك أيضاً رجال مثل وليم غيفورد بالغريف، أو مايكل كوهين، الذي اعتنق الكثلكة ثم عمل لحساب الإمبراطور لويس نابوليون، ثم عاد إلى العمل في خدمة في بريطانيا، وقد حارب إلى جانب الموارنة في لبنان خلال عام ١٨٦٠ ثم انقلب عليهم. مع بالغريف هذا نجد للبدوي وصفاً آخر: «البدوي لا يحارب من أجل بيته لأن لا بيت له، ولا يحارب من أجل وطنه لأن وطنه أينما كان»! وسوف نجد حقداً يبلغ الجنون عند تشارلز داوتي أيضاً، الذي اعتبره تي. إي. لورانس، (لورانس العرب) أعظم الرحّالة الذين عرفتهم الجزيرة.

لكن الأكثرية الساحقة من الرحّالة الأوروبيين، هي تلك التي تركت لنا، بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن العشرين، أدق وأجمل الآثار عن الجزيرة والخليج في تلك المرحلة التي غاب فيها أي عمل تسجيلي عربي، فالكونتيسة مالميغواتي سوف تكتب في العام ١٩٢٥: «كم هي بسيطة حياتهم. كم هي نظيفة معيشتهم هؤلاء الرجال. أعمالهم رفيعة وقوية مثل وجوههم، لكن قلوبهم كقلوب الأطفال».

من هم أولئك الرحّالة الذين جاءوا من فنلندا أو من الدانمارك أو من بريطانيا أو من فرنسا أو من البرتغال أو من إسبانيا أو من روسيا أو من غيرها؟ كانوا رجالاً كثيرين وكانت طباعهم مختلفة وكانت أهدافهم مختلفة. وفي هذا الكتاب لا مكان لإصدار الأحكام على أحد. إنه مجرّد عرض عابر لبعض أبرز الرحّالة وأعمالهم، مع التوقف طويلاً عند كارستن نايبور، ملحمة الرحلات. وقد حرصت أن تغطي المختارات التي نقلت إلى العربية، كل المناطق الجغرافية وكل المراحل التاريخية معاً، وإن يكن بدون ترتيب أو ادّعاء أكاديمي. وتلقي هذه المختارات بنفسها الضوء على أصحابها وعلى

أهدافهم واهتماماتهم. فعلى سبيل المثال اخترنا من الرحّالة الفنلندي جورج أوغست فالين، الذي أشهر إسلامه واختار لنفسه اسم عبد الولي، اخترنا الفصل المتعلّق بالجوف. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الفصل المأخوذ من فالين ليس من ترجمتنا بل من ترجمة جامعة هلسنكي (سمير سليم شبلي). وأخذنا من لويس بوركهارت الفصل المتعلّق بجدّة. ومن الفرنسي شارل ديديه وصفاً لجدّة كما رفعه إلى الحكومة الفرنسية. ومن بالغريف اخترنا وصفه للرياض. ومن الكولونيل لويس بيلي وصف الطريق بين الكويت والرياض. ومن برترام توماس الرحلة عبر الربع الخالي.

في هذه المختارات عن الجزيرة والخليج سوف يجد القارىء، إذن شيئاً من البيئة العربية الصعبة في تلك المرحلة وشيئاً من الصراع السياسي حول عدن مثلاً، وشيئاً من الوصف الدقيق للحياة في الكويت أيام الشيخ مبارك الكبير، وشيئاً من الصراع بين الرحّالة أنفسهم. لكن القارىء لن يجد مثلاً نصًّا من نصوص الحاج عبدالله فيلبي، والسبب أنها متداولة إلى حدٍّ بعيد، ولن يجد أيضاً نصًّا من تشارلز داوتي (خليل) برغم الإشارة التفصيلية إلى رحلته، وذلك لأنه من المستحيل العثور على صفحة واحدة من داوتي أو أحياناً فقرة خالية من هواجسه وشوارده! ليست هناك أيضاً أية إشارة إلى لورانس العرب، لأنه، برغم آثاره، من المستحيل اعتباره بين الرحّالة.

تغطي المختارات في هذا الكتاب، الرمل والمياه، أي جبال الجزيرة وصحاريها الرائعة وسواحل الخليج. وبقدر ما أثارت الرمال مخيّلات الغرب بقدر ما أثار الساحل، من الجهة الأخرى، مخيّلات الغربيين و... جنونهم أحياناً. وقد استطاعت مجموعات صغيرة من بحارة رأس الخيمة والإمارات الأخرى أن تقلق ذات مرحلة الأسطول البريطاني الذي كان أقوى قوة بحرية آنذاك. وقد أثار بحارة الساحل حفيظة الإنكليز لدرجة أنهم أطلقوا عليه اسم «ساحل القراصنة». وحين عقدت قبائله الهدنة معهم عادوا فسمّوه الساحل المتصالح. ويعتبر فيليب غوس (١٩٣٢) أن «الساحل» كان مهد الملاحة في العالم. وبسبب موقعها البحري أصبحت المنطقة أول صلة وصل تجارية بين الشرق والغرب. وكان عرب عُمان أول من بدأ في نقل البضائع القادمة من الهند إلى أرجاء الجزيرة العربية. وثمة إشارة إلى هذا الواقع في حفريّات بابل ونينوى ومصر التي تعيدنا نحو ٧ آلاف سنة إلى الوراء. وقد بدأ عرب الساحل حياتهم صيادين صغاراً ثم أخذوا يبنون السفن أكبر فأكبر إلى أن تجرأوا على الإبحار بعيداً عن اليابسة. ومع حلول القرن التاسع كانت مسقط قد بدأت تتاجر مع كانتون في الصين، وبلغ بحارتها موانىء سيام (بانكوك) وجاوا وسومطرة، وكانوا يحملون معهم إلى الخليج البهارات والبخور والحرير. والعمانيون هم أول من حمل اللبان إلى مصر. أما البضائع التي كانوا

يحملونها من الهند فكانوا ينقلونها عبر الخليج ثم الفرات إلى بابل، حيث تنقلها القوافل من هناك إلى حوض المتوسط. أما القسم الآخر من التجارة البحرية فكان في يد الفينيقيين «الذين على الرغم من أنهم كانوا من أوائل الملاحين فإن العرب قد سبقوهم بآلاف السنين (غوس).

وقبل حوالى ٢٥٠٠ عام بدأت المنافسة بين البحر الأحمر والخليج على نقل بضائع الشرق الأقصى إلى أوروبا. وكانت القبائل البحرية على الساحل العربي كثيرة، لكن أقواها وأشهرها بالتأكيد كانت القواسم، الذين عرفهم الأوروبيون للمرة الأولى حين بدأت سفن البرتغاليين التجارية تصل إلى مضيق هرمز خلال القرن السادس عشر. وما إن بدأت السفن الأوروبية بالوصول حتى بدأت القبائل العربية بمطاردتها في منطقة مليئة بالخيرات والممرّات المائية الجانبية. وكانت النقطة الرئيسية آنذاك في رأس الخيمة، حيث ذاع صيت القواسم للمرة الأولى في العام ١٧٧٨ عندما هاجمت ستة من مراكبهم الصغيرة باخرة إنكليزية طوال ثلاثة أيام ثم أسرتها وأمرتها بالتوجّه إلى رأس الخيمة. ثم كرّر القواسم الهجوم على سفينتين إنكليزيتين في العام التالي. وفي العام ١٧٩٧ لم يكتفوا بالهجوم على البواخر البحرية الإنكليزية بل هاجموا هذه المرة البارجة المسماة «الأفعى». وهي راسية في ميناء بوشهر. كانت البارجة قد رست قرب مجموعة من مراكب للقواسم. فما كان من قائد هذه المراكب إلا أن ذهب إلى البلدة للبحث عن قائد البارجة ومندوب شركة شرق الهند (الحكومة البريطانية) وقدم نفسه إليهما ثم طلب منهما بعض... البارودا وكان له ما طلب. وما إن وصلت كميات البارود إلى أسطول القواسم حتى دُكّت في البنادق وفتحت النار على «الأفعى» التي كان بحارتها في الطابق السفلي يتناولون طعام الفطور. ودارت معركة طاحنة سقط خلالها القبطان الإنكليزي كاروترز وقتل وجرح ٣٢ بحّاراً من أصل ٦٥، لكن المراكب القواسمية تركت السفينة للباقين. واستمرت المعارك بين القواسم والبحرية البريطانية إلى سنوات طويلة لاحقة، إلى أن وقعت معاهدة سلام بين الفريقين في العام ١٨٠٨ سمح بموجبها للقواسم بممارسة التجارة في بعض الموانىء الهندية.

لكن حتى هذه المعاهدة لم تدم طويلاً. وفي وقت لاحق حاول القواسم مهاجمة الساحل الهندي نفسه بأسطول من ٥٠ مركباً. كما استولوا في مناسبة أخرى على سفينة كانت تحمل السفير البريطاني إلى بلاد فارس! وفي النهاية شكل البريطانيون أسطولاً ضخماً في العام ١٨٠٩ اتّجه إلى رأس الخيمة حيث دمّر كل المراكب الصغيرة. لكن بعد حوالى عشر سنوات أعاد القواسم تنظيم قوتهم من جديد ونقلوا هذه المرة نشاطهم إلى البحر الأحمر حيث كانوا يعترضون التجارة بين الهند ومخاوى. ولم

يحسم الأسطول البريطاني الأمر معهم إلا في العام ١٨١٩.

من خلال هذا التاريخ المثير تراكمت الأساطير والحكايات حول الساحل كما حول الصحراء. وأخذ بعض الرحّالة في الوصول إلى جزيرة العرب من أبوابها الشمالية فيما وصل البعض الآخر إلى أبوابها الجنوبية. واجتذبت عدن الأسطول البريطاني والقوات العسكرية كما اجتذبت أيضاً شعراء مثل الفرنسي ارتور رامبو، الذي افتتحت مركزاً باسمه في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤.

لقد سحر الرحّالة بالجزيرة وسحرنا نحن بما تركوه من يوميّات وكتب ومذكرات. وهذا الكتاب لا يدّعي أنه دراسة أكاديمية لهذه المرحلة الأساسية من تاريخ الجزيرة، بل هو مجرّد محاولة في الإجابة عن سؤال بديهي بسيط: كيف جاءوا ولماذا؟!

لندن، شتاء ١٩٩٤.

القسم الأول

قافلة الحب: متى جاؤوا ومن أين؟

كل هذه الأرض، من تدمر والبتراء حتى جدّة أو الحديدة، كان يعرفها العقل الغربي باسم «الجزيرة» أو «بلاد العرب» أو «أرابيا فيلكس»، أي بلاد العرب السعيدة كما سمّاها الرومان. وكانت لدى العقل الغربي الذي عرف القدس وفلسطين وبلاد المشرق منذ الغزوات الصليبية، أوهام وأحلام كثيرة حول هذه الأرض التي لم يدركها إلا في المخيلة: كان هناك الإسلام الذي رأى الغربيون مصبّه في أوروبا لكنهم لم يروا مصدره، وكانت هناك الصحراء، هذا السور الشاعري الكبير، وكانت هناك حكايات الثروات والحدائق الغناء و... «الكثبان التي تغني»! الكثبان الطروب!

لم تكن هناك نظرة غربية واحدة إلى بلاد العرب ولا نظرية غربية متجمّدة. بل كانت المعرفة الغربية للإسلام ترتقي وتتطوّر كلما ازداد بعداً عن العقدة الصليبية والقرون الوسطى وما رافقها من أكاذيب وأساطير وحماقات وأحقاد. ومع هذا التنوّر زادت الرغبة في عبور أسوار الجزيرة. غير أن هذا العبور كان متنوّعاً أيضاً بتنوّع الرغائب والنوايا. كان هناك أصحاب النوايا الرديئة، قبل الرحلة إلى شبه الجزيرة وبعدها. وكان هناك الذين ذهبوا بنوايا سيئة ثم وقعوا تحت نداء الإسلام وسحر الصحراء فأسلموا واستعربوا وأقاموا حتى الموت. وكان هناك الذين ذهبوا، من الأساس وهم مأخوذون سلفاً بما راح مفكرو الغرب الكبار يكتبونه عن انبهار بالرسالة وموطنها. كما كانت هناك فئة ذهبت إلى الصحراء، أو إلى «بلاد العرب»، بحثاً عن أنواع جديدة من الزهور، أو العوسج، أو اللبان.

غير أن النتيجة في ذلك كله كانت واحدة: جيل من الوثائق والرسوم والمفكّرات والحكايات واليوميّات التي كتبها الرحّالة الغربيون على مدى قرن ونصف القرن. لم

تكن كلّها دقيقة، ولم تكن كلّها صحيحة، وكانت كلّها بالتأكيد من وجهة نظر غربية ومن رؤيا غربية للأمور. غير أنها، في غياب الرحّالة العرب والموثّقين العرب في تلك المرحلة كانت شريط الرسوم الوحيد الذي ترك لنا عن طبيعة الحياة في الجزيرة العربية والخليج منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى آخر النصف الأول من القرن العشرين. وليس لمؤرّخ أو باحث أو مواطن أن يفهم وأن يدرك طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية والمعيشية في المنطقة خلال تلك المرحلة، ما لم يقرأ تلك الأوصاف الدقيقة للبيئة البشرية والطبيعية التي كانت قائمة آنذاك.

لقد ذهبوا من كل العواصم، وتحت كل الذرائع. كان بينهم مَنْ أوفدته الحكومات لدراسة طبيعة الأرض. وكان بينهم مَنْ أرسل لدراسة القبائل. وكان بينهم من أُرسل فيما بعد لتقصّي الإمكانات النفطية. وكان بينهم من أُرسل لأغراض سياسية. وكان بينهم ـ بكل مباشرة ـ المعتمدون السياسيون! وكان بينهم النساء اللواتي ذهبن منفردات إلى البادية. وكان بينهم من أُرسل لإثارة الفتن.

وكان بينهم الأبرياء. لكنهم جميعاً تركوا لنا شيئاً اسمه أدب الرحلات إلى الجزيرة العربية، أو ما سوف يعرف في بريطانيا «بنداء الصحراء» أو «جاذبية الجزيرة».

قبل القرن الثامن عشر ليس هناك ما يثبت أن الرحّالة الغربيين وصلوا إلى «بلاد العرب» برغم ما كتبوه. ولعل أول وصف للبدوي في كتاب أوروبي كان ما كتبه السير جون ماندفيل في «أسفار»، وهو عبارة عن جمع لحكايات المسافرين في القرن الخامس عشر. وفي القرن السابع عشر كثرت رحلات المغامرين إلى سورية ومصر وفلسطين، لكن الجزيرة بقيت في منأى. وقد وصف هؤلاء مشاقّ رحلاتهم وعصابات قطّاع الطرق و«الخانات»، أي المنازل التجارية الصغيرة التي كانوا يحلّون فيها، غير أن كل تلك الأمور في ذلك العصر لم تكن مختلفة عما هي في بلادهم.

كان «البدوي» أو «الأعراجي» بالنسبة إلى الرحّالة الغربيين، هو أي عربي يلقونه خارج المدينة. وفي العام ١٦١٢ رسم وليم ليشغو الذي قام برحلة إلى المشرق، رسم للبدوي صورة سوف تظل قائمة في الذهن الغربي إلى أن يقوم فرنسي يدعى «لوران دارفيو» برحلة إلى المشرق على رأس بعثة تجارية أوفدها الملك لويس الرابع عشر فيرسم للمرة الأولى صورة البدوي الفارس التي سوف تسيطر على العقل الغربي منذ ذلك الوقت.

كان دارفيو، الذي سافر إلى فلسطين في العام ١٦٦٤، يجيد اللغة العربية ولذا تنقّل من دون عقبة بين مضارب البدو. وحين نشرت كتاباته في العام ١٧١٨ كانت في

الواقع أول انطباعات لرجل أوروبي عاش حقًّا بين البدو ورأى فيهم «التهذيب أو الصبر والضيافة والجدية»! الآن لم يعد سفر الأوروبيين إلى العالم العربي وحده مسموحاً بل صارت مسموحة أيضاً دراسة اللغة العربية في جامعات أوروبا بعد تلك المرحلة القاتمة التي امتدت من العصور الوسطى إلى القرن السابع عشر. وفي العام ١٦٩٧ سوف يكتب الفرنسي «بارتلميو دربيلو» أن البدوي «يفوق بكثير أهل المدن من حيث الإدارة الصلبة ورفعة النفس»، لكنه استدرك أن العرب من بدو وحضر على السواء «صبورون كرماء يحبون الشعر والفصاحة».

قبل «أسفار عبر فلسطين» الذي وضعه دارفيو كان كل ما تعرفه أوروبا عن البدوي أو «الأعراجي»، نظريًّا، مصدره ترجمات الأدب العربي نفسه أو بعض المؤرّخين اليونانيين. ومن خلال هذه الترجمات تكوّنت لدى المستشرقين الأوروبيين الفكرة بأن عرب البادية أكثر تفوّقاً من الحضر. ويقول الفرنسي داربيلو في كتابه «المكتبة الشرقية» الصادر العام ١٦٩٧ إن «البدوي يتفوّق بأشواط على أهل المدينة في طيبته وفي رقته.

وقد ساهم المؤرخون اليونانيون، مثل هيرودوتس في رسم صورة العربي الفارس. ويقول سترابو إن سكان شبه الجزيرة العربية كانوا الشعب الوحيد الذي رفض أن يوفد سفيراً عنه إلى الإسكندر الكبير. أما هيرودوتس فقال إن أحداً في شعوب العالم لا يحترم وعده مثل عربي الجزيرة. وفي القرنين السابع والثامن عشر بدأت موجة من الإعجاب الأوروبي بالجزيرة العربية والعرب كان مصدرها بالدرجة الأولى انصراف المؤرخين إلى الاهتمام بالتاريخ العربي، وإلى وضع ترجمات كاملة للقرآن الكريم. وفي العام ١٧٣٤ وضع المؤرخ البريطاني جورج سيل ترجمة للقرآن الكريم وتاريخاً للعرب في الوقت نفسه بالكثير من الإعجاب حتى قال النقاد يومها إنه «نصف مسلم». وقال فولتير، لشدة إعجابه بجورج سيل، إن هذا «أمضى ٢٥ عاماً بين العرب»، لكن الواقع أن الرجل لم يغادر بلاده مرة واحدة. إلا أن جورج سيل، الذي يعتبر حتى الآن أحد المراجع الغربية الرئيسية في الموضوع، استند كثيراً في كتاباته إلى أعمال دارفيو، التي أثّرت بدورها على الدانماركي كارستن نايبور الذي سوف نرى أنه أول الرحّالة إلى الجزيرة وأكثرهم رومانسية وصفاء.

لم يكن الفقر الذي يعاني منه البدوي، في رأي نايبور، سوى جزء من نبله وفروسيّته وحبّه للحرية. وفي تلك المرحلة كانت أوروبا معجبة بالمجتمع البدوي المحافظ «الذي لم يتغير منذ الأزل»، بينما كانت أوروبا نفسها تتغير في سرعة وتحبو

نحو الليبرالية. ويقول لنا نايبور إن البدوي بدلاً من أن يحرث الأرض مثل العبيد «كان يفضل شظف العيش والطعام القليل والملبس السيء من أجل أن يظلّ طليقاً».

بدوره تأثر المؤرخ إدوارد غيبون، بما كتبه دارفيو ونايبور فامتدح طويلاً حب البدو للضيافة والشعر وتوقف عند محاربتهم للاستعمار التركي في تلك الأيام: «إن العربي رجل يولد حرّاً». كذلك كان السير وليم جونز، صديق غيبون، أشهر مستعرب في تلك المرحلة.

ويقول جونز، الذي كان من أبرز علماء اللغات في أيامه، إن «العرب هم الأمة الفضلى بالنسبة إليّ». وكتب يصف أهل الحجاز الذين التقى بعضهم في كالكوتا قائلاً إن «عيونهم ملأى بالحياة ولغتهم سهلة وطليقة وسلوكهم رجولي مهذب وفهمهم سريع وعقولهم حاضرة دائماً ومتيقظة».

لم يكن وليم جونز يجهل طبعاً أن العرب لهم، مثل أي شعب آخر، هفواتهم، لكنه لم يكن مستعدًّا أن يترك تلك الهفوات تقلّل من انبهاره بمزاياهم، وأولها ـ كما الأمر بالنسبة إلى غيبون ـ البساطة! وفي المقارنة مع الصراع على النفوذ والسلطة الذي كان قائماً بين الناس في بريطانيا لم يستطع جونز إلا أن يعجب بتقشّف الرجل العربي وشعوره بالحرية الذاتية والكرامة والتفوّق على اليوميّات الصغيرة.

بعض المعاصرين لم يتفقوا مع غيبون أو جونز أو جورج سيل. الاسكتلندي وليم ليشغو لم يَرَ في العربي شجاعة بل حبًا للعصيان. والصحراء لم تهزم، ليس بسبب حب العربي للحرية. والإسكندر الكبير عجز عن دخول الجزيرة في طريق عودته من الهند بسبب العطش والمرض والخداع!

الحسم بين الفريقين، المعارض للأعرابي والمنبهر به، جاء على يد السويسري جان لويس بوركهارت، الرجل الذي رسم عن كثب الملامح البدوية الثابتة: الاعتزاز، والحرية، والضيافة ورهافة النفس! لم يقل بوركهارت أي جديد، لكن قوله كان دقيقاً ووصفه كان مسهباً وأسلوبه لم يكن يقبل الشك. كذلك كان أول أوروبي يرسم صورة مفصّلة للمدينة المنورة ومكة المكرمة في كتاب تلقّفه الأوروبيون في كل مكان. إنه أوائل شهود العيان.

يجب ألا ننسى أن السفر والترحال والاستطلاع كان جزءاً من معالم النهضة الأوروبية في الفكر والفن والأدب، وخصوصاً في بريطانيا. وفي أطروحته الشهيرة عن السفر كتب فرانسيس بيكون أن «السفر لدى اليافعين علم ولدى الكبار خبرة». أما فيريارد فذهب إلى اعتبار السفر واجباً من الواجبات: لقد وضعت الطبيعة الإنسان فوق المسرح من أجل أن يكون ممثّلاً لا مجرّد مشاهد! وانتقد صامويل بوركاس المسافر

السطحي الذي يعود إلى بلاده وليس معه سوى «تعابير سطحية وإطراءات سخيفة، من دون أن يعمّق أكثر معرفته في الله وفي العالم وفي نفسه»! ولم يثق السير هنري بلاونط كثيراً في الرحّالة ولذلك تساءل ما إذا كان الأتراك برابرة حقًّا إلى الدرجة التي يصفها الرحّالة والمؤرخون، أم أنه تحكمهم نوعية أخرى من الأصول التربوية التي تختلف عنا. وقد توصل بلاونط في النهاية إلى قناعة خلاصتها أن تركيا هي رمز الحضارة المعاصرة التي لا بدّ لجميع الباحثين من درس معالمها. وسوف يقول لنا اللورد بايرون فيما بعد إن قراءاته عن الأتراك وهو طفل هي التي حضّته على الحلم برحلة إلى المشرق «وأعطتني على الأرجح هذا اللون الشرقي الظاهر في شعري».

لقد أثارت الإمبراطورية العثمانية الاهتمام أكثر من بلاد فارس ـ تقول ساره سيرايت ـ لأن وجودها كان أكثر أهمية بالنسبة إلى أوروبا. ومعظم العالم العربي آنذاك كان يشكّل جزءاً مهمًّا من هذه الإمبراطورية. وحين أسّس وليم بدويل «مركز الدراسات العربية في إنكلترا» شدّد على أهمية العربية كلغة عالمية في الدين والديبلوماسية والتجارة من الأطلسي إلى بحار الصين. وقد وضع بدويل كتاباً خاصًّا بعنوان «الترجمان العربي» ضمّ فيه كل المصطلحات التي يستخدمها الرحّالة. لكن المشكلة التي لا بدّ من ملاحظتها هي أن معظم المهتمين بالعالم العربي بادىء الأمر كانوا من رجال الدين المسيحيين، الذين غالباً ما أقحموا مواقفهم وعواطفهم في المشاهدات أو الدراسات. وقد تعدّل هذا الأمر، واعتدل أيضاً، مع حلول القرن الثامن عشر، حين أخذ العلماء والدارسون يفصلون بين الخرافات التي «رُكّبت» على العرب وبين الحقيقة التي بدأوا يتعرفون إليها عن كثب.

لن يكون أول رحّالة غربي يتخطى المشرق ليصل إلى الجزيرة العربية نفسها، بريطانيًّا أو فرنسيًّا. لقد كان شابًّا من الدانمارك يدعى «كارستن نايبور»، ترك كوبنهاغن في العام ١٧٦١ مع بعثة علمية مؤلفة من ستة أشخاص، ولم يبق منهم حيًّا في طريق العودة سواه. الباقون قتلهم المرض والتعب في واحدة من أكثر المغامرات مشقّة في التاريخ. أما أعضاء الرحلة الآخرون فكانوا: السويدي بيتر فورسكال وهو عالم نباتات شهير، كريستيان كارل كريمر وهو طبيب دانماركي، غيورغ فيلهلم بورينفانيد وهو رسام ألماني، كريستيان فون هافن وهو دانماركي غليظ الطباع ورئيس البعثة، أخيراً خادم البعثة «برغن».

ما هي حكاية أول رحلة إلى الجزيرة؟ إنها قصة طويلة قليلاً، مثيرة كثيراً، ولا بدّ من تفاصيلها لأنها ترسم لنا، بدقائق مذهلة أو محزنة، صورة الرحّالة ورحلاتهم من الداخل... قبل الوصول وبعد الوصول.

٥ تشرين الأول ١٧٦٢. الدانماركيون الستة مرة أخرى في قارب صغير تحرّكه المجاذيف. خلفهم السويس وأمامهم أربع سفن ضخمة يخفيها عنهم وهج الشمس. إنها السفن التي ستقوم بالرحلة خلال ثلاثة أيام عبر الخليج ثم تبحر من هناك عبر البحر إلى جدّة.

وقف الرجال في القارب الصغير وحولهم الصناديق التي تضم أمتعتهم وأدواتهم! لقد مضى عليهم أكثر من ثمانية عشر شهراً منذ أن تركوا كوبنهاغن في قارب مماثل، ولم يعد أحد يصدّق من مظهرهم الخارجي أنهم حقًّا دانماركيون، فقد حرقت الشمس وجوههم، وأرخى فورسكال ونايبور لحاهما كاملة، وهم جميعاً يرتدون الثوب العربي منذ أكثر من عام.

حتى طباعهم يبدو أنها تغيّرت الآن ولم يعد واحدهم يريد أن يدّس السّمّ للآخر. لقد هدّأ الحرّ فوراتهم العصبية وخفّف من حدّة الألفاظ التي كانوا يتبادلونها. وحتى فون هافن، رئيس البعثة، بدا الآن أن همّه الحقيقي رش طعامه بالبهارات بدلاً من رش صحون رفاقه بالزرنيخ. وفورسكال، الكثير التوتر والعصبية، جعله ملل الأسابيع الماضية في السويس أكثر هدوءاً. وفي أي حال سار كل شيء على ما يرام حتى الآن ولم يسقط أحدهم بالطاعون كما كانوا يخشون، مع أن مرض بورينفانيد أقلقهم بعض الشيء! لقد أدّت إقامتهم في مصر إلى نتائج فاقت كل توقعاتهم، إذ أرسل فورسكال إلى الدانمارك مئات العينات من النباتات وأكمل دراستين، واحدة عن النبات وأخرى عن الحيوان. أما نايبور فقد ملأ ألف صفحة من المعلومات الفلكية المناخية، بالإضافة إلى الخرائط ووصف السكان وعاداتهم، كذلك امتلأت صناديق بورينفانيد بالرسوم فضاقت بما فيها من آلات وألبسة ولوحات. لقد بقي شيء واحد: الرحلة إلى الجزيرة العربية.

لكن لم يعد يفصلهم عنها سوى بضعة أيام، وفي إمكانهم أن يعتبروا الرحلة على الباخرة عطلة قسرية يتمتعون بها. وها هم الآن في الميناء بانتظار الانضمام إلى القافلة البحرية المتجهة إلى الحج. وقد بدا الميناء هذا الصباح أكثر اكتظاظاً بالناس من القاهرة نفسها. رجال ونساء وأطفال من كل الأجناس. الفقراء على عكازاتهم مع خدمهم وحراسهم، وتجار كثيرون، لا فقراء ولا أغنياء تعلموا الاحتماء بالقوافل لنقل بضائعهم إلى مكة. ما إن يلتقي غني وفقير حتى يكون التاجر ثالثهما، يزداد الغني غنى والفقير فقراً.

لقد كانت السويس حلقة من البيع والشراء. والممتلكات تغيّر أصحابها بسرعة:

ماعز وجوار وثياب. وكانت النقود الفضية تلمع في الشمس، فيما تزاحمت وتدافعت ٦ آلاف ناقة وجمل في الشوارع والأزقة، وارتفعت الصناديق، والرزم مثل الجبال فوق أرصفة الميناء، وراح سائقو الحمير يصرخون وهم يضربونها بالسياط. كان الجميع منهمكين في شيء ما.

كان فروسكال قد أقام بعض الصداقات في الميناء وقد حان أوانها الآن، إذ تدخّل ليضمن الحصول على أعلى غرفة في أكبر السفن المتجهة إلى جدة. وكان السفر مقرّراً في الثامن من تشرين الأول/ أكتوبر، لكن الدانماركيين قرّروا ركوب السفينة قبل ثلاثة أيام من أجل التخفي في مقصورتهم بقدر الإمكان. فالحجاج لم يكونوا يستسيغون كثيراً وجود مسافرين أوروبيين بينهم، ولذا ضمن فورسكال لهم مقصورة معزولة قليلاً عن الآخرين! من هذه الغرفة سوف يرسم نايبور أول خريطة مفصلة للبحر الأحمر.

بعد ثلاثة أيام أبحرت السفن «وهي محملة حتى أسنانها»، وعلى ظهر كل منها ٥٠٠ إلى ٦٠٠ شخص، بالإضافة إلى حوالى ٧٢ ملّاحاً معهم زوجاتهم وأطفالهم. وقد احتل المقصورات الفخمة أثرياء أتراك، بينما احتل الدفة الأمامية والخلفية التجّار الذين ناموا وسط صناديقهم، وهناك أيضاً كانوا يتسامرون ويدخّنون النراجيل ويعدّون الأطعمة. وإلى جانب كل سفينة من السفن الأربع ربطت مراكب صغيرة حملت خيولاً وماعز وخرفاناً، كانت ترمى إليها من حين إلى آخر أكياس التبن.

كانت السفن تبحر جنوباً. وبسبب خوف القبطان على أن يضيع ـ يخبرنا نايبور ـ كان الجميع يبحرون دائماً على مقربة من اليابسة. وفي المساء كانوا يرمون المراسي خوفاً من مخاطر الإبحار ليلاً وسط الصخور. بعد ثلاثة أيام وصلوا إلى ميناء طور حيث عُبّئت خزانات السفن بالمياه. وما إن أبحروا قليلاً حتى تنبه أحد الحجاج إلى أن بورينفانيد يقوم برسم إحدى العيّنات التي التقطها فورسكال من البرّ، فسأل بتهكّم ما إذا كانت بلادهم خالية من مثل هذه الأشياء البسيطة حتى تكبّدوا مشاقّ السفر وتكاليفه من أجل ذلك!

غير أن العلاقات بين الدانماركيين والركاب تحسّنت حين تكهّن فورسكال بخسوف وشيك للشمس وصدق توقّعه. وقد ظن الجميع أنه لا بدّ أن يكون طبيباً ماهراً أيضاً «ولذا جاء إليه كل راكب من دون استثناء يسأله عن علاج لما يعاني منه. وأخيراً جاءه رجل مسنّ وقال له إنه لا يستطيع أن يرى في الليل، فنصحه فورسكال بأن يضيء مصباحاً، وأغرق الجميع في الضحك».

في اليوم الرابع «بدا الساحل العربي أمامهم فعمّ السفينة فرح عظيم. لقد تُخُطّيَتِ المخاطر. وبدأ الحجاج في ارتداء أثواب الإحرام. وأطلقت السفينة مدافعها وقرعت الطبول، وسمعنا التجار يطلقون النار من مسدساتهم فرحاً».

في التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ١٧٦٢ رست السفن في ميناء جدّة، وهنا تفرّق الركاب. الحجاج إلى أداء الفريضة المقدسة والدانماركيون إلى المغامرة التي تنتظرهم في أرض اليمن. أمضوا في جدّة ستة أسابيع في انتظار الوقت المناسب لإكمال الرحلة. «غير أن سبب التأخير كان الرياح الشمالية وهكذا فإن سفن شحن البن التي كانت ستقلّنا في المرحلة الأخيرة جنوباً، قد أخّرتها الرياح المعاكسة وهي في طريقها من مخاوى إلى جدة». ويصف الكاتب الدانماركي ثورنكيلد هانسن تلك الفترة بقوله «لم يبدِ أي من أعضاء البعثة أي تذمّر من هذه الإقامة القسرية. إذ بعدما تعرّضوا له في مصر من مضايقات أدهشهم هنا الودّ الذي أظهره الناس. وللمرة الأولى استطاعوا أن يسيروا في الشوارع، وأن يزوروا المقاهي كما يشاؤون. إن العرب لم يعتبروا وجود الأوروبيين بينهم إهانة كما في مصر. بل كانوا على كثير من الوّد وشيء من الفضول. وقد نصب نايبور أسطرلابه في قصر الباشا الذي كانت له اهتمامات فلكية هو أيضاً».

الأسابيع التالية أمضاها نايبور في تسجيل أي شيء يستطيع: التعرفة الجمركية على البضائع ونوعية الصادرات والواردات. واكتشف كيف تخزن المدينة مياهها قرب الينابيع في التلال ثم تُنقل إلى البيوت على ظهور الجمال. وبعد ذلك أمضى الوقت، برفقة أحد الجداويين، في رسم خريطة المدينة. أما الباقون من رجال البعثة فلا كلمة في المذكّرات تشير إلى ما فعلوه خلال هذه الفترة، سوى أن فورسكال كان أحياناً يرافق نايبور إلى الميناء لإحصاء البضائع وأسعارها: الحرير من الهند، العسل والشربات وعصير الشعير من مصر، التنك والفضة وشمع الأختام من أوروبا.

ثم ذات مساء بعد أيام من هبوب الرياح الجنوبية ظهرت السفينة التي ستقلّهم في المرحلة الأخيرة من رحلتهم. إلى اليمن! لم تكن سفينة أو مركباً بالمعنى المعهود بل «طرّاداً» يشبه «برميلاً شُقّ إلى نصفين» ويبلغ طوله حوالى ٤٢ قدماً وعرضه ١٢ قدماً «ولم يكن هناك مسمار حقيقي في الهيكل كلّه بل إن الألواح ربطت بعضها ببعض كما كانت تصنع المراكب الدانماركية القديمة». لم يرد أحد من الدانماركيين أن يقطع مسافة ٤٠٠ ميل بحرية إلى مخاوى في مثل هذا القارب. لكن لم يكن أمامهم خيار آخر. فقد قال لهم الجميع في جدّة إن هذا الطرّاد القادم من مسقط هو الوحيد

الذي يقوم برحلات الشتاء إلى اليمن.

من جدّة حملوا معهم أيضاً رسائل توصية إلى حاكم لوهيا، أول ميناء في الطريق، وأبحروا في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٦٢، يرافقهم هذه المرّة شابٌ من تجّار مخاوى يدعى إسماعيل صالح. كانوا حوالى ٢٠ شخصاً، بين راكب وبحّار، وكانوا يمضون الليل والنهار بلا سقف وسط صناديقهم وأمتعتهم. وفي مقدمة «الطرّاد» كانت هناك موقدة يحضر فيها الطعام والخبز. وذات مرة شكا أحد البحّارة إلى القبطان من أنه يشعر بألم قرب قلبه، فأمسك هذا قضيباً من الحديد وجعل يحميه إلى أن التهب فأمسك به وأحدث ثقبين في صدر البحّار. «وقد شفي البحّار فعلاً لكن الدواء كان أسوأ من المرض».

في الليل كان الطرّاد يرسو خوفاً من مخاطر الإبحار بين الصخور، فيما ينصرف فورسكال إلى جمع الأصداف البحرية أو يراقب حركة الطيور، بينما يرصد نايبور النجوم. وكذلك كان يذهب البعض إلى القرى القريبة لشراء الأطعمة. في التاسع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر لاحت لهم لوهيا من بعيد. إنها أقصى موانىء اليمن إلى الشمال.

كان المدّ عالياً ولم يكن بدّ من الاستعانة بحوالى سبعة مراكب لنقل الأمتعة إلى الميناء. وأرسل قبطان الطرّاد إلى حاكم المدينة يبلغه بوصول المسافرين. لقد مضى عليهم الآن أكثر من عشرين شهراً منذ مغادرتهم كوبنهاغن، قبل أن يصلوا إلى «اليمن السعيد». وها هي المدينة الآن تفرح، أكثر من أي شيء آخر، بوجود طبيب بين أعضاء البعثة وبالأسطرلاب الذي يحمله نايبور. وطوال أيام ظلّ الدكتور كرامر يتفحّص الرجال الذين شعروا فجأة بالتعب أو الإعياء، لمجرّد معرفتهم بأن ثمة طبيباً في المكان.

غير أن نايبور وفورسكال لم يُضيعا أي وقت. فقد بدأ الأول على الفور في كتابة وصف دقيق للمدينة وتاريخها وموقعها وتجارتها، وراح كل يوم يجول في السوق المليئة بالغبار وبيوت القش والأزقة المتعرّجة، حيث يجلس النجّارون والحدّادون القرفصاء. ولم يتعرّض له أحد، بل ترك لشأنه يعمل ومعه الأسطرلاب والبوصلة والأوراق. وكانت الخريطة التي رسمها للوهيا أكثر خرائطه دقة حتى الآن وسوف تتحول إلى النقطة الأساسية في وضع خريطة اليمن.

أما فورسكال فكان مأخوذاً كما في القاهرة، بجمع عيّنات النبات. وقد أخذته رحلاته الاستطلاعية إلى قرية نعمان القريبة ثم توغّل إلى أن وصل إلى «مور» الواقعة «حيث تنتهي الأرض الصحراوية وتبدأ الأرض الخصبة في البلاد». وبعد ذلك بدأ

الدانماركيون يستعدون للرحيل، فقرّروا أن يقدموا إلى حاكم المدينة، «الأمير فرحان» ساعة ومجهراً تقديراً منهم لما قدّمه لهم من مساعدة وقد عرض «الأمير فرحان» أن يزوّدهم بالجمال والحمير في رحلتهم إلى بيت الفقيه، إلا أن البعثة اعتذرت عن قبول العرض «فالرجال لم يأتوا إلى هنا كي يعيشوا على حساب أهل البلاد».

في اليوم التالي ظهر أحد خدم «الأمير فرحان» في باب المنزل ومعه هدية لا تردّ: مهر عربي أبيض رائع! إنه «هدية متواضعة من سعادته إلى صاحب الجلالة ملك الدانمارك».

إنها الصحراء العربية، يقول ثوريكلد هانسن في وصفه لسيرة الرجال: «وفي هذه الصحراء لا مشاكل هناك. الحياة هادئة والناس تستيقظ مع بزوغ الفجر وقبل شروق الشمس. وفي الفجر، قبل أن تظهر الشمس وتشعل النار في ثوب النهار، يكون العربي قد أشعل موقده وتربّع أمامه وراح ينتظر القهوة أن تغلي. ولا تلبث كرة الشمس أن تطلّ فتعلق قليلاً في الأفق ثم تندفع بلا هوادة. لا شيء آخر يحدث. ولا زغردة عصافير تعلن بداية النهار، وصوت الناس هو الصوت الوحيد الذي يخرق ستار الصمت العظيم. كل شيء يبدو وكأنه يحصل لكي يمكّن المرء من التأمّل في حياته بدقة أكبر. لا شيء آخر. صوت الإنسان في الصمت وآثار أقدامه في الرمال».

هذا هو الإطار الذي كان يحيق بالدانماركيين حين انطلقوا في ٢٠ شباط/ فبراير ١٧٦٣ جنوباً نحو سهول تهامة. ولم نعد نرى في المذكرات التي تركوها خلفهم أي ذكر للمهر الأبيض الذي كان مرسلاً إلى الملك فريدريك الرابع، غير أنه لم يكن في القافلة المتّجهة إلى بيت الفقيه، إذ ركب الرجال الحمير ووضعت أمتعتهم على الجمال. وكان أعضاء البعثة يمضون لياليهم في القرى الواقعة على الطريق حيث يستقبلون بذبح الخرفان، بناء للأوامر التي أصدرها الأمير فرحان إلى المرشدين المرافقين. غير أن نايبور، الذي يعرف الآن ماذا يعني الخروف بالنسبة إلى عائلة فقيرة، كان يأخذ صاحبه جانباً ويدفع له ثمن الذبيحة سرًّا.

من أجل أن يحصلوا على أكبر عدد من العيّنات النباتية، سلكوا طريقاً جبلية صعبة بدلاً من أن يأخذوا الطريق الصحراوي المباشر عبر مروة. ولم يصلوا إلى بيت الفقيه إلا في الخامس والعشرين من شباط/ فبراير، فأخذوا أمتعتهم إلى «دائرة الجمرك» وحملوا رسالة توصية كانت معهم إلى «عنبر سيف» أحد كبار تجّار المدينة، الذي استقبلهم بحفاوة فائقة كما فعل أهل لوهيا. وتدبّر التاجر أن تنقل أمتعتهم فوراً من دائرة الجمرك من دون أن تفتح، إلى بيت حجري قدمه لهم ودعاهم إلى العشاء في منزله.

كان «بيت الفقيه» مركزاً تجاريًّا «يقع وسط السهل الرملي على بعد أربعة أيام، في كل اتجاه، من لوهيا أو مخاوى أو صنعاء». وعلى مسافة يوم كانت تلال البن وعلى مسافة يوم ونصف كان ميناء الحديدة على البحر الأحمر. وكان تجّار البن من الحجاز ومصر وسورية وتركيا والمغرب، بل من إيران والهند، يأتون إلى بيت الفقيه لعقد الصفقات. «لكن المدينة لم تكن مدينة غنية فهي عبارة عن بضعة بيوت حجريّة، فيما تعيش أكثرية الناس في بيوت من القش بنيت في الشارع الذي تمرّ به الجمال. وكان كل شيء متوافر في السوق تقريباً، لكن المؤونة من مياه الشرب كانت شحيحة».

إذن، لا شيء سوى موقع البلدة المركزي هو الذي جعل البعثة على الأرجح تقرّر أن تجعلها مقرًّا لها. إذ من هنا يستطيعون الانطلاق في اتجاهات مختلفة. ففيما كان فون هافن وكرامر يقومان برحلات إلى الحديدة، كان فورسكال يذهب إلى التلال المزروعة بشجر البن، أما كارستن نايبور فكان ينطلق إلى الصحراء لجمع المزيد من المعلومات لخريطته الكبيرة عن اليمن.

كان قد بدأ عمله هذا في لوهيا. وكانت طريقته في العمل هنا هي الطريقة التي استخدمها في سيناء من قبل. فقد سار إلى جانب حماره مرات عدّة إلى أن تأكد له أن الحمار يقطع ١,٧٥٠ خطوة مضاعفة كل نصف ساعة. ومن خلا ذلك استطاع أن يحدّد مقياس السرعة، ولم يعد عليه سوى أن يحصي الوقت بين مكان وآخر ويحوّل المجموع إلى خطوات مضاعفة ومن ثم إلى أميال، فتكوّن لديه آنذاك المسافات بين المدن والقرى: أما الاتجاهات فكان يقرّرها بمساعدة بوصلة يحملها في جيبه.

يوماً بعد يوم وميلاً بعد آخر، كان يضيف الجديد إلى خزنة المعلومات التي تحوّلت إلى خريطة هائلة لليمن، وهي الخريطة التي سوف يعتمدها الرحّالة الأوروبيون طوال مائة عام مقبل. وقد قال عنها الرحّالة البريطاني هاريس إنه «من المستحيل أن نعطي خريطة نايبور حقّها». أما البريطاني الآخر غيفورد بالغريف الذي ذهب إلى الجزيرة بعد مائة عام تماماً فقد أهدى كتابه إلى «نايبور الذي كان أول من فتح أبواب الجزيرة العربية أمام أوروبا».

أمضى نايبور الأشهر التالية في عمل دؤوب. وبسبب الحرّ الشديد في تهامة كان يقوم برحلاته إلى الصحراء في الليل، لكن حين تبيّن له أن الرصد صعب في الظلام أخذ يتنقّل مع مرشده العربي خلال النهار. وكانا يمضيان الليل متلحّفين بثيابهما وفي الفجر يقومان إلى عملهما: «وقد مرّت الأيام واحدة لا تتغير تحت سماء لا تتغير ورمال لا تتغير وقرى متشابهة لا يتغير فيها سوى اسمها». وفي ١١ آذار/ مارس غادر بيت

الفقيه إلى الحديدة للمرة الأولى حيث وجد أن كرامر وفون هافن «سمحا لنفسيهما بأن يمضيا الوقت في ضيافة أثرياء المدينة» فما كان منه إلا أن غادر، هذه المرة في اتجاه زبير!

كان الربيع الآن قد غمر الصحراء «كانت بطون الأودية قد غطيت كلها بأعناق الزهر الصغير». وقد انتهى نايبور الآن من مهامه جنوب بيت الفقيه وبدأ رحلاته إلى الشمال في اتجاه كحمه. إنها أجمل أوقات يقضيها في ربيع تهامة منذ أن ترك كوبنهاغن. وها هو يشعر بغبطة شديدة في عمله وعزلته الصحراوية إلى درجة يتوقف معها لتسجيل وصفها في مفكرته:

«لم أقم بأي استعدادات كبرى من أجل هذه الاستطلاعات. لقد استأجرت حماراً ينقلني ومعي كيسي الصغير وفيه بعض الأغطية والكتب. وكانت ثياب السفر تتألف فقط من لفة للرأس وعباءة بلا كمين وزوجين من النعال. ومع أنه لم يكن هناك خوف من التعرّض لهجمات السارقين، فقد كنت أحمل السلاح في مثل هذه الرحلات، وهو عبارة عن مسدسين إلى وسطي وسيف معلّق في كتفي. أما صاحب الحمار، الذي كان في الوقت نفسه مرشدي وخادمي ويتبعني سيراً على قدميه، فقد كان يحمل سيفاً وترساً بالإضافة إلى خنجره العريض. وكان معي سجادة قديمة أستخدمها في النهار كسرج وفي المساء كطاولة وكرسي وفي الليل كفراش. أما الشال الكبير الذي يستخدمه العرب للوقاية من أشعة الشمس فقد كنت أتلحّف به ليلاً. وكان ضروريًّا أن نحمل معنا مطرة مصنوعة من الطين تعلّق بطرف السرج. ولو كنت عربياً لأخذت معي أيضاً الخدري، أو غليون التبغ، في كيس صغير من الجلد، غير أنني استطعت الاستغناء عنه لأنني عوّدت نفسي ألا أدخّن كثيراً. كذلك أخذت أعوّد نفسي منذ فترة على أن أعيش على الطريقة العربية ولذا لم تكن بي حاجة إلى سكين أو شوكة أو ملعقة. وكل من يكتفي بالسفر بهذه الطريقة ويرضيه ألاّ يكون لديه في المساء أكثر من قطعة من خبز الذرة وشيء من القهوة، سوف يعرف مثلي متعة السفر في اليمن، إن العرب الأثرياء يسافرون طبعاً مع خدمهم وبطريقة مختلفة. غير أن المسافر الثري ليس في أمان مثل الرجل الذي لا يملك شيئاً».

ألاّ تكون أحداً وألاّ تملك شيئاً! هذا هو تعريف نايبور للحياة في الصحراء!

بينما كان كارستن نايبور يطلع إلى الصحراء، كان فورسكال، في هذا الشهر من آذار/ مارس ١٧٦٣ يطلع إلى التلال المليئة بأشجار البن. وهذه الفترة سوف تكون بالنسبة إليه أيضاً أسعد وقت يمضيه منذ أن ترك كوبنهاغن. مثل نايبور أيضاً كان معه

دليل يمني وقد أمضى الوقت في رحلات طويلة إلى قرى الهادي وبلقوس ومكاجا وقسمة. وكان الطقس هنا أفضل بكثير منه في جفاف تهامة، كما كانت العيّنات النباتية أكثر وفرة وتنوّعاً. وكانت جوانب التلال مليئة بالغابات الكثيفة وفي وسطها عثر على أودية كثيرة وأشجار لم يعرفها من قبل. وكان أن ذهب يستنشق روائح البن من الأشجار المبرعمة في هذا الفصل.

وفي إحدى عوداته القصيرة إلى بيت الفقيه وصف لرفاقه جمال المنطقة بحيث إن كرامر وبورينفانيد قرّرا الذهاب معه. وقد رسم الأول لوحات عديدة للقرى الجبلية ومزارع البنّ. وحين عاد نايبور إلى بيت الفقيه وجد مقرّ البعثة خالياً فسرعان ما أسرج ولحق برفاقه. ورحب بهم اليمنيون ترحيباً شديداً، غير أن الشكوك ساورتهم. إذ ماذا جاء هؤلاء الأوروبيون يفعلون هنا وهم ليسوا من تجّار البنّ! وكيف يمكن للمرء أن يتكبّد كل هذه المصاريف من دون أن يأمل بأي ربح! إذن، راحت الإشاعات تقول، هؤلاء رجال يصنعون الذهب. وما الرحلات التي يقوم بها فورسكال إلى التلال كل يوم إلا من أجل العثور على عشبة يستخرج منها الذهب! ولهذا السبب أيضاً يقوم نايبور بدراسة النجوم كل ليلة لأنه يعرف في السحر.

غير أن البعثة الدانماركية لم تعثر على الذهب في اليمن. لقد عثرت فقط على المصالحة بين رجالها الذين ما برحوا يتقاتلون مذ غادروا بلادهم! وحين عادوا بعد أيام ممتعة إلى بيت الفقيه، راح نايبور يعمل في خريطته من جديد. وكان لا يزال عليه الآن أن يحدّد المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من البلدة، ولذا اقترح على فورسكال أن يقوما معاً بالرحلة إلى تعز الواقعة في التلال على مسيرة خمسة أيام من بيت الفقيه، خصوصاً وأن فورسكال أصبح على معرفة باللهجة المحلية التي تختلف عن اللهجة السائدة في تهامة.

انطلقا على حمارين. فورسكال يجمع المزيد من العينات ونايبور يجمع المزيد من المعلومات لخريطته. وكانا يسجلان في الوقت نفسه درجات الحرارة لمعرفة الفارق بين مناخ التلال ومناخ الصحراء حيث كان بورينفانيد يسجل الحرارة في الوقت نفسه في بيت الفقيه! وكانا يجوبان الأسواق في كل القرى ويحسب الجميع بأنهما «من الشام» حيث كان يمكن أن يكون المرء في تلك المرحلة تركيًا أو يونانيًا أيضاً.

كانا يسيران من الفجر دون توقف، وفي الليل ينزلان في أحد «بيوت القهوة» التي كانت هناك أقل نزلاء منها في تهامة. وهنا أيضاً كان العشاء «في معظم الأحيان شيئاً من خبز الذرة الذي أبقيناه معنا منذ البارحة وشيئاً من قهوة القشر. غير أن مثل هذه

الوجبة، بعد عناء النهار، كانت أطيب من أي عشاء في أوروبا».

مرّت الأيام من دون مفاجآت إلى أن خطر لهما أن الحدث الأكبر قد وقع. كانا عائدين من تعز وجبلة إلى بيت الفقيه في الرابع والعشرين من نيسان/ أبريل حين لمح فورسكال فجأة على تلة قريبة شجرة مليئة بالبراعم. ترجّل عن حماره واتجه نحوها وما إن اقترب حتى أصيب بنوبة من الفرح. إنه ينظر الآن إلى أهم اكتشاف طبيعي يمكن أن يحققه خلال الرحلة كلها. إنها شجرة «بلسم مكة»!

وما إن عاد إلى بيت الفقيه حتى سارع يكتب إلى جامعة أبسالا فرحاً باكتشافه الكبير «الآن أخيراً عرفت شجرة البلسم. إن الشجرة تنمو في اليمن لكن السكان لا يعرفون كيف يجمعون البلسم منها. إنني لا أستطيع أن أكتب التفاصيل عن اكتشافاتي في رسالة خاصة (بسبب المنع الحكومي) لكنني أؤكد لك أنها البلسم. كذلك عثرت هنا على كثير من النباتات الهندية والأميركية. إنه لبلد حري حقًّا ببعثة علمية وهذا المشروع سوف يكون أكبر تقدير للبروفسور ميكاييلّس، لكن إذا لم يقدر لي أن أعيش وأن أصحب التفاصيل معي فإن العلم سيخسر الكثير».

استغرق وصول الرسالة والغصن المقطوع من قرية «عودا» إلى جامعة أبسالا (السويد) عاماً كاملاً. لكن في الوقت الذي وصلت فيه كانت أشياء كثيرة قد تغيّرت «وكان العلم قد خسر الكثير». لقد بدأت الأشياء تتغيّر في «اليمن السعيد» بالنسبة إلى البعثة الدانماركية. ففي ذلك اليوم، الرابع من نيسان/ أبريل ١٧٦٣، أصيب نايبور بنوع من الحمى وأخذت الحرارة تعاوده كل يوم بحيث لم يعد يستطيع أن يدوّن شيئاً. وقد عاد نايبور وفورسكال في السادس من نيسان/ أبريل إلى مقرّ البعثة في بيت الفقيه ليجد أنباء سيئة في انتظارهما: كان فون هافن طريح الفراش ويبدو أن مرضه خطير هذه المرة. يروي نايبور ما حدث:

«لدى وصولنا إلى بيت الفقيه وجدنا الهر فون هافن مريضاً، وبدا أنه يشكو من ألم شديد في الأمعاء، وكان يتذمر أكثر من أي وقت مضى من الطريقة التي نعيش بها في البعثة. إننا نعيش على الماء وقهوة القشر منذ فترة. والمياه سيئة جدًّا في معظم أنحاء تهامة وقد حذرنا السكان هنا من مغبّة أكل الكثير من اللحوم. وهم يعرفون جيّداً كيف يتجنّبونها ويأكلون أطعمة أخرى. غير أن طبّاخنا لم يكن يجد شيئاً سوى اللحم يعدّه على الطريقة الأوروبية، ولذا كنا نأكل اللحم يوميًّا تقريباً في المقرّ وهذا ما أثّر كثيراً على صحتنا، وخصوصاً الذين منّا لم يأتوا بتمرينات كثيرة مثل الهر فون هافن».

هكذا كانت الحال في الأسبوع الأول من نيسان/ أبريل. لقد انتهى الربيع في تهامة

ونايبور وفون هافن طريحا الفراش. وقد أيقن الجميع الآن أن عليهم أن يغادروا بيت الفقيه إلى مكان أفضل وفي أسرع وقت ممكن، لكن أحداً لم يستطع أن يشخّص بدقة المسألة الأساسية. فقد اعتبر نايبور أن نوبات البرد التي يصاب بها ليست سوى أعراض زكام، وأن الآلام التي يشعر بها فون هافن سببها كثرة اللحوم. الحقيقة لم تكن هذه ولا تلك. كانا مصابين بالملاريا.

ذلك الربيع أيضاً خلا بيت الفقيه من عالم يقول للبعثة الإسكندنافية إن الأفضل عدم القيام بالرحلة إلى مخاوى! كانت المسافة من بيت الفقيه إلى لوهيا ومخاوى وصنعاء، كما ورد سابقاً، شبه متساوية. والآن انتهت البعثة تماماً من استطلاع منطقة لوهيا. وبالتالي حين قرّرت الانتقال من بيت الفقيه إلى مكان أفضل لعلاج مرضاها كانت أمام خيارين: إما الذهاب إلى العاصمة صنعاء الواقعة في التلال الخصبة أو الاتجاه إلى ميناء مخاوى! وقد اتخذ الرجال القرار الخاطىء.

كانت البلاد على حافة الصيف. وخلال أسابيع سوف يتحوّل هذا الربيع الجميل إلى موقد حار وسوف تكون بلدة مخاوى خليطاً من الحرّ والرطوبة، خالية من «نسمة من الريح ومياه الشرب النظيفة». أما في صنعاء المرتفعة فقد كان يمكن أن يعثروا على الهواء العليل والحدائق الفسيحة المظلّلة والآبار النظيفة. إذن، لا بدّ من الذهاب إلى صنعاء أولاً ومن ثم الذهاب إلى مخاوى في الخريف كما يفعل أهل البلد أنفسهم. لكن البعثة بالإجماع، ومن دون أي نقاش للمرة الأولى، قرّرت الذهاب إلى مخاوى، منطلقة من بيت الفقيه في العشرين من نيسان/ أبريل.

كان فورسكال ونايبور يسافران نهاراً على الحمير، الأول لجمع الأزهار، والثاني لجمع معلومات الخريطة. وكانت بقية البعثة تتبعهما ليلاً على ظهور الجمال. كان الحرّ هائلاً والمقياس الذي يحمله فورسكال يسجّل ١٠٠ درجة فارنهايت بلا انقطاع. وكان كل ما حولهم جفاف ورمل ولا نبات ولا قرى، بل هنا وهناك وأحياناً قافلة تحمل الملح من الساحل إلى الجبال. وكالعادة كانوا يقضون الليالي مفترشين الأرض في «بيوت القهوة» الواقعة على الطريق.

استمرت نوبات البرد تضرب نايبور ولم يعد قادراً على حمل أسطرلابه فراح يحمله الآخرون. وفي ليل الثالث والعشرين وصلوا إلى المدينة، حيث سيعرفون الفصل المأساوي الوحيد في كل إقامتهم «السعيدة». ففي مخاوى كان ينتظرهم إسماعيل صالح، الشاب الذي رافقهم من جدّة قبل ستة أشهر والذي يتحدث شيئاً من الهولندية. ولحظة وصولهم أبلغوا أيضاً أن ثلاثة تجّار إنكليز سبقوهم إلى البلدة. وها هم يحتارون

الآن، مساعدة من يطلبون أولاً، التجار الإنكليز أم إسماعيل صالح. بالإجماع، قرّروا الذهاب إلى إسماعيل صالح.

فرح الشاب أيّما فرح للقياهم. وقد فوجىء هؤلاء الإسكندنافيون الباردو الطباع حين علموا «أنهم أعزّ أصدقاء لديه». وعلى الفور وجد لهم منزلاً يبيتون فيه ودعاهم إلى العشاء في بيته حيث قدم لهم بعض الشراب مع أنه رفض مشاركتهم. وبدأت تصرفات إسماعيل صالح تثير الشكوك لديهم. لماذا أرادهم أن يشربوا؟ لماذا ينصحهم بعدم السفر إلى صنعاء المليئة «بالقساة والأفظاظ» ولذا من الأفضل لهم البقاء في مخاوى!

التفاصيل التي تبعت، كما أوردها نايبور في مذكراته، مؤلمة ومضحكة معاً. كان كل ما يريده إسماعيل صالح هو شيء من المال، لكنه بسبب ذلك استعدى عليهم البلدة كلها. وحين فتح رجال الجمارك صناديق البعثة وعثروا فيها على عيّنات الزهر والنبات استشاطوا غضباً، وقالوا إن الذي يجمع مثل هذه الأشياء بهذه العناية مجنون أو مخبول أو أن هدفه السخرية من حاكم المدينة ورجال الجمارك!

وساءت الأمور أكثر حين عثر رجال الجمارك على أفاع صغيرة محفوظة في أنابيب زجاجية. عندها لم يبق شيء خافياً: «لقد جاء هؤلاء الأوروبيون إذن لتسميم أهل اليمن، ولهذا السبب ادّعى أحدهم أنه طبيب لأن ذلك يمكّنه من تطبيق خطته الشريرة». وعندما علم حاكم المدينة بالأمر قرّر ألاّ يبقي هؤلاء الشياطين ليلة واحدة داخل الأسوار. وهاج الحاضرون في بيت الجمرك ورموا الأوروبيون خارجاً من دون أن يسمحوا لهم بأخذ أي شيء من أدواتهم وأمتعتهم. وفي هذه الأثناء جاء خادم البعثة «برغن» مهرولاً. فقد اقتحمت جماعة أخرى البيت الذي تدبّره لهم إسماعيل صالح ورمت خارجاً كل أدواتهم وكتبهم وأكياسهم! وهرع فورسكال وكرامر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وما إن وصلا حتى أدركا كل شيء! إن وراء كل ما يحصل هو «أعزّ أصدقائهم» إسماعيل صالح.

وأسرع فورسكال إلى بيت إسماعيل صالح فوجد أنه قد اختفى ولا أُحد يعرف أين هو. وراح الأوروبيون يطوفون البلدة بحثاً عن منزل يبيتون فيه، لكن أحداً لن يقبل بهم. لقد عرفت البلدة كلها بما حدث في الجمارك ولن يؤجّر أحد منزله إلى أناس يحملون السموم! وكانت الصبية تلاحقهم في الشوارع كيفما ذهبوا وتنهال عليهم بالإهانات. وفي النهاية مرّوا ببيت قاضي البلدة فسمع شكواهم وطلب من أحد السكان أن يؤجّرهم منزله. وفي أثناء ذلك أيضاً وصلتهم دعوة إلى تناول العشاء لدى التجّار الإنكليز القادمين من بومباي.

صباح اليوم التالي ظهر إسماعيل صالح من جديد وهذه المرة أبلغهم أن الطريقة الوحيدة للحصول على أمتعتهم هي إرسال هدية إلى الحاكم قدّرها هو بخمسين «دوكت» أو حوالى ٢٠٠ غرام من فضة، وهو مبلغ ضخم جدًّا في تلك الأيام. وهكذا كان. وبعد ذلك تغيّرت الأشياء كثيراً. ففي صباح اليوم التالي تلقّت البعثة خروفين وكيساً من الأرز. وأعيدت إليهم الصناديق من الجمرك من دون أن تفتح، وسمح للدكتور كرامر بمعالجة الحاكم الذي يعاني من ألم في قدمه. ومن جديد استأنف فورسكال عمله برغم الحرّ الشديد وراح يسجّل كل شيء عن النبات وعن تجارة الذهب والعاج مع الحبشة ودون أسعار المرّ واللبان واكتشف أن اليمنيين مهتمون بتجارة الحديد والفولاذ والبنادق! كان فورسكال الآن يقوم بأعمال جميع الخمسة الآخرين، فيما تدهورت حال فون هافن ونايبور أكثر فأكثر. وقد وجد نايبور في نفسه القوة لأن يصف أيام فون هافن الأخيرة:

«إن حالة الهر فون هافن الصحية التي كانت مصدر قلق في بيت الفقيه، أخذت الآن تسوء أكثر فأكثر. إنه يشعر بشيء من التحسّن في المساء، خصوصاً عندما يتمشى قليلاً في الهواء البارد، لكنه لم يعد يستطيع تحمل قيظ النهار. وفي ليل ٢٢ و٢٣ أيار/ مايو نام على السطح وشعر بانتعاش حقيقي بسبب النسيم. لكن في الليلة التالية كان الهواء قويًّا لدرجة لم يجرؤ معها على البقاء خارجاً، لأنه لم يتعوّد النوم ووجهه مغطى مثل العرب. وليل ٢٤ و٢٥ من أيار/ مايو غامر مرة أخرى بالنوم على السطح. وصباح اليوم التالي شعر ببرد وإعياء شديدين لم يستطع معهما التحرك فحمله خادمان إلى فراشه. وخلال النهار أخذ يزداد وهناً وفي الثامنة بدا وكأن نبضه توقّف تماماً، لكن عندما فتحنا أحد شرايينه عادت إليه قواه قليلاً. وبعد ساعة كتب وصيته. وبعدها أخذ يهذي بصوت مرتفع، أحياناً بالعربية، وأحياناً أخرى بالفرنسية أو الإيطالية أو الألمانية أو الدانماركية. ومن ثم دخل في نوم عميق أو بالأحرى في غيبوبة ومات حوالى العاشرة».

لقد شعرت البعثة بمزيج من الارتياح والحزن لوفاة فون هافن! إنه الكسول الوحيد الذي سمّم أجواء الرحلة منذ بدايتها. وفي حين كتب نايبور الوصف الوارد أعلاه، فإن فورسكال وصف وفاة رئيس البعثة بالأسطر القليلة التالية: «لقد توفي أحد أعضاء بعثتنا، البروفسور فون هافن، في ٢٤ أيار/ مايو وبوفاته أصبحت أعمال البعثة أكثر سهولة بما لا يقارن. لقد كان ذو طبع حاد جدًّا»! لكن لمرّة نادرة أخطأ فورسكال في تقدير الأشياء. إن مهمتهم لن تصبح أكثر سهولة، وبعد شهر واحد سيكون هو، بيتر فورسكال، فقيد البعثة الثاني.

شعر نايبور بخوف حقيقي. فهو كان يعرف في داخله أنه يعاني من المرض نفسه الذي مات به فون هافن لكن الله وحده توفى رئيس البعثة قبله. وباستثناء فورسكال، فإن الحرّ شلّ تحرّكات الباقين جميعاً. وكانوا إلى الآن يجدون بعض السلوى برفقة التجّار الإنكليز، لكن ماذا بعد أن تبحر السفن الإنكليزية المسلحة الراسية في الميناء؟ وهكذا خطرت لفريق منهم فكرة السفر بينما أصرّ الفريق الآخر على البقاء. وكتب نايبور أن «فريقاً يريد أن نغادر مخاوى إلى الهند مع الإنكليز في منتصف آب/ أغسطس ومن هناك نبحر إلى لندن، أما الفريق الآخر فيريد أن نذهب إلى صنعاء ونبقى عاماً آخر هناك».

في النهاية اتفقوا على تسوية: يذهبون أولاً إلى صنعاء ثم يعودون قبل أن تبحر السفن الإنكليزية بعد شهرين! أيضاً، كان القرار خاطئاً. إنهم لا يعرفون أن الملاريا ستقوم بالرحلة معهم الآن، وأنه من الأفضل لو أنهم ذهبوا إلى برودة صنعاء من بيت الفقيه من دون أن ينهكوا أنفسهم بالرحلة إلى مخاوى، والآن بالرحلة منها!

أكثر من ذلك فإن الحاكم لن يسمح لهم بمغادرة مخاوى لأن قدمه لا تزال تؤلمه. وقد شرح له كرامر بأنهم في حاجة إلى مناخ أكثر اعتدالاً بعدما فقدوا أحد رفاقهم والثاني صار على شفير الموت. غير أن الحاكم لم يقنع، قائلاً إن عليهم أن ينتظروا في أي حال وصول الأذن لهم بالسفر من الإمام في صنعاء. وهنا اقترح فورسكال أن ينتظروا إذن السفر في تعز، لكن الحاكم لم يقتنع، وأخيراً اقترح كرامر أن يذهب رفاقه ويبقى هو لمعالجة الحاكم.

غير أن صدفة عجيبة حسمت الموضوع حين وصل إلى البلدة طبيب جوّال ادّعى أنه يستطيع أن يشفي قدم الحاكم خلال أيام قليلة، وهكذا سمح لهم الحاكم بالسفر وزوّدهم بخادم ورسالة توصية إلى زميله في تعز. وهكذا تركوا الجزء الأكبر من مالهم في حوزة التجّار الإنكليز، وأخذوا معهم بعض معداتهم واتجهوا في التاسع من حزيران/ يونيو ١٧٦٣ إلى صنعاء، عاصمة اليمن السعيد.

قطعوا المراحل الأولى من الرحلة ليلاً بسبب الحرّ. وبعد ليلتين وصلوا إلى قرية «موسى» حيث تحوّلت الطريق من رملية إلى حجرية فلم يعد بإمكانهم السير في الظلام. وحتى في النهار كانت الطريق وعرة تزداد خطراً مع هبوب العواصف وهطول الأمطار التي تحوّل الطرقات إلى أنهر. وفي المقابل هبطت الحرارة إلى النصف تقريباً، وتغيرت طبيعة الأرض ولاحت لهم في الأفق حقول الذرة، وأصبح بإمكانهم الآن التفيؤ في ظلّ أشجار التين خلال النهار وفي الليل يأوون إلى «الخانات» الواسعة مع جمالهم.

وبسبب أهمية الوقت، كانوا يحاولون قطع المسافة بأكبر سرعة ممكنة. وفي ١٣ حزيران/ يونيو وصلوا إلى مدينة تعز المرتفعة، فاستقبلهم الوالي بمزيج من الترحاب والحذر! لقد بلغته إشاعات تقول إن الصناديق التي معهم مليئة بالأفاعي. ويلاحظ نايبور في مذكراته أن «الأخبار تنمو على هواها في بلاد العرب»! مرة أخرى تولى فورسكال، الذي يجيد العربية، تطمين الوالي الذي قدّم لهم منزل أحد اليمنيين الذي أدخل السجن ذلك النهار وأرسل إليهم نعجتين وكيسين من الطحين!

وفي المقابل قدمت البعثة إلى الوالي لفة من القماش الهندي حمله الخادم «برغن» غير أن خادم الوالي اعترضه في الباب وقال إنه لن يسمح له بالدخول ما لم يعطه «بقشيشاً» ما. فما كان من برغن إلا أن قال له إنه إذا كان الخدم في البلاد يتبادلون الرشاوى فلا بدّ أن يأخذ هو أيضاً شيئاً ما لأن الوالي سوف يحمله هدايا إلى البعثة. وهكذا ضحك الحارس اليمني وتركه يذهب.

بدا وكأن الأشياء تتغيّر في تعز. وبدلاً من قيظ مخاوى فهي تمطر هنا كل يوم. وسجل نايبور أن الحرارة القصوى في تعز لم ترتفع عما هي الحرارة الدنيا في مخاوى، وانصرف الجميع إلى أعمالهم بنشاط، يجمعون العيّنات ويرسمون خريطة المدينة الواقعة في سطح جبل «صبر» الذي يقول سكان المنطقة إن فيه كل أزهار العالم. لكن الوالي لم يسمح لفورسكال بالذهاب إلى ذلك الجبل، فهو على خلاف مع قبيلة تسكن هناك ولا يريد المزيد من المشاكل، فإذا قتل فورسكال فإن الوالي سيقع في ورطة كبرى مع الإمام في صنعاء، أما إذا عاد سالماً فإن المدينة سوف تسخر من أن أوروبيًّا استطاع التجوّل حيث لا يجرؤ جنود الوالي على الدخول! لذلك اكتفى فورسكال بالذهاب إلى جبل آخر من جبل سوراق لكنه عاد بعد ثلاثة أيام لأن القرى كانت كلّها مهجورة بسبب قتال بين القبائل وبالتالي لم يكن بإمكانه العثور على الطعام! غير أنه من رجعته ذهب إلى الوالي وأخذ يطلب إليه بإلحاح السماح له بالذهاب إلى جبل «صبر» إلى أن كان له ما أراد، في الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو، فاستعد للسفر مع نايبور صباح اليوم التالي.

فيما كانا يحزمان الحقائب دخل عليهما الخادم ـ أو الرقيب ـ الذي أرسله معهم والي مخاوى، معلناً أن أوامر سيده تقضي بأن يعودوا إلى هناك. اعترضا فابتسم. وصباح اليوم التالي وجد أفراد البعثة الجمال تنتظر في باب الدار. غير أن فورسكال أصرّ على مقابلة والي تعز قبل التحرك لقناعته بأن الخادم يكذب. وفي اليوم التالي ذهب إلى مقابلته فسمع الأوامر واضحة: لا جبل صبر ولا تعز ولا صنعاء! العودة إلى مخاوى خلال ١٢ ساعة.

لكن ما إن حزموا أمتعتهم من جديد واستعدوا للانطلاق حتى دخل عليهم مبعوث جديد يحمل رسالة أحضرت من والي مخاوى. إنه يبلغهم، ببساطة، أن سيده الإمام يطلب منهم السفر إلى صنعاء من دون أي تأخير ومعهم كل الأشياء النادرة التي جمعوها في لوهيا ومخاوى! غير أن والي تعز أصرّ على أن يعودوا إلى مخاوى. وأسقط في يدهم. إلى من يلجأون هذه المرة والرجل يرفض أوامر رئيس الدولة نفسه! مرة أخرى قرّر فورسكال اللجوء إلى القاضي العادل فذهب إليه وعرض عليه الأمر فما كان منه إلا أن كتب رسالة إلى الوالي يعلمه فيها أنه ليس بإمكانه مخالفة أوامر الإمام في صنعاء. بعد ساعات جاء جواب الوالي: كل ما في المسألة سوء تفاهم انتهى! لكن بعد يومين جاء إلى البعثة رجل آخر ومعه رسالة جديدة من الوالي: المغادرة فوراً والتوجه إلى مخاوى.

مرة أخرى أيضاً لجأ فورسكال إلى القاضي. غير أن القاضي كان قد علم سلفاً بالأمر وعرض على فورسكال الرسالة التي كتبها إلى الوالي «لا تظهر طمعاً أمام هؤلاء الأغراب لأنهم ضيوفنا»! كان جواب الوالي فوريًّا: سوء تفاهم! وخوفاً من أن يغيّر فكره مرة أخرى سارع الدانماركيون إلى حزم حقائبهم وصرفوا الخادم ـ الرقيب من دون أي حساب للمضاعفات. وأعدّ فورسكال كل شيء بنفسه وبعد ظهر اليوم التالي كانوا على استعداد للسفر إلا واحداً: بيتر فورسكال!

لقد فاجأته الملاريا من دون إنذار. وفيما حمّلت الإبل في الخارج كان هو يرقد أزرق الوجه يتلوى من الألم والحمى! وقرر نايبور أن لا حلّ أمامهم سوى تأجيل السفر، لكن فورسكال اعترض بلا هوادة: لا بدّ من صنعاء! وحمله خادم القاضي وخادمه إلى ظهر حماره حملاً، وكان يطبق يده على كتاب توصية أعطاه القاضي موجه إلى الإمام في صنعاء. وكان القاضي مقتضباً في رسالته كالمعتاد: «لا تصدق أن هذا الرجل ينوي أي شرّ»!

بدأت القافلة الصغيرة في قطع المسافة ميلاً بعد ميل. لكن ببطء. إذ مع المساء الأول لم يكونوا قد وصلوا إلا إلى فندق خارج أبواب تعز. وفي الأيام التالية جعلت الأمطار الغزيرة سيرهم بطيئاً، وبعد أربعة أيام لم يكونوا قد بلغوا أكثر من قرية «آب» وازدادت حالة فورسكال سوءاً فازدادت مسيرتهم بطءاً، ونزلت بسرعة القافلة من ٦٠ ميلاً في النهار إلى ثلاثة أميال. وفي ٤ تموز/ يوليو توقفت القافلة في «خان» في قرية منسيل أملاً بأن يلقى فورسكال بعض الراحة، فكان أن عادت نوبات الحرارة تهاجم نايبور أيضاً. واقترح سائقو الجمال الانتقال من هذا المكان المعزول إلى قرية «يريم».

فقرّر نايبور أن يسبق رفاقه بينما بقي فورسكال في منسيل ومعه برغن وكرامر الذين انتظروا وصول الجماليْن. لكن النهار انتصف ولم يطلّ أحد إلى هذا المكان الذي لا طعام فيه لإنسان أو بهيمة. ولذا كان عليهم التحرك فوراً إذا كان لهم أن يصلوا إلى يريم قبل الغروب. غير أن آلام فورسكال كانت فظيعة لدرجة أنه لم يعد من الممكن وضعه فوق ظهر الحمار، ولذا وضع على الجمل وربط ربطاً إلى الهودج.

يصف هانسن تلك المرحلة بقوله «تحركت القافلة، خطوة خطوة مباشرة ضد أشعة شمس الظهيرة، صعوداً في الجبل وهبوطاً من الجبل، عبر طريق من الألم، حيث كان كل مشهد يتبدّى مشهد ألم وكل شجرة تنمو شجرة ألم. ومن السماء الصافية راحت أشعة الشمس الاستوائية المحترقة تختلط بنيران الألم في جسد الرجل المريض. وعندما ركض نايبور المرتعد لملاقاتهم خارج قرية يريم، لم يستطع التعرف إلى صديقه المريض. فقد كان بيتر فورسكال مرميًا مثل خرقة من القماش فوق ظهر الجمل الذي امتلأ بآثار القيء. وكان وجهه أزرق مليئاً بالألم غير قادر على النطق، لكنه كان لا يزال في وعيه».

أكملوا الطريق ببطء إلى الخان في يريم حيث كان من المستحيل أن يعثروا على غرفة لأنفسهم فقبلوا النوم في الغرفة العامة التي كانت مكتظة بالناس. وسرعان ما تحلّق حولهم الفضوليون وراحوا يمطرونهم بالأسئلة. وقرّر نايبور أن الحل الأفضل هو استئجار بيت في هذه القرية الصغيرة فطلع إليها وراح يقرع المنازل واحداً واحداً، إلى أن عرض أخيراً على أحد المالكين أجراً كبيراً وعثر على منزل يقضي فيه فورسكال نحبه.

وعاد إلى الخان فحمل فورسكال على سرير مع رفاقه واتجهوا به إلى المنزل فيما لحقت بهم جماعة من الفضوليين ترشقهم بالحجارة. وأغلقوا المنزل دونهم لأيام لا يجرأون على الخروج إلى أن أخذ نايبور يذهب إلى السوق لشراء بعض الحاجيات. وصباح العاشر من تموز/ يوليو ١٧٦٣ مات بيتر فورسكال عن واحد وثلاثين عاماً. ومات معه كنز من اكتشافات ذلك الوقت، ولم يبق له سوى زهرة «فورسكالا» التي حملت اسمه بعدما عثر عليها في الإسكندرية.

أدت وفاة فورسكال إلى تأخير البعثة أكثر فأكثر. لم يعد هناك الآن سوى شهر واحد قبل إبحار السفن الإنكليزية من مخاوى، في حين أن الرجال لم يقطعوا سوى نصف المسافة إلى صنعاء. وها هم الأربعة الباقون الآن يكملون الرحلة عبر الجبال. يرافقهم، هذه المرة، الخوف. فإذا كان المرض قد فعل بفورسكال ما فعل، وهو أقواهم، فماذا

سيحلّ بهم إذن! إن نايبور يعاني من نوبات الحرارة منذ أشهر، ومنذ أيام أخذ «برغن» وبورينفانيد يشعران بالأعراض نفسها أيضاً. حتى ستعلن الحرارة هجومها الأخير؟ اليوم؟ غداً؟

كانت وفاة فورسكال خسارة فادحة بالنسبة إلى نايبور بالذات. فقد كان أقرب أعضاء البعثة إليه، وكان الأكثر أهمية في البحث العلمي، كما كان هو المحاور الحقيقي مع أهل البلاد. والآن لم يبق معه سوى كرامر وبورينفانيد، وكلاهما أكبر منه سنًّا وضعيف ولا يجيد العربية تماماً. وأخذ القلق يساور نايبور من أن أحداً منهم لن يعود. وفي هذه الحال ماذا يحصل للأوراق والأبحاث، وبينها سبع مخطوطات وضعها فورسكال وحده، بالإضافة إلى مفكرته التي ملأت ألف صفحة حتى الآن، وكذلك الرسومات التي وضعها بورينفانيد للمدن والقرى والألبسة والأزهار! من سيأخذ كل هذه الأشياء إلى كوبنهاغن «إذا» لم يبق أحد منهم على قيد الحياة؟

بدأت خطى نايبور تتعثّر وصار يهمل أكثر فأكثر تدوين الملاحظات. وحين وصل إلى قريتي حذافة وظفار لم يتوقف لتسجيل الكتابات الحميرية الموجودة هناك. ولما وصلت البعثة إلى قرية زمار استأجرت بيتاً لمدة شهر من أجل تمضية ليلة واحدة، ومع ذلك رشق منزلهم بالحجارة. وفي الثالث عشر من تموز/ يوليو اشتدت وطأة المرض على برغن فتركوه لمصيره ومضوا، وسط العواصف والسيول تحرق الحمى المرتفعة أجسادهم. ثم في السادس عشر من الشهر تغير الطقس فجأة وأشرقت الشمس وأخذوا يمرّون بطرق مليئة بكروم العنب وبساتين المشمش. منعطف آخر انفتح المشهد أمامهم. توقف الرجال الثلاثة وراحوا يتأملون الوادي وبيوته والدخان يتصاعد من المواقد فيختلط بالغمام المعلّق فوق التلال. ومضى وقت قبل أن يصدق المسافرون أعينهم. إن ما يرونه ليس تخيلات الحمى ولا سراب. إنها صنعاء، عاصمة اليمن السعيد، التي وصلوها بعد عامين ونصف العام من السفر.

كان نايبور وكرامر وبورينفانيد لا يزالون يرتدون الأثواب العربية التي اشتروها في مصر والتي أصبحت الآن مهترئة وممزّقة، ومع وجوههم التي ضربها المرض حتى العظام، بدوا الآن مثل لصوص جائعين. ولذا اتفقوا على أنه ليس من اللائق الدخول إلى صنعاء بهذه الثياب، فدخلوا إلى نزل قريب وارتدوا ثياباً تركية كانوا قد اشتروها في اسطنبول، ثم نزلوا الجبل إلى المدينة. وما هو إلا قليل حتى جاء إليهم على ظهر فرس رجل أنيق اللغة والملبس، فتوقف أمامهم وقدم نفسه: إنه كاتب الفقيه أحمد، وزير الدولة. وأبلغهم أن المدينة تنتظر وصولهم منذ فترة طويلة وأنه عندما سرت الإشاعة من

اقترابهم طلب إليه الإمام الذهاب للترحيب بهم وإبلاغهم أنه وضع منزلاً في تصرّفهم يبقون فيه ما يشاؤون.

تلك الليلة نام الدانماركيون للمرة الأولى منذ فترة طويلة في أسرة حقيقية. وفيما جلسوا يحتسون القهوة صباح اليوم التالي وصلت إليهم هدايا الإمام: ٥ نعاج، ٣ جمال محملة بالوقود للمطبخ، كمية من الشموع، أكياس من الأرز وجميع أنواع الخضار. وأبلغوا في الوقت نفسه أن الإمام لن يستطيع استقبالهم قبل يومين لأنه مشغول في دفع الرواتب لقواته! ويرتعد نايبور في مذكراته من التأخير خوفاً من أن تسبقه السفن الإنكليزية، لكن من غير اللائق أيضاً التنقل في صنعاء قبل مقابلة الإمام، مما يعني يومين من دون عمل. غير أن الراحة أفادتهم قليلاً وارتفعت معنوياتهم، ثم فرحوا فرحاً شديداً حين وصل «برغن» من زمار، فاغر العينين منهك القوى. لقد قطع المسافة وحيداً لأن الناس كانت تخاف الاقتراب منه.

ارتفعت معنويات الرجال من جديد: «منذ فترة طويلة لم نعرف مثل هذا المسكن. كان البيت مليئاً بالغرف المريحة ومحاطاً بحديقة تحتوي كل أنواع الأشجار المثمرة. كانت حديقته على الطريقة العربية مليئة بالنوافير والبرك، حيث يفضل المرء التفيّؤ في ظل الأشجار بدلاً من المشي».

بعد ذلك بيومين استقبلهم الإمام. جاء كاتب الفقيه أحمد إلى المنزل ورافقهم إلى القصر الذي كانت ساحته مليئة بالخدم والموظفين والخيول. ثم جاء أحد مرافقي الإمام وفتح أمامهم الطريق. تقدم نايبور الأربعة لأنه كان يجيد العربية. وقد وصف الاستقبال بالأسطر التالية:

«تم اللقاء في قاعة ضخمة مستطيلة الشكل، مقوّسة السقف. وكان في وسطها بركة تعلو نافورتها ١٤ قدماً، وخلف البركة منبر وخلف المنبر منبر أعلى عليه عرش الإمام. وكانت أرض القاعة، فوق المرتفع وتحته، مغطاة بالسجاد العجمي. أما العرش نفسه فكان مقعداً مربعاً مغطى بالحرير ووضعت عليه ثلاثة مساند ضخمة الواحد وراء الآخر، إلى جانب الإمام وقد صنعت كلها من القماش الثمين. وكان الإمام يجلس على العرش متربعاً على الطريقة الشرقية، يرتدي قميصاً أخضر واسع الكمين ويعلّق في صدره سلسالاً عريضاً من الذهب. وكان يقف أبناؤه إلى يمينه وأشقاؤه إلى يساره، فيما وقف أمامه وزير الدولة الفقيه أحمد وعلى مدى القاعة وقف وجهاء البلاد صفًّا واحداً حتى الجدران.

«أُخذنا مباشرة إلى الإمام لكي نقبّل يده. اليمنى، راحة، وقفا، وكذلك ثوبه حيث

يتدلى تحت الركبة. وإنه لأمر عادي بالنسبة إلى أهل البلاد لكنه شرف عظيم لأجنبي أن يعطى يد الإمام يقبّلها. وكان صمت تامّ يسود القاعة، لكن في اللحظة التي كان أحدنا يلمس يد الإمام كان يعلو صراخ يبدو أنه يعني «حفظ الله الإمام»، وكان الحاضرون يردّدون هذا القول بكل ما يملكون من قوة. ولا أُخفي أنني شعرت بشيء من الرهبة وأنا أتقدم لكي ألقي كلمات الشكر بأفضل ما أملك من اللغة العربية، خصوصاً حين علا الصراخ وأنا ألمس يد الإمام. غير أنني استعدت جأشي بسرعة ورحت أصرخ بدوري كلما لمس أحد رفاقي يد الإمام».

وجد كارستن نايبور صعوبة في فهم لهجة أهل صنعاء، ولذا أوتي بمترجم خلال محادثاته مع الإمام. ولم يدخل كثيراً في التفاصيل حول شرح أهداف البعثة، لكنه قال إنه دانماركي، وإن البعثة سافرت عبر البحر الأحمر لأنها أقصر طريق إلى مستعمرة ترانكيبار الدانماركية، ولم يذكر له شيئاً عن وفاة زميليه أو ما تعرّضوا له في يريم وزمار، لكنه عرض على الإمام والفقيه أحمد بعض الرسوم والخرائط وأخيراً قدّم لهما بعض الهدايا من الساعات والجواهر، وحين عاد الرجال إلى البيت وجدوا لكل منهم كيساً يحوي ٩٩ كوماسي.

بعد اللقاء مع الإمام سمح للدانماركيين بالتنقل بحرية في المدينة وانصرف نايبور فوراً إلى إكمال خريطته وسط حشود من الناس تحلّقت حوله، وبعد الانتهاء من الخريطة نزل إلى السوق وراح يسجّل أنواع البضائع الموجودة: وقود، فحم حجري، حديد، عنب، ذرة، زبدة، الملح والخبز، الذي تبيعه النساء كما هي العادة في معظم الجزيرة. وكانت هناك أيضاً سوق أخرى تستبدل فيها الثياب القديمة بثياب جديدة وتعرض فيها بضائع تركية وفارسية وهندية. كذلك كانت هناك أعشاب وعقاقير وثمار مجففة كالإجاص والمشمش والخوخ والتين، وفي تلك السوق أيضاً شاهد نايبور دكاكين الحدادين والإسكافيين والخياطين والبنائين ومجلدي الكتب والخطاطين. وفي كل مكان شاهد الخضار على أنواعها كما استطاع أن يحصي ٢٠ نوعاً من العنب.

لقد تخطّت عاصمة اليمن السعيد كل توقعاتهم ـ يقول ثوركيلد هانسن ـ «إنها جنة على الأرض. وأكثر من ذلك فإنهم بعد اللقاء مع الإمام أخذوا يلقون الترحاب الشديد من جميع الشخصيات البارزة. لم يعد أحد يطلب منهم المال أو يرشق نوافذهم بالحجارة وها هو الإمام نفسه يدعوهم للبقاء عاماً كاملاً في صنعاء ضيوفاً عليه». لقد كانت صنعاء الهدف الأساسي لرحلتهم، وماذا يضيرهم أن يبقوا عاماً كاملاً هنا ما داموا قد أمضوا عاماً في القاهرة. وبعد عام من الآن تكون السفن الإنكليزية قد عادت إلى

مخاوى فيبحرون عليها إلى الهند ومن هناك يعودون إلى بلادهم عبر ترانكبار! لكن برغم ذلك لم يتردّد نايبور في الاعتذار عن قبول دعوة الإمام. وقد برّر قراره في مفكرته بخمسة أسباب: وفاة رفيقيه وتعذّر الأبحاث بعدهما. وثانياً لقد استكمل هو خريطة اليمن. ثالثاً سمع كلاماً كثيراً عن أن الإمام قد يغيّر موقفه. رابعاً لم يرد الوقوع فيما تعرّض له في تعز ومخاوى. خامساً كان يخشى تأثير المناخ على صحة الرجال.

الواقع أن السبب الحقيقي الوحيد هو الخوف من أن يلقى ميتة فون هافن وفورسكال من دون أن يستطيع الطبيب كرامر المساعدة في شيء. فقد كانوا يدركون أن المرض نفسه يسري في دمائهم، وإذا ما قضوا في صنعاء فلن يبقى من يحمل أبحاثهم إلى كوبنهاغن ويذهب كل شيء سدى. وكان الخطر واضحاً في أي حال: نايبور لا يزال يشعر بالتعب وبورينفانيد لم يستطع أن يحمل ورقة وقلماً منذ أسابيع وبرغن تضربه الحمى، بالإضافة إلى أن كرامر بدأ يشعر «ببرد غريب» منذ وصولهم إلى صنعاء.

كان يفترض أن تبحر السفن الإنكليزية في منتصف آب/ أغسطس واللقاء مع الإمام تم في ١٩ تموز/ يوليو، أي لم يبق أمامهم سوى ١٤ يوماً من العمل على الأكثر. والآن كان هناك المزيد من التأثير. فقد حرص الإمام على أن تكون حفلة الوداع مثل حفل الاستقبال. ولم تكن هديته هذه المرة نقوداً بل عباءات من النوع الذي يرتديه نبلاء البلاد، بالإضافة إلى جمال وحمير ومبلغ من المال. لكن وسط بهرجة الحفل أصيب نايبور بنوبة من الحمى فاستأذن الإمام وخرج قليلاً يتقيّأ في الظلّ.

بدلاً من أن تنطلق القافلة في ٢٠ تموز/ يوليو انطلقت في السادس والعشرين منه. وهذه المرة كان على نايبور أن يتخذ قراراً صعباً آخر: إما أن تسلك البعثة الطريق الرئيسية عبر تعز، أو أن تأخذ الطريق الأكثر وعورة والأقل أهلاً عبر جبال مفحك وصمفور إلى بيت الفقيه. وانتقى نايبور الطريق الثانية مفضّلاً إياها على الدخول في متاعب جديدة مع الوالي في تعز ويريم! وهكذا الرجال الأربعة المصابون جميعاً بالحمى، السباق مع الزمن في أكثر الطرقات وعورة التي عرفها نايبور طوال الرحلة. كانت السيول تهطل من جديد والجمال تتعثر في الأرض الموحلة. وفي ٣٠ تموز/ يوليو وصل الرجال تقريباً إلى قرية هلسي حين توقف سائق الجمل الأول معلناً أنه من المستحيل عليهم المضي قدماً، بعدما جعل المطر أحد الجداول الصغيرة يرتفع إلى مستوى الأنهر. وحين وصلت بقية الجمال قال سائقوها أيضاً إنه لا بدّ من التوقف لأن لا طريق أخرى إلى بيت الفقيه ولا بدّ من العودة إلى صنعاء.

كان مستحيلاً على نايبور أن يلغي كل شيء في مثل هذه البساطة، فطلب من الجمالين أن يأتوا بالحجارة من حافة الجبل وسد الجدول بها فرفضوا قائلين إن الأمر سوف يستغرق يومين على الأقل. ولم يبق أمام الدانماركيين سوى أن يقوموا بالأمر بأنفسهم! وانصرف الرجال الأربعة إلى جمع الحجارة طوال بعد الظهر فلمّا رأى الجمالون عنادهم أخذوا يساعدونهم حتى استطاعت الجمال في المساء أن تمرّ، فوصلوا صمفور بعد الغروب. وفي هذه الفوضى أضاع نايبور بوصلته. وفي اليوم التالي انهمرت السيول من جديد وتعين عليهم أن يعبروا نهر «سيحان» ١٢ مرة!

اليوم التالي كان الأول من آب/ أغسطس ولم يكونوا قد قطعوا ثلث المسافة إلى مخاوى. وقرّر نايبور أن الحل الوحيد هو خفض فترات الاستراحة والإسراع في السير. مساء ذلك اليوم وصلوا إلى بيت الفقيه. لقد خرجوا الآن من منطقة المطر لكنهم دخلوا المنطقة الحارة. وفي الثالث من آب/ أغسطس وصلوا إلى بلدة زبيد حيث أعطاهم الوالي مؤناً وجمالاً أخرى غير متعبة. وفي الرابع من الشهر وصلوا إلى قرية المساجد على الساحل حيث «شاهدنا البحر الأحمر أكثر احمراراً» لكن برغم التعب الذي حلّ بهم لم يرتاحوا سوى قليل ثم أكملوا المسير نحو مخاوى فوصلوها في الرمق الأخير وتطلعوا بلهفة إلى السفن الإنكليزية فرأوا أنها قد أبحرت!

لكي نعرف السرعة التي عاد بها الدانماركيون يجب أن نقارن الإياب بالذهاب: الرحلة إلى صنعاء استغرقت ٣٨ يوماً بينها ١٦ يوماً من المسير. الرحلة من صنعاء استغرقت تسعة أيام، برغم الطريق الأطول والسيول والأنهر! إلا أن الثمن كان باهظاً: المزيد من الإعياء والمزيد من الحمى. وبعد أربعة أيام من العودة كان الأربعة طريحي الفرش. ويعتني بهم واحد من التجّار الإنكليز الذي لم يسافر مع الآخرين ويدعى «سكوت». كذلك طمأنهم سكوت إلى أن السفينة الرابعة لم تبحر بعد وهي ستعود من جدة في الأسبوع الأخير من آب/ أغسطس.

وبالفعل، في العشرين من الشهر كانت السفينة ترسو من جديد في مخاوى. وفي اليوم التالي كانت تبحر والأربعة على متنها! نايبور كان الوحيد القادر على الوقوف، أما الثلاثة الآخرون فحملوا إليها حملاً. في السادس والعشرين اختفى الساحل العربي والساحل الإفريقي من خلفهم. وشعر نايبور بشيء من التحسّن لكن الآخرين ظلّوا يعانون من الحمى والإعياء. وفي التاسع والعشرين من الشهر مات الرجل الثالث، الرسام بورينفانيد. وفي اليوم التالي مات خادم البعثة «برغن».

أبحر كارستن نايبور وكارل كرامر وحيدين في صيف المحيط الهندي! اثنتا عشر ساعة من الشمس واثنتا عشرة ساعة من الظلام. وكل مساء، في الساعة نفسها تقريباً

يغور النهار في قلب الليل في أفق مخضب، بلا غسق. لحظة فإذا كل شيء ظلام. ولا أشعة قمر ترتمي فوق سطح المياه.

في اليوم التالي يتكرّر كل شيء من جديد. الصيف والأمطار الموسمية والدفئة التي تكاد تحترق تحت أقدام البحارة. إنها تهب نصف العام من الجنوب الغربي والنصف الآخر من الشمال الشرقي، كأنها تتأرجح بين آسيا وإفريقيا! في ١١ أيلول/ سبتمبر ١٧٦٣ وصلت السفينة إلى بومباي وعليها الرجلين المريضين اللذين عثرا فوراً على طبيب إنكليزي. واستطاع نايبور الاتصال بتاجر دانماركي في كالكوتا حمّله الصناديق التي تركها فورسكال لكي ينقلها إلى كوبنهاغن عبر ترانكبارا، وراح ينتظر في بومباي نهاية الأمطار الموسمية لكي يبحر هو وكرامر إلى لندن. ولكن في العاشر من شباط/ فبراير ١٧٦٤ مات آخر رفاق نايبور. لم يترك نايبور أي تفاصيل عن موت كرامر سوى القول إنه في هذا النهار «غادر هذا العالم الموقت». أما كرامر نفسه فقد قام بكل تلك الرحلة من كوبنهاغن إلى بومباي من دون أن يكتب كلمة واحدة أو رسالة واحدة.

أمضى نايبور الأشهر التالية وحيداً في بومباي، يرسم المدينة ويجمع المعلومات عنها، في انتظار أن تتحسّن صحته، وأن تنتهي الأمطار الموسمية، وأن يعثر على السفينة المناسبة. وفي الثامن من كانون الأول/ ديسمبر ١٧٦٤ أبحر نايبور، ومعه خادم دانماركي تعرّف إليه في بومباي، على متن بارجة إنكليزية صغيرة متجهة إلى مسقط.

هذه المرة كان عليه أن يدرس، في الطريق من بومباي إلى مسقط، لماذا النجوم تبدو في اسكندنافيا أكثر لمعاناً مما هي في الشرق! لكنه اكتشف أن النظرية غير صحيحة، وأن العكس هو الصحيح. وكان في النهار يستلقي على ظهر السفينة يصغي إلى رتابة المياه ويراقب جيوش أسماك القرش الصغيرة تلتطم بها.

في الرابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر وصلت السفينة إلى مسقط لكن تيّاراً قويّاً دفعها حوالى ٤٥ ميلاً نحو الساحل الصخري الخطر، وفي اليوم التالي هبّت عليها رياح عاصفة وراحت الأمواج تضربها ولم تستطع الوصول إلى ميناء مسقط قبل الثالث من كانون الثاني/ يناير ١٧٦٥ حيث رست قرب المراكب العمانية المحملة تموراً والتي يتألف معظم ملاحيها من المرتزقة الفرنسيين.

أمضى نايبور أسبوعين في مسقط يجمع المعلومات لخريطته لكن حالته الصحية لم تسمح له بالتوغل في عمان. وفي ١٨ كانون الثاني/ يناير أبحر على سفينة إنكليزية جديدة متجهة إلى «بو شهر» في فارس. وبعد حرّ الصيف في المحيط الهندي بدأ نايبور الآن يواجه الطقس المتقلّب المزاج في الخليج: هدوء شديد يعقبه عصف هائج! ثم يكتب الأسطر التالية عن مروره بالبحرين، وجزيرة فيلكا في الكويت:

«يقال إن جزيرة البحرين كانت مكتظة بالسكان في الأزمان الغابرة بحيث إن بإمكان المرء أن يحصي آثار ٣٦٥ قرية ومدينة. أما الآن فليس هناك سوى مدينة واحدة تقوم فيها بضع قلاع، ولم أستطع أن أحصي أكثر من ٥٠ قرية معظمها فقير جدًّا. أما القرى والمدن الأخرى فالأرجح أنها هجرت خلال الحروب الكثيرة التي فرضها الغرباء على الجزيرة. غير أن صيد اللؤلؤ لا يزال شهيراً هنا. وعلى مسافة قريبة من هنا ينابيع مياه عذبة تحت الأرض وتحت مياه البحر. وإلى الشمال تقوم جزر غير مأهولة كذلك تقوم على مسافة قريبة من مدينة الكويت جزيرة غير مأهولة تدعى فيلودجي (فيلكا) وقد جاء معظم سكانها من البحرين وهم يعيشون على الصيد. وجميع السكان من العرب».

من هناك ذهب نايبور إلى شيراز وبيرسيبوليس، إلى أن نراه على ظهر سفينة صغيرة مبحرة إلى البصرة في ٣١ تموز/ يوليو حيث راح يسجّل أسماء جميع القرى التي مرّ بها. وفي البصرة ذهب فوراً إلى القنصل الهولندي لكي يتسلّم منه المبلغ الذي أرسل إليه من الدانمارك. لكن بعد ذلك اختفى فجأة كل أثر لكارستن نايبور.

كانت العواصم الأوروبية تتتبّع بلهفة أخبار البعثة الدانماركية، عن طريق الرسائل التي تصل إلى كوبنهاغن بواسطة المسافرين. وفي ٣ شهر حزيران/ يونيو ١٧٦٥ نشرت صحيفة «اوتريشت غازيت» نبأ وصول نايبور إلى بو شهر «لقد وصل إلى هنا عالم دانماركي ينوي أن يكمل سفره إلى بغداد وديار بكر وحلب. وهذا العالم هو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من بعثة أرسلها قبل ٥ سنوات جلالة ملك الدانمارك لاستطلاع ساحل الجزيرة العربية والبحر الأحمر».

لكن ها هي أوروبا تفقد الآن كل اتصال مع المسافر الذي كانت تتبّع أخباره. ومنذ أن غادر البصرة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٦٥ وحتى السادس من حزيران/ يونيو ١٧٦٦ لم يشاهد ـ أو يشاهده ـ أي أوروبي. وكان في البصرة قد خلع الثياب الأوروبية التي ارتداها في بومباي وعاد إلى ارتداء الثوب العربي. ثم ذهب خطوة أبعد في تحقيق رغبته الجامحة بأن يعيش كعربي وهو أمر لم يفعله من قبل بسبب الخوف من رفاقه! لقد غيّر اسمه من كارستن إلى عبدالله. وعاش طوال ستة أشهر مثل أي عربي آخر، لا يعرف أحد، حتى خادمه، هويته الحقيقية.

بعد ذلك تجنّب أي عمل يمكن أن يكشف هويته. وقلّت التقارير التي كان يرسلها إلى الجامعة في كوبنهاغن وازدادت اقتضاباً، وقد ضاع منها ما ضاع في الطريق أو تأخر سنوات في الوصول. غير أن المذكرات التي تركها خلفه أضاءت كل شيء. فهو

قد ترك البصرة إلى بغداد في قارب عبر الفرات. وبعد شهر وصل إلى بلدة «اللملوم»، فملّ من طول الطريق وقرّر أن يقطع المسافة برّا برفقة أحد العلماء. ويروي أنه استأجر حصاناً من أحدهم واتجه شمالاً إلى مشهد علي ومن هناك إلى الحلّة على ظهر حمار ثم تحوّل إلى كربلاء ومن هناك عاد إلى الحلّة مع قافلة من الحجّاج. ولعله كما يقول المؤرخون الغربيون أول مسيحي دخل إلى النجف الأشرف.

وبعد بغداد توجه نايبور مع إحدى القوافل إلى سورية. وفي ١١ نيسان/ أبريل ١٧٦٦ نراه فجأة في الموصل مع أكبر قافلة ينضم إليها مذ كان في مصر. وكانت هذه مؤلفة من ٢٠٠٠ ناقة وجمل وبغل وحصان بينها ١٣٠٠ جمل محملة جوزاً من شمال العراق و١٢٠ جملاً محملة حريراً من الهند وبلاد فارس وأغطية من بغداد و٤٥ جملاً محملة بالبن اليمني. وكان عدد المسافرين ٤٠٠ بالإضافة إلى قوة من ١٥٠ جندياً استأجرهم التجّار لحماية القافلة. وفي ٢٥ نيسان/ أبريل وصلت القافلة إلى بلدة «ماردين» حيث قرّر التخلّف عن القافلة وبعدها بأسابيع قليلة اتجه مع قافلة أخرى إلى ديار بكر حيث التقى الفرات مرة أخرى فبقي ثمانية أيام انتقل بعدها إلى حلب التي وصلها في ٦ حزيران/ يونيو ١٧٦٦! هنا ينتهي «عبدالله» ويعود نايبور إلى الرواية من جديد، فيلتقي الأوروبيين ويذهب إلى القنصل الهولندي للحصول على بعض المال، ثم يتحول إلى بطل أسطوري تتشوّق الناس إلى سماع روايته عما حدث له وللرفاق!

لم يقرّر نايبور الراحة بعد: من حلب اتجه إلى قبرص حيث «وجد الجزيرة في حالة حرب أهلية». فغادرها بعد ثمانية أيام على ظهر سفينة فرنسية متجهة إلى يافا، ومنها انتقل إلى القدس وعكا وصيدا فدمشق حيث وضع خريطة العاصمة السورية، وبعدها عاد إلى طرابلس، ثم أبحر منها إلى اللاذقية، ومن ثم مرة أخرى إلى حلب التي غادرها في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٦٦ إلى تركيا بادئاً طريق العودة إلى بلاده.

بعد عام تماماً، في ٢٠ تشرين الثاني ١٧٦٧ وصل كارستن نايبور إلى كوبنهاغن. لقد انتهت أول رحلة أوروبية معروفة إلى شبه الجزيرة العربية وانتهت معها إحدى أكبر معالم السفر في التاريخ!

كذلك سوف ينتهي، كما سنرى، عصر القادمين إلى الجزيرة العربية من أجل البحث عن شجر اللبان أو الأزهار أو رصد الفرق بين لمعان النجوم في الغرب وبين لمعانه في سماء الشرق الصافية الزرقاء، بعد نايبور ورفاقه بدأ عصر المغامرين ورجال السياسة، وقد كان هناك الكثير. منهم من ترك لنا من الحقائق ما يكفي ومنهم من ترك الغموض والمزيد من الغموض. لكن الأكيد أنهم جميعاً لبّوا، في شكل أو في آخر،

نداء الصحراء، والأكيد أيضاً أن معظم هؤلاء الرجال ـ والنساء ـ أحبوا الصحراء أكثر مما أحبوا بلادهم.

كانت الجزيرة العربية حتى وصول نايبور خليطاً من الأساطير والحقائق لدى الغربيين ورغم خيالها الخصب وجدت هذه الأساطير من يضيف إليها حين أكد الألماني ارنولد فون هارف أنه زار الجزيرة في العام ١٤٩٦ على سفينة صنعت من دون مسامير... لأن الصخور المغناطيسية ابتلعت كل معدن! كذلك شاهد فون هارف، في عرض البحر، معركة طاحنة بين وحش اللوثاين الهائل وبين حوت ضخم «وكان للوثاين أربعة أقدام لها مخالب مثل مخالب الغرفين (نصف نسر نصف أسد) كما كانت له أجنحة مثل الطير يقفز بها عالياً فوق المياه». كذلك كان له ذنب غليظ طويل يضرب به بوحشية وفاه ضخم وأسنان هائلة، وهكذا فهو إذا استخدم مخالبه الطويلة وأسنانه الحادة وذنبه الغليظ استطاع أن يدمي الحوت. لكن الأشياء سرعان ما تغيرت حين ابتلع الحوت ثلاثة أطنان من المياه ونفخها في وجه عدوه فأرداه!

تبدأ الأشياء في أن تصبح خيالية أكثر في العام ١٥٠٤ حين تدخل أول سفينة برتغالية إلى البحر الأحمر. وبعد عامين بنى البرتغاليون قلعة في سوقطرة. وفي آذار/ مارس ١٥١٣ وصل الفونسو دالبوكيركي الكبير إلى عدن التي وصفها بأن فيها بيوتاً جميلة كثيرة تحميها سلسلة من الجبال وفي قمة كل جبل قلعة.

حاول دالبوكيركي عبثاً خرق أسوار عدن، ولما فشل قرر أن ينفذ خطتين بديلتين إحداهما: تحويل النيل إلى البحر الأحمر... لكي يترك القاهرة من دون نقطة مياه!

في العام ١٥٣٨ وصل إلى عدن أسطول تركي كان أول ما فعله هو دعوة سلطان المدينة إلى مأدبة على السفينة الكبرى، لكنه ما إن وصل إلى ظهرها حتى شنق هناك. وبعد ذلك بقليل أصبحت المنطقة تحت الحكم العثماني بقيادة باشا، مركزه صنعاء.

هذا الوالي سوف يرى بدوره، أول أوروبيين يصلان إلى حضرموت. وكان هذان الكاهنان اليسوعيان بدرو باييز وانطونيو دي مونيشرات. وقد أُرسلا في العام ١٥٩٠ من غوا إلى الحبشة، لكن بسبب القتال حول سيادة البحار بين الأتراك والبرتغاليين، قرّرا أن أسهل طريق يسلكانها هي عبر البصرة وحلب إلى القاهرة ومن هناك نزولاً في النيل. وقد انتحلا صفة رجلين أرمنيين ولما وصلا إلى هرمز عثرا على مركب وعدهما صاحبه بنقلهما مباشرة إلى إفريقيا، لكنهما اعتقلا قرب جزيرتي كوريا وموريا. ويقال إن أي أوروبي آخر لم يصل إلى صنعاء عبر تلك الطريق قبل الثلاثينات من هذا القرن. وقد بقيا في اليمن حوالى ٥ سنوات إلى أن دفعت ريثهما. وبعد البرتغاليين بقرن كامل وصلت

إلى المنطقة أول سفينة بريطانية في العام ١٦٠٩ وقد استقبلت ـ كما روى جون جوردان أحد ركابها ـ بقرع الطبول ونفخ الأبواق وأسكنوا في منزل ما لبث أن تحوّل إلى سجن لهم. ويروي جوردان أن حاكم المدينة كان يونانيًا أرعن، وأنه اقترح عليهم إنزال بعض حمولة السفينة فلما فعلوا صادرها على أنها جزء من الجمرك المطلوب. وبعد محاولات كثيرة يسمح اليوناني لجوردان بالذهاب إلى الوالي التركي في صنعاء للشكوى، لكن خلال المقابلة طلب جوردان منه الإذن بفتح مكتب تجاري، فوعد بأن يسأل رأي اسطنبول في الأمر!

بعد عام من مغادرة جوردان لميناء مخاوى وصل إلى هناك أسطول تجاري بريطاني آخر بقيادة السير هنري ميدلتون. وكان اليوناني الأرعن لا يزال هناك. وما إن نزل البحارة الإنكليز ورحب بهم حتى انهال جنوده عليهم بالرصاص فقتلوا ثمانية وأسروا الباقين. وأمر السير هنري ميدلتون بالاستسلام فلما رفض رمي «في بيت للكلاب تحت أحد السلالم... ولم يكن سريره سوى الأرض ووسادته سوى الحجر، أما رفاقه فكانوا الفئران الذين إذا ما استطاع أن ينام مشوا فوقه فأيقظوه».

بعد شهر من السجن سمح للجماعة بالسفر إلى صنعاء لرؤية الباشا فمشوا في الجبال حوالى ١٥ يوماً وحين وصلوا وجدوا في استقبالهم فرقة موسيقية من ٢٠٠ رجل. واعتذر الباشا عن سلوك حاكم مخاوى عارضاً أن «أسلخ جلده من فوق أذنيه وأن اقدم لكم رأسه». إلا أنه أبقى الجماعة أسرى. وفي النهاية استطاع ميدلتون الفرار في برميل عائداً إلى سفينته التي وجه مدافعها وهدد بالقصف.

سوف تبدأ السياسة بعد قليل بالاختلاط بالتجارة، والتجارة بالسفر. فالصراع الدولي كان حول كل شيء وخصوصاً حول الإمبراطورية العثمانية ومن ضمنها «اليمن السعيد». لذلك عندما وصل أول أسطول هولندي إلى المنطقة بعد ميدلتون بعامين، استقبل بالترحاب ومن دون مضايقات. اللهم إلا العاصفة الرملية التي هبّت على عدن «فكان هناك ظلام رهيب أشبه بعاصفة شتائية يرافقه احمرار يشبه لهب الحرائق، وكان هذا منظراً مريعاً وجميلاً في آن». ومن هناك اتجه الأسطول الهولندي إلى بو شهر حيث نزل منه ثلاثة من البحارة. وحين عاد الأميرال بيتر فان دو بروكي بعد ١٨ شهراً وجد اثنين منهم على قيد الحياة فنقلهما معه إلى مخاوى حيث وجد في استقباله دعوة من الباشا لزيارة صنعاء، التي أعجب بها إعجاباً شديداً.

وأعطى الباشا للأميرال فان بروكي حزاماً موشّى بالذهب لكنه لم يسمح له بفتح مكتب تجاري خوفاً من أن يصبح منطلقاً من هناك نحو المدن المقدسة. لكن مع

حلول العام ١٦٢٠ كان الهولنديون والإنكليز قد أنشأوا مراكز تجارية في البلاد، وكانت تجارة البنّ قد بدأت تتحول إلى دخل واضح. ولم يتوغل الأوروبيون كثيراً في قلب اليمن باستثناء بعثة فرنسية في بداية القرن الثامن عشر، ذكر أفرادها أن عدن قد ذكرتهم «بمعرض السان جيرمان».

لقد ملأت الجزيرة العربية مخيلات الغربيين بلا حدود إلا حدود الخيال. وحين بدأ البعض في الوصول إليها اكتشفوا أن الخيال دون الحقيقة، وأن المخيلة دون الخلق. بعضهم جاء ومعه قول شكسبير الشهير في «ماكبث»: كل عطور الجزيرة العربية لن تغسل أصابع هذه اليد الصغيرة! وبعضهم جاء من كتب رائد التاريخ العلمي هيرودوتس الذي قال إنها آخر بقعة في جنوب الأرض. إنها، في الحقيقة، قلب الأرض، وقد امتدت على مسافة مليون وربع المليون ميل مربع، يحيط بها المحيط الهندي والبحر والأحمر والخليج العربي، وتمدّدت على تقاطع الطرق بين ثلاث قارات، تملؤها واحات نجد الرائعة وصحاريها الهائلة من الدهناء إلى النفود وترتفع شاهقة فيها جبال الحجاز حتى اليمن وفي منبسطها، مكة، أم القرى وسيدة المدن.

يقول أديب مصر أحمد أمين في تعريف جزيرة العرب إنها «إقليم في الجنوب الغربي من آسيا، يحدّ من الشمال ببادية الشام، ومن الشرق بالخليج الفارسي (العربي) وبحر عمان ومن الجنوب بالمحيط الهندي ومن الغرب بالبحر الأحمر. وهي أعلى ما تكون غرباً ثم تنحدر إلى الشرق إلا عند عمان وليس فيها أنهار جارية ولكن أودية يجري فيها الماء حيناً ويجف حيناً. وأكبر جزء فيها صحراؤها الواقعة في وسطها، والمتنوعة ثلاثة أنواع: الأول بادية السماوة جبل شمر، المعتدل المناخ والغزير الأمطار وهو معروف عند العرب بجبل طيء. والنوع الثاني صحراء الجنوب وقد سمته العرب جملة أسماء، فالجزء الأول بين شرق اليمن وحضرموت يسمى صيهدا، والذي بين شمال حضرموت وشرقها يسمى الأحقاق، والذي في شمال قهرة يسمى الدهناء، ويسمى جميعه الآن بالربع الخالي! أما النوع الثالث فيسمى الحرات، وهذه الحرات مقذوفات بركانية تبتدىء شرقي حوران وتمتد منتشرة إلى المدينة (المنورة) وتقع المدينة نفسها بين حرتين».

سمى العسكر الرومان ومؤرخها بطليموس جزيرة العرب ببلاد العرب السعيدة لأنهم لم يستطيعوا الدخول إليها. وألهبت مخيلات الغزاة والشعراء والعلماء لأنها ظلّت بمنأى عنهم. وحين تغيّرت في الغرب النظرة إلى العرب ودخلت أوروبا عصر النهضة، وجد الحالمون بالسفر أنهم غير قادرين على دخول أرض الإسلام، فكان أن أشهر البعض إسلامه بكل صدق والتحق بالقوافل المتجهة إلى مكة المكرمة أو تخفّى البعض الآخر

بلسان عربي وثوب إسلامي للقيام بالرحلة. وكانت هناك دربان للقوافل في موسم الحج: الأولى، وهي الأكبر، تنطلق من دمشق ويرافقها نحو ٤٠ ألف جندي تضم الحجيج القادم من تركيا وروسيا وكردستان وآسيا الوسطى، وتتجه عبر الصحراء السورية والنفود إلى المدينة المنورة، والثانية كانت قافلة الحجيج القادمة من القاهرة والتي تضم حجاج مصر وشمال إفريقيا، وتستغرق رحلتها إلى مكة المكرمة ٤٠ نهاراً عبر صحراء سيناء وجبال الحجاز!

لذلك نلاحظ أن معظم الرحّالة الأوائل كتبوا فصولاً طويلة في وصف الطريق من أولها وسردوا الحوادث والتفاصيل الصغيرة التي عاشوها بين القوافل والأدلة، وغالباً ما دلّ السرد على طبائع الرحّالة أنفسهم أو على أهدافهم الحقيقية والمهمات التي كلفوا بها. غير أن معظم ما كتبوه بقي مجهولاً أو دون نشر لم يقرأه سوى المختصين، إلى أن زال جوّ العداء الأوروبي للعالم العربي. ويقول ريتشارد ترينش إن معظم الذين حاولوا أن يعدلوا أو يصحّحوا الجهل الأوروبي كان عليهم أولاً «أن ينتصروا على أنفسهم، فالقلّة منهم كانت نخبة حقيقية، أما الباقون فكانوا إمبرياليين أو مدنّسين أو مغامرين أو وصوليين أو جواسيس أو بحاثة عاديين».

يقول ترينش إن «أكثرية هؤلاء جاءوا وهم يحملون الكره للإسلام، وجاء آخرون يدعون أنهم أبناء الإسلام، أما الباقون فجاءوا وفي نيتهم أن يستغلوا الإسلام. لكن أحداً منهم لم يغادر هذه الأرض إلا وهو يكن للإسلام احتراماً عميقاً إلى أبعد الحدود. والبعض أشهر إسلامه، أما أولئك الذين لم يتغيّروا بعد هذه التجربة العميقة فقد ماتوا بأيديهم. على أن ما كان يجمعهم كلهم هو ذلك الهوس بالجزيرة العربية وبالبدو وبحياة البداوة وبأنفسهم».

من كان أول القادمين إلى الجزيرة؟

ليس هناك جواب أكيد. لكن المؤرخين الأوروبيين يتفقون على أنه كان مغامراً إيطالياً يدعى لودفيكو دي فارتيما الذي غادر إيطاليا في العام ١٥٠٢. وكان دي فارتيما على ما يبدو من رجال النهضة حقًّا إذ قال: «إذا سألني أحد عن الدافع الحقيقي إلى رحلتي أجيب أنه المعرفة». لكن يبدو أن المعرفة لم تكن زاده الوحيد وهو يتنقل في بساتين البلدان التي زارها يتحمل «الجوع والعطش والبرد والحرّ والحروب والأسر والرعب»! من روما اتجه فارتيما إلى الإسكندرية فالقاهرة وبيروت وطرابلس قبل أن يرسو على الساحل السوري في اللاذقية ومن هناك سار مع قافلة متجهة إلى حلب ودمشق «مدينة جنائن التين والبرتقال والمشمش والتوت والرمان».

وقد أمضى زمناً في دمشق يتعلّم اللغة العربية ويدرس طباع أهلها ويسير معهم على ضفاف بردى كما فعل ابن بطوطة قبله بقرنين. وهناك أيضاً تعرّف إلى «أمير الحج» وأقنعه بالسماح له بالسفر مع القافلة تحت اسم «يونس»، الجندي الأوروبي الهارب إلى خدمة المماليك. في ١١ نيسان/ أبريل ١٥٠٢ انطلقت القافلة من دمشق وفيها ٤٠ ألف نسمة و٣٥ ألف جمل و٦٠ مملوكيًّا. وكانت القافلة تسير في الصحاري ٢٢ ساعة في اليوم ثم ينفخ قائدها البوق فتخرّ الإبل دفعة واحدة «أولاً على قوائمها الأمامية فترمي رأسها إلى الأمام، ثم على قوائمها الخلفية فترميه إلى الخلف. وبعد استراحة قصيرة كانت الأبواق تنفخ ثانية فتقوم القافلة من جديد. وقد اعتاد أهلها النوم على ظهور الجمال وهي ترتج في الاتجاهين».

لا ندري مدى جدية هذا الإيطالي المرح والمحب للمبالغة. لكننا لا نلبث أن نراه في جدّة، ثم في عدن «حيث خمسة آلاف عائلة وخمس قلاع». وفي عدن يُحكم

على فارتيما بالإعدام ويُلقى في السجن لكن عقوبة الإعدام تبقى دون تنفيذ، وبعد ٥٥ يوماً في السجن يخرج وسط هتافات تطالب بقتله وينقل للمثول أمام السلطان في قرية تدعى «الرضة»، حيث تظاهر بالجنون، فترك يعود إلى عدن حيث استقلّ باخرة متجهة إلى الهند... وإلى بقية المغامرات!

من بين ثلاثة أوروبيين استطاعوا التسلّل إلى الحجاز في القرن السابع عشر، كان الأكثر غرابة وغموضاً هو الرجل الذي يعرف عنه العالم أقل من أي رحّالة آخر. إنه براهيمي سابق مولود في جزيرة «غوا» يدعى «ماثيو دي كاسترو» وقد اعتنق الكثلكة ورسم مطراناً في روما ثم عاد إلى «غوا» ومرة أخرى إلى روما. وقد قام بزيارة إلى مكة المكرمة في العام ١٦٤٣. وليس معروفاً أي شيء إلى الآن عن ظروف رحلته الغامضة التي يعتقد أن تفاصيلها إما ضاعت أو هي مخبّأة في أدراج الفاتيكان. وفي نهاية القرن السابع عشر عرف الحجاز أوروبيّاً آخر هو جونرف بيتس الذي باعه قبطان بريطاني في أحد أسواق تونس. وسوف يلتقي بيتس نفسه برجل إيرلندي في أحد شوارع مكة، يقول له إنه «منذ أن اعتنق الإسلام انتقل من الجحيم إلى السماء».

في حين كانت نجد شبه مغلقة على الرحّالة الأوروبيين وفي حين كان الحجاز في مكة المكرمة والمدينة المنورة، مغلقاً إلا على الذين يعتنقون الإسلام، فإن الجزء الآخر من الجزيرة العربية، أي الجنوب الغربي منها، كان مفتوحاً في وجه المسافرين منذ أواخر القرون الوسطى. لقد كانت عدن على البحر ـ كما سيروي الرحّالة فراغو قصتها لنا في فصل لاحق ـ وكانت في الطريق إلى الهند بالنسبة إلى الإنكليز، وكانت في الطريق إلى كل مكان بالنسبة إلى الجميع.

ففي العام ١٢٢٠ مرّ أشهر مستكشفي العالم، ماركو بولو، من هناك ليروي أن أمير عدن كان أحد أغنى أمراء العالم لأنه كان يصدّر الخيول إلى الهند. وعلى مقربة من عدن كانت هناك جزيرتان تسميان «المذكر» و«المؤنث»، الأولى يسكنها الرجال فقط والثانية يسكنها النساء فقط. وكل ربيع كان الرجال يجرون عبر المضيق إلى الجزيرة الأخرى حيث يمضون ثلاثة أشهرا ولم تتوقف أسطورة ماركو بولو هناك، فقد روى أيضاً أنه على مسافة غير بعيدة من هناك كانت تقوم جزيرة سوقطرة حيث الناس يتنقلون عراة وهم سحرة خارقون بإمكانهم تغيير اتجاه الرياح في وجه أي سفينة لا تدفع الإتاوة لهم، بحيث يرغمونها على العودة إليهم.

كثر الغامضون بين الرحّالة وتعدّد المثيرون، بمن فيهم المضحكون أحياناً مثل فارتيما. ولعل أبرز المراحل الاستكشافية بدأت مع ازدياد المطامح الفرنسية في الشرق

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ومن أشهر الرحّالة وأكثرهم غموضاً كان الإسباني دومينغو باديا - أي - ليبليش المولود في بيسكاي العام ١٧٦٦. وقد أوفد نابوليون بونابرت عميله السري السنيور ليبليش في مهمة طويلة ومعقدة بدأت في طنجة العام ١٨٠٣ حيث وصل الرجل مدّعياً أنه الأمير علي بك العباسي، وأنه في الطريق إلى الإسكندرية ومنها إلى مكة المكرمة. وسافر علي بك في المغرب تحفّ به مظاهر الثراء والوجاهة وأمضى هناك عامين، ثم غادر المغرب في موكب بالغ الفخامة في الطريق إلى أداء فريضة الحج، فاستقبله باشا طرابلس واستضافه ثم التقى في الإسكندرية الكاتب الفرنسي الشهير شاتوبريان الذي سيصفه بأنه «أكثر الأتراك ثقافة في العالم»، وأنه يليق به أن يكون «من أحفاد صلاح الدين»، أما في القاهرة فقد حظي الإسباني بلقاء مع محمد علي باشا نفسه.

لم يترك «علي بك العباسي» الكثير من الكتابات عن محمد علي فيما عدا، على الأرجح، تلك التي بعث بها إلى موفديه في باريس. إلا أن ثمة أوصافاً كثيرة وضعها آخرون للألباني الذي دمّر أولاً دولة المماليك، ثم صدّ فرنسا وبريطانيا لكي يؤسس مصر الحديثة. ويصف وليم تورنر، الذي سافر مع بوركهارت في الشرق ومصر، محمد علي باشا بأنه «ذو ملامح حادة وعينين متوثبتين» ذكرتا تورنر بريتشارد الثالث ومقدرته «على أن يبتسم ثم يبتسم ثم على أن يقتل وهو يبتسم»! ويبدو أن محمد علي بذكائه أدرك أن «علي بك» ليس عباسيًا ولا علاقة له إطلاقاً بالعباسيين، لكنه سمح له بالمضي في طريقه لأن من شأن ذلك أن يساعد في تنافس الدول الكبرى وعداواتها. وقد لاحظ دومنيغو أو «علي بك» أيضاً تلك «النظرة المشككة في عيني محمد علي العميقتين».

في ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٠٦ غادر علي بك القاهرة إلى مكة المكرمة ضمن قافلة من ٥٠٠ جمل «وكانت حصتي في القافلة ١٤ جملاً وثلاثة أحصنة لأنني تركت معظم أمتعتي وخدمي في مصر». وكان يتذمر من بطء القافلة فيتقدمها مع اثنين من خدمه مسافة طويلة ويستريح كأنه في نزهة إلى أن تصل القافلة فيتركها تمضي ثم يلحق بها ويسبقها من جديد. وأخيراً ترك «علي بك» القافلة في السويس واستقل سفينة مبحرة إلى جدّة فوصلها وسط مظاهر بذخ شديد، لكنه ما لبث أن أصيب بالملاريا ونقل محمولاً إلى مكة المكرمة فوصلها ظهر اليوم التالي وما إن بلغ مشارفها حتى هتف مرافقه: «ها هو بيت الله الحرام».

إلى مكة المكرمة كان محمد علي قد أوفد رسولاً سبق وصول «علي بك» ليبلغ الحاكم بأمر الرجل الغامض. فاستدعى الشريف «علي بك» وسأله من أين أتى فقال،

من حلب. واستجوبه الشريف حول حروب أوروبا ونوايا فرنسا في الجزيرة العربية وأخيراً امتدح لغته العربية وقرّر أن يقدم إليه مرافقاً خاصاً. وبعد أربعة أيام غادر إلى جدّة ومنها إلى ينبع حيث طرده المسؤولون في المدينة بعد اكتشاف أمره. ومن ثم عاد «علي بك» إلى القاهرة ومنها إلى أوروبا حيث بقي في خدمة نابوليون حتى وفاة الإمبراطور. وفي العام ١٨١٨ حاول العودة من جديد لكنه لم يصل إلى أبعد من أبواب دمشق بقليل، حيث مات بمرض الإسهال كما يقول البريطانيون، وبالتسمّم كما يقول الفرنسيون، وكان موته آخر أحجية في حياة هذا الرجل الشديد الغموض.

في الوقت الذي غادر «علي بك العباسي» القاهرة إلى الحجاز، كانون الأول/ ديسمبر ١٨٠٦، كان عميل دولة أجنبية أخرى يحاول الانطلاق من العاصمة المصرية إلى الحجاز في هدف مشابه.، إنهم، هذه المرة، الروس قادمون، مع أن اسم موفدهم الخفي يوحي بأنه ألماني الأصل! كان أولريك ياسبر سيتزن في التاسعة والثلاثين من العمر، وكان على الأرجح يحمل من الكفاءات العلمية أكثر من أي «رحالة» أوروبي آخر. فقد درس الطب وعلم النبات والهندسة المدنية وهندسة المناجم، بالإضافة إلى اللغة العربية. وقد أطلق سيتزن على نفسه لقب مستشرق لكن مهمته الحقيقية كانت إرسال التقارير إلى القيصر عن الوضع العسكري في آسيا الوسطى التي وقفت في وجه التوسّع الروسي نحو الهند. ومن أجل أن يعطي تلك الرحلة المصداقية المطلوبة جاء إلى مكة المكرمة يدّعي تأدية فريضة الحج. على أن هذا المبعوث المتعدّد العلوم كان يعاني من خلل نفسي ظاهر. وكان مقتنعاً بأن مرافقيه الصرب سوف يقتلونه، لكن بعد أيام قليلة غطس هؤلاء في نهر الدانوب المتجمّد تقريباً لكي ينقذوه من الغرق، بعدما رمى نفسه في نوبة حزن شديدة.

جاء سيتزن إلى القاهرة قادماً من دمشق وحلب حيث حاول بلا جدوى العثور على آثار البتراء في الأردن، متنكراً في زي متسوّل. إلا أنه نجح في رسم أول خريطة للبحر الميت. وفي القاهرة اختفى بين الناس كمتسول حقيقي لمدة ثلاث سنوات، ثم عاد فظهر تحت اسم «موسى»، الطبيب. ومن القاهرة سافر في قافلة إلى السويس ومنها استقل الباخرة إلى ينبع، لكنه منع من الدخول فأبحر إلى جدّة واستطاع التسلّل إلى مكة المكرمة ثم إلى المدينة المنورة (١٨٠٩) حيث اعتقل ومثل أمام المسؤولين فادّعى أنه اعتنق الإسلام قبل فترة قصيرة، ومع ذلك طرد، فعاد إلى مكة المكرمة وأخذ يضع الخرائط لشوارعها ويجمع المعلومات عن التيارات الفكرية في المجامع الإسلامية. وفي نهاية آذار/ مارس ١٨١٠ غادر المدينة المقدسة إلى جدّة حيث أقنع عالماً يدعى الشيخ حريزة بمرافقته إلى اليمن. وبعد نزولهما في الحديدة أثارت قافلتهما المؤلفة من

١٧ جملاً الشبهات. وبينما هما في الطريق إلى صنعاء أصيب سيتزن بالملاريا لكن الاثنين أكملا الطريق إلى عدن تسبقهما الشائعات بأنهما من السحرة. وفي ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨١٠ انطلقا من المخا لكي يعبرا حضرموت إلى آن، لكن سيتزن قتل بعد يومين بالسمّ للاشتباه بأنه جاسوس.

ارتفع عدد المسافرين الإنكليز إلى عدن في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر لسببين: الأول استخدام الطريق البري إلى الهند، والثاني من أجل مواجهة التمرّد الفرنسي بعد الحروب النابوليونية. وكان بين هؤلاء الميجور «روك» الذي استخدم للمرة الأولى كلمة «شامبو» في وصف أحد أثرياء عدن وهو يستحم على أيدي خدمه، أما الثاني فكان البروفسور هيو كليفورن (١٧٩٥) الذي أوفد في مهمة سرية عجيبة. فقد كان البريطانيون والهولنديون يخوضون حرباً حول سيلان، وكان معظم الجيش الهولندي من المرتزقة السويسريين. أما مهمة البروفسور فكانت شراء هؤلاء! ولم يكن ذلك صعباً، إذ ما لبثت سيلان «سري لانكا اليوم» أن استبدلت أعلامها بعد مقاومة بسيطة.

في العام ١٨٣٦ استقبلت صنعاء زائراً غربيًّا آخر هو جوزف وولف. وقد ولد وولف في العام ١٧٩٥ من أب حاخام، أما هو فاعتنق البروتستانتية مذهباً وآل على نفسه إقناع اليهود الشرقيين بأن يحذوا حذوه. وقد بدأ رحلته الطويلة في فلسطين في العام ١٨٢١ وذهب منها إلى بغداد وشيراز والقوقاز وبخارى حيث ربط إلى ذيل حصان وترك عارياً. ومن هناك قطع ٦٠٠ ميل مشياً على الأقدام إلى أفغانستان حيث أصيب بخيبة أمل لأنه لم يلق في كابل أيًّا من قبائل بني إسرائيل، فعاد إلى إنكلترا حيث وجد الناس تسخر منه فما كان منه إلا أن سافر مجدّداً إلى الحبشة ومنها إلى اليمن حيث لم يلق الكثير من النجاح مع اليهود المحليين.

في هذه الآونة تكاثر عدد الأوروبيين القادمين إلى اليمن أو العابرين بها. وبين المعاصرين كان اثنان من الفرنسيين اللذين استطلعا الداخل اليمني في منتصف القرن الثامن عشر. أحدهما كان المسيو ت.ج. أرنو الذي كان يعمل صيدليًّا مع إحدى الفرق المصرية قبل أن ينصرف إلى العمل لدى الإمام. وقد عاد في العام ١٨٤٣ إلى صنعاء لكن هدفه الحقيقي كان الوصول إلى سد مأرب الذي قام حوله في القدم ازدهار اجتماعي كبير. ويقال إن انهيار السدّ في القرن السادس ميلادي كان قد أدى إلى تغيير تاريخ المنطقة وجغرافيتها وإلى الكثير من الخرائب التي لا تزال قائمة حتى الآن. وقد ارتدى أرنو الزيّ المحلّي والتحق بإحدى القوافل التي كانت تنقل الذرة إلى الشرق وتعود محملة بالملح، ووصل في نهاية الأمر إلى سهل مليء بالآثار والكتابات.

إلا أنه لم يمض وقتاً طويلاً هناك خوفاً من أن يتعرّف السكان إليه ويكتشفوا أنه هو «الساحر الأبيض الذي كان هناك قبل عشر سنوات».

الفرنسي الآخر هو جوزف هاليفي جاء في العام ١٨٦٩ الذي تنقل مدّعياً أنه يهودي من القدس، إلا أنه منع من الذهاب بعيداً عن صنعاء، ومع ذلك استطاع التسلّل إلى مأرب حيث عاد بنسخ عن كتابات أثرية كثيرة لم تكن معروفة من قبل.

في العام ١٨٩٢ وصل إلى الساحل اليمني، الذي كان قد عاد منذ شقّ قناة السويس إلى السلطة العثمانية، رحّالة آخر هو والتر هاريس الذي عاش أيضاً في المغرب. وانتحل هاريس شخصية تاجر يوناني لكي يعبر حدود عدن حيث أبهجه تغيّر الطبيعة: لقد دخلنا اليمن السعيد. وعلى كل الجوانب هنا ثمة سواق صغيرة وجداول تنمو على جوانبها الأعشاب وتجري مياهها فوق الحصى وهي تصدر الفقاعات. إن المرء لا يدرك كم من الموسيقى في خرير المياه الجارية إلى أن يسافر في الصحراء حيث تفصل مسافة يومين أو ثلاثة بين كل بركة طينية وأخرى».

لدى وصوله إلى صنعاء لوح هاريس بجواز سفره البريطاني بكل اعتزاز إلا أن ذلك أدى إلى حبسه خمسة أيام سمح له بعدها بالتجول في المدينة: شاهد خرائب قصر غدمان الشهير: ١٦٠٠ درجة تؤدي إلى برج علوه ٧ طوابق، كل واحد أصغر من الذي تحته إلى أن يصبح الدور الأعلى طابقاً واحداً من الرخام. وعلى كل زاوية من زوايا السقف تربّع أسد حجري مفتوح الفم بحيث إذا هبّت الريح بدت وكأنها تزأر مثل الأسود الحقيقية.

حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت الدوافع التي تحمل الرحّالة الغربيين إلى الشرق العربي شبه محدودة: الفضول أو الصدفة أو التجارة! كارستن نايبور، رحالتنا الأول إلى الجزيرة، جاء من الدانمارك وليس من بريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا. لكن لم يكن من الشائع في القرن الثامن عشر أن يتحدث الرحّالة والمغامرون عن الأسباب الشخصية التي تدفعهم إلى ركوب مثل هذه المغامرات، ولذلك فهم لم يتركوا لنا سوى المفكرات أو المذكرات «العلمية» أو «المهنية» إذا صح التعبير! ففي الكتب التي تركها بوركهارت لا أثر لأي مشاعر خاصة لكنه يكتب في رسالة إلى والديه: «ثم تشرق الشمس في أبهة لا يمكن وصفها وتغمر هذا البحر الرملي... وأي قلب خال هو القلب الذي لن يمجد خالقه»!

بعد نهاية القرن الثامن عشر سوف نرى نوعية أخرى من المسافرين الأوروبيين. ها هو شاتوبريان يتوسّل قارئه ألا يتوقع عملاً مليئاً بالمعلومات «لأنني ذهبت بحثاً عن المشهد لا أكثر». ومع ذلك فهو يقدم، إلى جانب المشاعر الشخصية، بحراً من

المعلومات المستقاة من الكتّاب الآخرين، كما يسارع إلى تقديم انطباعه عن البدو: حواجب مقوّسة عالية وأنف مثل منقاد النسر وعينان متموجتان!

العرب، البدو، كانوا يختلفون بالنسبة إلى شاتوبريان عن الهنود الأميركيين! إنهم ليسوا قوماً بدائيين «بل هم بقايا حضارة علاها غبار الزمن». والمسيو شاتوبريان يشعر بشيء من الشفقة على هؤلاء القوم، كما يتوجب على أي نبيل فرنسي، لكنه بالتأكيد لا يشعر نحوهم بالمساواة. وهو إذ يتذكر في الإسكندرية، قبيل الإبحار إلى تونس، أنه نسي أن يرسل إلى أحد أصدقائه البدو الهدية التي وعده بها، يسارع إلى الكتابة «ما إن نعاود الاتصال بالمشرق حتى أرسل إلى أبو غوش بالتأكيد هديته من الأرز الدمياطي وسوف يرى بعينه أن ذاكرة الفرنسي قد تخونه لكن الفرنسي لا ينسى وعده أبداً»!

ما لنا وللمسيو شاتوبريان. ها هو اللورد بايرون يطلق موجة السفر الرومانسي إلى الشرق العربي في العام ١٨١٢:

«آه لو كانت الصحراء موطني
حيث أنسى الجنس البشري
من دون أن أكره أحداً
لكن فقط أن أحبها...!».

الرومانسية في عزّها الأوروبي تعثر فجأة على الصحراء على «المجتمع الذي لا يستطيع التسلّل إليه أحد» كما يقول بايرون. هنا، جسم الشاعر الضئيل لا يضيع في وسع الصحراء بل يكبر، هنا الشاعر يندمج في الطبيعة الهائلة ويصير جزءاً منها لا من غضبها. وهكذا، مع بايرون، ثم مع غيره فيما بعد، سوف تصبح الصحراء هي الإطار الأدبي وهي المخيلة الشاعرية. وبعد الآن، سوف يكون همّ الرحّالة الأول اختراق الصحراء وليس تجنّبها. لقد أطلق بايرون النداء. وتبعه شيلي. وتبعهما الجميع!

الصحراء، كما وصفها رتشارد بورتون «هي أرض الخيال والحلم، فسحة تتجدّد بلا نهاية في حضور العزلة واللامتناهي». وحين انصرف بورتون في شيخوخته إلى الترجمة والكتابة كان يعود دائماً في مخيلته إلى الجزيرة العربية «التي بدا لي حين رأيتها المرة الأولى كأنني أعرفها من قبل»! لكن الجزيرة لم تكن جزءاً من مخيلة الكبار فحسب بل صارت مع حلول القرن التاسع عشر تسيطر على مخيلات الصغار في المدارس أيضاً. وحين كتب تينسون قصيدته الشهيرة «استذكار الليالي العربية» وهو في الحادية والعشرين من العمر في العام ١٨٣٠، لم يرَ نفسه أعرابيًا فحسب بل «مسلماً حقيقيًا بين يدي الرجل الطيب هارون الرشيد».

والليدي استر ستهانوب، أشهر المستعربات، كانت تشير إلى العرب في أيامها الأخيرة على أنهم «شعبها»! وقد تركت خلفها لقب اللوردية وثراء العائلة الميسورة لكي تموت فقيرة معدمة في لبنان، بعدما توّجت نفسها في البداية «ملكة على الصحراء»، بين حماه وتدمر. بل هي ابتدعت أيضاً نظرية تقول إن العرب تحدّروا من الاسكتلنديين، وإن عائلة الغور مثلاً هي Gower الاسكتلندية وآل أوبريان هم آل عبيان!

لا. لم يتحدّروا إطلاقاً من الاسكتلنديين بل هم، كما سيعلن فولتير «شعب متفوق» على كل شعب آخر، ما لبثت عبقريته وقوته أن عُبّئت كلّها خلف الرسول صلى الله عليه وسلم. وها هو توماس كارلايل أيضاً يبدي إعجابه الكلي بالإمبراطورية العربية كدليل على عظمة العرق العربي وقوته الروحية، وهو سوف يتوقف كثيراً عند الرسول العربي لكنه أيضاً سوف يتوقف مثل غيره عند الصحراء «حيث تقف وحيداً هناك، وحيداً أنت والكون».

مثل كارستن نايبور رحالتنا الأول، ذهب لودفيغ بوركهارت إلى الجزيرة العربية وهو مفتون بها سلفاً ومع أنه وضع كتبه بالإنكليزية وسافر لحساب «الجمعية الجغرافية الإفريقية» في لندن، إلا أنه كان، خلافاً لمعظم الرحّالة، سويسري الجنسية، ولد في مدينة «بال» في العام ١٧٨٤ من عائلة من النبلاء كانت تحتفل «بيوم آل بوركهارت» منذ العصور الوسطى. وكان والده أيضاً قد تعرّف إلى المؤرخ والمفكر إدوارد غيبون في لوزان كما كان من أصدقاء الشاعر الألماني غوتيه ومن أصدقاء المفكر الفرنسي جان جاك روسو، وجميع هؤلاء كان مأخوذاً بالتاريخ العربي والإسلام، بطريقة ما. وقد شتتت الثورة الفرنسية العائلة، فذهب يوهان لودفيغ إلى ليبزيغ ومنها إلى إنكلترا حيث كان يأمل بدخول الجيش أو الوظيفة. إلا أن انتظاره طال وماله نفد، ومع ذلك ظلّ على ولعه بإنكلترا الملكية وكرهه لفرنسا الجمهورية. فقد كانت بريطانيا البلد الوحيد في أوروبا حيث يشعر المرء بحريته الفردية. وعندما ذهب إلى الجزيرة العربية كانت حرية الصحراء هي ما يصبو إليه أيضاً.

في العام ١٨٠٩ اتفق مع «الجمعية الإفريقية» في لندن على القيام بمهمة شديدة الخطورة وهي اكتشاف قلب إفريقيا الغربية من الشمال عن طريق القاهرة. غير أنه لم يصل إلى إفريقيا الغربية في نهاية المطاف أبداً بل بقي في الشرق العربي الذي أحبه حتى موته في العام ١٨١٧ بمرض الإسهال، الذي كان يقتل معظم الأجانب في تلك الحقبة.

وقد تنقل بوركهارت في الجزيرة كمسلم. غير أن الكثيرين من البحاثة الغربيين رأوا

أنه كان مسلماً في قلبه ولم يكن فقط مدّعياً الإسلام. «وربما في النهاية ـ تقول كاترين تيدريك ـ أصبح هو حقًّا الشيخ إبراهيم، الاسم الذي انتقاه لنفسه، أو العالم الفقير القادم من القاهرة وحلب». ولم يصبح بوركهارت «الشيخ إبراهيم» فحسب بل أصبح بالفعل أيضاً العالم الفقير الذي كاد يستعطي ليعيش بسبب بخل الجمعية الإفريقية.

وفي مكة المكرمة شك بعض من حوله في أمره، ولاحظ مرافقه أنه يدوّن الملاحظات فأخذه إلى أحد القضاة يمتحنه في معرفته بالقرآن الكريم، فأعجب القاضي بما سمع وصار يدعوه إلى تأدية صلاة العشاء معه. وتقول تيدريك إنه «أصيب بحمى شديدة وهو في مكة لكنه شعر في المدينة المقدسة وكأنه في بيته. وقد كتب فيما بعد أنه لم يشعر في حياته بالراحة النفسية التي شعر بها وهو في مكة».

وقد وجد بوركهارت المكيين «طيبين وأذكياء ومضيافين» وأقرب في الطباع إلى أهل البادية الذين يحبهم، من أي عرب حضر! لكن إعجاب هذا المواطن السويسري بأهل الصحراء لن يتوقف عند حدّ، والرحّالة هنا يتحول إلى شاعر يلقي قصائد المديح في حضرة البدو أينما وجدوا، ويجمع المعلومات عنهم، ليس فقط في السهوب الصحراوية، بل أيضاً في أسواق دمشق وحلب. وثمة من يقول أيضاً إنه جمع القسم الأكبر من تلك المعلومات في مكة والمدينة ولم يتوغل كثيراً في الداخل إما بسبب حالته الصحية أو بسبب الحملات العسكرية المتكررة التي كان يقوم بها محمد علي باشا آنذاك لإخضاع الصحراء. غير أن تعلّق بوركهارت بالحياة البدوية لم يكن يقبل أي شك ـ ولا أي نقاش. وكان إذا ما رأى أي مسلك خاطىء من البدو وسرعان ما يردّه إلى تأثير خارجي ويحمل الآخرين المسؤولية. ولذلك اعتبر أن البدوي الحقيقي هو في قلب نجد «معقل الطباع البدوية الأصيلة والصفاء».

يقول روبن بيدويل إن المرء لا يستطيع أن يعتبر بوركهارت أحد رحالة الجزيرة فحسب، إذ كان هو الذي اكتشف، في خلال إعداده للرحلة، اثنين من أهم الآثار في العالم العربي اليوم: البتراء وأبو سمبل! وهذا السويسري القادم من بلاد صناعة الساعات وضبط الثواني، أعد العدة لرحلته بدقة مثيرة، ولذا لقي من المتاعب (باستثناء الاعتلال الصحي) أقل بكثير مما لقي الآخرون.

الواقع أن التحدي الجغرافي الذي ذهب من أجله في الأساس، أي اكتشاف منابع نهر النيجر والوصول حتى تومباكتو، كان أقسى بكثير من تحديث الصحراء. وحين قبل بوركهارت القيام بالرحلة لقاء أجر قدره جنيه واحد في اليوم، كان يعرف أن أحداً من الذين سبقوه إلى المغامرة لم يعد منها حيًّا.

بدأ بوركهارت استعداداته بأن ذهب إلى كمبريدج في العام ١٨٠٨ حيث درس العربية والطب والفلك وعلوماً أخرى. ومن هناك أخذ يتدرّب على حياة التقشّف، وصار ينام على الأرض ولا يأكل سوى الخضار. وفي العام التالي ذهب إلى مالطا حيث قام بدور طبيب هندي. وحين طلب منه أن يتحدث اللغة الهندوستانية ردّد بعض الجمل بالسويسرية الألمانية، فأقرّ سامعوه بأنه يتكلم لغة بربرية حقًّا.

بعد ذلك أمضى صاحبنا عامين في حلب يعمل على متانة لغته العربية، وهناك ترجم قصة «روبنسون كروزو» عن الإنكليزية. وبكل جدّ انصرف أيضاً إلى دراسة الإسلام. ويقول بيدويل «الحقيقة أنه كان لديه تعاطفاً كبيراً مع المعتقد وانتهى بأن اعتنق الدين الإسلامي. وكانت معرفته بالفقه كبيرة لدرجة أن العلماء المحليين كانوا يأخذون رأيه في أمور كثيرة. وفي وقت لاحق حكم قاضي مكة نفسه بأنه ليس مسلماً فحسب بل هو مسلم عالم أيضاً».

خلال فترة وجوده في حلب كان بوركهارت أول من اكتشف الكتابات الحثية. وكان يخالط البدو كثيراً وخصوصاً قبيلة عنيزة، وقد وصل في تجواله إلى تدمر والفرات. وتشكل نتائج أبحاثه في هذا الشأن أول دروس سلوكية من نوعها عن حياة البادية. وقد كتب عن تلك المرحلة: «لقد أمضيت بين البدو بعض أسعد أيام حياتي. لكنني قضيت بينهم أيضاً بعض أكثر الأيام مللاً ورتابة، حين كنت أرقب صحن الشمس يشق الخيمة من الشروق إلى الغروب، آملاً بحلول المساء حين ينقذني بعض الغناء والرقص».

وكما خرج بوركهارت عن تلك المرحلة بحقائق علمية خرج أيضاً بأشياء غريبة أو طريفة: كيف تسرق الجمل من دون أن يشعر بك أحد! ويصف أيضاً كيف أن النعامة حين تبيض يذهب الذكر إلى التلة من أجل حراستها، لكنه بذلك يلفت الأنظار أكثر إليها. وعندما يقترب الصياد تترك النعامة بيضها وتهرب، فيحفر البدوي حفرة قريبة ويضع فيها بندقيته محشوة وموجهة إلى العش ويمضي. وحين يطمئن النعام يعود ليقنص بالبندقية المفخخة! كذلك كان بوركهارت أول أوروبي يسجل عادات البدو وحفلات القسم وواجبات الضيافة ونظرة البدوي إلى الشهامة والشرف.

في شباط/ فبراير ١٨١٢ شعر بوركهارت أنه على استعداد للقيام بالمرحلة الثانية من رحلته إلى النيجر واتجه ببطء عبر سورية إلى القاهرة التي وصلها في أيلول/ سبتمبر. لكنه سوف يكتشف في القاهرة أن القافلة المقبلة المتجهة إلى غرب إفريقيا لن تنطلق قبل حزيران/ يونيو التالي، ولذا قرّر أن يمضي هذه الفترة يستطلع حوض النيل

على أمل أن يعثر على طريق تتجه غرباً من النوبة. لكن قبل ذلك قرّر أن ينجز مهمة أخرى: قبله لم يتوغل أي أوروبي أكثر من بضعة أميال جنوب أسوان. هو سيفعل!

قطع بوركهارت أكثر من ٢٠٠ ميل جنوباً من أسوان واكتشف معابد أبو سمبل شبه المطمورة. لكنه بسبب خلاف مع حكام المناطق تبين له أنه غير قادر على المضي جنوباً أو غرباً، فاستقلّ مركباً صغيراً في النيل ليتعقب آثار الخطوات التي قطعها. وحين وصل إلى أسيوط علم أن الرحلة إلى إفريقيا الغربية لا تزال غير ممكنة بالنسبة إليه فقرّر أن يكتسب لقبه «حاج» عن استحقاق وذلك بالقيام برحلة الحج إلى مكة المكرمة، فانضم إلى قافلة من النوبيين والسودانيين المتجهة إلى أم القرى.

يخبرنا بوركهارت بعد الرحلة: قميص ورداء وقلنسوة وسروال وصندل. وكان يحمل أيضاً دفترين وقلماً ومبراة وبوصلة وعلبة تبغ وقداحة. أما من المال فكان يحمل ٥٠ دولاراً إسبانياً وليرتين ذهبيتين علقهما في صدره ومن الأسلحة حملت بندقية ومسدساً وعصا في رأسها حربة. وللمزيد من الحماية حمل رسالة من محمد علي باشا تعرّف به على أنه الشيخ إبراهيم بن عبدالله الشامي!

من أجل الرحلة عبر الصحراء التي ستدوم ٤ أشهر وتغطي ١٢٠٠ ميل، أخذ معه ٤٠ أقة من الطحين، ٢٠ من البسكويت، ١٥ من التمر، ١٠ من العدس، ٦ من الزبدة، ٥ من الملح، ٣ من الأرز، ٢ من البن، ٤ من التبغ واقة واحدة من البهار، وبعض البصل و٨٠ أقة من العلف لحماره. كذلك أخذ معه مغلاة من النحاس وصحناً ومحمصة للبن ومطحنة وفنجانين وسكيناً وملعقة وكوباً من الخشب وفزّاعة وحبلاً طوله ١٠ ياردات وخيوطاً وإبرة ومسلّة وقميصاً إضافياً وبعض الأدوية و٣ أوعية للمياه مصنوعة من جلد الماعز، ومشطاً وبساطاً خشناً وحراماً! أما للتجارة فقد أخذ معه ٢٠ أقة من السكر و١٥ من الصابون و٢ من جوز الطيب و١٢ موسى حلاقة وقبعتين وعدة مسابح خشبية.

في ١٧ تموز/ يوليو ١٨١٤ أبحر بوركهارت ومعه عبده من سواكين على البحر الأحمر وبعد رحلة استغرقت ١٥ يوماً بسبب قلّة الخبرة لدى القبطان، وصل إلى جدّة حيث أصيب فجأة بالملاريا وكاد يموت لولا أن أحد الحلاقين «نظف» دمه! كذلك وجد نفسه معدماً لأن التاجر الذي قدم إليه كتاب التوصية رفض الاعتراف بها. وهكذا، وبكل أسى، اضطر إلى أن يبيع عبده الذي صار متعلّقاً به كثيراً. إلا أن الصفقة كانت رابحة: ٤٨ دولاراً، أي ثلاثة أضعاف ثمنه، وما يكفي لرحلة الصحراء كلها.

كتب بوركهارت إلى فرع الجمعية الجغرافية في القاهرة يطلب مدّه بالمال كما

وجّه كتاباً إلى محمد علي باشا الذي كان الآن في الطائف على رأس حملة عسكرية جديدة، وسرعان ما وصل الأمر بإعطاء بوركهارت ما يحتاج من مال وثياب جديدة وبأن يستعد لزيارة الباشا! كان قد مضى عليه الآن حوالى شهر في جدّة لكنه كان قد أنجز مائة صفحة كاملة من الملاحظات حول التجارة والجمارة وحتى أنواع التبغ المتوافرة في السوق.

في الطائف حلّ بوركهارت في منزل طبيب محمد علي باشا، الأرمني، الدكتور بوساري، الذي عرفه في القاهرة. وفي اليوم الأول لوصوله استقبله محمد علي وتبادلا الأحاديث حول الشؤون الدولية، فأعرب له الباشا عن مخاوفه بأن البريطانيين الذين استطاعوا لتوهم الخلاص من نابوليون، سوف يستغلّون قوتهم الجديدة لغزو مصر.

غالباً ما كان قاضي مكة، على ما يبدو، يحضر تلك المجالس، وكان يدور بين الاثنين نقاش في الفقه. غير أن بوركهارت يعترف بأنه لم يعرف إطلاقاً ما إذا كان محمد علي قد شك في أنه لم يولد مسلماً. ولم ينف بوركهارت في أي مرحلة بعد وصوله أنه أوروبي لكنه كان يشعر أن الناس تشكّ في كونه جاسوساً بريطانيًا وأنه تحت المراقبة الدائمة.

كان يريد أن يسافر ومحمد علي يريده أن يبقى. وأخيراً طلب إلى الطبيب بوساري أن يتوسط له لدى الباشا كي يسمح له بالذهاب ففعل. وفي ١٨ أيلول/ سبتمبر ١٨١٤ توجه إلى مكة المكرمة حيث بقي حتى كانون الثاني/ يناير وخرج بملاحظات بلغت ٣٥٠ صفحة. وحين ذهب إلى هناك الرحالة ريتشارد بورتون رأى أنه لا يستطيع أن يضيف كلمة واحدة على مشاهدات بوركهارت.

أحب بوركهارت أهل مكة الذين وجدهم لمّاحين، ودودين ومضيافين، مع أن تجربته مع مرافقه الشخصي لم تكن مماثلة. ووضع الرحّالة السويسري وصفاً دقيقاً ومفصّلاً للجامع الكبير منبهراً ببهاء المسجد العظيم في ليالي رمضان حين تضيء ألوف المصابيح أعمدته الضخمة. وأدى أيضاً جميع مناسك الحج والوقفة في عرفات حيث أصغى إلى خطبة القاضي «وكانت أكثرية الحجيج تبكي وتقرع صدورها وتستغفر الله، بينما وقف الآخرون (الأقل عدداً بكثير) في تأمل صامت وعبادة والدموع تقطر من عيونهم. إلا أن كثيرين من الجنود الأتراك كانوا يقفون من دون أن يتأثروا بشيء».

اضطر بوركهارت أن يبقى شهراً في مكة بسبب الوضع العسكري في البلاد وحملات محمد علي الذي صادر كل جمل في البلاد. وحين سرت شائعة تقول إن

القائد المصري قد هزم، وإن فلولاً عسكرية سوف تهاجم أم القرى لجأ بوركهارت إلى الحرم عارفاً أنه سيكون هناك في حمى الرسول (صلعم).

استغرقت رحلة بوركهارت من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة خمسة عشر يوماً. وكانت رحلة متعبة قطع خلالها حوالى ٣٠٠ ميل من دون أي استراحة حقيقية. وبقي في المدينة ثلاثة أشهر منها ثمانية أسابيع في الفراش على حافة الموت! ويبدو أنه أصيب في المدينة أيضاً بشيء من خيبة الأمل في المقارنة مع مكة. وفيما لا يزال في حال من الضعف الجسدي توجه إلى ينبع حيث يبدو أن وباءً كان يضرب المنطقة. ومن هناك عاد إلى القاهرة بعد غياب دام عامين ونصف العام.

مرة أخرى حلم بالسفر إلى تمباكتو لكنه لم يجد قافلة متهجة إلى هناك في الوقت المنظور، فأخذ يدوّن المشاهدات والانطباعات التي جمعها. ومن ثم قام برحلة أخيرة إلى سيناء ثم عاد إلى القاهرة فتوفي فيها في ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨١٧ وصلي عليه ودفن مسلماً. وبعد ذلك بشهرين كانت تغادر القاهرة إلى تمباكتو أول قافلة في أربع سنوات!

لم ير بوركهارت، مثل نايبور، سوى الجزء اليسير من الجزيرة العربية، لكنه رأى منها ما عصي على الرحّالة الذين لم يعتنقوا الإسلام: مهبط الرسالة العظيمة! وفي مكة تبرّك.

في المقدمة التي وضعها تي. إي. لورانس (لورانس العرب) لكتاب تشارلز داوتي «صحراء العرب» يبدأ بهذا الاعتذار: «ليس من المريح إطلاقاً أن يضطر المرء للكتابة عن «صحراء العرب». لقد درسته طوال عشر سنوات، ومع الوقت توصلت إلى قناعة بأنه ليس كتاباً مثل بقية الكتب بل هو سيد في الكتب من هذا النوع». مبالغة!

ويمضي لورانس في مبالغته، كمثل كل من يطلب منه أن يضع مقدمة ما لكتاب ما، إلى أن يقول: «الحقيقة أن المرء يصاب بصدمة حين يعرف أن داوتي رجل واحد حقًّا، وأنه يعيش بيننا، أما الكتاب فلا تاريخ له ولا يمكن أن يشيخ. إنه أول كتاب عن عرب الصحراء وعلى كل طالب علم في شأن الجزيرة أن يقتنيه».

ولد تشارلز مونتاغو داوتي في «صافولك» في آب/ أغسطس ١٨٤٣ ودرس علم الآثار في كمبردج وهناك نمت لديه الرغبة «في خدمة اللغة الإنكليزية». ومن أجل ذلك أمضى سنوات في دراسة اللغات الأخرى كالهولندية والدانماركية، ثم أمضى عاماً في أكسفورد يدرّس شعراء القرون الوسطى وخصوصاً شوسر وسبنسر!

وحين تمكّن تماماً من اللغة بدأ يبحث عن رواية يستخدم فيها أسلوبه وتعابيره: قرون وسطى!

لكن هذه اللغة الصعبة المعقدة كانت لا تزال مقبولة، وربما موضع إعجاب، في القرن التاسع عشر. وقد انطلق داوتي في رحلته من بريطانيا إلى إسبانيا وإيطاليا في العام ١٨٧٢. وفي أوائل ١٨٧٥ ذهب إلى اليونان فالقاهرة وعبر سيناء إلى البتراء حيث سمع للمرة الأولى بأمر مدائن صالح فقرّر الوصول إليها بعدما أخفق في ذلك بوركهارت وبورتون، غير أن السلطات العثمانية لم تمنحه الإذن بالسفر، فنصحه الأصدقاء بالانضمام إلى إحدى القوافل المتجهة إلى مكة، شرط ألا يصل إلى الحجاز.

وانتحل داوتي شخصية سوري متوسط الحال وانضم إلى قافلة من الحجاج الإيرانيين، وكان يحمل معه ١٣ جنيهاً ذهبياً ودفترين ومقياساً للملاحة ومقياساً للطقس ومسدساً خبأه تحت قميصه و... كذلك مجموعة شوسر الشعرية! وكانت القافلة التي انضم إليها مؤلفة من ٦٠٠٠ حاج يقوم على حراستها فرقة مشاة من ٣٠٠ رجل و٢٠٠ من الخيالة ومدفعان ومائة من رجال العجيل الذين اشتهروا بقوتهم وبأسهم. وانتقى لنفسه اسماً شاسعاً في سورية هو «خليل».

منذ بداية الرحلة في دمشق بدأ داوتي في استخدام مقعرات شوسر في وصف ما يرى. ولا شك أنه لم يترك فاصلة حقيرة دون أن يلتفت إليها، بدأ بالكلاب التي تقطع مسافة ٢٠٠٠ ميل إلى المدينة المنورة وتعود منها، مروراً بالعبيد. لم ينشر داوتي كتابه «صحراء العرب» إلا بعد عشر سنوات من الكتابة والمراجعة. فالنص الأدبي لديه كان أكثر أهمية من كل شيء آخر، ولذلك قال فيه لورانس إنه «كتاب ليس كالكتب». وكان المزعج في رحلته إصراره على إقحام نصرانيته في كل شيء، لذلك تعرّض إلى بعض المضايقات في تلك المرحلة من أواخر القرن الماضي. ففي حين اعتنق بوركهارت الإسلام وادّعى بورتون ذلك، كان لداوتي مشاجرة في كل مكان بسبب إصراره على الإفصاح عن هويته، في مناطق اعتبر فيها وجود المسيحيين حتى تلك المرحلة نوعاً من الافتراء.

لم يضف داوتي الكثير إلى المعلومات الجغرافية لكن الصورة التي رسمها كانت خارقة في وقتها وتفاصيلها. وبعكس أسلافه فقد رأى حياة البادية ورقبها من الداخل وعرف دقائقها ولطائفها وكيف أنها خليط من الطمع والكرم ومن الشجاعة والجبن ومن الود والفظاظة. ثم، في أي مكان آخر في العالم، غير بلاد العرب، يمكن للمرء أن يعيش بلا أي مال على الإطلاق من دون أن يجوع؟

البطل في هذا النص الأدبي، المبالغ في فصاحته، البطل هو الجغرافيا هو «رتابة هذا البرّ الخواء، المليء بالرعب، حيث يد كل رجل على استعداد لمواجهة الأرض، أرض منحنية من الرمل القاسي والغبار، يقسّيها جفاف أبدي». إنها، بالنسبة إلى المسافر «أرض ميتة فإذا لم يمت لن يحمل معه في العودة سوى تعباً متوالداً في النظام».

انتقد ريتشارد بورتون سلفه داوتي بحدّة شديدة قائلاً إنه استجلب لنفسه كل ما حدث له. وبعد أربعين عاماً ذهب لورانس إلى الأماكن التي مرّ بها فوجد المشاعر نحوه مختلفة، لكن الإجماع هو أن تعصّب داوتي الواضح هو الذي استفزّ التعصّب لدى الآخرين. ويتميز داوتي، بالنسبة إلينا كعرب، في غنى قاموسه المأخوذ من البداية وهي الكلمات التي جعلها لغة ثالثة في كتابه «صحراء العرب». غير أنه يتميز أيضاً «بحقد على الإسلام يشبه حقد أهل القرون الوسطى» في كلمات كاترين تيدريك التي تقول إن «لغته الحاقدة خليقة برجل متعصّب من عصور الظلام».

في أي حال كانت رحلة داوتي إحدى مساهمات العصر الفيكتوري في «اكتشاف» الجزيرة العربية، إلى جانب ريتشارد بورتون وولفرد ساكوين بلانط وغيفور بالغريف.، وقد عكس التناقض في نظرة الفيكتوريين إلى العرب. إذ من جهة أخرى ملأ الانبهار بالعرب وحكاياتهم بريطانيا كلها في النصف الثاني من القرن الماضي. وكان البريطانيون يلتهمون التهاماً كتباً مثل «ألف ليلة وليلة» أو «وداع عربي لفرسه». ثم طغت صورة العربي النبيل في نجد الذي اضطر حتى داوتي إلى الإقرار بفروسيته. وتقول كاترين تيدريك إنه لم يكن من الصعب أن نعرف لماذا ارتقت نجد تلك المرتبة في العقول، أولاً لاستحالة الوصول، إليها، وثانياً لأن العرب أنفسهم كانوا يعتبرونها قلب الجزيرة العربية، وبلاد عنترة بن شداد الذي اجتذبت حكايته المسافرين الأوائل. إلا أن أكثر ما سحر الأجانب كان عزلة نجد بين الصحاري والجبال، «المنطقة الوحيدة حيث يمكن للعربي الصافي أن يكون». إنه (النجدي) «يتحدث العربية في أفصحها ويركب الخيول في أنبلها ويتحدّر من أنقى الأصول»، هكذا تقول تيدريك.

ها هو القرن التاسع عشر يبدأ بالانحسار ومعه تنحسر صورة رومانسية هائلة. لم تعد الجزيرة العربية مجهولة الآن إنما بعضها ما زال عصيًّا على الجميع، كالربع الخالي مثلاً. ولم يعد الجدال أو النقاش أو المنافسة بين الرحّالة الحالمين بل إن القوة البريطانية صارت في المنطقة الآن محاولة التوسّع والحلول محلّ الإمبراطورية العثمانية المريضة.

الجزيرة؟ لا. لا يمكن أن نقول الجزيرة وحدها. ففي بداية هذا القرن وأواخر القرن الماضي راح تاريخها يتداخل عنوة أو طوعاً أو عفواً مع جيرانها في الخليج: عُمَان من

جانب والكويت من جانب آخر. وما هي عمان، أليست هي أيضاً محط الرحّالة وحلم المسافرين منذ القدم؟ ما الفرق بين هذا الامتداد الهائل من الرمل والبحر والتاريخ؟ وهل صدفة أن يعبر الربع الخالي في المرّات الأولى، مرة انطلاقاً من السعودية، وأخرى انطلاقاً من عمان؟

لكن قبل أن نصل إلى القرن التاسع عشر لا بدّ من ذكر بعض الرحّالة الآخرين، مع العلم أنه، لسبب أو لآخر، أو لأسباب كثيرة، لا يمكن الإحاطة بهم جميعاً! أحد هؤلاء كان غيورغ أوغست والين، وهو فنلندي ولد في العام ١٨١١ وقرّر منذ يفاعته أن يقوم بالرحلة إلى الجزيرة، وكان موضوع أطروحة الدكتوراه التي وضعها «الفوارق الرئيسية بين اللغة العربية الكلاسيكية واللغة الحديثة». وفي العام ١٨٤٤ وصل إلى مصر حيث انصرف إلى دراسة الفقه والخط العربي وتجويد القرآن الكريم. وفي عام ١٨٤٥ غادر إلى فلسطين لقناعته بأن دخول الجزيرة من الشمال لن يثير الكثير من الانتباه. وفي أيلول/ سبتمبر كان أول أوروبي يصل إلى حائل حيث لقي ترحيباً رسميًا وأمضى في المدينة شهرين اكتشف في نهايتهما أنه لن يستطيع إكمال طريقه إلى الرياض لأنه لا يملك المال الكافي لذلك، فتوجّه مع إحدى القوافل إلى جدّة وفي جيبه «شلن» واحد.

عاد والين إلى القاهرة لاستئناف دروسه(روبين بيدويل)، وبعد ثلاث سنوات جال في سيناء حيث لم يسبقه أوروبي من قبل ومن ثم عاد إلى حائل. ومرة أخرى لم يستطع الذهاب إلى الرياض بل انضم على عجل إلى قافلة متجهة إلى بغداد فوصل البصرة وهو معدم كالمعتاد «وكان عليّ أن أتجنب رؤية معارفي وأن أحرم نفسي الثمار والشموع وأن أرتدي الثياب الوسخة أو أن أغسلها من دون صابون... وقد وجدت متعتي الوحيدة في قراءة انتخابات الشعر الفارسي». وأخيراً أنقذته البحرية الملكية البريطانية ونقلته إلى القاهرة، حيث تخلّى نهائيًا عن مشروعه الأساسي بزيارة اليمن، وعاد إلى هلسنكي حيث أصبح أستاذ اللغات الشرقية في جامعتها. وبعد ذلك بعامين مات وهو يستعد للقيام برحلة أخرى إلى الجزيرة. ويجمع المؤرخون على أنه كان أحد أبرز المستكشفين.

سوف تعرف حائل زائرين من النوع الذي لم تعرفه من قبل: ويلفرد سكاوين بلانط وزوجته الليدي آن (حفيدة اللورد بايرون). كان كلاهما يتكلم اللغة العربية، هو العامية لكن بطلاقة، وهي الفصحى الكاملة «للدرجة أن أحداً لم يستطع أن يفهم منها كلمة واحدة». كلاهما كان يحب الخيول والأدب العربي. ولا تزال ترجمات ويلفرد لبعض القصائد العربية معتمدة إلى اليوم. إن ويلفرد يشعر أن «العرب هم في الأول» بعدما التقاهم للمرة الأولى في الجزائر حيث أقام مقارنة بينهم وبين الفرنسيين.

خلال وجودهما في سورية تعرف بلانط وزوجته إلى رجل يدعى محمد بن عروق الذي روى لهما أنه ينحدر من عائلة نجدية، وأنه يتمنى السفر إلى هناك الآن لعلّه يعثر على قريبة له تقبل الزواج به. إذن، هو سعيد في مرافقتهما إلى حائل.

غادرت القافلة سورية في كانون الأول/ ديسمبر ١٨٧٨ ولم تقطع مسافة قليلة حتى تعرضت «للغزوة». لكن بعد شجار بسيط تبيّن أن المهاجمين من أصدقاء محمد ابن عروق فانتهى الأمر بمأدبة ودية. وفي الجوف عثر ابن عروق على «قريبته» المثلى فخطبها وكان مهرها ٥٠ جنيهاً تولاها بلانط على شرط أن يكمل الرحلة معهما، ففعل. وفي اليوم التالي رأينا خطًا آخر في الأفق كان يكبر ويتضخم كلما اقتربنا منه، يمتد شرقاً وغرباً في غير تعرّج. وكان يمكن أن نعتبر المشهد مجرّد سراب، غير أننا إذا قاربناه أكثر راح يتحوّل إلى تكوّمات، ولولا لونه الأحمر لبدا مثل بحر هائج تراه من الشاطىء، لأنه كان يرتفع كما البحر فوق مستوى الأرض.

كانت هذه، النفود! «وما فاجأنا أكثر من أي شيء آخر هو اللون الذي لم يكن إطلاقاً بلون الرمال كما عهدناها». وبعد تسعة أشهر من رحلة داوتي وصل بلانط

وزوجته إلى حائل، فلقيا استقبالاً مختلفاً تماماً من أميرها، الذي وجدوا في قصره مائة حصان من أفضل الخيول العربية كما وجدوا «إحدى هذه اللعب التي تسمى الهاتف والتي كانت موضة العام الماضي في أوروبا». بقي الزوجان في حائل حوالى ١٥ يوماً غادرا بعدها مع إحدى القوافل وإذ تطلّعت الليدي آن خلفها كتبت «لقد كان هذا أجمل مشهد رأيته في حياتي».

كانت الليدي «آن نويل بلانط» سيدة غير عادية بين أهل جيلها ومرحلتها، كثيرة العلم، واسعة الثقافة، وهي التي ترجمت «المعلّقات» إلى الإنكليزية. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت تجيد ركوب الخيل والصيد مثل أي فارس ماهر. ولسبب ما، فإن ما كتبته الليدي بلانط عن الرحلة إلى حائل هو الذي نشر في البداية، أما انطباعاته فلم تظهر إلا في مذكراته التي نشرت فيما بعد.

كان بلانط قد قام برحلات إلى سورية والعراق والجزائر وتركيا. لكن عندما جاء مع زوجته إلى نجد، التي عرفها من خلال بالغريف والدراسات الجاهلية، «جاء إلى أرض العربية الحقيقي» ولذلك كان عنوان الكتاب الذي وصفاه بعد الرحلة التي قاما بها في خريف ١٨٧٨ «الحج إلى نجد، مهد العرق العربي الحقيقي». وفيما تولّت الليدي آن وضع معظم الكتاب. تولى ويلفرد المقدمة والفصل الأخير. لم يترك بلانط أي شك حول مشاعره:

«بالنسبة إلينا، نحن المبيئين بأخيلة الصحراء، كان لنجد عندنا منذ زمن طويل نوعاً من الهالة المقدسة، وعندما تقرّر أن نزور جبل شمّر، الذي هو «متروبوليس» الحياة البدوية، بدا لنا وكأننا نقوم بعمل حبري، ولذا ليس من المبالغة أن نسمي ذلك حجّاً».

سوف يرى بلانط أن نجد لم تخالف توقعاته فهي «أرض مقدسة تحمل كل سحر ما بين النهرين وأكثر أيضاً. وكان «سكان نجد (تقول تيدريك) بعيدين عن لعنة الإدارة العثمانية وهذا ما مكّنهم من تطور النظام البدوي في الحكم إلى درجة كاملة غير معروفة في أي مكان آخر، وهو ما سمّاه بلانط نظام الراعي».

لم يكن لانبهار بلانط بالجزيرة أي حدود. ولم ينو فقط أن يعتنق الإسلام بل إنه وضع فيما بعد خطة بالذهاب إلى الجزيرة من أجل تزعّم حركة تعيد الخلافة من اسطنبول إلى مكة المكرمة. غير أن الخارجية البريطانية لم تشجّعه على تنفيذ مشروعه، فوضع سلسلة من المقالات يدافع فيها عن فكرته، مؤكداً أن العبقرية العربية سوف تزدهر من جديد في ظلّ خليفة عربي، وأن الإسلام سوف يعود إلى مجده، ودعا بلانط بلاده إلى دعم هذا الطموح «لأنها البلد الأوروبي الوحيد الذي لا يناهض الإسلام العداء».

لم يتوقف بلانط عن «أحلامه العربية» حتى وفاته في العام ١٨٢٢. وبرغم أنه كان يريد لبريطانيا دوراً هائلاً في العالم العربي، إلا أنه كان يناهض النزعة الاستعمارية في حيوية وصدق مذهلين. وفي «حملته» من أجل العرب حاول أن يعرض خدماته على الزعيم الجزائري أبو يمامة وعلى جمال الدين الأفغاني. غير أنه لعب دوراً مهمّاً في نهاية الأمر خلال ثورة أحمد عرابي في العام ١٨٨١.

كان عرابي الذي وصفه بأنه «ثقيل الخطى غليظ المنكبين» لا يمثل تماماً صورة النجدي الفارس المنطبعة في مخيلة بلانط، لكن عندما اجتمع إليه حاول أن يقنع نفسه بأن هذا هو الرجل الذي سيحقّق أحلامه! غير أن هذا الحلم لم يدم طويلاً هو أيضاً. وكان بلانط أحد الذين دافعوا عن أحمد عرابي بالنفوذ والمال وساهم في إنقاذه من المشنقة فاكتفت السلطات العسكرية البريطانية بنفيه إلى سيلان (سري لانكا اليوم).

قبل وصول بلانط وزوجته إلى حائل، كان قد وصلها أوروبي آخر من أولئك الذين سجلوا أنفسهم في دفتر الرحّالة الأساسي. إنه الإلزاسي تشارلز هوبير الذي كانت مهمته نقل الكتابات الأثرية. ثم عاد هوبير إلى حائل في العام ١٨٨٣ مرة أخرى ومعه عالم آثار ألماني يدعى جوليو أوتنغ. لكن يبدو أن الرجلين كانا لا يطيقان أحدهما الآخر ولذا أمضيا الوقت في المشاجرة، على أنهما نجحا في شراء حجر تيماء الشهير. وقد قتل هوبير فيما بعد في شجار مع مرافقيه، غير أن محمد بن الرشيد أمير حائل أرسل جميع أوراقه وحجر تيماء إلى فرنسا.

بعد الليدي آن بلانط كانت الزائرة البريطانية الثانية لحائل في العام ١٩١٤ جيرترود بل، وهي مغامرة كانت قد دارت طويلاً في غرب آسيا وحاولت تسلّق الألب. والطريف في رحلة جيرترود بل التي كانت في الرابعة والأربعين من العمر آنذاك أنها سافرت سرًّا من دمشق بعدما اشترت ٢٠ جملاً واستأجرت ثلاثة جمالين وخادمين وأقلعت من دون معرفة أحد لأنها كانت تدرك سلفاً بأنه لا البريطانيين ولا الأتراك يمكن أن يسمحوا لها القيام بالرحلة.

مثل غيرها من الذين سبقوها أو الذين جاءوا بعدها، أعدّت جيرترود بل للرحلة كما يجب. ولهذا السبب التحقت بأكسفورد حيث كانت أول امرأة في تاريخ الجامعة الكبرى تنال الدرجة الأولى في التاريخ. وبالمقارنة مع بقية الرحّالة كانت حياتها هادئة نوعاً ما. فقد بدأت رحلاتها إلى الخارج بزيارة إلى أحد أقربائها الذي كان وزيراً مفوضاً في بوخارست ثم في طهران. وخلال وجودها في طهران تعلّمت اللغة الفارسية وقامت

لاحقاً بترجمة الأعمال الأدبية لشعراء فارسيين كثيرين. وفي العام ١٨٩٩ توجهت إلى القدس حيث درست العربية ومن هناك سافرت إلى بعلبك والبتراء، وهي مغامرة في تلك الأيام بالنسبة إلى امرأة بمفردها. وفي العام ١٩٠٥ ذهبت إلى تركيا وسورية ثم إلى العراق في العام ١٩١٠.

في خريف ١٩١٥ طلب إليها الانضمام إلى «المكتب العربي» الذي أسس في القاهرة. ويقول لنا جيرالد دو غوري «إنها كانت ذات قيمة فائقة في جميع المعلومات للجيوش المقاتلة في الأراضي العربية». وبعد ذلك أصبحت السكرتيرة الشرقية للسير بيرسي كوكس المفوض المدني في بغداد، وهو منصب حافظت عليه حتى وفاتها في العاصمة العراقية في العام ١٩٢٦.

وقد قال أمين الريحاني في وصف جيرترود بل الآتي: «العراقيون يسمّونها الخاتون، أي سيدة البلاط التي تعنى بخير الدولة وازدهارها. وقد وجدت في الآنسة بل (بقيت من دون زواج بسبب قصة حب في صباها) موهبتين أخريين: لسانها وعقلها. إن مظهرها إنكليزي تماماً (طويلة، ناحلة، أريستوقراطية الملامح) وشعرها الفضي متناسق مع لون بشرتها المائل إلى اللون الزهري... إنها تملك ناصية الحديث بأيديها وتتحدث العربية من دون لكنة تقريباً تخلطها دائماً بشيء من الإنكليزية وبإشارات من أيديها زيادة في التأكيد. لقد أذهلتني طاقتها وبسرعة الحركة لديها».

كانت جيرترود بل واحدة من أربع مستعربات تحوّلْن إلى ما يشبه الأساطير: هي، الليدي استر ستانهوب، فرايا ستارك، التي توفيت مؤخراً، وروزيتا فوربس.

كانت رحلة جيرترود بل مليئة بالمغامرات لكن لدى وصولها إلى حائل لم يسمح لها بالدخول وأعطيت منزلاً خارج أسوار المدينة التي لم يسمح لها بدخولها إلا في اليوم الأخير من زيارتها. ومن هناك اتجهت إلى العراق حيث أمضت معظم حياتها في خدمة الحكم البريطاني، أولاً كخبيرة في شؤون القبائل ثم كمديرة للآثار.

لم يعد ثمة شك في أن الدول الكبرى في تلك المرحلة بدأت في دخول المنطقة على نطاق واسع، وكان الرحّالة، أو المبعوثون الرسميون، يلعبون دور الكشافة في استطلاع الجزيرة المغلقة إلا على المخيلات الخصبة. ولعل أكبر دليل على الصراع بين الغرب والإمبراطورية العثمانية كان تعيين أول قنصل بريطاني في جدّة في العام ١٨٣٦، بعدما كانت البحرية البريطانية قد استكشفت عمان في العام ١٨٣٦ واحتلت عدن بقيادة الكابتن «هينز» في العام ١٨٣٩، وكان ساحل عمان في القرن السادس عشر تحت سيطرة البرتغاليين الذين احتلوا سوقطرة ومسقط. وفي العام ١٦٤٩ طرد البرتغاليون من مسقط، حين زحف المواطنون على الحامية ذات يوم أحد، وهو اليوم

الذي ينصرف فيه الجنود إلى السكر، وأبادوا الحامية عن بكرة أبيها. وعرفت عُمان استقلالاً دقيقاً طوال هذه المرحلة، وفي العام ١٧٧٥ وصل إليها أول معتمد سياسي بريطاني لكنه ما لبث أن توفي من شدّة الحر. ووصف الكابتن البريطاني وايتلوك العمانيين بالقول: «إنك نادراً ما تسمع شجاراً وهم يحترمون الكبار في السن أشد الاحترام، أما الضيافة فأسطورية». وكتب اللفتانت جيمس ولستد، الذي نزل في عمان مع وايتلوك في العام ١٦٣٨، أن عمان مليئة «بحقول القمح وقصب السكر». وبعد وصوله بشهرين وقف على رأس الجبل الأخضر فرأى الربع الخالي منبسطاً أمامه، فكتب:

«سهول شاسعة من الرمل المتحلّل الذرات، لا يجرؤ على دخولها حتى أكثر البدو شجاعة، تمتد على مدى النظر. لا تلة هناك ولا حتى تغيير في اللون يكسر رتابة هذا الخواء الهائل».

وقد حاول ولستد أن يعبر الربع الخالي مرة أخرى في العام التالي، لكن قبيلة عربية أوقفته في البريمي فعاد إلى مسقط حيث وضع كتاباً اتّهم بأنه لم يعط فيه وايتلوك حقه برغم مساهمة هذا في تأليفه، فما كان منه إلا أن حاول الانتحار بإطلاق النار في فمه، لكنه عاش ثلاث سنوات أخرى ومات في الحمى في الهند عن ٢٧ عاماً.

إذن في هذه المرحلة كان البريطانيون قد احتلوا عدن واكتشفوا اليمن وعمان، وكان الرحّالة قد دخلوا نجد ووصلوا إلى الرياض، إلا أن حضرموت كانت لا تزال مجهولة. وفي ٢٦ حزيران/ يونيو ١٨٤٣ وصل إلى المكلا، على بعد ٣٠٠ من عدن، رجل يدعى عبدالله الهود، وهو حاج في طريقه إلى زيارة النبي «هود» في حضرموت! لكن الحاج عبدالله هود كان في الواقع البافاري أدولف فون فيردي، الذي يعمل لحساب أوتو ملك اليونان. وبعدما سار الحاج عبدالله حوالى تسعة أيام وصل إلى نهر كبير وبساتين نخيل ضخمة في وادي دوان. ومن هناك اتجه إلى وادي عمد حيث اكتشف أن شيخ الضاحية، الذي تعلّم الإنكليزية في الهند، كان يقرأ «حياة نابوليون بونابرت». ومن وادي عمد اتجه إلى ساوا على حافة الربع الخالي، فكان أول أوروبي يرى الربع من الغرب بعدما كان ولستد أول أوروبي رآه من الشرق. وقد وصف فون فيردي المشهد المذهل كالتالي:

«تصور سهلاً رمليًا ضخماً مغطى بالتلال المتحركة التي تجعله يبدو وكأنه بحر متحرك. لا أثر لأي نبات على الإطلاق يتحرك في هذا الفراغ الهائل، ولا طير واحد يقطع بتغريده هدوء الموت».

بعد ذلك عاد إلى بلدة الخربية لكي ينطلق منها إلى هود لكنه وصل إلى بلدة سيف حيث تصدى له الأهلون ظنًّا منهم أنه جاسوس إنكليزي، فانهالوا عليه ضرباً إلى أن فرّ تاركاً خلفه حوائجه ومذكراته. وحين عاد إلى أوروبا لم يصدق أحد روايته لأنه لم يكن لديه ما يثبتها، فهاجر إلى التكساس حيث انتحر في العام ١٨٧٠.

كان ذلك زمن الفروسية والانتحار والقصص الرومانسية التي لا نهاية لها. وهنا، في هذه الانتقاءات غير المرتبة ضمن تدرّج تاريخي، هنا تدخل قصة الفرنسي ليون روش، أحد مشاهير الرحّالة إلى الجزيرة! ولد ليون روش في غرينوبل العام ١٨٠٩ فاحتضنته خالته بعد وفاة أمه وهجره والده إلى الجزائر. وحين بلغ الثالثة والعشرين ترك دراسة القانون وانضم إلى والده في الجزائر كضابط في الحرس الوطني. وهناك وقع روش الحالم في حب فتاة من الأرستوقراطية الجزائرية في الرابعة عشرة من العمر تدعى خديجة، لكن أهلها رفضوا السماح لها بالزواج من مسيحي.

وانصرف روش إلى تعلّم العربية لكي يتمكّن من مراسلة خديجة عن طريق خادمتها، وبعد ذلك أصبح مترجماً في الحملة الفرنسية ضد الزعيم الوطني عبد القادر الجزائري. لكن بدلاً من أن يكنّ الكره والبغضاء لعبد القادر نمت لدى روش موجة إعجاب شديد بالزعيم الوطني. وما لبث أن اعتنق الإسلام من أجل أن «يجمع بين الجزائر المسلمة وفرنسا المسيحية». ثم سافر في داخل الجزائر أياماً طويلة إلى أن بلغ مضارب الأمير عبد القادر. وقد أعجب الأمير بصدق ليون روش بحيث تكفّل شخصياً بتدريسه التعاليم القرآنية وجعله مساعده الخاص. وحين عثر والد روش على معسكر عبد القادر اتجه إليه وتوسّل ابنه العودة معه لكنه رفض. وقد أثّر ذلك في نفس عبد القادر تأثيراً كبيراً. وبعد فترة انتقل الأمير وقواته إلى بلدة عين مهدي فحاصروها أربعة أشهر. وحين دخلوا إليها اكتشف روش أن حبيبته خديجة كانت بين الضحايا! ومثل جميع رومانسيي القرن التاسع عشر أراد الانضمام إليها. لكن عبد القادر ثناه طالباً إليه الاستعداد لحملة على الفرنسيين، فتردّد ثم امتنع. وأطلقه عبد القادر في سبيله غاضباً، قائلاً له جزاؤك في الإسلام جزاء المرتدّين لكنني أترك معاقبتك لله!

عاد روش إلى باريس يوم كانت تعجّ «بالمستشرقين» فانضم إلى موظفي الدولة الفرنسية، وعادت إليه أحلامه بالجمع بين الجزائر وفرنسا. وهكذا وضع مشروع «فتوى» في هذا الشأن وذهب إلى جامعة برقة في ليبيا لكي يطلب إلى العلماء التصديق عليها، فأحالوه بدورهم على علماء الأزهر الذين قالوا إن مجلس العلماء في مكة المكرمة وحده يستطيع التصديق عليها.

خلال وجوده في القاهرة تعرّف روش إلى محمد علي باشا حيث أعرب الزعيم المصري عن تقديره لكفاح الشعب الجزائري ضد الفرنسيين، وقد أعجب محمد علي بصدق روش ونواياه لكنه لم يؤخذ كثيراً بمدى اعتناقه الإسلام. وكتب روش فيما بعد أنه رأى في عيني محمد علي تلك القسوة التي أمرت بمذبحة المماليك. ومن القاهرة أخذ الفرنسي الطريق البري إلى السويس ثم الباخرة إلى ينبع، حيث أثارته معاملة الحجاج الجزائريين الذين حشروا كل ٢٠٠ في مقصورة تتّسع فقط لخمسين شخصاً، وقد كتب يشكو شركة النقل إلى محمد علي والباب العالي والقناصل الأوروبيين في جدّة. وبعد أيام من وصوله اتجه روش إلى الطائف حيث عرض على مجلس للعلماء المشروع الذي جاء من أجله. ومن هناك اتجه إلى عرفات، حيث تعرف إليه جزائريان وطرحوا الصوت عليه، وفجأة رأى نفسه محمولاً على أكف ستة من الزنوج الأشداء الذين شدّوا وثاقه إلى أحد الجمال السريعة فنقل إلى جدة حيث وضع على سفينة أقلته إلى مصر. وتبيّن فيما بعد أن محمد علي وضع حراساً يراقبون تحركات روش ويحمونه في وقت واحد.

كانت طموحات وأشياء كثيرة تتنازع ليون روش الذي وجد نفسه في خدمة الجهاز السري الفرنسي. وحين عاد إلى أوروبا انتابته نوبة من الندم من جراء عمله التجسّسي فرأى أن الطريق الوحيد إلى الهرب هو الانتماء إلى سلك الرهبنة فذهب إلى روما وانضم إلى اليسوعيين، إلا أن الفرنسيين لم يقبلوا استقالته وأقنعوا البابا غريغوري الثامن عشر بعدم قبوله، وهكذا عاد إلى الجزائر لكي يساهم في هزيمة الأمير الكبير عبد القادر، وأنهى حياته سفيراً لفرنسا في اليابان.

كان ليون روش الفرنسي يشبه إلى حدٍّ كبير البريطاني الذي جاء بعده بعشر سنوات ريتشارد بورتون الذي تنازعته هو الآخر مشاعر وأهواء كثيرة من الإمبريالية إلى الوصولية إلى الشغف بما رأى.

حتى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن قد تجمّعت لدى الأوروبيين خريطة دقيقة للجزيرة. وقد وضع العالم البروسي كارل ريتر خريطة ناجحة جدًّا في العام ١٨٥٢، استناداً إلى رحلة الكابتن جورج سادلبير ومعلوماته، لكنها خلت من أي شيء عن واحتي حائل والرياض العصيتين. إلا أن الاهتمام بالمنطقة الآن لم يكن أقل منه أيام نابوليون. بل العكس، فقد ازداد الفضول (والطمع) مع تطور السفن البخارية والسكك الحديدية والطرق البحرية. وكانت نجد الآن قد ردّت جيوش محمد علي واستقلت إلى الأبد بعد معركة تركي بن عبدالله آل سعود الشهيرة مع المصريين.

لكن كان لا بدّ من رجال ينقلون صورة عن أوضاع نجد إلى أوروبا. وكان أول غربي وصل إلى هناك الفنلندي جورج أغسطس فالين المولود عام ١٨١١ في خليج بوثنيا والذي كان يجيد تسع لغات وهو في العشرين من العمر! وقد تلقى فالين العربية في مدرسة اللغات الشرقية في سانت بطرسبرغ لمدة عامين ثم تخرج طبيباً من معاهد المدينة. وصل فالين إلى القاهرة في العام ١٨٤٥ حيث عاش كمسلم لمدة عام يذهب إلى الأزهر لتلقي العلوم. وهناك تقرب منه أحد موظفي وزارة الخارجية المصرية وعرض عليه أن يموّل رحلته إلى الجزيرة العربية، لقاء تزويد الحكومة المصرية بالتقارير عن الأوضاع السياسية. أما الغطاء الذي اتفق أن يسافر تحته فهو تجارة الخيول. وهكذا غادر القاهرة في نيسان/ أبريل ١٩٤٥ ومعه اثنان من البدو. وبعدما عبر سيناء أمضى شهرين في معان ثم اتجه شرقاً عبر الصحراء السورية إلى آبار ويسات ومنها إلى الجوف، بوابة النفود، أي تلك الصحراء الحمراء التي تقوم على حراسة الجزيرة في الشمال.

بدأ رحلته عبر النفود في الأول من أيلول/ سبتمبر ومعه دليل «يتبع نجمة القطب» وفي اليوم العاشر وصلت القافلة إلى مياه جبه والعطش يكاد يقضي عليها. وعلى مسافة أيام أخرى كانت تقع حائل التي «تحيط بها حقول الذرة وحدائق الخضار ويردّ عنها جبل شمّر لفح الشمس».

أمضى فالين شهرين في حائل وقرر الذهاب إلى الرياض ومنها إلى الخليج، لكن أمواله نفدت، وهكذا انضم إلى قافلة من إيران ذاهبة إلى مكة المكرمة فوصل معها إلى جدّة وفي جيبه «شلن» واحد. وعاد إلى القاهرة حيث أمضى ثلاث سنوات، ثم في شباط/ فبراير ١٨٤٨ عاد إلى الجزائر من جديد وقطع الجبال حتى تبوك ثم اتجه إلى حائل لكي يحاول مرة أخرى الذهاب إلى الرياض، لكن الأمير طلال بن الرشيد الذي اكتشف حقيقة أمره نصحه بألاّ يفعل، وهكذا اتجه من هناك صوب بغداد لكنه بلغ البصرة مفلساً. وعاد فالين إلى فنلندا في العام ١٨٥٠ حيث عين أستاذاً للغات الشرقية في جامعة هلسنكي. فأمضى في عمله عامين لكن الصحراء نادته من جديد، فراح يستعد مرة ثالثة للسفر إلى الرياض لكنه توفي قبل أن ينهي الاستعدادات لذلك.

بعد فالين مباشرة سوف يصل إلى نجد أشهر الرحّالة الذين استطاعوا بلوغها في تلك المرحلة، وأكثرهم غموضاً أيضاً، أي غيفورد بالغريف وهو إنكليزي كان يعمل في خدمة نابوليون الثالث، تحوّل من جندي إلى راهب يسوعي ولعب دوراً مهمًا خلال الحرب الأهلية في جبل لبنان في العام ١٨٦٠. كذلك أوفده نابوليون الثالث لمفاوضة

حليم باشا، حفيد محمد علي، حول جعله، أي حليم باشا، ملكاً على مصر تحت الوصاية الفرنسية. وفي العام ١٨٦٢ أرسل إلى حائل والرياض لرفع تقارير عن نجد، فدخلها تحت اسم سليم أبو محمود العيس وكان برفقته كاهن أرثوذكسي (أصبح بطريركاً فيما بعد) اتخذ لنفسه اسم بركات.

كان كارستن نايبور يحب جمع الأزهار ورسم الخرائط لكن وليم غيفورد بالغريف لم يكن يحب شيئاً ولا كان واثقاً من أنه يحب أحداً. وحتى هذه اللحظة لا يزال هذا الإنكليزي الذي عمل لحساب اليسوعيين الفرنسيين، أكثر الرحّالة غموضاً، مع أن الغرب يعتمد على كتبه كمرجع في أسفار الجزيرة والمشرق. لكن ثمة حقيقتين لا يرقى إليهما الشك في رحلات بالغريف، الأولى هي أنه ذهب إلى المنطقة في مهمة سياسية، والثانية هي أنه كان حاقداً سلفاً، ولذا فإن كتاباته لا تتميّز دائماً بالدقة التي لازمت كتابات بوركهارت أو بورتون أو تشارلز داوتي أو، خصوصاً، كارستن نايبور.

عرف العالم من هو وليم بالغريف لكنه لم يعرف تماماً من كان. وحين توفي في ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٨٨٨ ملحقاً في سفارة بريطانيا في الأوروغواي كتبت إحدى صحف لندن تقول «إن الذين عرفوا غيفورد بالغريف وكفاءاته لم يكونوا يتوقعون أن ينهي هذا الرجل الفائق المعرفة بأمور الشرق، أيامه الأخيرة كمندوب رسمي للحكومة البريطانية في أميركا الجنوبية».

كان بالغريف ابناً لعائلة فيكتورية من أهل النخبة: شقيقه الأكبر، فرانسيس تورنر بالغريف، كان أستاذ الشعر في أوكسفورد، وشقيقه الآخر روبرت بالغريف كان رئيس تحرير «الإيكونومست»، وشقيقه الثالث ريجينالد كان كاتب مجلس العموم ومؤلفاً شهيراً، أما والده فهو السير فرانسيس بالغريف مؤسس دائرة المحفوظات الوطنية.

وليم غيفورد بالغريف كان يعتبر الأكثر موهبة في العائلة، لكنه بدلاً من أن يلتحق مثل أشقائه بالوظائف الهادئة، اختار المغامرة! وقد كان ذلك «صدمة» لأبيه المولود فرانسيس مائير كوهين، من عائلة ثرية في البورصة البريطانية. غيفورد، كان الصبي الثاني في العائلة! وفي العام ١٨٣٨ أرسل إلى «تشارتر هاوس» حيث فاز بالميدالية الذهبية في الشعر، ومنها انتقل إلى أوكسفورد، لكنه قطع دراسته لكي يلتحق بفرقة المشاة الثامنة في بومباي، الهند.

البعض قال آنذاك إن السبب هو حب بالغريف للرياضة. لكن خبراً صغيراً في «التايمس» في العام ١٨٦٥ يفيد أن بالغريف رفض اعتناق المذهب الأنغليكاني وفضّل

بدلاً من ذلك الذهاب إلى الهند. بعد ذلك بعامين نراه ينضم إلى الرهبنة اليسوعية في أحد أديرة جنوب الهند، في نيغاباتام.

لماذا ينضم الرجل الغامض إلى الكنيسة الكاثوليكية بدلاً من الكنيسة البروتستانتية؟ إنه أيضاً أحد أسراره الكبرى. لكن يوم وفاته كتبت مجلة «الجمعية الجغرافية الملكية» أنه كان «لديه رغبة مبكرة في القيام بعمل إرسالي بين الأعراق العربية، وهي رغبة ازدادت بعد ترجمة ملحمة عنترة التي سيطرت عليه سيطرة كاملة». لكن لو كان ذلك صحيحاً لما كان هناك ما يمنعه من القيام أيضاً «بالأعمال الإرسالية» للكنيسة البروتستانتية! ومن الواضح أن ولاءه للكاثوليكية كان هو أيضاً موضع شك، ولم يوفده اليسوعيون في عمل إرسالي إلى سورية ولبنان إلا بعد فترة طويلة من التجربة والامتحان وحين قُبل أخيراً في الرهبنة اليسوعية عمد فوراً إلى تغيير اسم عائلته إلى كوهين من جديد. وليس هناك شك في أن بالغريف كان في هذه المرحلة ـ تقول كاثرين تيدريك ـ مهتمًا كثيراً بأصوله اليهودية! لماذا هذا الاهتمام المفاجىء باليهودية «التي وضعها والده خلفه»؟ إنه سرٌ آخر! وطوال عمله مع اليسوعيين سوف يعرف بأسماء كثيرة ليس بينها اسم غيفورد الذي أعطاه إياه والده. الأسماء الأخرى: غليوم بالغريف، غويلموس بالغريف، ومايكل كوهين، مايكل اكس كوهين وميشال سهيل!

في سورية ولبنان انصرف بالغريف إلى إظهار التزامه بالكثلكة وناصب المبشّرين البروتستانت أشد أنواع العداء، كما ادّعى أنه نجح في اجتذاب الكثيرين إلى صفه بسبب طلاقته في اللغة العربية وتأثيره في الناس. ويقول الرحّالة السير ريتشارد بورتون، الذي كان يحتقره احتقاراً شديداً، إن بالغريف كان ناشطاً سياسيًا إلى حدٍّ بعيد وكان يهاجم إنكلترا في العظات التي يلقيها في كنائس بيروت.

ثمة سرٌ آخر: كيف اتفق بالغريف مع الفرنسيين وعلى ماذا؟ لكننا في أي حال سنجده في وقت لاحق يعمل لحساب نابوليون الثالث، أي ضد أهداف إنكلترا وأغراضها التي كان يصرّ في كتبه على إخلاصه المطلق لها! إلا أن «ميا آلين» التي كتبت سيرته مؤخراً تقول إن أول اتصال له مع نابوليون الثالث، وفقاً للوثائق الفرنسية، بدأ في أعقاب المجازر المارونية ـ الدرزية في العام ١٨٦٠. ويبدو أنه نجا بمعجزة من إحدى معارك دمشق، كما سرت شائعة في ذلك الوقت تقول إنه قام بتنظيم الدفاع عن مدينة زحلة، بسبب خبرته العسكرية. وبعدما أقدمت فرقة فرنسية على فرض الهدوء في لبنان غادر بالغريف إلى أوروبا حيث قدم تقريراً إلى نابوليون الثالث عن الوضع في سورية ولبنان، ومن ثم ألقى عدة محاضرات في إيرلندا لكي يجمع المال من أجل بعثة

جديدة إلى المشرق. إلا أنه عاد إلى فرنسا وبدأ يعد العدة لرحلته إلى نجد وفي ذهنه أن يمارس التبشير. لكن الروايات تختلف بعد ذلك وتراوح بين أنه استطاع فعلاً أن يبشّر سرًّا في بعض الأحيان، وبين أنه تأثر بالإسلام وربما اعتنق الدين الحنيف. في أي حال كان نابوليون الثالث هو الذي دعم بالغريف بالمال فيما منحه البابا «التشجيع المعنوي». وقد كانت له الجرأة أن يكتب بنفسه إلى غلادستون قائلاً: «في العام ١٩٦١ كلّفني نابوليون الثالث أن أزور مصر وأنا في طريقي إلى سورية، وأن أجتمع هناك سرًّا إلى حليم باشا (ابن محمد علي باشا) المغامر الألباني الذي جعل نفسه حاكماً على مصر، من أجل أن أبحث معه خطة الإمبراطور في جعله نائب الملك في مصر تحت السيادة الفرنسية. وقد كانت الخطة كلها طبعاً في حوزتي، والحقيقة أنني شاركت الإمبراطور وضع معظم تفاصيلها».

لم تصب مهمة بالغريف لدى حليم باشا أي نجاح، لكن لدى عودته من مصر رفع إلى الإمبراطور تقريراً مفصّلاً لا يزال في ملفات الخارجية الفرنسية إلى اليوم، وفيه يرسم خطة مفصلة لغزو فرنسي إلى سورية عبر مصر ينتهي بتوحيد البلدين تحت السيادة الفرنسية! على أن إعجاب بالغريف بنابوليون الثالث، مثل إعجابه بجميع الآخرين، لم يكن سوى ظاهرة مؤقتة. فقد حمل فيما بعد على «بريق الإمبراطورية الثانية الزائف» متّهماً الإمبراطور نفسه بالاحتيال. إلا أنه خلال حالة الإعجاب تلك، كان مخلصاً لسيده. وكان أكثر ما استهواه في الإمبريالية الفرنسية نزعتها «التحضيرية»، وهو أمر بحث عنه عبثاً في صنوتها البريطانية. وهو يبلغنا بكل بساطة في كتابه «حكاية رحلة عبر وسط الجزيرة العربية وشرقها» (١٨٦٥) أنه كانت لديه الرغبة في «جمع مياه الشرق الراكدة مع نهر التقدم الأوروبي الجارف»، من دون أن يكون مهمًّا من هي الدولة أو الجهة الغربية التي يعمل لحسابها. وفي هذا المعنى يختلف بالغريف اختلافاً شديداً عن ريتشارد بورتون أو بقية الرحّالة البريطانيين الذين كانوا يضعون مصالح التاج فوق كل اعتبار آخر.

بدأت رحلة بالغريف إلى الجزيرة في العام ١٨٦٢. غير أن رؤسائه من الكهنة اليسوعيين لم يدعوه يذهب بمفرده فجعلوا راهباً من لبنان، كان قد تلقى علومه في فرنسا وإيطاليا، يرافقه في الرحلة. غير أن «الأب إلياس» ما لبث أن تخلّى عن المهمة بسبب أوجاع الروماتيزم التي كان يعاني منها، فاختار بالغريف أحد المدنيين الفرنسيين بديلاً منه، خلافاً لنصيحة رؤسائه. إلا أن محاولة بالغريف الأولى في الوصول إلى نجد منيت بالفشل، فعاد إلى لبنان وعثر على رفيق لبناني للرحلة المقبلة هذه المرة.

وفقاً للتقاليد اليسوعية المتبعة آنذاك، سافر بالغريف وهو يرتدي الزي العربي ويتبع التقاليد العربية حيثما استطاع. وتلبّس شخصية طبيب من لبنان منتحلاً لنفسه اسم «سليم أبو محمود العيس». وانتقد بالغريف فيما بعد الرحّالة البريطانيين الذين تلبّسوا الشخصية العربية في ترحالهم واعتنقوا الإسلام، لكن ثمة اعتقاداً شبه أكيد لدى العلماء بأن بالغريف سافر كمسلم. ويقول تشارلز داوتي الذي عبر الجزيرة في العام ١٩٧٦ إنه كان على ثقة تامة من ذلك. وقد توجّه بالغريف من معان إلى حائل، مما يعني أنه قطع صعوبات النفود التي يبدو أنها كانت أقسى حتى مما تخيل. وشكّك الكثيرون آنذاك في روايته عن الرحلة عبر النفود، لكن الرحّالة الذين جاءوا بعده أثبتوا صحة كلامه. ويصف بالغريف الوصول إلى ذلك الوادي الصحراوي الجاف بقوله:

«ها نحن الآن نعبر محيطاً هائلاً من الرمال الحمراء الرخوة، التي تبدو للعين بلا حدود، وقد تراكمت في صفوف هائلة من التلال المرصوفة إلى جانب بعضها بعضاً من الشمال إلى الجنوب، مرتفعاً فمنخفض بعد، منخفض فمرتفع يعلو نحو ٣٠٠ قدم، وقد انحدرت جوانبها وعلت رؤوسها تيجان مثل تيجان الهداهد، ورفعتها رياح الصحراء كثباناً في كل اتجاه. وسرعان ما يشعر المسافر وهو في أعماق هذه الممرات كأنه يختنق في قلب مغارة رملية مسدودة، تحيق به الجدران الحادقة من كل صوب. أما في حالات أخرى فحين يكافح المسافر صعوداً يرى تحته ما يبدو بحراً واسعاً من النار، يتضخّم أكثر فأكثر بفعل رياح موسمية ثقيلة تجعل سطحه مليئاً بالموج الحار الأحمر».

في حائل «التي كانت مدينة محصنة من ٢٠ ألف شخص» ذهب إلى مقابلة طلال ابن الرشيد. لكن يبدو أن رجلاً من دمشق رآه وتعرّف إليه فأخبر بأمره، إلا أنه نجا من الاعتقال، وسارع إلى الخروج إلى الرياض ومعه رسالتا توصية، واحدة من طلال بن الرشيد وأخرى من عمه عبيد. وفي الطريق فتح الرسالتين فوجد الأولى رسالة توصية فعلاً. أما رسالة عبيد فتحذر من أن حاملها يتعاطى السحر والشعوذة، فسارع إلى تمزيقها.

لكن في الرياض أبلغه الأمير عبدالله نجل الأمير فيصل (آل سعود) أن المسؤولون يعرفون تماماً هويته وهوية رفيقه، فما كان منه إلا أن سارع إلى الفرار من جديد، وعاد ليكتب مطالعاته ومشاهداته التي بدا بعضها متناقضاً حتى للقارىء العادي. وكتب النقاد آنذاك مقالات عدة يشكّكون بها في صدق بالغريف، كان أهمها مقالاً صدر في «كورترلي ريفيو» ويتهم بالغريف بالكذب إذ يدّعي أنه أول من سافر إلى نجد، كما

يلفت النظر إلى مبالغته وإغراقه في عدم الدقة! ومنذ ذلك الوقت قام جدل كبير حول بالغريف وما كتب. وكان أكبر نقّاده سانت جون فيلبي، الرحّالة الشهير الآخر، الذي توصّل إلى الاستنتاج من خلال رحلاته في السعودية بعد الحرب العالمية الثانية أن بالغريف لم يذهب إلى أبعد من مدينة حائل، وأنه في أي حال لم يكن سوى جاسوس يعمل لحساب نابوليون الثالث! على أن بالغريف نفسه لا يكف عن الإشارة في كتابه، إلى أن ثمة سرًّا لا يستطيع البوح به.

غادر بالغريف السعودية في العام ١٨٦٣ لكي يسافر فيما بعد إلى باريس ولندن وينصرف إلى كتابة انطباعاته. وفيما هو في صدد ذلك بلغه أن الفاتيكان لن يوفد بعثة تبشيرية أخرى إلى الجزيرة العربية، فثارت ثائرته واعتبر أن كل «خبرته» قد ذهبت سدى!

لذلك قرّر بالغريف التوقف أيضاً عن «خدمة رسالته» في سلك الرهبنة اليسوعية، وبدأ رؤساؤه يلاحظون أنه «يعاني من متاعب روحية». وفي النهاية كتب رسالة إلى رئيس اليسوعيين في روما، «الأب بكس»، يطلب فيها إعفاءه ومن ثم ذهب إلى برلين حيث أعلن تخلّيه عن الكثلكة كلّها، وأخذ يكتب المقالات منتقداً «النظام الكثوليكي وتمتّعه بالأشياء الدنيوية».

هل انتحى بالغريف حقًّا إلى الرهبنة اليسوعية أم فعل ذلك فقط لقناعة في نفسه بأن عليه «حمل الرسالة التبشيرية إلى العرب»؟ أم كان له غرض آخر في الجزيرة العربية لم يعرفه أُحد، وحين لم يستطع تحقيقه ترك اليسوعية كما ترك الجندية من قبل؟ لكن أيضاً ما هي «المتاعب الروحية» التي مرّ بها بعد عودته من السعودية؟ إن الكاهن الفرنسي ميشال جوليان يخبرنا في كتابه «البعثة الجديدة لفرقة المسيح في سورية ١٨٣١- ١٨٩٥» أن بالغريف «قد أرغم» في إحدى مراحل الرحلة على إشهار إسلامه! لكن ثمة نظرية أخرى تقول إن تعرّفه إلى الإسلام هو الذي غيّر في قناعاته السابقة، وإن هذا هو السبب، في أي حال، الذي جعله يتخلّى عن الكثلكة نهائيًّا. ويبدو في الأساس أن كتابات الشاعر الفرنسي لامارتين عن «رحلة إلى الشرق» هي أكثر العوامل التي أثّرت في رغبة بالغريف بالسفر، وهو غالباً ما يعرب عن آراء شبيهة بتلك التي أعرب عنها لامارتين، غير أنه، كما فعل مع كل شيء آخر أحبه في مرحلة ما، عاد وانتقد الرحّالة الفرنسي انتقاداً شديداً.

ولا بدّ للمرء أن يلاحظ بعض الشبه في «المتاعب الروحية» بين لامارتين وبالغريف. فقد سافر الشاعر الفرنسي إلى الشرق وهو يطرح التساؤلات حول الأفكار الكاثوليكية

التي نشأ عليها. وبالرغم من أنه لم يكن ذلك المدافع عن الإسلام، إلا أنه في كل الحالات رأى فيه «العبادة المجرّدة لإله غير مادي». ومع صدور كتابه «رحلة إلى الشرق» في العام ١٨٣٥ أعلن عن تخلّيه عن الكثلكة! ولم يتطرّق بالغريف بصورة مباشرة إلى آرائه الدينية، غير أنه نشر في العام ١٨٧٢ رواية تدور أحداثها في الشرق بعنوان «هرمان آغا» وفيها يعرض أفكاراً مشابهة كثيراً لأفكار لامارتين. فالطنطاوي بك، الرجل الحكيم والمرشد الروحي لبطل الرواية الأوروبي، يعلن أنه يؤمن بالله الواحد الأحد! لكن مثل لامارتين أيضاً سوف يعرب بالغريف عن حذر واضح وكره أكثر وضوحاً للبدوي. وسوف يخصص الفصل الأول من كتابه لتهديم صورة ذلك البدوي النبيل التي سادت في الغرب: فهو، أي البدوي، ليس ذلك الرجل الذي يموت من أجل كلمته وإنما ينكث بها بسهولة، وهو ليس ذلك المسلم المؤمن بل هو رجل يعبد الشمس ويردّد الشتائم واللعنات، وهو مضياف لكن فقط من أجل أن يكتسب شيئاً ما من ضيفه، وهو، في نهاية الأمر، يقدّم اللحم لضيفه.. نصف نيّء! أكثر من ذلك أن البدو ليسوا الأكثر نبلاً في العرق العربي بل «هم فرع منهار من هذه الشجرة العظيمة»! وقد أقرّ بالغريف بأن ثمة بعض المزايا في الطبع البدوي: الديبلوماسية، الرجولة، الذكاء، الكرم، لكنها صفات تمنعها التربية السيئة من الظهور!

يميل البعض إلى القول إن سبب حقد بالغريف هو التجربة الشخصية. فقد زعم أن مرافقيه من البدو وضعوا خطة لسرقة أمواله وتركه يموت في الصحراء! وفي أي حال فإن «خبرته» في البدو لم تتعدّ بالفعل بعض الملاحظات والانطباعات الشخصية وما عدا ذلك كان تأثراً مسبقاً بما كتبه لامارتين عن «النبيل المتوحش». غير أننا نلاحظ أيضاً، بعض المرارة من أصوله اليهودية في معرض انتقاده القبلية العربية:

«كان هناك ميل لا أعرف سببه، لامتداح النظام القبلي وتزيينه بعنوان «البطريركية». لكن البطاركة ليسوا أمة ولا حتى شعباً، وبعدما أصبح العرق اليهودي شعباً في النهاية، لا بدّ لنا أن نلقي نظرة على تاريخهم الوطني لكي نجد الدليل على أن خراب إسرائيل عائد في الأغلب إلى تلك الروح القبلية التي جعلت منسى ضد أفرام وأفرام ضد منسى والاثنين ضد يهوذا».

كانت المرحلة آنذاك مرحلة القوميات الكبرى وبالغريف لم ير في العرب سوى شعب «إذا ما اتّحد اتّحد ميكانيكيًّا وليس كيميائيًّا! هو، هذه المرة، كان يريد الوحدة للعرب! وهذا الرجل الذي عمل في خدمة بريطانيا وفرنسا وألمانيا كان يدين بالولاء المطلق للبلد الذي لم يستطع الوصول إليه: اليابان! عبثاً يبحث عن ذاته في أي مكان. ولذلك تضايق من عملية البحث الدائمة عن الذات لدى البدوي وارتاح إلى أهل نجد

الذين رأى فيهم رمز الاستقرار «ونموذج العربي الحقيقي». وزعم بالغريف أن الرأي العام الأوروبي قد ضلّل في هذا الشأن لأنه استقى فكرته عن الطبع العربي «من مواد جمعت في سورية ومصر وما بين النهرين والعراق وربما تونس والجزائر وحتى في جدّة وعلى البحر الأحمر»! في حين أن سكان هذه المناطق ليسوا عرباً ولو تكلّموا العربية بل هم:

«خليط من الأكراد والتركمان والسوريين والفينيقيين والأرمن والبربر واليونان والأتراك والأقباط والألبان والخالقيين لكي لا نذكر شيئاً عن بقايا الأعراق. بنسبة واحد إلى عشرين على الأكثر، لكن حتى هذه النسبة ذوبت أيضاً عبر التأثيرات المحلية (...). إن العرب والجزيرة العربية يبدآن جنوباً من سورية وفلسطين وغرباً من البصرة والزبير وشرقاً من الكرك والبحر الأحمر. ارسم خطًّا مستقيماً من رأس البحر الأحمر إلى رأس الخليج الفارسي، وكل ما هو تحت هذا الخط هو فقط عربي...».

هذا الوصف العنصري يدلّنا على هواجس بالغريف أكثر مما يدلّنا على طبيعة العرق العربي. وهنا يضيع الهوس القومي بألوية الشخصية بالبحث عن الذات من جديد لدى الرجل المتحدّر من أصل يهودي الرافض للإنغليكانية المدّعي الكثلكة التي سوف يرفضها فيما بعد! وقبل أن يعطي لنفسه الحق المطلق في وصف خصائص الطبع العربي لا بدّ أن يلغي جميع المنافسين بلا هوادة. فالرأي العام الأوروبي من قبله «قد ضلّل» وها هو وحده إذن يقول لنا الحقيقة! كذلك يعتبر نفسه رائد الرحّالة بلا منازع وقد وصل إلى قلب الجزيرة «وكل ما قيل عن الداخل من قبل، سواء حسي أو معنوي، لم يكن سوى النذر اليسير»! لكن الواقع أن الوصف الذي تركه بالغريف لنجد هو الذي شدّ الرحّالة إليها فيما بعد. إن النجدي، كما كتب «رجل صبور، هادىء، يعدّ للهجوم بكل تأنٍّ، أقوى من الثور إذا نوى، تشدّه إلى أرضه وتراثه روح وطنية نادرة في الشرق، لا يطيق إطلاقاً الحكم الأجنبي، جدّي إلى درجة التقشف في حياته اليومية، لا يحب الترف ولا القوى الأجنبية التي هو غريب خصوصاً عن عاداتها...».

لا يتردّد بالغريف في مقارنة الرجل النجدي بالجنتلمان الإنكليزي، فارس تلك الأيام، وحين يصل إلى «العربي الحقيقي» بشكل عام فإنه يفيض في الوصف:

«حب وتقدير قوي للاستقلال الذاتي والوطني، وكره للتدخل في الشؤون الصغيرة والضوابط الخاصة، واحترام عظيم للسلطة ما دامت تمارس بعدل. واستعداد للقيام برحلات طويلة في البر والبحر بحثاً عن الربح والسلطة. صبر واحتمال وثبات في استخدام الوسائل من أجل تحقيق الغايات. شجاعة في الحرب، حيوية في السلام. إنه

لعرق متفوّق على غيره من الأجناس الآسيوية».

في الجزيرة العربية سوف يلتقي بالغريف أميراً يُعجب به أيّما إعجاب. إنه طلال بن الرشيد أمير حائل وحاكم جبل شمّر. وقد كتب يقارن بين الأمير طلال وبين أمراء أوروبا فوجد أنه «متواضع في مخاطبة الناس، متحفظ مع الأريستقراطيين، شجاع وماهر في الحرب، ومحبّ للتجارة والبناء في زمن السلام. متديّن غير متشدّد، لكنه لا ينكث بوعد ولا ينكث بقسم، قاس في الحكم لكنه يكره إراقة الدماء، إنه نموذج لما يجب أن يكون عليه الأمير العربي».

عندما انفصل بالغريف عن اليسوعيين وتخلّى عنهم، كان عليه أن يعثر على مدى جديد «لاستخدام مواهبه». ويبدو أن الاستمرار في العمل لحساب نابوليون الثالث أصبح مستحيلاً، لكن ليس معروفاً إن كان السبب هو العاطفي لدى بالغريف أو رفض الإمبراطور له. وحين أصبح في برلين أخذت تنمو لديه، من دون شك، محبة شديدة لبسمارك. وعندما عرض عليه مسؤول كبير في الحكومة البروسية منصب القنصل في الموصل كان فرحه شديداً. إلا أن فرصة أكثر أهمية ما لبثت أن برزت. إذ حين جاء إلى لندن بعد فترة عرض على السلطات أن يتولى التفاوض لإطلاق الإنكليز الذين يأسرهم الملك ثيودور في الحبشة. ولما قبلت الخارجية البريطانية عرضه كتب إلى برلين يستقيل من قنصلية الموصل. وسافر إلى مصر في طريقه إلى الحبشة لكنه أمضى عاماً كاملاً هناك وهو يتلقى التعليمات المتضاربة. وأخيراً وصلت أنباء تقول إن مبعوثاً آخر يدعى هورمزد راسام استطاع إطلاق الأسرى، فطلب من بالغريف العودة إلى لندن.

أثناء وجوده في إنكلترا وقع في هوى قريبة بعيدة تدعى كلارا جيكل. إلا أن هذه تزوجت من رجل آخر هو اللورد هنلي، فانصرف العاشق المحروم إلى كتابة روايته الشرقية «هرمان آغا» التي هي عرض لآرائه الدينية، وبعد ذلك تنقّل في سلك الخارجية البريطاني في مناصب قنصلية عديدة لا توحي بأن الإمبراطورية سعت إلى استخدام «مواهبه» التي طالما تحدث عنها. فقد أرسل أولاً إلى سوكوم ـ كاليه، وبعدها أصبح قنصلاً في طرابزون، في العام ١٨٧٨ أصبح قنصلاً عامًا في بانكوك، ثم في صوفيا، وأخيراً أصبح وزيراً مفوضاً في الأوروغواي في العام ١٨٨٤.

ولعل أحد أسباب عدم الاستفادة من خبرة بالغريف هو شك الخارجية البريطانية في مدى ولائه وفي مدى استقراره النفسي أيضاً. ويبدو أن رؤساءه لم ينسوا أو لم يغفروا له تهمة التجسس لحساب الفرنسيين. كذلك أظهر رفضاً غير معهود لأوامر الوزارة. فحين كان في صوفيا وبّخه ديزرائيلي بسبب سلوكه تجاه النمساويين. وحين صار في

بانكوك وبخته وزارة الخارجية لأنه بحث مع الملك، من دون إذن، مسألة إقامة مفوضية، وفي الأوروغواي أثار غضب وزارة الخارجية حين قرّر أن يبيع المقبرة البريطانية لبلدية العاصمة! لكن الجنرال غوردون لم يكن يشارك الخارجية رأيها في بالغريف. وقد نقل عنه قوله «اعطني غيفورد بالغريف وسوف أحكم جميع العرب». وكان غوردون يريد لبالغريف أن يعيّن وزيراً مفوضاً في القاهرة، لكن الحكومة البريطانية لم توافقه الرأي.

وخلال عمله الديبلوماسي جمع بالغريف مقالاته في كتابين «آراء في المسائل الشرقية» و«مشاهد ودراسات في بلدان عدة»، وفي الكتابين يظهر مدى اهتمامه بالعلاقة بين الدين والقومية. ويلاحظ تكراراً في «المسائل الشرقية» أن الدين والقومية في الشرق صنوان.

إنه الشرق الذي لن يعرف أبداً حقيقة المهمة التي قام بها هذا الرجل المتقلّب. وربما يكون بالغريف نفسه قد غيّر أهدافه مرات عدة من دون قصد. لكن الأكيد أنه كان أحد أمهر المستشرقين. وقد أجاد العربية إلى درجة أخذ يعتبرها لغته الأم. وكان يكتب بالعربية الأناشيد ويلقي العظات ويدرّسها في المدارس التي ساهم في إنشائها خلال وجوده في بيروت.

على أن السنوات التي قضاها في لبنان كانت فصلاً آخر من فصول الغموض الذي أحاط بحياته. فقد كان لبنان آنذاك غارقاً في واحدة من حروبه الأهلية، أو بالأحرى في أول تلك الحروب.

لم يكتب أحد بقدر ما كتب ريتشارد فرانسيس بورتون، ولم يكتب عن أحد بقدر ما كُتب عن رحلة بورتون إلى الجزيرة العربية. وكان أول كتاب يروي سيرته قد صدر قبل عشر سنين من وفاته. وقد كتب بورتون تقريباً في كل المواضيع من تربية الصقور إلى المناجم إلى الآثار إلى الطب إلى الهندسة إلى تسلّق الجبال إلى آخره. وكتب عن رحلاته في كل مكان من الأرض تقريباً، ووضع عن إفريقيا وحدها ١٣ كتاباً تقع في ٤٦٠٠ صفحة، غير أن الجزيرة العربية ورحلته إليها ظلّت، كما قال، أفضل ما فعله في حياته.

إنها الدماء الغجرية في بورتون. أو هكذا قال المؤرخون والباحثون، مع أن أمه تدّعي أنها تنحدر بصورة غير شرعية من سلالة لويس السادس عشر. ومع أن والده كان ضابطاً في الجيش. لكن الدلائل على «غجرية» بورتون كثيرة. إذ ما إن رأت النور في العام ١٨١٢ حتى رمى والده الثياب العسكرية خلفه وراح يتيه في فرنسا وإيطاليا. وهكذا

لم يتلق والداه سوى القليل من التعليم الرسمي. وكان الكولونيل بورتون ينوي إدخال ابنه في سلك الكهنوت ولذا أرسله إلى أوكسفورد، إلا أن ريتشارد تصرف بطريقة يستحق معها الطرف من أجل أن يتجنّب سياسته كاهناً.

لقد تعلّم في منزل والده المبارزة بالسيف وصار يتحدى الجميع إلى منازلته. وخلال الدراسة الكهنوتية دعا أحد رفاقه إلى المبارزة لأن هذا سخر من شاربيه. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤٢ وصل بورتون إلى بومباي في أولى رحلاته حول العالم، وهو ضابط برتبة ملازم ثان في «شركة شرق الهند الإمبراطورية». وسرعان ما أظهر مقدرته الفائقة على تعلّم اللغات، حين راح يتقن لغة جديدة كل بضعة أشهر. وفي أواخر عمره كان قد صار يتقن ٢٩ لغة و١٢ لهجة إقليمية.

في الهند أيضاً بدأ يمارس هوايته المفضلة: التقنّع وتقمّص الشخصيات المختلفة. وغالباً ما كان يتقمص شخصية الباعة وينزل إلى الأسواق من دون أن يلاحظه أحد! ولم ترق هذه التصرفات كثيراً لرؤسائه في الجيش، خصوصاً أنه أرفقها ذات مرة باختطاف راهبة، أو بملء منزله بالسعادين التي كان يجلسها معه إلى طاولة الطعام.

ويبدو أن غضب رؤسائه عليه كان شديداً إلى درجة أنهم لم يسمحوا له بالمشاركة في حرب السيخ في العام ١٨٤٨ مع أنه كان الضابط الوحيد الذي يجيد لغة العدو. ولما رأى أن كل طرق التقدم في الهند قد سدّت في وجهه طلب إجازة مرضية مطولة وعاد إلى أوروبا حيث أمضى أربع سنوات في الدراسة والكتابة.

كان السفر في منتصف القرن الثامن عشر متعة الذين يسافرون والذين لا يسافرون. وكانت استطلاعات الجغرافية آنذاك شبيهة بالفضول الفضائي اليوم، ولذا لم يكن من الصعب العثور على من يموّل رحلة حسنة التخطيط. وفي العام ١٨٥٢ عرض بورتون خدماته على الجمعية الجغرافية الملكية «بهدف إزالة ذلك العائق المعيب أمام المغامرة الحديثة، تلك البقعة البيضاء الضخمة التي لاتزال على خرائطنا تخفي الأجزاء الشرقية والوسطى من شبه الجزيرة العربية».

كانت خطته الأساسية تقضي بالإبحار إلى مسقط ومنها عبور الربع الخالي حتى الوصول إلى مكة المكرمة والمدينة! وقررت الجمعية الملكية تمويل الرحلة لكن شركة شرق الهند رفضت السماح له القيام بها بحجة أنها بالغة الخطورة. وبدلاً من ذلك مدّدت له الإجازة من أجل دراسة اللغة العربية «في بلاد تدرّس فيها هذه اللغة على أفضل ما يكون». لذلك قرّر بورتون تغيير خطته إذ لم يعد لديه الوقت الكافي لعبور

الربع الخالي، وهو سيعمد بدلاً من ذلك التوجّه مباشرة إلى مكة والمدينة ومن ثم يستقل باخرة تعود به إلى الهند قبل أن تنتهي مدة الإذن بالتغيّب.

وبالإضافة إلى اكتشاف الأجزاء غير المعروفة من شبه الجزيرة، كان ينوي المساهمة في حلّ تلك المشكلة الأزلية بالنسبة إلى الجيش البريطاني في الهند: الحصول على المزيد من الخيول العربية.

في نيسان/ أبريل ١٩٥٣ غادر بورتون ميناء ساوث هامبتون في زي نبيل فارسي. كان ينوي أن يزيّف شخصية الرجل المسلم بكل حذافيرها ولذلك راح يتدرّب خلال الرحلة على كل حركة، بما في ذلك طريقة المسلمين في الشرب من كوب المياه «يقبض على الكأس كأنها عنق عدو ولا يتركها إلا وقد روى ظمأه» وبعد أن أمضى شهراً واحداً في مصر قرر أن يغيّر شخصيته من نبيل فارسي إلى بدوي متجوّل. وفي وقت لاحق عاد فاستقرّ على شخصية الأفغاني التابع للإمبراطورية البريطانية الذي تلقى علومه الطبية في زانغون.

من أجل كل هذه الشخصيات اشترى بورتون ثياباً كثيرة بعدما لاحظ أهمية القيافة «في منطقة يعتبر فيها كل رث الثياب شحاذاً وكل شحاذ نصاباً، إلا إذا كان ينتمي إلى طريقة تسمح له الظهور بمظهر الفقراء». وكان بين مشترياته أيضاً مظلّة صفراء واسعة «تشبه حديقة مرتفعة الأعناق»، ومشط خشبي، وضرف من جلد الماعز، وسجادة فارسية «التي إلى جانب كونها تكاية فهي أيضاً كرسي وطاولة ومنبر»، ووسادة قطنية وكاف! كذلك اقتنى خنجراً ومحبرة من النحاس ومشكاك أقلام وإبراً وعلبة نحاسية خضراء «قادرة على تحمل السقوط عن ظهر جمل مرتين في النهار». وكانت موازنته للرحلة ٢٥ ليرة إنكليزية ذهباً لفّها في حزام تحت ثوبه.

ويبدو أن بورتون بالفترة التي قضاها في الإسكندرية، أو ما سمّاه «الكيف» في المدينة: «في الشرق لا يحتاج الرجل إلى أكثر من الراحة والظلّ. إنه يرتاح سعيداً على حافة جدول يخرخر أو في ظلّ شجرة عاطرة. يدخّن غليوناً أو يحتسي فنجاناً من القهوة أو يتناول كوباً من الشراب، لكن الأهم من ذلك أنه لا يزعج جسده وفره إلا قليلاً، معتبراً أن حدة المحادثة ومرارة الذكريات والإغراق في التفكير، أمور مفسدة كثيراً للكيف!».

وصل بورتون إلى القاهرة على ظهر مركب صغير واستقر في فندق صغير أو «وكالة» كما كانت تعرف الفنادق في تلك الأيام. وقد ادّعى مهنة الطب وذاعت شهرته بسرعة حين استطاع أن يشفي عبدتين حبشيتين من «الشخير» والأهم من ذلك أنه التحق فيما

بعد بجامعة الأزهر تحسّباً للوصول إلى مكة المكرمة. فقد كان عرف أنه ليس من الضروري للمسلم ـ أو لمدعي الإسلام ـ أن يكون ضالعاً في اللغة العربية لكن من الضروري له أن يكون ملمًّا بشؤون دينه والفرائض. والواقع أنه سرت فيما بعد إشاعة قوية، كما يروي روبن بيدويل، تقول إن أحد الحجاج اكتشف أمر بورتون في الرحلة ما بين مكة والمدينة، فما كان منه إلا أن ذبحه ذبحاً من أجل الحفاظ على سرّه.

أضاف بورتون إلى موازنة السفر ٨٠ جنيهاً أخرى وبدأ السعي للحصول على جواز سفر. واتجه أولاً إلى القنصل الفارسي الذي طلب ٤ جنيهات لقاء ذلك، فثارت ثائرة بورتون الذي أصرّ على أن يدفع جنيهاً واحداً! وقام من بين معارفه من دلّه على رئيس الكلية الأفغانية في الأزهر، وكان هذا رجلاً طيب القلب، فأعطاه الوثيقة اللازمة لسفره لقاء شلن واحد.

كان بورتون يستعد للرحيل حين تعرف إلى نزيل آخر في «الوكالة»، هو ضابط ألباني كان قادماً من الحجاز في إجازة. ودعاه الضابط إلى غرفته، فلبى الدعوة، وهناك وضع كل منهما خنجره جانباً وراحا يتعاطيان الخمر. ثم أخذا يدعوان النزلاء الآخرين إلى مشاركتهما، إلى أن تحوّل النزل إلى ساحة للهو والصخب واجتمع الجيران يؤنبون السكارى.

بعد ذلك أعدّ بورتون العدّة لترك القاهرة في أسرع وقت ممكن. وعثر على بدوي من سيناء متّجه في الطريق نفسها، فاستأجر جملين بقيمة جنيه واحد وتوجّه إلى خادم هندي نحو السويس. وفي الطريق التقى بعض التجار المحترمين من المدينة الذين كانوا عائدين إلى بلادهم، ومعهم شاب من مكة كان تعرف إليه في القاهرة ويدعى محمد البسيوني، الذي أخذ بورتون في رعايته طوال الرحلة.

في السويس عبرت الجماعة القناة على ظهر السفينة «سلك الذهب» وحمولتها ٥٠ طنًّا. وكانت هذه تتّسع لستين راكباً لكنها حملت ١٣٠. وفيما كان بورتون ورفاقه يرتعون في راحة الدرجة الأولى هجمت جماعة من الأفارقة تريد مكاناً لها، فدار بين الفريقين عراك استخدمت فيه العصي والسكاكين والأسنان، وأخيراً حسم بورتون الأمر بأن أسقط فوق المهاجمين جرة ضخمة من المياه تحطمت فوق رؤوسهم فجرحتها وبلّلتها فاستسلموا. إلا أن السفينة نفسها تعرّضت للغرق في مرحلة لاحقة كما تعرّض قبطانها للضرب المبرح، غير أن المسافرين وصلوا إلى ينبع في نهاية المطاف، ولدى نزولهم إلى البرّ داس بورتون، على ما يبدو، على شيء سام جعله يتألم من قدمه طوال الرحلة. ومن هناك استأجرت المجموعة جمالاً كلفة الواحد منها ثلاثة دولارات واتجهت إلى المدينة في رحلة مسافتها ١٣٠ ميلاً، استغرقت ثمانية أيام.

في ٢٥ تموز/ يوليو ١٨٥٣ وصلت القافلة إلى المدينة. «وإذا تطلّعنا شرقاً رأينا الشمس ترتفع في الأفق من بين التلال المنخفضة، مموّهة ومبقّعة بالأشجار الصغيرة، أما الأرض فبدت مبقعة بالذهب والقرمزي. أمامنا كان يمتد سهل ضخم تحدّه أرض نجد المرتفعة آناً والمنخفضة حيناً، وإلى اليسار كان جبل أُحد الشهير وقد بدت في سفحه واحة أو واحات من الخضرة، وإلى اليمين كانت هناك غمامة ليلكية من الندى، تشقّها أشعة الصباح، تمتد فوق النخيل وحدائق القبة التي تسمّخت خضراء كالعقيق من أرض السهل البرتقالية».

أمضى بورتون في الدمينة أكثر من شهر ووضع في وصفها ما يزيد على مجلد كامل، متأثراً بمشهد المقبرة الضخمة في الباكية التي ستشهد في يوم اكشر قيام ١٠٠ ألف قديس لهم وجوه مدوّرة كالأقمار.

في الطريق من ينبع كان بورتون قد التقى أُحد رجال البدو الذي وعده بأن يساعده في السفر من المدينة إلى مسقط. إلا أن مشادّة قامت بين بدويين ما لبث أن تحوّلت إلى حرب قبلية لدرجة أن دوي الرصاص «كان يسمع في المدينة وأخذنا نرى في الشوارع جماعات من البدو وفي أيديهم السيوف أو العصي وهم يهرولون خوفاً من أن يفوتهم مشهد القتال. وكان سكان المدينة يلعنونهم في غضب».

كان اندلاع القتال يعني أن الطريق إلى مكة وحدها بقيت مفتوحة. وكان بورتون يعرف أنه لم يكن هناك سوى القليل يستطيع أن يضيفه إلى وصف بوركهارت لأم القرى، لكنه شعر الآن أن أمامه الفرصة بأن يكون أول أوروبي يتمكن من السفر بين المدينتين المقدستين عبر الطريق الشرقية! وهكذا بدأ يستعد للرحلة على عجل، فأصلح جلود المساه التي مزقتها الفئران وجمع مؤونة ١٥ يوماً له ولمرافقه محمد. وقد سارا معظم الأوقات ليلاً وفي ١١ أيلول/ سبتمبر ١٨٥٣ وصل بورتون إلى مكة المكرمة وأدى جميع مراسم الحج بتوجيه من الشاب محمد، الذي قدم له أيضاً منزله للإقامة، وانتهى بالطوفان حول الكعبة المقدسة حيث كتب فيما بعد «لقد رأيت احتفالات دينية في بلدان كثيرة، لكنني لم أر في مكان مشهداً عظيماً ومجيداً مثل هذا المشهد».

ومن مكة المكرمة توجه إلى جدة، حيث في اللحظة الأخيرة اكتشف الشاب محمد أمره، لكنه كان لا يزال يعتقد أن بورتون هو مجرّد «صاحب» من الهند!

من هو رتشارد بورتون؟

لقد اختلف المؤرخون البريطانيون في تقييمه ولو أن الخلاف لم يتناول كرجل غامض مثل غيفورد بالغريف. لكن البعض رأى فيه، في تلك المرحلة التوسعية من تاريخ بريطانيا، شيئاً شبيهاً بالجنرال غوردون الذي حاول تطويع السودان بقوة المدفع. والبعض الآخر شعر بالخيبة لأن غوردون «أعطي بعد مقتله تاج الشهداء في حين أن بورتون بالكاد حصل على درع الفروسية»!

وفي حين ينظر روبن بيدويل بخفة إلى بدايات بورتون واختياره اللغة العربية في أوكسفورد، فإن مؤرخين آخرين يرون في هذا الاختيار تكريساً للغة أحبها منذ البداية. وفي حين يرى بيدويل في سفر جوزف بورتون إلى فرنسا وإيطاليا شيئاً من «الغجرية» في دماء العائلة، فإننا نرى تفسيرات أكثر دقة في سِيَر بورتون الأخرى. والواقع أن سفر الكولونيل جوزف بورتون في العام ١٨٢١، أي بعد قليل من رؤيته للنور، هو الذي سيغيّر الكثير من مجرى حياته.

وقد انتهت حياة جوزف بورتون العسكرية في العام ١٨٢٠ حين رفض أن يشهد ضد الملكة كارولين خلال محاكمتها بتهمة الزنى، فخفضت السلطات راتبه إلى النصف فلم يقبل المساومة بل فضّل على ذلك السفر إلى أوروبا، ومن ثم التنقّل في المستعمرات الإنكليزية ومعه ولدان ليس بقادر على تربيتهما وضبطهما! وحين أرسل ابنه ريتشارد إلى أوكسفورد من أجل أن يتحول إلى كاهن بروتستانتي، كان هذا قد أكمل تكوينه الفكري تقريباً كرجل أوروبي لا «كجنتلمان» إنكليزي.

ويبدو أن الذي ساعد ريتشارد بورتون أكثر من أي شيء آخر هو مقدرته على تعلّم اللغات الأجنبية وبسبب هذه المقدرة كان أول عمل حصل عليه في بلاد السند كضابط مخابرات ينتحل اسم «ميرزا عبدالله» من بوشهر ويدّعي أنه تاجر نصفه عربي ونصفه الآخر فارسي!

كان هناك محرّك واحد لريتشارد بورتون هو حب الشهرة. إنها الرغبة التي لن تشبع أبداً. وهكذا! فإنه بعد حجه إلى مكة المكرمة، بدلاً من أن يعود إلى لندن ليلقى الاستقبال الذي كان يقام عادة لرحّالة ذلك العصر، أمضى شهرين آخرين في القاهرة. ثم جاءه البلاغ الإمبراطوري بأنه عيّن قنصلاً في دمشق لكنه بدلاً من ذلك ذهب إلى الباراغواي لوصف المعارك الدائرة هناك.

فهل أيضاً كان يخاف النجاح. فهو الذي طالما ردّد «الخيبة هي ملح الحياة». لكن يبدو أنه لم يلق سوى الخيبة في أي حال. وعندما تقدّم به العمر وترجم على عجل «ألف ليلة وليلة» نالت الترجمة شهرة سريعة في كل مكان، فعلّق على ذلك قائلاً «لقد كافحت طوال ٤٧ عاماً من أجل أن أميّز نفسي بكل طريقة مشرفة ممكنة، إلا أنني لم ألق إطراء أو كلمة شكر من أحد. وها أنا الآن أترجم في شيخوختي كتاباً مشكوك فيه فأحصل فوراً على ١٦ ألف جنيه».

كان بورتون مجموعة من المتناقضات. وهذا الرجل الذي طرد من أوكسفورد لأن زميلاً له سخر من شاربيه سوف يرى خلال تنقله في الجزيرة أن شاربيه الكثين هما اللذان حبّباه إلى الناس، حتى أن أحد مشايخ بني حرب سماه «أبو الشوارب»! على أن ذروة أعماله سوف تظلّ، في الغرب طبعاً، ذلك الوصف الذي وضعه لمكة المكرمة ولحظة الانبهار أمام الكعبة:

«لم تكن هناك أجزاء قديمة من الصخر الرملي كما في مصر، ولا بقايا من الجمال المنحوت كما في اليونان وإيطاليا، ولا تلك الفطرية الرائعة كما في مباني الهند - ومع ذلك كان المشهد موهلاً وفريداً. وكم هم قلّة أولئك الذين شاهدوا الكعبة المقدسة. وإنني أقول بكل صدق، إنه من بين جميع العبّاد الذين تعلّقوا بالستارة باكين أو أولئك الذين ألصقوا قلوبهم النابضة بالحجر، فإن مشاعر أحد منهم لم تكن في عمق مشاعر الحجي (بورتون) القادم من أقصى الشمال. لقد بدا أن الأساطير العربية الشاعرية لم ترو سوى الحقيقة وأن أجنحة الملائكة المرفرفة، وليس نسيم الصباح العليل، هي التي تنفخ بوداعة الرداء الأسود الذي يغطي النصب».

لم ينته بورتون من وضع كتابه «الحج إلى مكة والمدينة» إلا بعد عامين، وذلك في

العام ١٨٥٥. لكن الكتاب، الذي تحوّل إلى عمل كلاسيكي في الغرب، لم يكن مجرّد وصف للمدينتين المقدستين بل شمل أيضاً دراسة دقيقة لحياة البدو الذي انبهر بهم بورتون أيّما انبهار. وقد بنى على استقلالية أبناء البادية ونزعتهم الفردية لكي يرسم لوحة لما سماه «المجتمع الليونيني» وهو مجتمع «يسود فيه الأقدر والأقوى والأكثر حنكة على بقية رفاقه». وتلك النزعة الفردية لدى البدو لم تؤدّ - حسب بورتون - إلى الديموقراطية أو إلى الفوضى بل إلى نوع من المجتمعات التي يحكم فيها القوي وحده.

يجب ألا ننسى أن هذا الإعجاب نابع أيضاً من محبة بورتون للسيف ومهارته في استخدامه. وفي مؤلفه «كتاب السيف» (١٨٨٤) يصفه «بأنه خلاّق ومدمّر» أي أنه يدجّن الأفراد المتقاتلين في مجتمعات متجانسة. حتى الموت، في الحياة البدوية، هو موت الأبطال. بل حتى الخوات حوّلها بورتون إلى عمل رومانسي.

المؤرخون وجدوا تفسيراً للانبهار «بالرجل البرّي» أو «الرجل المتوحش» في أن بورتون نفسه كان «رجلاً متوحشاً» في طبعه، محبًّا للحرية، لا يحب كثيراً العيش في هذا المجتمع «المؤنث» حيث لا تكافأ القوة بالسلطة! وفوق ذلك فإن الشرف كان القاعدة الأولى في حياة البدوي، وهو القاعدة الأولى أيضاً في حياة بورتون.

من أجل هذا اختار التعبير القرنسي «المجتمع الليونيني» أو «المجتمع الأسدي» من أجل وصف المجتمع البدوي. وقد أشارت «فون برودي» التي وضعت إحدى أفضل السِّيَر لحياة بورتون، إلى أنه كتب عن الأسود مرتين: الأولى في كتابه «الخطوات الأولى في إفريقيا الشرقية» (١٨٥٦) حيث يرثي أمه التي عرف بوفاتها لدى وصوله إلى عدن. والثانية في «جبال البرازيل العالية» (١٨٦٩) الذي وضعه بعد استدعائه من دمشق بسبب سلوكه «المعادي للسامية». غير أنه لم يتوقف عن انتقاد اليهود بل زاد في حملته عليهم.

وسط ذلك كله لم ينس بورتون طبعاً أن يحلم بأن يمتد الحكم البريطاني إلى الجزيرة العربية، ولذلك قدّم اقتراحات كثيرة في كتبه حول «اكتساب البدو» وتجنيدهم في خدمة الإمبراطورية حيث يمكن أن يشكّلوا «فرقة ممتازة من المشاة». وفي اختصار كان بورتون في نهاية الأمر إمبرياليًّا بلا حدود، متعالياً ومتواضعاً، لطيفاً وقاسياً، وليس معروفاً إلى الآن إن كان قد اعتنق الإسلام لكنه لم يشهر ذلك خوفاً من الحملة التي قامت عليه في لندن لمجرّد أنه ادّعى ذلك وانتحل شخصية أخرى. لكن الأكيد أنه ترك للغربيين شهادة دقيقة عن عصر لم يعد قائماً.

يتميّز ريتشارد بورتون عن أصحابنا الرحّالة بأشياء كثيرة في صلته بالشرق، بينما أنه لم يكن وحده مفتوناً بهذه المنطقة من العالم برغم أسفاره الكثيرة، بل كانت أيضاً زوجته إيزابل مأخوذة هي الأخرى بهذا العالم الرومانسي الغامض! وفي شتاء ١٨٦٩ سوف نراهما يبحران معاً في الطريق إلى دمشق، حيث عيّنت الخارجية البريطانية معتمدها في عاصمة سورية. وما إن بدأت الرحلة حتى دونت إيزابل بورتون في مذكراتها: «إن وجهتي هي دمشق، حلم طفولتي. وإنني هنا سوف أقتفي آثار ذلك الثلاثي الأوروبي النسائي اللواتي أتمنى أن أكون رابعتهن: الليدي ماري وارترلي ـ مونتيغو، الليدي هستر ستانهوب والأميرة دولاتور دوفيرن. إنني سوف أعيش مع زعماء القبائل وسوف أتنشّق رائحة الصحراء، وسوف تكون لديّ خيم وخيول وأسلحة وسوف أكون طليقة».

إذا كانت «إيزابل قد شعرت بالفرح ـ تقول لزلي بلانش ـ فإن بورتون شعر بأنه ولد من جديد. ها هو مرة أخرى بالشرق الذي عشقه، الشرق الذي ينتمي إليه بكل جوانحه. إنه بين الناس الذين فهمهم والذين طالما تاق إلى أن يعيش معهم. إنه المثال الوحيد، كما تقول إيزابل، للرجل غير المسلم الذي ما إن أدى الحج حتى صار مثل المسلمين يعتبرونه واحداً منهم ويسمّونه الحجي عبدالله ويعاملونه كأنه واحد منهم».

وجد بورتون وزوجته بيتاً لهما «خارج المدينة في قرية الصالحية الكردية. كانت جميلة وبسيطة، وكانت شلالات من الورود والعرائش تغطي الجدران». كذلك كانت في الدار تلك البركة الدمشقية التقليدية، وإلى جانب المنزل كان هناك مسجد «فكانت الدعوة إلى الصلاة التي يطلقها المؤذن تتناهى عبر النافذة مع النسيم العليل الآتي من الجبال». ولم يمض وقت قصير حتى كان إسطبل المنزل قد امتلأ بنزينة من الخيول بينما امتلأ المنزل نفسه بمجموعة من الدواب الغريبة تراوح بين النمر والحمل، بالإضافة إلى «المرضى» الذين كانت إيزابل تعالجهم في منزلها، كما كانت تفعل في البرازيل من قبل. وكانت معالجة غير القادرين من الناس سمة ذلك العصر الفيكتوري.

انخرط بورتون وزوجته في حياة دمشق بكل ما أوتيا من وقت ومن قوة. وكانت الصحراء قريبة فراحا يمضيان الأيام والليالي مع رجال البادية. وبين الأصدقاء الذين تردّدوا على منزل بورتون كان الأمير عبد القادر الجزائري، الرجل الأسطوري الذي نفاه الفرنسيون إلى دمشق، بعد سنوات طويلة قضاها في فرنسا محاطاً بكل أوجه التكريم. وفي النهاية منحه لويس نابوليون الحرية في العام ١٨٥٧ وراتباً سنويًا قدره ٤ آلاف جنيه ومنزلاً في دمشق.

ويروي اللورد ريدسديل أن بورتون رافقه إلى منزل الأمير عبد القادر لزيارته «وكان الأمير العظيم رجلاً هائل الحضور يرتدي عباءة بيضاء وفي الرابعة والستين من العمر. وكان منكبّا على كتاب ضخم يدرس فيه السحر، لكنه انصرف عنه لكي يقدّم لنا الشاي. لقد شعر بورتون أنه في بيته أما إيزابل فشعرت أنها في الجنة».

بعد سنوات سوف تتذكّر إيزابل بورتون أيام دمشق: «عند الغسق، حين كانت بوابات المدينة الكبرى تغلق والقمر يسبح عالياً براقاً في الأعالي، كانت هناك ليال طويلة من الكلام. الكلام جميل. تلك الليالي حين كان يأتي الأمير عبد القادر والليدي النبورو ويستلقي الجميع على مقاعد الشرفة، ويروحون يتحدثون ويتحدثون بلا نهاية، دائماً عن الشرق وأساطيره وأمجاده ومستقبله». ويبدو أن بورتون أخذ الكثير من المعلومات التي أوردها في مقدمته «لألف ليلة وليلة» من الليدي النبورو، أو جين دغبي المزراب، التي تزوجت من أحد شيوخ آل مزراب.

كانت إيزابل بورتون تصغي إلى أحاديث الشرفة بكل اهتمام، فهي أيضاً بدأت تدرس اللغة العربية، فيما عاد زوجها إلى حياة التقنّع والتخفي التي طالما أجادها، وكان يجوب أسواق دمشق القديمة متزيّياً كل مرة بشخصية مختلفة من الشخصيات المحلية! لماذا؟ لا تفسير لدى المحلّلين سوى رغبة بورتون بالمزيد من الانتماء إلى الشرق، أما وزارة الخارجية فعندما علمت بما يفعله قنصلها العام فإنها رفضت بعد ذلك أن تعيّنه في أي منصب في الشرق.

كذلك كانت إيزابل بورتون ترتدي أحياناً الزي العربي (من دون أو تتخفى) وتنزل إلى دمشق لكي تتذوق شيئاً من حياة الشرق. وحين كانت تسافر في الصحراء كانت ترتدي ثياب الرجال مدّعية أنها ابنة ريتشارد!

في أي حال، صار ريتشارد بورتون جزءاً لا يتجزأ من حياة دمشق السياسية والاجتماعية. فقد بنى لنفسه سمعة قوية بأنه غير قابل للارتشاء لكن الإشاعات طالت زوجته التي قيل إنها تقبل عقود الماس وأساور الذهب. وفيما عرف عن بورتون أنه معاد لليهود يشنّ الحملة تلو الأخرى عليهم، فإن مسلمي دمشق اتّهموا زوجته بالتعصّب للكثلكة والتبشير بها كلما سنحت لها الفرصة. كذلك كان بورتون يخوض حرباً دائمة ضد البعثات التبشيرية، التي شكته إلى لندن بأنه يمضي معظم وقته في المساجد.

وانتقدت الجالية الغربية في دمشق المسز بورتون «لأنها كانت تفضّل بشكل أعمى كل شيء وأي شيء عربي. والواقع أن الشرق قد ترك سحره على إيزابل بشكل متعب، إذ راحت تنظر إلى نفسها على أنها نسخة أخرى من الليدي هستر ستانهوب، بطلة

صباها. وكانت كل يوم تزداد انجذاباً إلى الشرق ولـم تعد تريد من الغرب أي شيء!»

تقول لزلي بلانش: «في حين حاول بورتون أن يحافظ على تجرّد حاذق في تعامله مع المسلمين، فقد كان مستحيلاً عليه أن يخفي تفضيله لهم على اليهود والمسيحيين (...). ومع ذلك فقد صنع لنفسه الأعداء بسهولة بسبب نزعته إلى التدخّل في الشؤون المحلية، وخصوصاً مع الوالي التركي رشيد باشا (...) الذي تآمر لطرده وربما لاغتياله. ومع أن دزرائيلي يقول إن العرب ليسوا سوى يهود على ظهور خيل، فإن بورتون لم يكن يشاركه الرأي فقد كان يحب اليهود كما هو واضح من كتابه: اليهود والإسلام»!

إلا أن تعاطي بورتون في سياسات دمشق المحلية بلغ ذروته حين أيّد الحركة الشاذلية التي قامت في المدينة. ولما بلغ الأمر وزارة الخارجية البريطانية قامت باستدعائه في ١٦ آب/ أغسطس ١٨٧١، وأرسلت القنصل الجديد إلى دمشق حتى قبل أن تبلغ بورتون بنقله. «وقد أصيب بورتون وزوجته بالذهول حين تلقّيا النبأ وهما في مصيف بلودان. بالنسبة إليهما كان الخروج من دمشق أشبه بالخروج من جنة عدن».

لم يكن بالغريف الرحّالة الوحيد الذي أرسله نابوليون الثالث إلى نجد، بل أرسل في أثره الإيطالي كارلو غوراماني للتأكد من صحة التقارير التي وضعها. وكان غوراماني هذا قد أمضى ١٤ عاماً في المشرق يتاجر في الخيول ويعمل قنصلاً لبروسيا ومندوباً للبريد الفرنسي، وقد لفت نظر الخارجية الفرنسية التي استدعته لمقابلة نابوليون الثالث في باريس فكلفه بالسفر إلى نجد لتأكيد أو نفي تقارير بالغريف. والحقيقة أن هذه كانت آخر هموم غوراماني وآخر اهتماماته لكنه قبل المهمة بسرور لأنها ستمكّنه من شراء الخيول العربية الأصيلة، التي كانت حبّه الأول والأخير. وفي ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٨٦٤ انطلق من القدس متخفّياً بهوية «خليل آغا الدمشقي»، كبير «سيّاس» الباشا، وعبر نهر الأردن برفقة محمد الجزاوي وأربعة فلسطينيين آخرين أوصلوه إلى بني حميدة الذين أوصلوه بدورهم إلى بني صخر. ويصف غوراماني هؤلاء الرفاق ببساطة بعيداً عن الاستعلاء الفرنسي أو البريطاني. ثم يقدّم وصفاً أكثر عمقاً لخيول بني صخر: كانت نبيلة وصلبة وأسرع خيل عرفها غوراماني على الإطلاق. وفي النهار كانت تترك لترعى فإذا حلّ المساء ناداها أصحابها فتتعرف إليهم الخيول من أصواتهم، واحداً واحداً وتهرع كل فرس إلى خيّالها! وفي الثالث من شباط/ فبراير ترك غوراماني بني صخر واتجه جنوباً ومعه الجزاوي وشاب بالغ الذكاء من بني صخر يدعى الدريبي. وسارت القافلة الصغيرة طوال خمسة أيام في عاصفة مطرية كبرى. وفي اليوم

الثاني، يروي الإيطالي في مذكراته، رأت القافلة مجموعة من قبيلة الشرارات فخافت منها وحاولت الاحتماء ثم اكتشفت أن رجال الشرارات أيضاً خائفون. وفي النهاية دعاهم هؤلاء إلى العشاء وكانت الوجبة عبارة عن طحين وبعض جذور النبات. وقد نام الشرارات من دون طعام من أجل أن يأكل ضيوفهم. لقد كانوا أفقر أهل البادية.

بعد خمسة أيام ماطرة كانوا يقطعون خلالها ٤٠ ميلاً كل يوم وصلت الجماعة إلى مضرب رئيس قبيلة الشرارات، فرأوا أن الناس حوله فقراء، عراة إلا من بعض الجلود. وبعد يومين وصلت القافلة إلى واحة تيما، فترك غوراماني رفاقه وحوائجه هناك وأكمل طريقه مع مرافق واحد من قبيلة «ولد علي».

ولدى وصوله إلى عنيزة كان حلمه قد بلغ أوجه، إذ رآها تكتظ بالخيول الجميلة فأمضى ثلاثة أيام ثم سافر إلى حائل فرأى هناك أن طلال بن الرشيد يستعد للإغارة على الشرارات، فلم يهن عليه الأمر، وفضّل أن يغادر المدينة، فعاد إلى دمشق التي بلغها في حزيران/ يونيو ١٨٦٤ ومنها أكمل طريقه إلى الساحل اللبناني ليستقل سفينة مبحرة إلى فرنسا حيث أمضى عشر سنوات اتجه بعدها إلى جنوى حيث تقاعد كتاجر موسر وتوفي في العام ١٨٨٤.

أيقظ اهتمام نابوليون الثالث بالجزيرة العربية اهتمام منافسته الكبرى بريطانيا. وسرعان ما قرّرت لندن أن تتحدى الرحّالة الفرنسيين بإرسال الكولونيل لويس بيلي.

كان باركلي رونكاير في الثالثة والعشرين تماماً حين انطلق في رحلته الأولى والأخيرة إلى الجزيرة العربية. وكان قبل ذلك قد قام برحلة واحدة إلى بلد عربي حين ذهب إلى تونس مع والده لدراسة الأوضاع الزراعية فيها، لكن ليس من شك، كما يقول جيرالد دي غوري، أن لغته العربية لم تكن طليقة حين توجه فيما بعد إلى الجزيرة، وبرغم ذلك فإن المعلومات التي جمعها كانت مدهشة في دقّتها، خصوصاً فيما يتعلّق بالكويت التي لم تكن معروفة لدى الغرب تماماً حين قام رونكاير برحلته في العام ١٩١٢.

كان هدف رونكاير الرئيسي أن يعثر على قاعدة لبعثة دانماركية تلحق به إلى الصحراء الجنوبية. لكنه اختار لذلك توقيتاً سيئاً: الحرب الكونية الأولى كانت على وشك أن تندلع، والملك عبد العزيز آل سعود، الذي أمضى عقداً كاملاً في المنفى، كان لا يزال منهمكاً في تنظيم شؤون البلاد. وزاد من سوء حظ الدانماركي الشاب أنه أصيب بالمرض في الكويت وحين وصل إلى الرياض كان بالكاد يقوى على المشي. ولا بدّ أن الإمام عبد الرحمن آل سعود لاحظ حالته الصحية، وقد أمر بمعاملته معاملة

حسنة مع أن رونكاير أخفق في إطلاعه على وضعه الحقيقي. ولم يستطع رونكاير أن يحقّق أهداف رحلته الأساسية في جمع أنواع النبات، مثل نايبور من قبله، ولا أن يضع الخرائط التي ذهب من أجلها. ومع ذلك فإن الطرق التي عبرتها قافلته في شرق الجزيرة لم يعبرها أحد من بعده. وكان رونكاير أول من تحدث عن النفط في الكويت إذ كتب أن «ثمة إشاعة موحية تقول إن النفط قد تدفّق في بركان الصبحية». وبعد ذلك بأعوام كتب السير لويس دين في «التايمس»، سنة ١٩٣٨، حين سمع بأخبار اكتشاف النفط في الكويت، أنه حين وصل مع اللورد كورزون إلى الكويت في العام ١٩٠٣، طلب مقابلته رجل يدعى رينولدز. وقد فوجىء بوجود رجل أوروبي هناك، فلمّا قابله أبلغه رينولدز هذا أنه سمع إشاعات عن وجود النفط في صحراء الكويت وأنه يطلع على الإبل إلى هناك للبحث عنه لكنه لم يجد أي أثر للزيت. وقد شجّعه اللورد كورزون يومها على التنقيب في الأهواز وكانت تلك بداية شركة الزيت الإنكلو ـ فارسية. ويقال إن أمير الكويت نفسه لم يكن مقتنعاً بوجود كميات كبيرة من النفط. وحين عثرت شركة نفط الكويت (الأميركية ـ البريطانية) على أول بئر دعت الأمير إلى الحضور لكنه كان متردّداً في ذلك! وكانت البئر الأولى في برقان الصبحية بالذات.

كان الوصف الذي تركه رونكاير للكويت هو الأول والوحيد عن تلك المرحلة. أما الرياض فحين وصلها لم يكن قد بلغها أي أوروبي لخمسين عاماً خلت، أي منذ لويس بيلي. واشتدت وطأة المرض على رونكاير وهو في البريدة لكنه رفض التوقف للمعالجة. فقد أصرّ على الوصول إلى الدانمارك لكي يطرح مشروعه بتشجير الصحراء وإعادة ريّها، لعلمه أن المنطقة كانت تسمّى في الماضي غلال روما لشدة خصوبتها. إلا أن المرض كان قد تمكّن من الدانماركي الشاب حين عاد إلى بلاده وتوفي في أحد مستشفيات كوبنهاغن في ١٣ تموز/ يوليو ١٩١٥.

كانت أنباء قليلة تتسرّب إلى الغرب عن الوضع السياسي. وقد مضت ١٢ سنة على زيارة غوراماني إلى حائل قبل أن يصلها أوروبي آخر. وخلال هذه الفترة غرق بيت آل الرشيد في الدماء لكن سلطته السياسية امتدت أيضاً إلى الجوف في الشمال والحجاز في الغرب وإلى الريدة وعنيزة في الجنوب إلى أن وصلت إلى الرياض نفسها في العام ١٨٨٧! أما كيف امتلأ البيت بالدماء، فإن طلال بن الرشيد، الذي ظنّ أنه مصاب بالجنون، أطلق النار على نفسه في العام ١٨٦٧. وقام نزاع على السلطة بين شقيقيه، متعب ومحمد وابنه بندر. فاغتال بندر متعب، واغتال محمد بندر، الذي أقدم أيضاً على قتل جميع منافسيه. ودام حكم محمد الرشيد هكذا ٢٥ عاماً.

لم يكن الغرب يعرف تماماً ماذا يجري. وبعد ١٢ عاماً من رحلة غوراماني وصل إلى حائل الرحّالة الذي «كان كارثة من الناحية النفسية» كما يقول ريتشارد ترينش. إنه تشارلز داوتي المتحدّر من عائلة كلها من المطارنة لجهة أبيه وكلها من الأميرالات لجهة أمه. توفي والداه وهو في السادسة من العمر وعاش طفولة تعيسة. وخلال سنوات الدراسة في كمبريدج كان منعزلاً ويفضل الوحدة بسبب صعوبة في الكلام، ولذلك اختار علم الجيولوجيا لأنه لا يفترض فيه التعاطي مع الكثير من الناس، لكنه ما لبث أن انتقل إلى دراسة الإنكليزية كنوع من التحدي، ومن ثم أخذ يتجوّل في أوروبا شبه معدم، ومنها قرّر السفر إلى دمشق. هناك أمضى عاماً في دراسة العربية وفي ١٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٧٦ انضم إلى إحدى قوافل الحج وغايته التوقّف في مدائن صالح، منتصف الطريق إلى مكة المكرمة! وقد أطلق داوتي على نفسه اسم خليل وحمل معه مسدساً وبندقية وصندوقة أدوية ورزمة من الكتب. أما موازنته للرحلة كلها فكانت ١٣ جنيهاً.

كل صباح كان الحجاج يفككون خيامهم ويحملون إبلهم وينتظرون طلقة المدفع إيذاناً بالانطلاق، وهو تقليد لم يتغير منذ أيام فارتيما: «من دون أي فوضى كانت الهوادج والسروج ترفع فوراً إلى ظهور الحيوانات الناقلة، وتوضع الحمولات على ظهور الجمال النائخة، ثم يعتلي ألوف الفرسان جميعاً في صمت شديد»! كانت القافلة تسير، كل أربعة جمال إلى جانب بعضها بعضاً، في طابور يمتد ميلين ولا تتوقف إلا عند الغروب. وحين تتوقف كان ستة آلاف حاج ينتشرون في هدوء وهكذا أيضاً إبلهم وخيولهم وبغالهم البالغ عددها عشرة آلاف. وعلى الطريق رأى داوتي الآبار الحجرية أو «القلاع التي كانت تنتصب وحيدة في فلاء الصحراء الكبير» ويقوم على حراستها بعض الجنود الجزائريين الذين رافقوا الأمير عبد القادر إلى منفاه الدمشقي. وبعد ثلاثة أسابيع وصلت القافلة إلى مدائن صالح حيث أبلغه الحجاج «أنك يا خليل سترى العجائب اليوم من البيوت المحفورة في الصخور». أمضى خليل ثلاثة أشهر يدرس مدائن صالح، لكن بعد أسبوع واحد من وصوله سمعت الحامية صراخاً خافتاً في الخارج فهرع اثنان من الجزائريين إلى مصدر الصوت ليروا أمامهم أحد الأتراك الذي سار مسافة ٦٠٠ ميل من أجل اللحاق بقافلة الحجيج. وقد استضافته الحامية ثلاثة أيام وفقاً للتقاليد ثم أعطي زاداً ورداء وجراب ماء وأرشد إلى الاتجاه الصحيح. لكن بعد أسابيع سأل رجال الحامية بعض البدو الرحّل إن كانوا قد شاهدوا التركي فقالوا إنهم شاهدوه ميتاً وقد تلحف بالرداء.

إذا كانت الحامية قد استضافت التركي ثلاثة أيام، فإنها استضافت داوتي ثلاثة أشهر. رغماً عنها بالطبع! ويبدو أن أحد رجالها، المدعو محمد علي، كان يعمل على

الحصول على بندقية خليل في المقابل! على الأقل.

يقول ريتشارد ترينش: «لقد عرض عليه البدو كل شيء. كل شيء. لكن داوتي تمكن برغم ذلك من إثارتهم بعصبيته التي لا تحتمل أي مداعبة. وسرعان ما بدأوا يتذمرون من استعلائه الديني وطبعه الإنكليزي الشديد البرودة والتحفظ. وفوق كل شيء بدأوا يتذمرون من استغلاله المتكرر لضيافتهم وبدأوا يتساءلون متى يرحل»!

بعد فترة نرى داوتي ومضيفه سيد في واحة تيماء التي زارها غوراماني قبل عقد تماماً: «جميل الآن مشهد تيماء الأخضر، واحة الصحراء الآمنة. وأخذنا نقترب من جزيرة النخيل التي تلفّها جدران من الطوب الأصفر والتي تقوم فوقها أبراج عالية». لكن داوتي لم ير سوى القليل من الواحة إذ رفض رفيقه سيد التوقّف، لأن قبيلته كانت قد تأخرت خمس سنوات في «دفع الضريبة لابن الرشيد». ومن تيماء اتجه داوتي نحو حائل مع جماعة أخرى من البدو. وكعادته لم يحمل معه ماء ولا طعام، متوقعاً أن يتصدق عليه الآخرون ولما لم يفعلوا «شعر بالجوع حتى الموت من دون الوفاة». وزاد في سوء الحال أن فتاة بدوية صغيرة راحت تسخر منه في الليل والنهار، فترك الجماعة ورافقه رجل متقدم في السن إلى قبائل المواهيب. وكانت الطريق مليئة بالصخور البركانية عدّد منها ٣٠ بركاناً خامداً. ومرة أخرى رمى بثقله على المواهيب فاستضافوه إلى أن قرّروا الانتقال إلى مرعى آخر، وهنا طلبوا منه ألا يتبعهم. لكنه فعل، فأشفقوا عليه بعد تردّد. أخّر خليل رحلته إلى حائل وأمضى الصيف مع مضيفيه الجدد. وخلال هذه الفترة التقى «سيد» مرة أخرى، لكن بدا أن صديقه السابق لم يرد حتى التعرف إليه! ومن هناك عاد إلى تيماء مرة أخرى ليلقى المزيد من التذمر. فقد كانت البئر الرئيسية في الواحة قد هوت وقال أهل البلدة إن عين داوتي الحاسدة هي السبب. وأخيراً ترك المواهيب وانضم إلى جماعة من بدو بشر متجهة إلى حائل. لكن المواهيب حذروه من الرحلة: «لقد بلغ ابن الرشيد أن أجنبيًّا لا يعرفه أحد يتجوّل مع العرب ويكتب! وهو غاضب جدًّا ولن يستقبلك أحد من البدو في الشرق إلا إذا طلب الأمير ذلك منهم».

سارت القافلة إلى حائل تحت المطر وداوتي في المذلّة كالمعتاد. ولم يستطع جمله اللحاق بركب البشر الذين كانت تقطع إبلهم حوالى ٥٠ ميلاً في اليوم. وقد رفضوا مساعدته إلا حين انهار بعيره أخيراً وسقط. وطلب منهم التوقف لكنهم كانوا يخشون التأخير فتركوه مع دليل منهم يرافقه إلى حائل ومضوا.

أول ما طالعهم في حائل أسوار المدينة وغابة من النخيل. ودخلوا إلى السوق من دون أن يشعر أحد بهم، فلما بلغوا قصر الحاكم انسحب المرافق بهدوء وبقي داوتي

وحيداً إلى أن جاءه أحد موظفي القصر ورافقه إلى الداخل. ثم أدخل إلى مجلس الأمير محمد بن الرشيد الذي أخذ يسأله عن أسباب رحلته، وإلى أين يريد الذهاب، فقال إلى بغداد، فقال الأمير، حسناً، سوف نرسلك إلى بغداد. لكن خليل بقي في حائل يتجول في شوارعها ويثير التذمر من حوله كما في كل مكان. ولما ضاق الأمير ذرعاً به طلب من مرافقيه إيصاله إلى خيبر كي يتدبّر أمره هناك مع الأتراك.

في خيبر كانت لخليل مشاكله أيضاً مع «الدولة» التركية. وهناك أيضاً أثقل أكثر ما أثقل على رجل يدعى محمد النجومي الذي عطف عليه واستغل معلوماته الجيولوجية في حفر بئر للمياه. وبعد شهرين حاول الذهاب إلى جدّة لكن الأتراك أمروه بالعودة إلى حائل، فاتجه إليها برفقة بدوي من بني بشر يدعى إياد وشاب يدعى مرجان. وما لبثت علاقته أن ساءت مع الاثنين. ثم فجأة التقى وسط البوادي البركانية مرافقه صالح الذي كان قد تخلّى عنه قبل ثلاثة أشهر، فحرج صالح بادىء الأمر، لكنه ذبح له شاة احتفالاً بالمناسبة! إلا أن التعب كان قد أنهك مرجان، فلما خاطبه داوتي بعجرفة رفع البندقية في وجهه، فتدخل إياد وعندها أمسك داوتي البندقية من يد مرجان وراح يضربه بعقبها. وفي النهاية اصطلح الجميع ولما اقتربوا من حائل علموا أن ابن الرشيد خارج المدينة وأنه قد أوكل المسؤولية إلى الأمير عنيبر. وخاف داوتي خوفاً شديداً لأنه كان قد تشاجر مع عنيبر في الزيارة السابقة. ولما وصلوا المدينة أخيراً رأوها شبه خالية. واستقبله الأمير عنيبر ببرود شديد وأرسله إلى المضافة حيث لحق به الأطفال وهم يرشقونه بالحجارة، ورجاه أن يغادر صباح اليوم التالي عائداً إلى خيبر. وطلب داوتي أن يذهب إلى البريدة أو عنيزة لكن الأمير أصرّ على ذهابه إلى خيبر، وأمر إياد بأن يعود به.

وارتدع إياد من الفكرة. وضاع مرجان. وفي اليوم التالي رافقه إياد إلى خارج المدينة وقال له: «سوف أوصلك إلى جوفر وأتركك هناك. لا. لست خدّاعاً يا خليل، لكنني لا أجرؤ على العودة إلى خيبر. سوف أتركك في جوفر».

وبعدما سارا مسافة ميلين وصل مرجان فجأة وكان يحمل على رأسه شيئاً من التمور. وفي اليوم الثالث وصلوا إلى مضرب لبدو الحثايم فقال له إياد: «هؤلاء قوم طيبون وسوف نتركك هنا»! لكن معتوق رئيس المضرب، قال له: «عجل والحق بهما قبل أن يضيعا عن الأنظار». وبدلاً من أن يفعل، أخذ يتوصل معتوق أن يسمح له بالبقاء. فراح معتوق يوسعه ضرباً بعصا، لكنه أصرّ على البقاء، ثم ذهب إلى الحريم فطلب الحماية، فتدخلت زوجة معتوق وسألته لماذا تضرب الغريب؟ وأخيراً قبل معتوق أن

يستضيف خليل وقال إنه سوف يأخذه إلى زعيم القبيلة، بن نحال، لكي يؤمن له مرافقاً إلى البريدة. وشعر داوتي بالارتياح. لقد أنقذه معتوق من العودة إلى خيبر. لكن بن نحال رفض المساعدة، فأخذه معتوق إلى شقيقين يدعيان مطلق وطلق! وعثر مطلق على رجل يدعى حامد يقبل بأخذ داوتي إلى بريدة كان قد عاد لتوه من رحلة إلى الغرب قطع خلالها ١٢٠ ميلاً. بعد أسبوع وصلا إلى البريدة «مدينة من الطين في قلب هذا الفلا الرملي تعلو حولها الأبراج وتملؤها الشوارع والبيوت». دخلا المدينة فرأيا شوارعها خالية، وربط حامد الجمال أمام بيت الضيافة. ثم جاء خادم ورافق خليل إلى غرفة ينام فيها. وبعدما ارتاح قليلاً نقل إلى بهو آخر حيث استجوبه الحاضرون: «لست أنت الأوروبي الذي كان في حائل». فأجاب بالإيجاب. فسئل لماذا لم يذهب إلى خيبر فقال إن بعيره مريض! وترك يمضي الليل في البريدة على أن يغادرها في اليوم التالي إلى عنيزة. وفيما هو يرتاح هاجمته جماعة غاضبة فلجأ إلى حماية الحريم مرة أخرى. وفي اليوم التالي حمل إليه ضابط القهوة وسلمه إلى مرافق ينقله إلى عنيزة، فلما وصلا أبوابها تركه البدوي ومضى. وجاءه رجل من داخل منزل قريب فسقاه ماء ثم رافقه إلى منزل علي، شرطي الضاحية، حتى أمضى الليل. وفي اليوم التالي رافقه إلى حاكم المدينة الذي سمح له بممارسة الطب لبضعة أيام. وهناك التقى عبدالله البسام وعبدالله الكناني اللذين أظهرا له مودة. لكن الجدري الذي كان يضرب المدينة جعله ينام في شوارعها. وبعد أسابيع طلب منه مغادرة المدينة، فأعطاه الكناني شكاً من «المال وصلني بعد عام في أوروبا ودفع في بيروت»، من هناك اتجه خليل إلى الطائف ثم إلى جدّة في آب/ أغسطس ١٨٧٨ ومن هناك استقل سفينة مبحرة إلى عدن فإلى الهند، وذلك بعد عامين من التشرّد في الجزيرة.

القرن العشرون

جاء القرن العشرون، جاءت السياسة. جاء كشافو السياسة الغربية. جاء المحرّك. وسوف يجيء النفط!

مع أوائل القرن، العام ١٩٠٨ وصلت إلى أرض الجزيرة السيارة الأولى، وكان مالكها الكابتن وليم شكسبير (قريب بعيد لشاعر ستراتفورد أبون أفون) مساعد المقيم السياسي البريطاني في الكويت! وكان وليم شكسبير العسكري يحمل كل الصفات التقليدية في أصل الطبقة البريطانية الحاكمة تلك الأيام: عائلة إنكليزية تعيش في الهند وأم قوية الشخصية وأفضل المدارس الداخلية والانتماء إلى الدائرة السياسية في حكومة التاج! إلا أن وليم شكسبير لم يكن تقليديًا بكل معنى الكلمة. فهو أيضاً الرجل الذي أمضى إجازته الأخيرة يقود سيارته من إيران إلى «بلاد ما بين النهرين» (التي كان القوميون العرب قد بدأوا بتسميتها العراق) إلى بلاد البلقان ثم إلى إنكلترا.

وقد تنقّل الديبلوماسي الشاب بين الكويت ونجد عدة مرات قبل أن يلتقي أخيراً الملك عبد العزيز في الكويت الذي كان آنذاك «في الحادية والثلاثين من العمر، عملاق القامة، ذا وجه صريح وودي الطبع برغم التحفظ».

وفي نهاية اللقاء سأل شكسبير الملك عبد العزيز إن كان بإمكانه السفر إلى الرياض. وكعادته وعادة الملوك رحب العاهل به! ولم يصدق شكسبير أذنيه. إنه سوف يكون أول أوروبي يدخل إلى الرياض منذ نصف قرن حين وصل لويس بيلي. أما الآخرون، من تشارلز داوتي إلى بلانط وزوجته إلى الفرنسي شارل هوبير الذي قتله مرافقوه إلى جوليوس انتنغ إلى الألماني البارون نولدي الذي سافر بكامل اللباس البروسي بما فيه الخوذة اللماعة - ثم انتحر - كل هؤلاء وصلوا فقط إلى مشارف الرياض. أما هو، وليم شكسبير، فها هو يُدعى إلى زيارتها.

يقول ريتشارد ترينش «بعد العام ١٩٠٢ كانت القوة السعودية قد أعادت تأكيد نفسها واستعادت الرياض. وقد تحولت الطريقة التي استعاد بها عبد العزيز المدينة إلى جزء أسطوري من تاريخ السعودية تماماً كما تحولت المسيرة الطويلة إلى جزء أسطوري من تاريخ الصين. يقول شارل ترينش: «إنها قصة خارقة بقدر ما هي بسيطة. أربعون رجلاً انطلقوا من الكويت يجمعون الأنصار في البادية ويسلكون إلى الرياض طريقاً طويلة غير مباشرة. اتجهوا جنوباً ثم أوغلوا المزيد نحو الجنوب ثم المزيد جنوباً متوجهين إلى أعماق الربع الخالي. وقد حملت خشونة الرحلة الكثيرين على التراجع بحيث ما إن توقفت القافلة حتى تبيّن أن عددها لا يزيد على الأربعين الأساسيين إلا بقليل. وفي أعماق الربع الخالي حيث غطتهم الكثبان الرهيبة افترقوا بعضهم عن بعض طوال خمسين يوماً، وكانوا فقط يأتون آبار المياه في الليل ويمسحون خلفهم كل أثر لهم على حوالي ثلاثين ميلاً. زحفوا نحو المدينة في ساعات الفجر الأولى ودخلوها من الجنوب. وإذ اقتربوا من القصر دارت رحى معركة فروسية خارقة. وحين انتهت كان عبد العزيز آل سعود قد استردّ ملكه وداره. ومن هناك انطلق من جديد لكي يؤسس أقوى جيش في شبه الجزيرة العربية».

لم يحقق وليم شكسبير حلمه بالسفر إلى الرياض إلا بعد أربع سنوات من الدعوة التي وجهها إليه سيد الجزيرة. وحين استعد للسفر، في العام ١٩١٤، كان قد سبقه الدانماركي باركلي رونكاير والإنكليزي جيرالد ليشمان الذي وصل إلى حائل في العام ١٩٠٩. وكان ليشمان ضابطاً مقتدراً من مقاتلي حرب البوير وقد سافر مستكشفاً في آسيا الصغرى وسافر في الصحراء السورية مع رجال من عنيزة حين هاجمت جماعته فرقة من آل الرشيد وأسرته لبضعة أشهر. وقام برحلته الثانية إلى نجد في العام ١٩١٢ منطلقاً من دمشق عبر الجوف وحائل وبريدة إلى الرياض والخليج.

بدأ الكابتن وليم شكسبير رحلته في كانون الثاني/ يناير ١٩١٤، ومعه جمّاله الخاص عبد العزيز بن حسني و٧ جمالين آخرين وخادمين ومجموعة كبرى من البنادق وناقته المفضلة دهبية و... خيمة للاستحمام! ورافقت النصف الأول من الرحلة أمطار يومية وصقيع كان يجلد المياه في القرى خلال الليل. وحين بلغوا الدهناء بدأت الجماعة تتذوق معنى الصحراء. ولاحظ شكسبير أن الكثبان كانت تغيّر ألوانها من الزهري في الصباح إلى البرتقالي عند الظهر إلى القرمزي في الغسق. وخلف كل تلك الكثبان كانت تقع الزلفى التي ما إن وصلها حتى دعاه عبدالله بن سليمان إلى تناول القهوة. وفي منتصف آذار/ مارس بلغ الرياض حيث استقبله الملك عبد العزيز.

لم يكن شكسبير ـ كما أسلفنا ـ أول إنكليزي يصل إلى الرياض. فقد سبقه إلى هناك سادلير وبالغريف وبيلي وليشمان، لكنه كان أول من وصف المدينة بتفصيل شديد، كما كان أول من التقط لها صوراً سينمائية. وقد غادر الرياض في ١٢ آذار/ مارس، فاتّجه غرباً على الطريق الرئيسي إلى بريدة وسط أمطار غزيرة فأضاع طريقه غير مرة لكنه وصل عنيزة في ٢٦ آذار/ مارس وقد أدهشه، كما أدهش داوتي من قبل، إطّلاع أهلها. وبعد ذلك بيومين قام بالرحلة إلى بريدة (١٨ ميلاً) وفوجيء حين التقى فيها رجلاً يدعى عبدالله الخليفة كان يتحدث الإنكليزية بلكنة أميركية. وأخبره عبدالله أنه كان قد سافر مختبئاً على ظهر إحدى السفن المتّجهة إلى نيويورك حيث عمل سائق تاكسي طوال سنوات قبل أن يعود إلى بلاده: ومن بريدة اتبع شكسبير طريقاً شبه دائرية حول حافة جبل شمر الشرقية إلى الجوف، فيما تحولت الأمطار الثقيلة إلى رياح باردة. وبعد أيام قليلة التقى رجلاً متقدماً في السن اعتقد أن القافلة تضم مساحين يرسمون طريقاً بين الكويت والسويس. هذا الرجل أيضاً كان يتحدث الإنكليزية بلكنة أميركية ويدعى محمد الرواف. وكان الرواف قد عمل سائساً للجمال في معرض شياغو قبل ذلك لـ ١٥ عاماً.

وصل شكسبير وفريقه إلى الجوف في ٢٦ نيسان/ أبريل. ومن هناك سار مسافة خمسة أيام إلى أن تعرض لهجوم فتوقف حتى الظهر ثم اخترق صف المهاجمين في قيظ «الحرارة المقلاة» وسارت الجماعة طوال الليل إلى أن وصلت إلى مضرب الشيخ عودة أبو طايعة، المعروف بشدة بأسه والذي روي أنه ذات مرة أكل قلب أحد أعدائه. وكان شكسبير قد وزع الهدايا التي يحملها ردًّا على الضيافات التي لقيها في الطريق ولم يعد معه سوى ٢٧ جنيهاً. وقد عرض على أبو طايعة ١٠ جنيهات لقاء خدماته لكن عودة أصرّ على العشرين. وبعد ذلك بثلاث سنوات كان أبو طايعة يعبر الصحراء مع تي. إي. لورانس الذي قال عنه «حين يموت هذا الرجل تكون العصور الوسطى في الصحراء قد انتهت».

الأيام التالية كانت مليئة بالحرّ القاتل خلال النهار والبرد القارس خلال الليل. كذلك اشتد على القافلة الخوف من المهاجمين فلم تكن تجرؤ على إضرام النار في الليل. وفي ١٢ أيار/مايو عبر شكسبير طريق خط الحجاز الذي سافر عبره فارتيما وبيتس وداوتي. وبدأ الآن طعام القافلة ينقطع فراحت تعيش على التمور والحليب كما بدأت الجمال تنهار والرجال يصابون بالتعب: «إنني أريد أن أنام إلى الأبد. إنه أسوأ يوم في حياتي». وفي ١٧ أيار/ مايو وصل إلى سيناء فاستحمّ وتناول الأيس كريم في

مخفر للشرطة! كان شكسبير يملك كل سبب للاحتفال، فقد أكمل لتوّه عبور ١٨٠٠ ميل، ثلثاها في أرض لم تستكشف من قبل!

في الوقت الذي كان الكابتن شكسبير يستعد للانطلاق من الكويت، كانت رحّالة بريطانية أخرى، جيرترود بل، تغادر دمشق إلى حائل.

كان كل من الكابتن شكسبير وجيرترود بل في أوروبا حين اندلعت الحرب العالمية الأولى. وقد قلبت الحرب تماماً سياسة الدعم البريطاني للإمبراطورية العثمانية (إن الاحتلال التركي للطريق إلى الهند لن يكون أقل سوءاً من جعلها تحت سلطة زعيم عربي مستقل، قال اللورد بالمرستون) وهكذا قررت لندن إيفاد جيرترود بل إلى القاهرة من جديد ووليم شكسبير إلى الجزيرة. وقد أبحر أولاً إلى الهند ومنها إلى الكويت، التي غادرها في ١٢ كانون الأول/ ديسمبر على رأس قافلة من ١٢ جملاً. وحين عثر على معسكر الملك عبد العزيز «رأيت بحراً من الخيام المتماوجة وكان الجيش السعودي متجمعاً في تحفز رائع، وكانت الطبول تقرع». لكن شكسبير اكتشف أن سيّد الصحراء لا يثق كثيراً بالبريطانيين مع كونه ضد الأتراك. ومع ذلك طلب مرافقته في الحملة كي يلتقط صوراً للمعارك. وفيما هو يلتقط صور المعركة أصيب بثلاث رصاصات.

البريطاني الذي وصل إلى الجزيرة بعد ذلك كان من نوع مختلف تماماً: هاري سانت جون فيلبي! كان العالم مقسوماً إلى قسمين بالنسبة إلى فيلبي: قوى الشر وقوى الخير، الأولى هي التي يؤيدها، والثانية هي رجال حكومة صاحبة الجلالة! ولم يكن مستعداً لأي مساومة بين الفريقين.

كان فيلبي نقيضاً كليًّا لتشارلز داوتي وتي. إي. لورانس. ولد في العام ١٨٨٥ وتلقى علومه في وستمنستر وأوكسفورد قبل أن ينضم إلى الجهاز الوظائفي في الهند. وفي العام ١٩١٥ نقل إلى الخليج. وحين قال أحد رؤسائه إن «لديه ميلاً للعثور على نقص في كل شيء من الحكومات إلى أقلام الحبر» كان ردّ فيلبي أنه لم ير حكومة كاملة ولم يعرف قلم حبر كاملاً.

وصلت البعثة البريطانية التي كان فيلبي أحد أعضائها إلى العقير في البحرين في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧. ومع فيلبي كان هناك الكولونيل كانليف أوين، وهو مستشرق معروف، ومرافقه الإسكتلندي شوفيلد. أما العضو الرئيسي الثالث في البعثة، الكولونيل هاملتون، فكان قد وصل إلى الرياض برًّا من الكويت! ومن العقير انطلق

الجميع إلى نجد، ليكتشف رفاق فيلبي أنه مولع بالصحراء إلى حدّ الجنون، مولع بالكلام إلى البدو، مولع بتناول الطعام بيديه على طريقتهم.

وقد «استفظع» المستشرق أوين طريقة فيلبي في الأكل، لكن هذا قرّر أن يعامله «كما يعامل المستشرقون رجال البادية: التجاهل أنهم في الوجود». وقد قال لأحد هؤلاء بعد أشهر «إنني لم أسمع جيداً ماذا قلت ولكنني لا أوافق معك في أي حال! بعد يومين، وصل الرجال إلى الحسا وبعدها إلى الهفوف المليئة بالمياه والينابيع. وقد توقف فيلبي عند الينابيع الحارة التي توقف عندها بالغريف قبل قرن. كذلك توقف ليكتب بإعجاب عن مسجد المدينة الذي تجعله مئذنته وهندسته «أجمل بناء في وسط الجزيرة وشرقها».

طلب حاكم المدينة من الفريق ارتداء الثياب العربية، ففعل الآخرون بتردّد، بينما شعر فيلبي بالابتهاج «وبدا الإسكتلندي المسكين مضحكاً حقًّا». حتى حين بلغوا الدهناء لم يجد فيلبي فيها أي تحدّ: لقد بالغ الجميع في وصف رعب هذا الحاجز الرملي الهائل». وخلف الدهناء كانت هناك تلة خلف تلة من الرمل والحجارة، وصلوا بعدها إلى سهل الترابي فوجدوا «عشباً، عشباً أخضر في غابات كثيرة متفرقة وحدائق من شجر الخوخ». وكان أول دليل على الحياة شاهدوه، غزالاً تائهاً. وبعد خمسة أيام من ترك الهفوف وصلوا إلى الرياض فأطلّوا من أرض قاحلة على واد أخضر هو الرياض التي ارتفعت حولها الأسوار المغطّاة بشجر النخيل. وقد خفّ ثلاثة خيّالة إلى استقبالهم عند بوابات المدينة بينهم إبراهيم بن جوريا، رئيس الحرس الذي لم يرتح إليه فيلبي منذ اللحظة الأولى ولا هو ارتاح إليه. قاد إبراهيم البعثة إلى البوابات التي كانت مغلقة، فاليوم يوم جمعة والمدينة غارقة في الصلاة، وبعد قليل انفتحت البوابات ودخلوا الرياض متجهين إلى القصر، فكان أول من استقبلهم الإمام عبد الرحمن آل سعود «وسرعان ما لاحظ فيلبي وجود رجل طويل القامة في ثوب أبيض، وجهه مليء بملامح الرجولة. لقد كان عبد العزيز آل سعود. ومنذ اللقاء الأول انبهر فيلبي بهذا الحضور الخارق وقرّر أنه سوف يحاول التقرّب منه مهما كان الثمن».

في الأيام التالية خرج فيلبي إلى المدينة «يصحح المعلومات التي أوردها بالغريف، بكل تواضع ومن دون ادّعاء العصمة». كانت بيوت المدينة مبنية من الطوب الأصفر وفي وسطها القصر، وعلى مقربة من القصر السوق الذي تباع فيه الجلود والسروج والبن والشاي والبهارات والبنادق والمناظير.

كانت مشكلة فيلبي الكبرى أن الحكومة البريطانية لا تؤيد عبد العزيز آل سعود بل

أعداءه. وطالما أثار الملك الموضوع أمام رجال البعثة، وكان الكولونيل أوين يحاول الدفاع عن السياسة البريطانية. أما فيلبي فكان يعترض ويؤيد الموقف السعودي. وذات مرة حضر الملك عبد العزيز فجأة إلى جناح الضيافة، وفي المفاجأة لم يستطع فيلبي وأوين إطفاء غليونهما. ولم يقل الملك شيئاً، لكنه بعد قليل أرسل أحد الخدم كي يبخر الغرفة.

أدى الخلاف بين أفراد البعثة إلى سفر هاملتون غاضباً إلى الكويت ثم لحق به أوين وشوفيلد ومنذ «تلك اللحظة أصبحت أتجوّل وحيداً في الجزيرة». وما لبث فيلبي أن تخلّى عن كل ما هو أوروبي باستثناء أدوات المساحة والبندقية. وبعد سفر رفاقه انطلق في ٩ كانون الأول/ ديسمبر في اتجاه جدة متخذاً طريق الحج القديمة. وبعد عشرة أميال وصل إلى الدرعية فوجدها لا تزال خراباً كما تركتها حملة إبراهيم باشا. ومن هناك اتجه تحت المطر نحو النفود وخلف جبال الكثبان «رأى قطعاناً من الغزلان. كانت تركض في سهل مفتوح. وفي وسطه، قرب طريق الحج، كانت تقف مباني وحقول القواعية والمذول. إنه لمشهد ساحر من الخضرة الخصبة في قلب هذا القحط». وكانت المحطة التالية في «القصرية» وهي آخر مسقى قبل خرمة، على بعد ٢٠٠ ميل و٧ أيام. انطلق فيلبي ومرافقوه باكراً في ١٧ كانون الأول/ ديسمبر فقطعوا وادياً مليئاً بالشجر والطيور ثم قطعوا سهل السرّة المفروش بالحصى السوداء ومنه إلى تلال الوسط وجباله التي تبلغ مساحتها ١٠ آلاف ميل مربع ويستغرق عبورها خمسة أيام. ولم ينس فيلبي تلك المشاهد «التي تركت فيّ ذكريات لا يمكن للكلام أن يصفها ولا للسنين أن تمحيها».

بعد تلك الجبال بادرتهم منطقة السباعي حيث رأوا آثار حياة للمرة الأولى منذ تركهم القصرية: بعض النعاج. وخيّموا ذلك المساء وراحوا يصغون إلى عواء الذئاب، وفي الصباح اتجهوا غرباً حيث رأوا في البعيد ثلاثة من الخيالة. وحاول فيلبي الإسراع لمعرفة هويتهم غير أن إبراهيم نهاه عن ذلك، واستمروا في السير بين كثبان الرمل العالية إلى أن رأوا أنفسهم فجأة أمام فوّهات بنادق فعرفوا أنهم في كمين. وتبيّن أن الرجال كانوا تجّاراً من شقر عائدين من خرمة وأنهم ظنّوا أن فيلبي وجماعته ينوون الإغارة عليهم. وتلك الليلة خيم الفريقان أحدهما إلى جانب الآخر، وفي اليوم التالي اتخذ كلاً منهما طريقاً مختلفة، وقد بدأ فريق فيلبي المؤلف من ٣٠ رجلاً يشعر بالتعب إذ مضت عليهم ستة أيام من دون مياه جديدة، كذلك ضعفت ناقة فيلبي وأخذت تعرج. وفي اليوم التالي وصلوا إلى خرمة، وهي واحة ذات بيوت مبنية من الطين ومحاطة بالنخيل.

وفي ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر وصل فيلبي إلى الطائف عابراً الجزيرة من جانب إلى آخر، ومن هناك سافر إلى القاهرة! عاد فيلبي إلى الجزيرة مرة أخرى في العام ١٩١٨، وانصرف إلى استكشاف وادي العواصر قرب واحة صليل على حافة الربع الخالي. ومن هناك عاد إلى الكويت ليكتشف أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت، وأن عداء الإنكليز للملك عبد العزيز قد ازداد، وأن مخاوفهم من توحيده الجزيرة قد ازدادت فرسموا سياسة تقضي بالاستمرار في دعم الشريف حسين من جهة وفي إقامة دولة أخرى في حائل من جهة أخرى. وقد تذكّر فيلبي أنه سمع هذه القاعدة السياسية تكراراً وخلاصتها «إضعاف الجزيرة وتفكيكها وشقها إلى عدة إمارات صغيرة»، وهو نكث كامل للوعد البريطاني للعرب بالاستقلال.

انتقل فيلبي إلى العراق حيث عمل تحت إمرة جيرترود بل، لكنه استقال بعد ثلاث سنوات احتجاجاً على إقدام بريطانيا على تتويج الملك فيصل بالقوة كتعويض له بعدما طرده الفرنسيون من سورية. ومع ذلك ذهب فيلبي إلى العمل لدى الملك عبدالله في شرق الأردن، وسوف يكون معه هناك أحد أشهر الرحّالة الآخرين في تاريخ الجزيرة والخليج: برترام توماس. لكن عمل فيلبي لم يدم طويلاً وفي العام ١٩٢٥ كان بلا عمل من جديد.

كان فيلبي يضيع الوقت، لكن سيد الجزيرة كان يستخدم وقته باللحظات. لقد استعاد حائل في العام ١٩٢١.

وفي العام ١٩٢٤ دخلت قوات الملك عبد العزيز إلى الطائف ومنها أكمل موحّد الجزيرة الطريق إلى مكة المكرمة. وكلما ازدادت بريطانيا عداء للملك ازدادت عداء أيضاً لفيلبي المنبهر بانتصارات الرجل. وهددت الحكومة البريطانية الموظف السابق بإلغاء راتبه التقاعدي، لكنه بدلاً من أن يخاف قرّر التوجه إلى الجزيرة من جديد. وقد كتبت إليه زوجته «دورا» يومها تقول: «لقد فعلت دائماً كل ما أردت أن تفعل برغم أنفي ورغم أنف كل الحكومات».

استقرّ فيلبي في جدّة حيث أنشأ وكالة استيراد مهمة سماها «الشرقية»، وغرق في التجارة وفي الرحلات وفي حلّ الكلمات المتقاطعة في «التايمس». وبعدما تعرف جيداً إلى الحياة في السعودية وقرأ في القرآن الكريم، سارع إلى اعتناق الإسلام. وفي لندن كانت الحكومة تستشيط غضباً. وقال أحد تقارير الخارجية البريطانية آنذاك إن «فيلبي هو الآن في واحد من تلك الأمزجة البطولية، وبالإضافة إلى أنه يريد لنور العلم أن يشعّ على الإنسانية لديه الآن نية وحشية في أن يفضح خداع حكومة صاحبة الجلالة المزعوم نحو عرب شبه الجزيرة».

لم يبدُ أن فيلبي قد اكتفى بما حقق حتى ذلك الحين. وقد أراد أن يدخل عالم المشاهير من باب أوسع الآن، حين أخذ يحلم بعبور الربع الخالي، آخر قطعة مجهولة من الأرض، وكان قد لمحها للمرة الأولى في العام ١٩١٨. لكن حين استعد نهائيًا للقيام بالرحلة الصعبة، أو المستحيلة حتى ذلك الوقت، العام ١٩٣٢، كان قد خسر حق الريادة. فلقد سبقه إلى هناك، مساعده الهادىء والجدي الذي عرفه في الأردن، برترام توماس، الذي قطع الربع الخالي من الجنوب إلى الشمال، منطلقاً من صلالة على الساحل الجنوبي إلى الدوحة على الخليج العربي.

كان برترام توماس قد انتقل من الأردن إلى مسقط وهناك قام برحلات كثيرة إلى حافة الربع الخالي، حيث تصادق مع عرب بيت كثير والرشايد وعاش معهم كرجل من البادية. وقد وصل توماس إلى صلالة في أحد مراكب «البوم» وأمضى شهراً في الجبال، قبل أن يطلع زعيم الرشايد، صالح بن قنوت على مشروعه. وقد اعترض صالح على ذلك، قائلاً إن «قلب الرمل» خال من الحياة. وفي النهاية وافق على مرافقة توماس حتى منطقة بني مرة، فغادر الرحّالة الإنكليزي صلالة مع فريق من ٣٠ شخصاً في ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٠. وقد سأله أحد الرشايدة لماذا يريد السفر في مثل هذه الصحراء الرهيبة فأجابه توماس أنه يحب السفر وأن «السعي إلى العلم لدى قبيلة الإنكليز كالفروسية لدى الرشايدة».

أمضى اليوم الأول من الرحلة بين شجر اللبان، التي لاحظ أنها كانت من دون جذوع، وأن أغصانها تبدو وكأنها متفرعة من الأرض. ورأى كيف أن قاطفي البخور، مثل قاطفي المطاط، يفتحون الأغصان بالمبضع، فتدمع، فيترك السائل عشرة أيام ويجفّف ثم يباع إلى الهند! وكان لا يفتأ يعظ الرشايدة بأسلوب غير مباشر «أن القتال أمر ممتاز في وقته. لكن كيف تعتقدون أننا نحن الإنكليز أصبحنا أقوياء لولا العمل؟ كيف تعتقدون أننا حصلنا على السفن والبنادق؟»

وأجابه أحد رجال القافلة: «بالمال».

لكن توماس لم يكن يضيع أي وقت في الضحك أو حتى في الابتسام. ولم يكن يختلف عن الرحّالة الآخرين بالجدية فقط، بل في اندماجه في حياة البادية: «إن للصحراء فلسفة في حتمية الأشياء». وخلال المراحل الأولى من الرحلة صادف النعام والغزلان والثعالب والقطط البرية والكباكب والأفاعي والعقارب والضب. كذلك راقب كيف أن مرافقيه كانوا يدخنون «ورقة محلية خضراء» بواسطة أنابيب مصنوعة من الرصاص «وكانوا يدخنون إلى أن تحمرّ عيونهم وتترنّح أجسامهم».

واكتشف توماس أن مجتمع الرشايدة (لا علاقة مع آل الرشيد في حائل) كان متساوياً. ولم يكن يهمّهم كثيراً شأن النصارى الذين اعتقدوا أنهم إحدى قبائل عدن! وحين وصل توماس إلى «شنا» في كانون الثاني/ يناير ١٩٣١ غيّر مرافقيه وانتقى بعضاً من رجال بني مرة. لقد أنهى الآن ثلث الطريق. ولم يعد في حاجة إلى ثلاثين رجلاً بل إلى ثلاثة عشرة. ولاحظ أن حمود زعيم الفريق كان داكن اللون ويشبه الصقور. وكان حمود قد شارك في معارك عديدة ولذا كان كلما تقدمت القافلة عمد إلى محو آثارها خوفاً من أن يتبعها أحد. كان حمود على ما يبدو يخاف المهاجمين أكثر من أي شيء آخر، وبعد ذلك كان يأتي الخوف من عدم العثور على الماء والكلأ. والواقع أنها رحلة صعبة. فلا ماء هناك ولا كلأ ولم يكن يرى توماس أمامه سوى «فراغ هائل ومسكن للموت لكل من تجرأ على التأخر هنا».

بعد ثلاثة أسابيع تقريباً من عبور الكثبان خلف الكثبان في «قلب الرمال» وصلت القافلة إلى بريدان. لقد قطعوا الآن أسوأ مراحل الربع الخالي. وقد هرعت القافلة نحو أول بئر وقعت عليه العين. وكان أول الواصلين توماس وحمود:

«لكن العرف كان يقضي، بأنه بعد مسيرة يوم من العطش، لا يجوز أن تصل نقطة مياه إلى حلق مقدم القافلة إلى أن يصل أولئك الذين في مؤخرها، ولم يكن أحد ليأكل معي كسرة خبز واحدة إذا لم يكن رفاقه حاضرين لمشاركته. وإذا كان هذا الشظف من الحياة ينمّي القسوة فهو أيضاً ينمي روح الصداقة الشفافة بين الناس».

بعد ذلك بأربعة أيام وصل إلى الدوحة! وحين عرف فيلبي بالأمر صرخ: «لعنة الله على توماس»!

لقد اتبع توماس أسهل الطرق عبر الربع الخالي. لكن فيلبي لم يكن من النوع الذي يمكن أن يختار الطرق السهلة! في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣١ وصل إلى الهفوف استعداداً للانطلاق نحو الربع الخالي. ومن هناك غادر في ٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٢، متجهاً أولاً إلى منطقة سلوى في الخليج ثم جنوب - غرب نحو جبرين. وكان معه ١٤ بدويًا و٣٢ جملاً ومؤونة لثلاثة أشهر. ومثل توماس التقى فيلبي «الكثبان الطروب»، أي حيث يؤدي انهيار ذرات الرمل إلى صوت يشبه صوت الغناء. واستمرت القافلة في طريق متعرجة حتى وصلت إلى «نايفة» في قلب الربع الخالي ومن هناك شقت طريقها بصعوبة إلى شفه، حيث غير توماس مرافقيه. وهناك رفض مرافقوه الذهاب في المجهول إلى أبعد من ذلك، فاتجه غرباً نحو صليل لكن مرة أخرى رفض مرافقوه التقدم من دون مياه. وهكذا اضطر للعودة إلى نايفة مجدّداً قبل

إكمال الطريق نحوصليل: لقد كانت أمامه ٣٥٠ ميلاً من دون مياه. وهو الآن فوق سهل عائم من ذرات الرمل يسمى «أبو بحر»، لا أثر للحياة فيه ولا أحد يعرف إلى أين يمتد. في أي حال، شرعوا في عبوره في ٥ آذار/ مارس، وكانوا يرشون خياشيم الجمال بالمياه لتمكينها من السير! وقد سعوا إلى التنقل في الليل والنهار فلما وصلوا إلى صليل كانوا قد قطعوا ٢٥٠ ميلاً في ستة أيام، وكان طعامهم قد انتهى قبل ٤٨ ساعة ولم يبق معهم من المياه سوى ثلاث قرب. ومن صليل، التي كان فيلبي قد مرّ بها في العام ١٩١٨، انطلقوا نحو مكة المكرمة فوصلوها في نيسان/ أبريل ليعلن عبدالله فيلبي «أعتقد أنني لن أعود إلى استكشاف الصحراء بعد الآن ما حييت. لقد اخترق جلد يدي حتى العظام».

لم تغطِّ رحلتا توماس وفيلبي سوى جزر يسير جدًّا من الربع الخالي، إذ بقيت عشرات الآلاف من الأميال لم يصلها أحد. والرجل الذي سيقطع بعض هذه المساحات فيما بعد، ويلفرد تيسيغر، كان من جيل آخر غير جيل فيلبي. كان تيسيغر قد بدأ عبور الصحاري وهو طالب في أوكسفورد، إذ قطع صحراء الدناكيل في دجيبوتي، وبعد تخرجه من أوكسفورد انضم إلى الجهاز السياسي البريطاني في السودان وقام برحلات كثيرة في صحرائه، وخلال الحرب عبر الصحراء الإفريقية في السيارة. وبعد الحرب كان في أديس أبابا حين عرض عليه أو. بي. لين رئيس مركز مكافحة الجراد في الشرق الأوسط القيام برحلة إلى الربع الخالي الذي كان يشك في أنه منبع خصب للجراد: «لقد أعطاني الربع الخالي فرصة التميز كرحّالة، لكنني أيضاً اعتقدت بأنه يمكن أن يعطيني أكثر من ذلك، وأنني في هذه المساحات الخالية أستطيع أن أعثر على السكينة التي تأتي من العزلة، وأنني سأعثر بين البدو على روح الصداقة في عالم عدائي».

لكن تيسيغر سوف يكتشف في السنوات التالية أن المضارب والقوافل كثيرة الضجيج، وأن أهلها يكثرون عمداً من القعقعة لعلهم يملأون الفراغ الذي يحيط بهم. قام تيسيغر برحلتين عبر الربع الخالي، الأولى منطلقاً من صلالة مع ٢٤ بدويًّا، في ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٦، وكانت مؤونته ألف أقة من الطحين، ٥٠٠ أقة من الأرز، زبدة، بن، شاي، سكر، تمور، دزينة من البنادق وكتابين: «الحرب والسلام» لتولستوي و«نشوء وسقوط الإمبراطورية الرومانية» لغيبون. ومثل توماس سافرت قافلة تيسيغر على خطى الجمال، تتبع الطريق السهل ولا تسير ضده. وحين وصلوا إلى شيسور على حافة الربع الخالي انضم إليهم بعض الرشايدة الذين كانوا مع توماس. وكتب تيسيغر عن سلفه أنه:

«كان أول أوروبي عاش بينهم. وقد حظي باحترامهم بطبعه الطيب وكرمه وإرادته القوية. وقد تذكروه جميعاً كرفيق جيد في السفر. وعندما جئت بين هؤلاء البدو النبلاء بعدما تركهم بستة عشر عاماً، رحبوا بي لأنني انتمي إلى القبيلة التي جاء منها توماس. وكنت قد التقيته مرتين فقط في القاهرة وكل مرة لدقائق قليلة. وكم كنت أتمنى لو أنني التقيته قبل موته لكي أبلغه كم أنا مدين له».

في العبور الحقيقي للربع الخالي خفض تيسيغر رجاله إلى اثني عشر. وكانت وجهتهم واحة اللوى على بعد ٤٠٠ ميل. ولدى وصولهم إلى آبار مغشن تخلّى عنه سبعة من الرجال الاثني عشر، ومكافأة لولاء الخمسة الباقين أعطى كلاً منهم بندقية إنكليزية، ثم أخذوا يتجهون شمالاً وسط الكثبان الحمراء والبطاح المغطاة بذرات الرمل الطيار. وكان تيسيغر يحب الصمت ويمضي ساعات طويلة يصغي إلى البدو يتبادلون أطراف الحديث من دون أن يشاركهم ذلك.

كان عبور «عروق الشايبة» أصعب مرحلة في الرحلة، إذا اضطروا إلى الترجل وقادوا جمالهم بحذر وسط التلال الحادة المتداعية. وكانت أمامهم تتجمع تلال خلف تلال من الكثبان، من الأفق إلى الأفق: «وهناك في آخر ما تصل إليه العين، كانت الرمال تختلط بالسماء، لكن في كل هذه المساحة اللامتناهية لم أستطع أن أرى أثراً لحياة أو حتى نبتة تائهة تعطيني شيئاً من الأمل».

فجأة قفز أرنب من جبّ وراء الكثبان. لقد وصلوا الجانب الآخر من الربع الخالي وكانوا قد أصبحوا الآن مرة أخرى على أرض فيها أثر للحياة. وبعد أيام وصلوا إلى اللوى، التي عادوا منها إلى صلالة في طريق شبه دائري محاذ لأطراف عمان.

قام تيسيغر بعملية العبور الثانية في العام التالي، من صيوون في حضرموت شمالاً إلى صليل ثم إلى شرق أبو ظبي على الخليج. وقد أمضى الأسبوعين الأولين ينتظر رفاقه من الرشايدة بعدما عبر أودية الصحراء. وأخيراً وصل الرشايدة في الطائرة. وقال أحدهم عن تجربته: «عندما دخلت الطائرة حاول الإنكليزي أن يشدّ وثاقي بحبل. ولم أشعر بأي خوف من الطيران، إلا أنني كنت أخشى من أن يضيع راعي الطائرة الطريق في الليل».

انطلق تيسيغر وفريقه هذه المرة في ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧. وكان أول ما واجهه هذه المرة سلسلة من الكثبان طولها ٤٠٠ ميل. ولم يكن معه دليل يعرف الطريق التي سوف تستغرق ١٦ يوماً لكن الرشايدة قالوا له: «إننا نعيش في الرمال ونحن نستطيع السفر معك من دون دليل». بعد ساعتين من تركهم آخر بئر في منودك شاهدوا

آثار مياسم خمسة جمال، فسألوا تيسيغر أيها الأقوى في رأيه، فأشار إلى واحدة منها، فكان أن انقلبوا على ظهورهم من الضحك: إنه الجمل الأضعف.

كان العالم بارداً ورمادياً والريح تأتي وتذهب والأيام تكرّر نفسها في رتابة شديدة. وكانوا أحياناً يركبون الجمال وأحياناً أخرى يسيرون على أقدامهم، كما كانوا يغيّرون مواقعهم على الهوادج، طولاً أو عرضاً أو ركوعاً عليها. وحيثما رأوا عشباً أخضر كانوا يترجّلون للكلأ، وطالما عانوا من الجوع والعطش، وفي الليل كانوا يحتمون في أودية الكثبان، من الريح والمهاجمين.

وفي منتصف الطريق طالعتهم كثبان بني مرد، التي كانت في رهبة عروق الشايبة التي مرّ بها قبل عام. وكانت هذه الكثبان ترتفع إلى ٤٠٠ قدم في لون أحمر ذهبي. وقد غادر تيسيغر صليل في ٢٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨، واتجه من هناك إلى أبو ظبي على بعد ٧٦٠ ميلاً، أي ضعفي المسافة التي قطعها حتى الآن. كانت الإبل قد تعبت ولذا حذره محافظ صليل بأن لا مياه ولا كلأ أمامه قبل واحة ليلى على بعد ١٦٠ ميلاً. استغرقت رحلته إلى هناك أسبوعاً حيث فوجىء بوجود عبدالله فيلبي الذي جاء خصيصاً للقائه.

بعد ثمانية أيام أخرى من الجوع والعطش والتعب وصل تيسيغر إلى جبرين على حافة الدهناء. كان المطر قد سقط الآن والكثبان الحمراء امتلأت بالعشب الأخضر. إنه منتصف الطريق. ومن هناك ساروا نحو آبار الذهبي التي رسمها توماس على الخريطة. الحرّ قاتل من جديد والجمال تعاني من الإسهال، ولذا ربطت أذنابها إلى الهوادج. وبعد ٨ أيام من جبرين وصلوا إلى الدهني فاندفعت الجمال تشرب بلا حساب، أما الرجال فامتنعوا. كانت مياهها موحلة حقاً.

في اليوم التالي عبروا بطاح سبخة المعطي المليئة بالملح. وكانت قشرة الملح تتكسر تحت ميسم كل جمل. واستغرق عبور السهل المالح خمس ساعات فرأوا خلفه أميالاً وراء أميال من الرمل الأزرق الفضي. ولما انقطعوا تقريباً من المياه قرّروا أن أفضل حل أمامهم هو الاتجاه إلى اللوى، حيث كانوا في العام السابق. وكانت تلك مقامرة. فهم إن أخطأوا الطريق عادوا من جديد إلى قلب الربع الخالي. لكن في ٢٨ شباط/ فبراير اعتلى أحد المرافقين أعلى كثيب أمامه وصرخ: «إنني أرى أمامي رمال اللوى». المرحلة الأخيرة إلى أبو ظبي، ١٥٠ ميلاً، كانت سهلة. لقد كشف غطاء الربع الخالي تماماً الآن. إنها أعظم لحظة في حياة تيسيغر!

كان استكشاف الربع الخالي أعظم شيء في حياة فيلبي أيضاً. ولم يتوقف عن

رحلاته إليه، لكن الآن بالسيارة، لكي يستطيع الإصغاء إلى تعليقات الإذاعة على مباريات «الكريكت». كذلك استمر فيلبي في معركته ضد «قوى الظلام»، أي الخارجية البريطانية. وفي العام ١٩٣٧ كان أول من قطع شبه الجزيرة بالسيارة من الشمال إلى الجنوب: «وكانت أهم جائزة تلقاها هي الغضب والحسد الذي أثارتهما في عدن» (القيادة البريطانية).

لم تكن تلك فقط أول ريادة يحققها فيلبي، بل كانت ذروة معركته مع موطنه الأصلي. وكانت مقالاته ضد الإنكليز الآن مؤلمة لدرجة أن موسوليني كان يعيد نشرها في إيطاليا. وحين عاد فيلبي إلى بريطانيا اعتقل وأحيل إلى المحاكمة لكن ما لبث أن أفرج عنه. وبقي فيلبي في جدّة حتى العام ١٩٦٠ التي انتقل منها إلى بيروت حيث كان ابنه كيم (الجاسوس الروسي الشهير) يراسل «الإيكونومست». وقد مات في ٣٠ أيلول/ سبتمبر من ذلك العام. وكانت آخر كلماته «يا إلهي، لقد مللت».

القسم الثاني

نصوص وشهادات

بوابات الرياض (١٨٦٨)

بقلم وليم غيفورد بالغريف

انبسط أمامنا وادٍ برّي مفتوح، وقبل هذا الوادي، مباشرة تحت المنحدر المليء بالحصى الذي وقفنا فوق قمته، لاحت لنا العاصمة، طويلة ومربّعة، تتوجها أبراج عالية وجدران دفاعية قوية ومساحات من السقوف والشرفات، يطلّ عليها جميعاً قصر فيصل الملكي ويرتفع إلى جانبه القصر الذي بناه، ويقطنه ابنه عبدالله. وكانت تبدو لنا أيضاً، هنا وهناك، من خلال تلك السقوف الرمادية، مبان أخرى رائعة المنظر لكننا سوف نعرف من يقطنها فيما بعد.

على مدى المكان كلّه، وعلى مسافة ثلاثة أميال من السهول المحيطة، لكن خصوصاً من الغرب والجنوب، لاح لنا بحر من النخيل ترتفع في حدائق خضراء حسنة الريّ، فيما بلغت مسامعنا أصوات النواعير الشجيّة ونحن بعد على ربع ميل من أقرب أسوار المدينة.

من الجهة المقابلة إلى الجنوب، انفتح الوادي على سهول أكثر خصباً، هي سهول اليمامة حيث تنتشر القرى والبساتين وتقوم بها بلدة المنوفة التي تكاد تكون في حجم الرياض. وفي الأفق بانت لنا التلال الزرقاء، أي سلسلة جبال اليمامة التي شبهها الشاعر الشمّري عمرو بن كلثوم قبل ١٣٠٠ سنة بسيوف مشهورة في ساحة الوغى. خلف تلك الجبال تختبيء صحراء الجنوب التي لا نهاية لها، أو الدهناء. وإلى الغرب ينغلق الوادي ويضيق في امتداده شمالاً نحو الدرعية، في حين تشكّل وهاد عفلج المنخفضة إلى الجنوب الغربي، الفاصل بينها وبين وادي الدواسير.

في البعيد، في الجهة الشرقية، بدا لنا خط طويل أزرق يشكّل أقصى مرتفعات الطويق، ويخفي عن الأنظار بطاح الأحساء والخليج العربي. في كل البلدان التي

زرتها، وهي كثيرة، نادراً ما وقعت عيني على مشهد في مثل هذه الروعة، يروي جماله العقل والعين معاً. ولكن لو أن أحداً من قرائي قد جاء إلى دمشق من صوب جبل لبنان ورأى الغوطة من أعالي المزة، لتكوّنت لديه فكرة واضحة عن وادي الرياض. على أن وادي الرياض أكبر حجماً وأكثر تنوّعاً ودائرة الرؤيا هنا تعانق سهولاً أرحب وجبالاً أكثر صلابة. أما مزيج القحط الاستوائي والخضرة الخصبة، والكثافة السكانية والخلاء الصحراوي، فهو خليط غير معروف إلا هنا في شبه الجزيرة، وبالمقارنة به تبدو سورية عادية وإيطاليا رتيبة.

ثمة ندى خفيف يحوم فوق فجر المدينة، وهو شيء نراه للمرة الأولى منذ أيام، لعله يفسر أيضاً كثرة هذه الحدائق. إلا أن الشمس الحارة ما لبثت أن طردت هذا الغطاء الشفاف، فيما أشار تزايد الحر إلى أننا في منطقة ليست فقط قريبة من خط العرض جنوباً من تلك التي عبرناها، بل هي أيضاً معرضة للرياح الحارقة القادمة من الصحراء القريبة الواقعة خلف اليمامة مثل فرن هائل يمتد حتى شواطىء المحيط الهندي.

أوقفنا، بركات وأنا، جمالنا لدقائق فوق المرتفع من أجل أن ندرس ونتأمل قليلاً هذا المشهد النبيل ولكي ننسى تلك المخاوف التي تساور الإنسان حين يقترب للمرة الأولى من عرين الأسد. كذلك توقف أبو عيسى يتأمل مع أن المشهد ليس غريباً عليه، وراح يعدِّد لنا بطيبة خاطر معالم المشهد الرئيسية ويدلّنا أين تقع الطريق المؤدية إلى بيته في الحسا. وبعد ذلك هبطنا المنحدر ورحنا ندور حول جدران أول البساتين التي تطوّق المدينة. هنا، أكثر من رجل، ألقى تحية المعرفة القديمة على دليلنا. لكن أحرّ تلك اللقاءات كان مع شاب عرفه أبو عيسى وعطف عليه قبل سنوات. كان هذا الشاب يتيماً ساعده أبو عيسى إلى أن اكتشف طريقه في الحياة. وصدف الآن أنه كان يملأ ضرف المياه من بئر قريبة من الطريق لدى مرورنا، فهبّ إلى أبو عيسى وقبّل يده لكي يؤكد لنا أن الوفاء فضيلة عربية كما هي أوروبية، برغم أن الجهل أو الحقد حمل بعض الأجانب على أن يزعموا العكس. وفي حلقة صغيرة من الرفاق الذين كانوا يسيرون جنبنا وهم يضحكون ويتسايرون، دخلنا طريقاً فرعية تقع بين القصور الملكية من جهة وبين حديقة كبيرة لصاحبها القاضي عبد اللطيف، قاضي المدينة، من جهة أخرى. وبعد قليل أصبحنا قرب المقبرة الكبرى، التي تمتد عبر السور الشمالي ـ الشرقي، وفيها رفات وفيات السنوات الماضية وبينها رفات تركي، والد الملك الحالي، وإلى جانبه الأعداء الذين انتصر عليهم، مشارق وابن الثنيان وكثيرين من مشاهير زمانهم.

تتقاطع في هذه المقبرة طرقات كثيرة تؤدي إلى بوابات المدينة المختلفة. وقد اتّبعنا نحن الآن ممرًا ينتهي إلى البوابة الشمالية الشرقية، وهي مدخل عال وسيع تعلوه

أبراج مربّعة ضخمة على الجانبين. وكان يجلس في الممرّ حراس كثيرون يحملون السيوف. وقد أجابهم أبو عيسى عن استيضاحاتهم وقادنا داخل الأسوار. هنا، وجدنا أنفسنا أولاً في شارع عريض يؤدي مباشرة إلى القصر. وعلى الجانبين كانت هناك بيوت كبيرة، معظمها من طابقين، كما كانت هناك آبار للاغتسال، ومساجد مختلفة الأحجام، وبضعة أشجار مثمرة مزروعة في الحدائق هنا وهناك. وبعدما تقدمنا مسافة ٢٠٠ ياردة أو أكثر قليلاً، صار إلى يميننا قصر عبدالله، وهو بناء حديث متجانس، مربع الشكل، منحوت البوابات وله ثلاث طبقات من النوافذ، الواحدة فوق الأخرى. تأملنا المكان فيما راحت تتأملنا مجموعة من الزنوج الذين يجلسون على المقاعد الخشبية أو عند الأبواب في أفياء ظلال الصباح. وبعد ذلك بقليل مررنا بقصر جلوي، شقيق فيصل، الذي كان الآن غائباً في عمل في قلعة بيشا. وأخيراً وصلنا إلى ساحة كبيرة: جانبها الأيمن، إلى الشمال، يتألف من محلات ومخازن، في حين يقع على يسارها القصر الملكي، وأمامنا في الجهة الغربية يقوم ممرّ طويل من الأعمدة ويقطع الساحة عرضاً، فيصل بين القصر والمسجد الكبير، مما يمكن فيصل الكبير من المجيء من مكتبه في القلعة إلى الصلاة في المسجد تحت هذا الممرّ المسقوف، من دون أن يعرض نفسه لفضول الفضوليين أو خداع الخائنين. وذلك أن المصير الذي لقيه والده وعم أبيه، سلفاه على العرش، جعل فيصل شديد الحذر. وكان الرجلان قتلا طعناً بالخناجر وهما يؤديان الصلاة.

خلف هذه الأعمدة، تشكّل مخازن ومحلات أخرى نهاية الساحة، ويبلغ طولها حوالى ٢٠٠ خطوة وعرضها حوالى نصف ذلك. وفي قلب هذه الفسحة وفي ظل جدران القلعة، تجلس حوالى ٥٠ أو ٦٠ امرأة، أمام كل منها كميات من الخبز والتمر والحليب والخضار أو الحطب المعروض للبيع. وهنا وهناك أناس وجمال وبضائع وكل ما تقتضيه أي سوق عربية حقيقية.

على أننا لم نتوقف الآن لكي نتأمل، بل الواقع أننا لم نُعِر ما نرى أيّ انتباه، لأن أفكارنا كانت مأخوذة بلقاء الملك وبالوضع الدقيق الذي نحن فيه. وهكذا سرنا في محاذاة الجدار الطويل الممتد من القلعة الوسطى، إلى أن وصلنا قرب بوابة ضيقة ومنخفضة، هي المدخل الوحيد إلى القصر! كانت البوابة الخشبية الضخمة، المثبتة بقوة في الجدران المسلحة، مفتوحة آنذاك لكنها تؤدي إلى رواق مظلم. وكاد الحراس حاملو السيوف، وبعضهم سود بينما البعض الآخر بيض، يسدّون الطريق لكثرتهم. وإلى جانب الجدران الطويلة امتدت مقاعد حجرية يرتاح عليها الزوّار المنتظرون. لكننا لم ننتظر طويلاً لأن أبو عيسى دخل على الفور وأعلن وصولنا.

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً. وكان المارّة كثيرون لأن السوق المحاذية مفتوحة والجميع في مجيء ورواح إلى أعمالهم العادية. ولم يتقدم أحد ليسألنا عما نفعل مع أن الكثيرين كانوا يحملقون بنا مما أثار دهشتي حول هذه المألوفية التي لم نعرف بعد سببها وما إن مضت نصف ساعة حتى ذاب الجليد.

كان أول من تقدم منا وسلّم علينا رجل طويل نحيل الجسم، أصفر الوجه قليلاً، ذكي الملامح. وكان أيضاً بادي الأناقة، وبدا برغم تهذيبه الشديد أنه يعي أهمية نفسه. إنه عبد العزيز الذي سوف أسميه وزير الخارجية، لأنني لا أجد لقباً أنسب يليق به. وتشمل مسؤولياته في القصر أي شيء لا يطول الإدارة الداخلية من شؤون سياسية أو مالية أو عسكرية.

إذن من مهماته أن ينظم استقبال السفراء القادمين من بلاط أجنبي أو إيفاد المبعوثين من الرياض نفسها. وتهتم دائرته أيضاً بوضع رسائل الحكومة وبكل الشؤون المتعلقة بالحلفاء والجيران، خصوصاً حيث الأمور تعني قبائل نجد، كما تعنى بتسجيل جميع العسكريين في المدن والمقاطعات، وأخيراً فهو يمارس إشرافاً تنفيذيًّا على ضرائب الاستيراد والتصدير. والواقع أن صفاته الشخصية واضحة: مظهر خارجي متحفظ وثابت، طلاوة في اللسان، طبع ودود وإنما بهيبة!

جدة: الدكاكين والميناء والعطور

بقلم لويس بوركهارت

رافقت وصولي إلى الحجاز ظروف غير مؤاتية. عند دخول مدينة جدة، صبيحة الخامس عشر من تموز/ يوليو ١٨١٤، قصدت منزل شخص أحمل له كتاب اعتماد سلّم لي عند مغادرة القاهرة في كانون الثاني/ يناير ١٨١٣ قبل أن أعزم نهائيًا على تأخير رحلاتي إلى شبه الجزيرة العربية. لقيت من هذا الشخص استقبالاً بارداً جدًّا. كان تاريخ الكتاب قديماً جدًّا حتى أنه لا يستحق الاهتمام. والواقع أن مظهري في أسمال بالية كان من شأنه أن يثير حذر أي إنسان فكيف إذا كنت أريد اقتراض المال. وفوق ذلك أن الفواتير وكتب الاعتماد، يستهان بها كثيراً في المبادلات بين التجار الشرقيين. ولذا لقيت رفضاً قاطعاً، مرفقاً في كل حال، بعرض الإقامة في منزل الرجل. قبلت ذلك منه لليومين الأولين اعتقاداً مني بأنني، بعد تعارف حميم، أستطيع أن أقنعه بأنني لست مغامراً ولا دجّالاً. غير أني وجدته عنيداً. فانتقلت إلى أحد الخانات العامة الكثيرة في المدينة، ولست أحمل غير دولارين والقليل من النقود الذهبية الملفوفة في حجاب كنت أعلقه في ذراعي. لم يتسنّ لي الوقت للتفكير بوضعي البائس. وفي اليوم الرابع لوصولي، أصبت بحمى عنيفة تعود فيما أرجّح، إلى الإكثار من تناول الفاكهة الطيبة التي كانت متوافرة آنذاك في سوق جدّة. وقد جعلتها تغذيتي المعتدلة خلال الأشهر الاثني عشر الماضية، ولي في ذلك بعض العذر ولو أن نتائجه جاءت أشد سوءاً. بقيت محموماً أهذي بضعة أيام، ولعلي كنت قضيت لولا مساعدة قبطان يوناني، زميل لي، عُني بي واستقدم، حلاّقاً، أو طبيباً ريفيًّا، فصدني بغزارة بعد كثير من التردد، لأنه كان يصرّ على أن جرعة من مزيج من الزنجبيل وجوزة الطيب والقرفة هي العلاج الملائم لي. بعد أسبوعين استعدت العافية إلى حدٍّ استطعت معه أن أمشي، إلا أن الضعف والوهن اللذين أصاباني بفعل الحمى لم يفارقاني في جوّ المدينة الحار

الرطب. ويعود شفائي التام إلى المناخ المعتدل في الطائف التي تقع في الجبال وراء مكة، حيث قصدت بعد حين.

قليلاً ما كانت سوق جدّة تشبه الأسواق الزنجية حيث يمكن بدولار واحد شراء مؤونة أسبوعين أو ثلاثة من الذرة والزبدة. هنا سعر كل شيء مرتفع إلى حدّ غير مألوف، الواردات من داخل شبه الجزيرة العربية توقفت كليًا، في حين أن سكان الحجاز ازدادوا آنذاك بقدوم الجيش التركي وأتباعه، وبمجموع الذين كانوا يتوافدون يوميًا، وأصبحوا بالتالي يعتمدون اعتماداً كليًا على الواردات من مصر لتأمين مؤونتهم. ولذلك نفد مخزوني القليل من المال أثناء مرضي، ثم إن القبطان اليوناني أبدى استعداداً لتوفير الخدمات الإنسانية لي لكنه لم يكن مستعداً للوثوق بسمعة رجل يعرف عنه أنه لا يملك أي مال. كنت في حاجة ماسة إلى مبلغ يكفي لسدّ نفقاتي اليومية ولم تبق لي أية وسيلة أخرى لتأمينها، لذلك اضطررت أن أبيع عبدي. حزنت كثيراً لمفارقته. لقد كنت أعلم أنه يحمل لي بعض الولاء، كان شديد الرغبة بأن يبقى معي. وقد أثبت أثناء رحلتي السابقة أنه رفيق أمين ومفيد. بعد ذلك امتلكت عدة عبيد آخرين، إلا أنني لم أجد بينهم من هو مثله. باعه القبطان اليوناني لي في سوق الرقيق في جدّة بثمانية وأربعين دولاراً.

كانت الأوضاع القائمة آنذاك في الحجاز تجعل التنقل فيه لمن يتنكر كمتسول، أو على الأقل، لشخص مثلي في مظهره الخارجي، غير عملي. ثم إن بطء شفائي أثار رغبتي في الحصول على ما يرفّه ويريح. عند ذلك جهزت نفسي مجدّداً بثياب سيد مصري، وكتبت إلى القاهرة أطلب إمدادي بالمال. غير أنني لم أكن لأستلم هذا المال قبل ثلاثة أشهر أو أربعة. ولما كنت قد صممت على أن أبقى في الحجاز حتى موعد الحج في تشرين الثاني/ نوفمبر المقبل، فقد كان لزاماً عليّ أن أبحث عن وسيلة لتأمين معيشتي حتى وصول مالي. ولو أنني أصبت بالخيبة في كل آمالي، لكنت اضطررت عند ذلك إلى أن أنهج نهج العديد من الحجازيين الفقراء لا بل العائلات المحترمة، لكسب معيشتهم اليومية أثناء بقائهم في الحجاز بواسطة العمل اليدوي. لكنني قبل أن ألجأ إلى هذا الأسلوب فكرت بأن أحاول أسلوباً آخر. كنت في الواقع قد حملت معي رسالة تعريف بي من سيد محمد المحروقي، أول تاجر في القاهرة، إلى عرابي جيلاني، أغنى تاجر في جدّة. غير أن هذه الرسالة قد تكون، كما أعلم، بلا جدوى. إنها ليست كتاب اعتماد. ولذلك لم أقدمها وصممت في النهاية أن أكتب إلى محمد علي باشا شخصيًا. كان قد جاء إلى الحجاز في نهاية ربيع سنة ١٨١٣ وهو الآن مقيم في الطائف مقرّ قيادة الجيش. وقد سبق لي أن رأيت الباشا بضع مرات في

القاهرة، قبل رحيلي إلى مصر العليا، وأطلعته بصورة عامة على «جنوني» بالرحلات (كما وصف ذلك مازحاً في الطائف).

وهنا يجب أن أذكر أن فقر تجار مصر العليا، بصورة عامة، وعدم تقيد الواحد منهم بتسديد الكمبيالة فور الاستحقاق دفعاني أثناء وجودي هناك إلى أن أطلب من أجل الحصول على حاجتي من المال، من عميلي في القاهرة أن يدفع المبلغ الذي أريده إلى خزانة الباشا، وأن يحصل منه على أمر لابنه إبراهيم باشا، حاكم مصر العليا آنذاك، بأن يدفع لي ذلك المبلغ. وبما أنه كانت لي معاملات مالية سابقة مع الباشا، فقد فكرت بأنه يمكن لي أن أحاول الآن، بدون أن أشعر بخجل شديد بتجديد هذه المعاملات في الحجاز، لا سيما وقد علمت أنه سبق له أن أعرب عن تقدير لي ولنشاطاتي. ولذلك ما إن خفّت حدة الحمى حتى كتبت إلى طبيبه، وهو أرمني يدعى بوساري، عرفته في القاهرة، حيث سمعت الكثير من الثناء عليه. وكان مع سيده في الطائف. رجوته أن يعرض وضعي البائس على الباشا، وأن يبلغه أن كتاب الاعتماد الذي كنت أحمله إلى جدة، لم يدفع، وأن يسأله ما إذا كان يقبل كمبيالة مسحوبة على عميلي في القاهرة ويأمر خازنه في جدّة بدفع المبلغ لي.

الطائف لا تبعد غير مسيرة خمسة أيام عن جدّة، ولكن البلاد كانت في حال يندر أن يجرؤ فيها المسافرون الأفراد أن يجتازوا الجبال بين مكة والطائف. ثم إن القوافل التي تحمل رسائل أهل البلاد لا تتحرك إلا في فترات تفصل بينها أيام ثمانية حتى العشرة. ولذلك لم يكن يمكنني أن أتوقع ردًّا على رسالتي، قبل عشرين يوماً على الأقل. وخلال هذه المدة صرفت ساعات فراغي في جدّة، في نسخ يوميات رحلتي في النوبة. على أنني شعرت بحرارة في هذا الفصل، شديدة الضغط، لا سيما وأنا على حال من الضعف، بحيث لم أجد إلا في ساعات قليلة في الصباح أي راحة إلا في ظل البوابة الكبرى في الخان الذي كنت أنزل فيه. هنا كنت أصرف الجزء الأكبر من اليوم ممدّداً على مقعد من حجر. وكان عميل بوساري في جدة، وهو الذي بعثت بواسطته برسالتي إلى الطائف، قد ذكر اسمي ليحيى أفندي، طبيب طوسون باشا، بن محمد علي، حاكم جدّة حاليًّا، وقد سبق له أن كان في مصر العليا حين كنت فيها، لكنني لم اجتمع به. كان هذا الطبيب قد سمع، وهو في القاهرة، باسمي كرحّالة. وقد عرف الآن أنني عائد من بلاد الملوّنين، فأراد أن يراني، ورغب إلى صديق بوساري أن يقدمني إليه. استقبلني بلطف. ودعاني مراراً إلى منزله، ثم عرف بعد إيضاحات لاحقة بما أنا بحاجة إليه، وبالخطوات التي اتخذتها لتحقيقها. وصدف في هذه الآونة أنه كان يستعد إلى رحلة إلى المدينة المنورة بمعية طوسون باشا، وأنه كان يرسل بحقائبه

غير الضرورية إلى القاهرة، ومعها كان يرغب بأن يبعث إلى عائلته بتوفيراته من السنة السابقة، وهي ثلاثة آلاف قرش. كان لطيفاً إذ عرض عليّ أن يعطيني هذا المال لقاء كمبيالة تدفع له في القاهرة فور تقديمها، ذلك شيء لم يكن تجار جدّة يضمنونه لمن يأخذون منهم كمبيالاتهم. مثل هذا العرض لا يشكل أي التزام في المدن التجارية في أوروبا، أما في الشرق، وفي الظروف التي كنت فيها، فهو غريب، ثم أضاف يحيى أفندي أن بعض أصدقائه أثنوا عليّ في القاهرة. وهو لذلك لا يستطيع أن يشك ولو إلى الحدّ الأدنى بقدرتي على التسديد، وبمصداقيتي. كان كتاب الاعتماد الذي حملته معي يعزّز هذا الرأي. وبما أن نتيجة الطلب الذي تقدمت به إلى الباشا في الطائف غير مضمونة، فقد قبلت عرض يحيى على الفور وكنت له شاكراً ممتنًا. وللحال تسلمت النقود، ووقعت الكمبيالات، وبعد أيام قليلة من ذلك رحل صديقي المشكور برفقة طوسون باشا إلى المدينة المنورة حيث تسنى لي أن أجتمع به مرة أخرى في أوائل السنة التالية. الآن بت أملك مبلغاً يكفي لإزالة أية مخاوف من معاناة الفقر قبل وصول الإمداد من مصر. وما إن غادرنا يحيى أفندي حتى تسلّمنا ردًّا مرضياً إلى حدّ ما على الرسالة التي كنت قد وجهتها إلى الطائف. والظاهر أن بوساري لم يكن على استعداد لعرض طلبي على الباشا، لعله كان يخشى أن يتحمل عبء التسديد بحال عدم الوفاء بتعهدي. على أن الباشا كان قد علم بوجودي في جدّة من مصدر آخر في حاشيته، كنت قد رأيته هناك، ثم قصد الطائف. وما إن عرف أنني أتنقل بثياب رثة حتى أرسل موفداً، ومعه جملان، إلى جامع الضرائب الجمركية في جدة، سيد علي أوجكلي الذي كان مسؤولاً عن إدارة شؤون المدينة كلها، مزوّداً بأمر لإعطائي بذلة، ومبلغ خمسمئة قرش نفقات انتقال، كما طلب بأن آتي إلى الطائف على الفور برفقة الموفد. وفي ملاحظة لاحقة، طلب من سيد علي أوجكلي أن يأمر الموفد بأن يسير بي إلى الطائف في الطريق العليا، مما يترك مكة إلى الجنوب، وهي طريق سفلى، ومطروقة أكثر تمرّ في وسط هذه المدينة.

إن دعوة الباشا التركي هي بمثابة أمر لطيف، مهذب. ولذلك لم يكن بوسعي، مهما بلغ من تردّدي في الذهاب إلى الطائف آنذاك، أن أتجنّب في ظلّ هذه الظروف القائمة، أن استجيب لرغبات الباشا. وبرغم النفور المكتوم الذي أحسسته في داخلي من تقبّل هدية منه، بدلاً من قرض، لم يكن يسعني أن أرفض الثياب والمال من غير أن أسيء إلى كبرياء زعيم، وأن أثير حقده، وهو الذي كنت أستهدف استرضاءه. كذلك فهمت القصد من الملاحظة اللاحقة ولو أن سيد علي لم يتنبّه إلى ذلك. وبالنسبة لهذه المسألة فقد كنت معجباً بنفسي، لقد عددت نفسي نظيراً للباشا ولشعبه.

ولما كانت الدعوة ملحة، فقد غادرت جدّة في مساء ذات اليوم الذي وصل فيه الموفد، بعد العشاء مع سيد علي، برفقة عدد من الحجاج من كل أنحاء العالم. كان صيام رمضان قد بدأ. أثناء هذا الشهر يظهر كل إنسان أقصى ما يستطيعه من الضيافة. ولا سيما في العشاء بعد مغيب الشمس. وبما أنني كنت أرتاب بنيّات الباشا بعض الشيء، فقد رأيت من الضروري أن أحمل معي كامل مالي إلى الطائف. لذلك حوّلت كامل مبلغ الـ ٣٠٠٠ قرش الذي تسلّمته من يحيى أفندي إلى ذهب ودسسسته في زناري. ليس لدى من يملك مالاً، ما يخشاه بين العثمانيين، إلا أن يفقده. غير أنني ظننت أنني قد أجد نفسي بحاجة إلى ما أملك، سواء كرشوة أو لتسهيل مغادرة الطائف. على أنه من حسن حظي أنني كنت مخطئاً في الأمرين معاً.

هنا أود أن أضيف بعض الملاحظات بخصوص جدّة وسكانها. البلدة قائمة على أرض مرتفعة قليلاً، جانبها الأدنى تغسله مياه البحر. ساحلها في أقصى طوله يمتد نحو ١٥٠٠ خطوة، فيما لا يتجاوز عرضها في أي موضع نصف هذه المسافة. يحيط بها من ناحية البرّ جدار في حالة معقولة، إلا أنه غير متين. وقد أنشيء منذ سنوات قليلة فقط بفضل جهود سكانها المشتركة أنفسهم. وعلى مسافات من ٤٠ إلى ٥٠ خطوة، أبراج مراقبة لتعزيز الجدار وتدعيمه، وفيها بعض المدافع الصدئة. وهناك حفرة ضيقة على امتداده بكامله، لتعزيز الدفاع. وبذلك تتمتع جدة في شبه الجزيرة العربية بشهرة هي أنها قلعة لا يمكن اقتحامها. وعلى ساحل البحر، أمام المدينة، ما زال الجدار القديم قائماً، إلا أنه متداع. وعند الطرف الشمالي، بجوار الموضع الذي تغسل فيه مياه البحر الجدار الجديد، يقوم قرب سكن الوالي. وعند الطرف الجنوبي قلعة صغيرة نصبت فيها ٨ أو عشرة مدافع. وإلى جانب ذلك، هناك سرية مدفعية لحماية المدخل من جهة البحر، وللإشراف على الميناء بكاملها. هنا نصبت مدفعية ضخمة قديمة تحمل كرة وزنها ٢٢٧، وهي مشهورة في البحر الأحمر كله حتى أن هذه السمعة وحدها تشكل وقاية لجدة. ثم إن القدوم إلى المدينة من جهة البحر يتم عبر رصيفين، حيث تفرغ القوارب الصغيرة حمولة السفن الكبيرة التي تضطر للرسو في المكلا على مسافة نحو ميلين من الساحل. ولا يستطيع أي زورق، إلا ما يعرف بالسيّ، صغرى الزوارق التي تمخر البحر الأحمر، أن يقترب كثيراً من الشاطيء. وحوالى المغيب يقفل الرصيفان كل مساء وبذلك يقطع أثناء الليل كل اتصال بين المدينة والسفن.

ولجدة من ناحية البر بوابتان: باب مكة للجهة الشرقية، وباب المدينة المنورة للشمال. وهنالك بوابة صغيرة في الجدار الجنوبي سدّت مؤخراً. والمساحة التي

يضمها الجدار الجديد (بدائرة تقارب ٣٠٠٠ خطوة) والبحر غير مغطاة بكاملها بالمباني. هنالك قطعة عريضة من الأرض المكشوفة تمتد على طول داخل الجدار. وأيضاً أرض بور واسعة بقرب باب المدينة. وبعد اجتياز هذه البقعة المكشوفة عند الدخول من البوابة، يدخل المرء الضواحي التي لا تضم غير أكواخ مبنية من قصب، وأسل، وأغصان مقطوعة، تحيط بالمدينة الداخلية ذات المباني الحجرية. الأكواخ مسكونة بالدرجة الأولى من البدو، أو الفلاحين والعمال الفقراء الذين يحيون هنا كما يحيا البدو تماماً. وهنالك أحياء مماثلة لساكنين من هذا المستوى في كل مدن شبه الجزيرة. ثم إن داخلية جدة مقسمة إلى مناطق متعددة. أهل سواكن الذين يتردّدون على هذه المدينة بكثرة، يسكنون بجوار باب المدينة. حيّهم يعرف بحارة أهل سواكن. هنا يسكنون منازل فقيرة قليلة، إلا أنهم يقطنون بالدرجة الأولى، أكواخاً يلجأ إليها في الغالب أبناء الطبقة الدنيا، أما السكان الأكثر احتراماً فأحياؤهم بجوار البحر، حيث يمتد شارع طويل مواز للشاطىء وعلى جانبيه الدكاكين، على ما يبدو، وكثير من الخانات التي لا يتردّد إليها غير التجار باستمرار. وجدّة جيدة البناء. والواقع أنها أفضل بناء من أية مدينة تركية أخرى زرتها في مثل هذا الحجم. الشوارع غير مبلطة، لكنها فسيحة، يهب فيها الهواء. المنازل عالية كلها مبنية من حجارة مجلوبة بغالبيتها من شاطىء البحر، مكوّنة من مرجان ومن أحافير بحرية أخرى. كل بيت تقريباً مبني من دورين، بنوافذ كثيرة وصغيرة، ومصاريع متحركة من خشب. ولبعض هذه البيوت نوافذ منحنية كالقوس، مما يوحي بأن الجهود والأعمال التي قام بها اللحامون والنجارون كثيرة. وهنالك بوجه عام قاعة فسيحة عند المدخل، يستقبل فيها الأغراب، هي أثناء حرّ النهار أكثر برودة من أي مكان آخر في المنزل، لأن أرضيتها تظلّ رطبة باستمرار. ثم إن التقسيم إلى غرف هنا شبيه تقريباً بما هو عليه في المنازل في مصر وسورية. الفارق في كل حال، هو أنه لا وجود في جدة للكثير من الشقق الكبيرة العالية: القليل من المنازل التي تخص السكان الأصليين هنا بدورين فقط، فيما غرف الدور الأرضي ذات ارتفاع كبير في بعض الأحيان. وهكذا فإن المكان الوحيد البارد في العديد من المنازل هو قاعة المدخل. وهنا، عند الظهر، يرى سيد البيت ومرافقوه الذكور، وخدمه المأجورون، والعبيد، يتمتعون بالقيلولة.

وبما أن البناء باهظ الكلفة، فإن القليل منه مشيّد بزخرفة خارجية تتجاوز الشعريات المقسومة للنوافذ. وهو يدهن في الغالب بألوان بالغة البهرجة في الخارج والداخل معاً. وفي الكثير من المنازل تحتل الزوجة الشرعية ناحية من البيت، فيما تسكن الجاريات الأثيوبيات في شقق منعزلة خاصة بهن. وهكذا فإن وسائل الراحة والملاءمة في المبنى

هي التي يعنى بها أكثر من السعة أو الجمال، على أن في مصر منازل عادية كثيرة ذات غرف فسيحة ولطيفة.

ولا مراعاة في جدة للانسجام في الفن المعماري. بعض المنازل مبني بحجارة صغيرة مربعة، وبعضها الآخر مبني بحجارة كبيرة مربعة، بوجهها المصقول إلى الخارج. فيما جانبها الداخلي مطلي بالطين. وللكثير منها، على مسافات تقارب ٣ أقدام، طبقات رقيقة من الألواح الخشبية مثبتة في الجدار، وتلك، كما يتوهم العرب، تزيد الجدار قوة ومتانة. وحين تغطي الجدران بالطين، يترك الخشب على لونه الطبيعي مما يضفي على البناء مظهراً مرحاً وساراً، فكأنه مزين بالكثير من العصائب، إلا أن بياض الجدران الذي يبهر النظر عند شروق الشمس يؤذي العينين إلى درجة كبيرة. ولغالبية بوابات المداخل قناطر مروسة، ولبعضها قناطر مستديرة. على أن عدد هذه القناطر المستديرة فوق بوابات المنازل الخاصة في كل ناحية من مصر أقل. ولا يلاحظ وجود مبان قديمة في جدة، إذ إن الحجارة المرجانية سريعة التلف في طبيعتها عند تعرضها للمطر وللجو الرطب السائد هنا. وإلى جانب المساجد الصغيرة الكثيرة، هنالك اثنان فقط بحجم كبير، أحدهما بناه الشريف سرور، سلف الشريف غالب، الذي حكم منذ فترة وجيزة. ثم إن مسكن الحاكم الذي قرّر غالي أن يقيم فيه الشريف، مبنى رديء، ومثله كذلك هو المسكن الذي يعيش فيه محصّل الضرائب الجمركية. وفي المدينة بعض الخانات العامة الجيدة البناء، ذات الأثاث الجيد، حيث يقيم التجار الأغراب أثناء وجودهم هنا لفترات قصيرة. وفي هذه الخانات فسحات كبيرة مكشوفة ذات ممرّات بقناطر، مما يؤمّن الظلال الباردة للتجار خلال القسم الأكبر من النهار. وباستثناء الفصل الموسمي حين تكون جدّة حاشدة بالناس إلى أقصى حدّ، يمكن الحصول بسهولة على مساكن خاصة في أحياء المدينة النائية. على أن أفضل المساكن الخاصة في جدة ملك لمؤسسة الجيلاني التجارية الكبيرة، وهو، إلى جانب عائلته، يحتل فسحة صغيرة خلف الشارع الرئيسي. وفي هذه الفسحة ثلاثة مبان كبيرة، هي أكثر المنازل الخاصة كلفة وملاءمة في الحجاز كله. ولكل منزل حوض ماء خاص به. وبما أن الأمطار غير منتظمة ولا غزيرة إلى حدّ كافٍ لملء الحوض من سطوح المنازل (كما في سورية) فإن هذه الأحواض كثيراً ما تزوّد بالمياه من البرك التي تتشكّل خارج المدينة أثناء الفصول الماطرة في كل حال.

والمياه في جدّة غير كافية للاستهلاك. وهي تعدّ ترفاً. والكثير من مياه الشرب يسحب من آبار على مسافة ميل ونصف الميل إلى الجنوب. والحقيقة أن المياه موجودة في كل مكان على عمق نحو ١٥ قدماً، لكنها رديئة المذاق بوجه عام، تكاد لا

تصلح للشرب في أمكنة عديدة. هنالك بئران فقط تؤمّنان مياهاً يمكن أن تسمّى عذبة، ولكنها تعدّ ثقيلة. ثم إنها تصبح مليئة بالحشرات إذا ما بقيت في الوعاء ٢٤ ساعة. على أن المياه الجيدة في هاتين البئرين لا يمكن الحصول عليها دائماً، لندرتها وغلائها، بدون مساعدة أصدقاء أقوياء. والواقع أنه لا أكثر من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ شخص يتمكّنون من الحصول عليها، فيما يكتفي بقية السكان بالمياه التي تتوفر من الآبار الأخرى. وإلى هذا وبالدرجة الأولى، يمكن أن يُعزى سوء الحالة الصحية للسكان. وبما أن الآبار محميّة بواسطة قلعة. غير أن الأتراك أهملوا اتخاذ مثل هذا الاحتياط.

ومدينة جدّة خالية من أية حدائق أو نباتات من أي نوع باستثناء بعض أشجار النخيل بجوار أحد المساجد. المنطقة بكاملها، حتى خارج المدينة، صحراء قاحلة مغطّاة على ساحل البحر بتربة مالحة، ثم بالرمال في مواقع أكثر ارتفاعاً. هنا بعض الشجيرات، والقليل من أشجار السنط. وإذا كان عدد الآبار حول المدينة قابلاً للزيادة للحصول على المياه من أجل الريّ، فإن سكان جدّة يعتبرون سكنهم هنا مؤقتاً، هم، كجميع أهل الحجاز الآخرين، يوجهون اهتمامهم الكامل نحو التجارة وجمع الثروات، وهم لذلك أقل ميلاً للمتع أو للأعمال الريفية من أي شعب آخر عرفته من المسلمين.

ووراء باب مكة، بجوار المدينة، عدة أكواخ تمرّ بينها الطريق إلى مكة. وهذه الأكواخ يسكنها سائقو الجمال الذين يتنقلون بين مكة وجدة، والبدو الذين يكسبون معيشتهم من قطع الحطب في مواقع على مسافة بعيدة من الجبال، وكذلك الحجاج الزنوج الذين يلجأون إلى هذه الوسيلة ذاتها لتأمين معيشتهم حين يعيشون في جدّة. هنا تقام سوق الماشية والحطب، والفحم، والفاكهة، والخضار، بالجملة، وهنا تباع القهوة في أكشاك كثيرة في هذا المكان، وفي الصباح الباكر يتردّد عليها، لوقت قصير، أفراد طبقة من صغار التجار يلجأون إليها لاستطلاع أنباء مكة، من حيث يصل البريد فور شروق الشمس. وعلى مسافة نحو ميل من هذه الأكواخ، شرقي المدينة، تقع المدافن الرئيسية وهي تضم أضرحة شيوخ عديدين، على أن هنالك داخل الجدرات مقابر أخرى أصغر. وعلى بعد نحو ميلين من المدينة يوجد قبر حواء، أم البشرية، وهو، كما قيل لي، مبنى غير صقيل من الحجارة بنحو ٤ أقدام طولاً، وقدمين أو ثلاثة ارتفاعاً، وكذلك من حيث العرض، وهو بذلك شبيه بضريح نوح الذين يشاهد في البقاع في سوريا.

وسكان جدة، كسكان مكة والمدينة، أغراب كليًا تقريباً. أما أبناء العرب القدماء الذين سكنوا المدينة من قبل، فقد قضوا على أيدي الحكام، أو لجأوا إلى بلدان أخرى.

وأما أولئك الذين يمكن أن يوسموا بالسكان الأصليين فعائلات قليلة فقط من الأشراف، وكلّهم علماء، على صلة بالمساجد أو بمحاكم الشرع. إن جميع أبناء جدّة الآخرين أغراب، أو منحدرون من أغراب. هؤلاء أكثريتهم من حضرموت واليمن، كجاليات من كل مدينة أو منطقة منهما يستقرون في جدة ويواصلون الأعمال التجارية الناشطة مع بلدهم. وهنالك ما يزيد على مائة عائلة هندية (من صورات بالدرجة الأولى، والقليل من بومباي) استقرت هنا. وإلى هؤلاء يمكن أن يضيف بعض أبناء المالايو ومسقط. ويمكن كذلك تمييز المهاجرين من مصر وسوريا، وبلاد البربر (شمالي إفريقيا)، وتركيا الأوروبية، والأناضول، من ملامح المتحدّرين منهم، وقد تخالطوا في جمع واحد، وعاشوا ولبسوا وفقاً للطريقة العربية. الهنود فقط ظلوا فئة مميزة من حيث العادات والملابس والعمل. ولا مسيحيون يقيمون في جدة، على أن هنالك قلّة من اليونانيين من جزر الأرخبيل يأتون بين الحين والآخر بالسلع إلى هذه السوق، قادمين من مصر.

وفي السابق كان اليهود هم السماسرة والوسطاء في هذه المدينة، ثم أخرجوا منها منذ نحو ثلاثين سنة أو أربعين على يدي سرور، سلف غالب، لأن تصرفات البعض منهم كانت مسيئة. انتقلوا إلى اليمن، أو إلى صنعاء. وخلال الفصل الموسمي يقوم بعض البانيين بزيارة جدة في السفن الهندية، ثم يعودون فيها، ولا يبقى أحد منهم هنا.

ويعود اختلاط الأعراق في جدة إلى الحج. أثناء هذا الموسم يزور التجار الأثرياء الحجاز ومعهم مقادير كبيرة من البضائع وإذا ما عجز بعضهم عن تسديد حساباتهم على الفور، ظلّوا هنالك حتى السنة التالية. وخلال هذه الفترة، يقيمون كما هي العادة في هذه البلاد، عند جاريات حبشيات، ثم سرعان ما يتزوجون منهن. وحين يجدون أنهم أنشأوا لهم عائلات هنا يتجهون إلى الاستقرار وبذلك يحمل كل موسم حج أعداداً جديدة من السكان لا إلى جدة فقط، بل إلى مكة أيضاً. وهذا ضروري جدًّا لأن عدد الوفيات في المدينتين أكثر بكثير من عدد المواليد.

ويكاد جميع أهل جدة تقريباً يعملون بالتجارة. وهم لا يمارسون أية صناعات أو حرف إلا ما تقتضيه الضرورة المباشرة: هم جميعاً بحارة، أو تجار بحريون، أو عاملون بالتجارة في شبه الجزيرة العربية. وليس مردّ ثروة جدة إلى كونها ميناء مكة فقط، الواقع أنه يمكن اعتبارها ميناء لمصر، وللهند، ولشبه الجزيرة العربية كذلك. إن جميع صادرات هذه البلدان إلى مصر تمرّ في أيدي تجار جدة أولاً. ولعلها بنتيجة ذلك أغنى من أية مدينة أخرى بهذا الحجم في المناطق التركية. واسمها العربي، الذي يعني «الغني» منطبق عليها كل الانطباق. وأغنى تجار هذه المدينة هما الجيلاني وسقات،

وهما من أصل مغربي، استقر أجدادهما هنا، والمعروف أنهما يملكان ما يتراوح بين ١٥٠ و٢٠٠ ألف جنيه استرليني. وهنالك أيضاً عدد من الهنود حققوا لهم رؤوس أموال مقاربة لذلك. كما كان هنالك ما يزيد عن اثنتي عشرة عائلة تملك ما بين ٤٠ و٥٠ ألف جنيه استرليني. والتجارة بالجملة هنا تجري بسهولة وبأرباح أكبر، وبخبث واحتيال أقل، من أي مكان آخر شهدته في الشرق. والسبب الرئيس لذلك هو أن غالبية الصفقات تتم لقاء الدفع المباشر، وقلّ أن يُصار إلى الدين. على أن ذلك ينبغي أن لا يفهم منه ثناء على طبيعة التجار، وهم المعروفون بخبثهم بقدر ما هم معروفون بثرواتهم الكبيرة. ولكن طبيعة التجارة، والعادة المتبعة، تجعلان هذه الأعمال التجارية أقل إشكالاً واحتيالاً هنا مما هي في أي بلد آخر في الشرق.

ويمكن تقسيم تجارة جدة إلى فرعين اثنين هما تجارة البن والتجارة الهندية، ولهما معاً علاقة بالتجارة المصرية. تصل السفن المحملة بالبن من اليمن على مدار السنة، غير مقصورة على أي فصل معين. هي تبحر طوال الرحلة بجانب الساحل، وبذلك تتمكن من الاستفادة من النسمات البرية التي تهبّ حين تسيطر الرياح الشمالية وتجعل الإبحار في وسط البحر صعباً. وتقوم هذه السفن بتسليم الحمولة لقاء الدولارات، وهي النقد الوحيد الذي يقبله تجار اليمن، على أن تجارة البن معرضة للتقلّبات الكبيرة، ويمكن اعتبارها نوعاً من الحظ، ولا يقدم عليها إلا أصحاب الرساميل الكبيرة، ممن يمكن لهم أن يتحملوا الخسائر الكبيرة في بعض الأحيان. ثم إن سعر البن في جدة، وهو الذي يتحدد بناء على معلومات من القاهرة، يتغير عند وصول كل سفينة من السويس. والسعر في القاهرة يعتمد على الطلب في تركيا على بن مخاوى، وهو لذلك يتقلب أيضاً. وحين وصلت إلى جدة كان ثمن حب البن ٣٥ دولاراً لكل ١١٢ بونداً (٥١ كلغ تقريباً)، ثم انخفض بعد ثلاثة أسابيع إلى ٢٤ دولاراً بنتيجة الصلح بين إنكلترا وأميركا، واحتمال تجديد استيراد بن الهند الغربية بمقادير كبيرة إلى أزمير والقسطنطينية. وبسبب طبيعة هذه التجارة الخطرة، يمتنع الكثيرون من التجار عن العمل فيها إلا كعملاء أو وسطاء. سواهم يبعث بالبن إلى القاهرة على حسابه، حيث القسم الأكبر من هذه التجارة في أيدي التجار الحجازيين المقيمين هناك. وفي السنوات الست الماضية أصيبت تجارة البن بين شبه الجزيرة العربية وبلدان البحر الأبيض المتوسط بخسائر كبيرة بنتيجة استيراد البن من الهند الغربية إلى الموانىء التركية. وقد كانت هذه الموانىء من قبل تزوّد ببن مخاوى فقط، ثم حلّ محلّ ذلك كليًا تقريباً، استعمال بن الهند الغربية في القسم الأوروبي من تركيا، وفي آسيا الصغرى، وسوريا.

والإتجار بالبضاعة الهندية أكثر ضمانة، ومثل ذلك من حيث الأرباح. في بداية أيار/ مايو، تصل الأساطيل، من كلكوتا وصورات وبومباي بالدرجة الأولى إلى جدّة: هنا يكون التجار قد استعدوا لها بأن جمعوا من الدولارات والنقود الإيطالية الذهبية ما سمحت به الظروف لإتمام الصفقات بالجملة لدى وصول السفن مباشرة. وإلى هنا أيضاً ترسل مبالغ كبيرة من قبل تجار القاهرة لشراء البضاعة لحسابهم. وفي حزيران/ يونيو، أو تموز/ يوليو، ترجع الأساطيل الهندية. وعلى الفور ترتفع أسعار كل سلعة من السلع التي جاءت بها. وكثيراً ما يحدث أن يبلغ الربح لدى مغادرة آخر سفينة ١٠٪ بالنسبة للسعر الأول. على أن التجار لا يبيعون سلعهم آنذاك إلا إذا كانوا بحاجة ماسة إلى المال، بل يحتفظون بها في المستودعات أربعة أشهر أو خمسة، يستمر السعر خلالها في الارتفاع. وإذا ما ارتأوا الانتظار حتى كانون الثاني/ يناير أو شباط/ فبراير من السنة التالية، كان لهم بالتأكيد أن يتوقعوا أرباحاً تتراوح بين ٣٠٪ و٤٠٪. أما إذا بعثوا بقسم من هذه البضاعة إلى مكة لبيعه للحجاج، فإن أرباحهم ترتفع إلى أكثر من ذلك. إن طبيعة هذه التجارة هي التي تجعل جدة غاصة بالناس أثناء وجود الأسطول. إلى هنا يتوافد الناس من كل موانىء البحر الأحمر لشراء السلع من مصادرها. ثم إن تجار مكة وينبع وجدة يجمعون أموالهم كلها هنالك للاستفادة منها في هذه المشتريات.

وسبب آخر لكون تجارة جدة مع الهند أكثر ضماناً وأرباحاً هو قدوم السفن التجارية مرة واحدة في العام، في وقت معين، لا يتجاوز الأسابيع القليلة. لا شيء بالتالي يفسد السوق: أسعار السلع تتقرر وفق المعروف من الطلب والواردات. وهي لا تهبط إلا لدى قدوم الأسطول التالي. أما بالنسبة لتجارة البن فهي على العكس من ذلك.

وفي سورية ومصر لا بد من العمل لبضعة أيام وانشغال ثلاثة سماسرة أو أربعة لعقد صفقة بين تاجرين بقيمة ألف دولار. أما في جدة، فإن المبيعات والمشتريات تتناول حمولات السفن بكاملها خلال نصف ساعة، وفي اليوم التالي يدفع المال. وبذلك يشحن القسم الأكبر من البضاعة إلى السويس، ويباع في القاهرة، من حيث يجد سبيله إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط. ويصار إلى تأمين العائدات بالسلع التي تستهلك في الحجاز بالدرجة الأولى، أو بالدولارات والنقود الإيطالية الذهبية التي ينقل الأسطول الهندي مقادير كبيرة منها في السنة. ذاك هو بصورة رئيسية ما يؤدي إلى ندرة الفضة في مصر. ثم إن سفن البن من اليمن تأخذ بعض المواد الصناعية المصرية مقابل ذلك، كالملايات، والقماش القطني لصنع القمصان، والخرز الزجاجي. غير أن مبيعاتهم تدفع نقداً في الغالب.

ولو أن السويس شاركت في التجارة الهندية المباشرة لكان للازدهار الحالي في جدة أن ينخفض، ولا ريب، إلى درجة كبيرة، ولتحولت المدينة إلى ما هي عليه في موقعها، بالتمام، أي ميناء مكة فقط، بدلاً من أن تكون، كما هي عليه الآن، ميناء لمصر. وطبيعي أن يحاول أشراف مكة بكل ما يملكون من قوة، وهم الذين يسيطرون على الجمارك أن يجعلوا من جدة المركز الضخم للتجارة الهندية التي تشكل ضرائبها الجمركية مصدر دخلهم الرئيسي. وفي كل حال، إن السويس ليس بالمكان الذي تتوفر فيه دائماً رؤوس الأموال الكبيرة لتحقيق المشتريات، إن القاهرة نفسها لن تستطيع، مباشرة على الأقل، أن تنخرط في هذه التجارة بكسب، لو أن هذه التجارة تحولت إليها. والسبب في ذلك هو أن العادات القديمة التي ندر أن يتخلّى الشرقيون عنها جعلت استخدام النقد في المبادلات التجارية يكاد يكون غير معروف. وهكذا فإن السلع الهندية لا تباع هنا بالتالي إلا على أسس الدين لآجال طويلة. ولعل النقد كان ولا شك وجد طريقه إلى السويس. كما هي الحال في جدة الآن، ولكن التجارة آنذاك كانت في وضع يجعل الأسطول التجاري الذي يصل من الهند إلى السويس مباشرة يكاد يعجز عن التخلص من حمولته، محققاً أي أرباح، أو ضمن وقت معين. وهنالك سبب آخر عمل لصالح جدة. وهو أن السفن الهندية، على رغم إبحار غالبيتها تحت العلم الإنكليزي، مزوّدة ببحارة، وبقادة من أبناء البلاد من العرب. ولقد اتّبع هؤلاء نهج الإبحار بجوار الشاطىء نفسه، كما هي الحال في كل أقسام البحر الأحمر. لا يخاطرون أبداً بالإبحار في عرض البحر، لا بدّ لهم بالضرورة من أن يمرّوا بجدة وينبع، يمكن للشريف في هذين الميناءين بسهولة أن يفرض عليهم الرسوم في الميناءين، ودفع الضرائب، وقد عرف عنه أنه فعل ذلك مع العديد من السفن المحملة بالبن فصارت تقصد السويس مباشرة من اليمن. ولكن هذه الأوضاع لم تعد قائمة حاليًا. إن محمد علي باشا والي مصر، باستيلائه على الموانىء ومراكز الجمارك في الحجاز، يمكن له أن ينقل الجمارك من جدة إلى السويس، وأن يقيم بالتالي اتصالاً مباشراً بالهند. على أن العقبات التي برزت حتى الآن في وجه مثل هذا التغيير هي غيرة تجار جدة واحتياجاتهم، وجهل الباشا بمصالحه الحقيقية، بالإضافة إلى التخوف من إغضاب سيده. على أنه برغم ذلك كله، يفكر بتغيير النظام، على غرار ما حدث لبيت تجاري إنكليزي محترم جدًا في الإسكندرية. كان هذا البيت قد عقد بالتفاهم مع وكيله في بومباي سنة ١٨١٢، قبل أن يقع الحجاز تحت سلطة الباشا، اتفاقية معه للسماح للسفن الإنكليزية بأن تأتي إلى السويس مباشرة، وبضمان حماية نقل البضاعة عبر الصحراء إلى القاهرة. ثم جاءت أنباء حرب الطرّادات المعادية في البحر الأحمر

تمنع التجار من الاستفادة من هذه الاتفاقية قبل سنة ١٨١٥، مع إرسال سفينة كبيرة من بومباي إلى السويس. غير أن الباشا الذي كان في مكة حين وصلت السفينة جدة عمد، خلافاً لارتباطاته، إلى وقف الباخرة ومنعها من مواصلة الإبحار إلى السويس، مرغماً القبطان على بيع الحمولة بخسارة، أثناء انتشار الطاعون في المدينة، وفرض الضرائب نفسها التي تفرض على سفن البلاد، مناقضاً بذلك الشروط المتفق عليها بين بريطانيا العظمى والباب العالي. مثل هذا التدبير الذي أثار الاستياء الكبير بين الأوروبيين في مصر، كان يمكن له أن يواجه بالثأر من سفن الباشا المتاجرة مع مالطا، لتلقينه درساً باحترام العلم البريطاني أينما لقيه. غير أن الضباط البريطانيين آثروا السكوت على هذه الإساءة وربما كان ذلك بسبب التقدير الخاطىء لوقته ولأهميته أو الرغبة في البقاء على صلة ودّية به دون إظهار أي استياء. لقد نسوا أن رضى الحاكم التركي لا يمكن الحصول عليه بالتساهل، مثل هذا الرضى لا يمكن تأمينه إلا بالتحدي. وبنتيجة ذلك كله، أرغم التجار على عقد معاهدة ثانية مع الباشا صدقت رسميًا. كان أول مطلب له فيها أنه على السفن أن تدفع في السويس مجموع الضرائب الجمركية التي تدفع في هذا الميناء وفي جدة معاً، ما يبلغ نحو ١٢٪. لكنه عاد أخيراً فاكتفى بـ ٩٪ على جميع الواردات إلى السويس من الهند، وهي أكثر بستة بالمائة مما كان التجار الأوروبيين يدفعونه في موانىء الباب العالي. والمفترض في هذا الترتيب أن يؤدي إلى تجارة ناشطة. ثم إن الباشا نفسه كان ميّالاً إلى المضاربة لحسابه. وأول مغامرة له إلى بومباي في ربيع ١٨١٦، عادت عليه بفيل مزركش الغطاء زركشة فاخرة، لتقديمه هدية لسيده في القسطنطينية. على أنني أخشى أنه لن يحترم هذه المعاهدة أكثر مما احترم المعاهدة السابقة. إن جشعه، إذا لم يوقف فعليًا، لا يعرف حدوداً. بوسعه في أي وقت يشاء أن يفرض رسوماً إضافية، بمقدار ما تمكّنه هذه الطريق التجارية الجديدة من ذلك، بتهديد أمن الطريق بين السويس والقاهرة، إذ إن البدو في الصحراء المجاورة خاضعون له كل الخضوع.

كان حاكم جدة السابق، الشريف غالب، ناشطاً في التجارة مع الهند. وكانت له فيها سفينتان، حمولة الواحدة منها ٤٠٠ طن، بالإضافة إلى مراكب صغيرة عديدة في تجارة البن في اليمن. والواقع أنه كان تاجراً بارعاً في كل الفروع التجارية في البحر الأحمر. كان يفرض على تجار جدة ضرائب ثقيلة، بالإضافة إلى مزاحمته القوية لهم. لكنه لم يمارس أي عملية ابتزاز بحقهم. وكان، إذا ما اقترض أي مال، يعيده في الموعد المحدّد، لم يكن يفرض أية أموال استثنائية على الأفراد، لكنه كان يفرضها على المجتمع ككل، بزيادة الضرائب وزيادات اعتباطية. وكان الأمن السائد في ظل

حكمه الذي دفع التجار الأجانب لزيارة ميناء جدة، لكن تصرفه هذا لم يكن يعود إلى حبه للعدالة، إذ إن حكمه كان استبداديًا، لكنه كان يعلم جيداً أن مدينته ستفقد أية قيمة لها إذا ما دفع الخوف التجار إلى تجنّبها. ومع نهاية عهده رفعت الضريبة على البن من ٢,٥ دولار إلى خمسة دولارات لكل كنتال، أو إلى ما يقرب من ١٥٪، فيما كانت الضريبة على السلع الهندية تتراوح بين ٦٪ و١٠٪، بناء على جودتها. وإذا ما عجز غالب عن بيع البن أو السلع الهندية المستوردة لحسابه، على الفور، فإنه كان يوزّع حمولات سفنه على التجار المحلّيين بالسعر السائد في السوق، بكميات تتناسب مع ممتلكات كل تاجر، وبذلك يجعل منه بالضرورة شارياً لهذه البضاعة مقابل النقد الجاهز. ولم يكن غالب فريداً في هذه المعاملة. وفي مصر كثيراً ما كان الوالي الحالي يوزّع البن الذي يملكه بين التجار، بفارق واحد عن غالب هو أن السعر الذي يتقاضاه كان أعلى منه في السوق.

والتجارة في جدة تجري بواسطة السماسرة وهم في الغالب هنود ذوو ممتلكات صغيرة وسمعة رديئة. كان عدد السفن التي تخص جدة كبيراً جدًا. وإذا حسبنا جميع السفن الصغيرة التي كانت تمخر البحر الأحمر ناقلة السلع التجارية، أمكن القول إن هنالك نحو ٢٥٠ سفينة تخص تجار المدينة، أو مالكيها الذين يبحرون بها، باعتبار أن هذا الميناء محطة رئيسية لهم. ولهذه السفن أسماء مختلفة تعبر عن أحجامها: سي، سومة، مركب، سميك، دو، وهذه كبراها التي كانت تقوم بالرحلات الطويلة إلى الهند. ثم إن ملاحيها كانوا بالدرجة الأولى من أبناء اليمن ومن ساحل الصومال، قبالة عدن، بين الحبشة ورأس كاردافوي، ومن الرقيق، وكان في كل سفينة ثلاثة أو أربعة منهم بوجه عام. ولطاقم السفينة مبلغ معين لقاء كل رحلة، كما أن كل بحار هو بدوره تاجر صغير لحسابه. ذلك هو سبب آخر دفع الأجانب إلى قصد جدة حين تهب الرياح التجارية، إذ إن مثل هؤلاء الأشخاص ذوي الرساميل الصغيرة يتمكنون من شراء السلع بالمفرق من أفراد الطواقم مباشرة. وفي الوقت الحاضر لا تبنى في جدة أية سفن، إذ إن الخشب أصبح نادراً جدًا فيها، حتى أن وسائل ترميم السفن باتت صعبة. كذلك تواجه ينبع مثل هذه الصعوبة. والسويس والحديدة ومخاوى الموانىء الوحيدة في البحر الأحمر حيث يجري صنع السفن. والخشب الذي يستخدم في السويس يؤتى به إليها من القاهرة، بطريق البر، بعد أن يكون قد وصلها من ساحل آسيا الصغرى الخشب الذي يستعمل في الحديدة ومخاوى فيؤتى ببعضه من اليمن، فيما يؤتى بالبعض الآخر من ساحل إفريقيا. ثم إن هنالك سفناً عديدة تشترى في بومباي ومسقط، وغير أن السفن المبنية في السويس هي الأكثر انتشاراً في البحر للشمال من اليمن. وفي السنوات

الثلاث الأخيرة عانت جدة حاجة ماسة كبيرة للسفن لأن الباشا صادر عدداً كبيراً منها، وفرض على أصحابها أن ينقلوا المؤونة والذخائر والأمتعة، من مصر إلى الحجاز لقاء أجرة شحن منخفضة جدًا. وخلال إقامتي في جدة، لم يكد يمرّ يوم واحد بدون وصول السفن من ينبع والقصيم بالدرجة الأولى. وبصورة متواصلة، كانت في الميناء أربعون أو خمسون سفينة.

هناك مسؤول يعرف بأمير البحر يقوم بمهمة المشرف على الميناء، ويتقاضى عن كل مركب مبلغاً لقاء رسوّه فيها. وفي زمن الشريف كانت هذه الوظيفة ذات مكانة كبيرة لكنها أصبحت الآن غير ذات قيمة. وقد دهشت إلى حدّ ما حين وجدت أنه ليس في ميناء مقصود كميناء جدة، أي أثر لأية سفن للهو، كذلك لا وجود فيها لزوارق عامة تعمل بانتظام. ثم علمت أن ذلك يعود إلى غيرة المسؤولين عن الجمارك، وهم يرفضون مثل هذه الزوارق، حتى أنهم يصرّون على وجوب عودة الزوارق الملحقة بالسفن إلى سفنها بعد مغيب الشمس.

وليست لجدة أية تجارة عبر البر، إلا مع المدينة ومكة. القافلة تنطلق إلى المدينة مرة كل ٤٠ـ ٥٠ يوماً، ناقلة السلع الهندية والعقاقير بالدرجة الأولى، ثم ينضم إليها باستمرار جمهور من الحجاج الذين يودّون زيارة ضريح الرسول (صلى الله عليه وسلم). وفي القافلة ما يتراوح بين ٤٠ جملاً و١٠٠ جمل، بقيادة البدو من آل حرب. وتقضي العادة أن يصار إلى التلاقي والتبادل بين جدة والمدينة عند الطريق المتوسطة إلى ينبع، من حيث تنقل البضائع بحراً. بالإضافة إلى هذه القوافل التي أشرنا إليها أعلاه، هنالك قوافل تتوجه إلى مكة مساء كل يوم تقريباً، أو ما لا يقل عن مرتين كل أسبوع، محملة بالسلع والمؤونة. وخلال الأشهر الأربعة التي تسبق الحج، حين تنقل كل سفينة قادمة إلى جدة، عدداً من الحجاج، يتّسع هذا التعامل حتى أن القوافل تنطلق يوميًا من باب مكة بعد مغيب الشمس. وتستغرق الرحلة ليلتين، إذ إن الجمال المحملة تستريح في «جدة» في منتصف الطريق. وإلى جانب ذلك، هنالك قافلة صغيرة من الحمير محملة حمولات خفيفة تنطلق كل مساء، وتنجز الرحلة في ليلة واحدة، خلال ١٥ـ ١٦ ساعة وتدخل مكة مع الصباح. وهذه القوافل من الحمير هي التي تنقل الرسائل بين المدينتين. وأثناء فترات السلام، يتم التقاء القوافل على ساحل البحر، باتجاه اليمن أو داخل تهامة باتجاه مخاوى، من حيث تستورد الذرة.

ومن شأن اللائحة التالية بالدكاكين المتعددة في الشارع التجاري الرئيسي في جدة، أن تلقي بعض الضوء على تجارة المدينة وعلى أسلوب حياة سكانها كذلك.

الدكاكين هنا (كما في كل أنحاء تركيا) مرتفعة عن الأرض بضعة أقدام، أمامها مقعد حجري ناتىء إلى الشاعر، عليه يجلس الشارون، وهو مظلّل من الشمس عادة بمظلّة مصنوعة من حصير مثبت على أعمدة عالية، واجهة الكثير من الدكاكين لا تتجاوز ٦ أو ٧ أقدام من حيث اتساعها، والعمق يتراوح بين ١٠ أقدام و١٢ قدماً بصورة عامة، وقد ألحقت بالدكان غرفة صغيرة خاصة، إلى الوراء.

هناك ١٧ مقهى ونزلاً. وفي الحجاز تشرب القهوة بإفراط. وليس من غير المألوف أن يشرب المرء نحو ٢٠ إلى ٣٠ فنجان قهوة يوميًّا، حتى العامل البالغ الفقر لا يتناول دون ثلاثة فناجين أو أربعة. وفي بعض الدكاكين يمكن تناول قهوة «القشر» المصنوعة من قشرة الحب، وهي في الغالب ليست أقل نكهة من طعم الحب نفسه. أحد الدكاكين يتردّد إليه أولئك الذين «يدخّنون الحشيشة»، وهي تعدّ من زهر القنّب الممزوج بالتبغ، مما يثير نوعاً من النشوة، أو الثمل. على أن الحشيشة أكثر شيوعاً في مصر، لا سيما بين الفلاحين.

وفي هذه الدكاكين يدخن الناس النارجيلة الفارسية، والمعروف منها هنا ثلاثة أنواع. الأول هو القدرة؛ هو أكبرها، مستند إلى حاملة مثلثة القوائم؛ معد بكثير من العناية، وموجود في المنازل الخاصة. والثاني هو الشيشة (المعروفة في سوريا)؛ هو أصغر حجماً، لكنه كالأول، موصول بأنبوب (بنبريش) طويل يعرف باللية، وبواسطته يتنشق الدخان. والثالث هو «البوري»؛ هو من قشرة الكاكاو المعبأة بالماء؛ له قصبة سميكة تقوم بوظيفة الأنبوب (النبريش). مثل هذه النارجيلة هي الرفيقة الدائمة لأفراد الطبقات الدنيا، ولجميع البحارة في البحر الأحمر؛ هؤلاء هم الأكثر انغماساً في استخدامها. والتبغ الذي يستخدم في النوعين الأولين يأتي من الخليج. وأفضله ما يأتي من شيراز. وهنالك نوع آخر دونه يعرف بالتنباك، يستورد من البصرة وبغداد. والورقة ذات لون أصفر قليلاً، مذاقها أقوى من مذاق التبغ العادي، وهي لذلك تغسل قبل استعمالها لجعلها أكثر نعومة. والتنباك المستخدم في «البوري» يؤتى به من اليمن؛ هو من الصنف الأول، لكنه دونه نوعية. والتجارة بهذه المادة كبيرة جدًّا، واستهلاكها في الحجاز ضخم حتى يكاد لا يصدق. كذلك تشحن منه مقادير كبيرة إلى مصر. والنارجيلة العادية قلّ أن تستخدم في الحجاز إلا من قبل الجنود الأتراك، والبدو. والتبغ يزرع في مصر، أو يؤتى به من سنّار، حيث ينقل إلى سواكن. والقليل جدًّا من التبغ السوري الجيد يجد طريقه عبر البحر الأحمر.

وتبقى هذه المقاهي ـ النزل حاشدة بالناس طوال النهار. وأمامها تنصب خيمة

يجلس تحتها بعض الناس، كذلك الغرف، والمقاعد، والكراسي الصغيرة المنخفضة قذرة جدًّا؛ وهي من حيث النظافة والأناقة، مناقضة تماماً للمقاهي ـ النزل في دمشق. التجار المحترمون لا يشاهدون في هذه المقاهي، في حين أن تجار الدرجة الثالثة، والنوتيين، يجعلون منها ملجأهم الدائم. لكل شخص منزله الخاص به حيث يلتقي من لهم أشغال معه. والعربي الذي لا يستطيع أن يدعو صديقاً له إلى الطعام، يدعوه، حين يراه مارًّا به من المقهى النزل، كي يتناول معه القهوة. ويشعر بالاستياء الشديد إذا ما رفضت دعوته. وحين يدخل صديقه، يأتي النادل حاملاً الفنجان. وعند تقديمه يصرخ النادل بصوت عال، بحيث يسمع الجميع هناك ـ جبّه، (أي مجاناً). يمكن للعربي أن يخدع دائنيه، أو أن يكون سيء المعاملة من غير أن ينتقد بسبب ذلك، لكنه يجلّل بالعار إذا ما عرف أنه حاول حرمان النادل في المقهى مما له عليه. وقد بذل الجنود الأتراك وسعهم في هذا المجال لزيادة استياء العرب منهم. ولم أر في مقاهي النزل الحجازية أمثال «الحكواتية» الذين يكثرون في مصر؛ هم أكثر من ذلك في سوريا. ولعبة «المنقل» شائعة يلعبها الجميع، وكذلك لعبة «الداما» وهي تختلف عما هي عليه في أوروبة. غير أنه لم يصدف أن رأيت لعبة الشطرنج تلعب في الحجاز، وقد سمعت أنها شائعة، وأن الأشراف بصورة خاصة مولعون بها.

وبجوار كل مقهى نزل تقريباً يقف شخص يبيع المياه المبردة في أكواب صغيرة معطرة.

وهنالك ٢١ بائعاً للسمن. هؤلاء يبيعون كذلك عسلاً وزيتاً وخلاً بالمفرق. ويمثّل السمن مادة رئيسية في الطبخ العربي؛ وهي أكثر دهناً من الزبدة الإيطالية. ونادراً ما يشاهد السمن الطازج في الحجاز. والشائع بين مختلف الطبقات هنا شرب ملء فنجان قهوة من السمن المذاب في الصباح، ثم تناول القهوة بعد ذلك، هم يعتبرونه مهدئاً قويًّا؛ ولقد اعتادوا عليه منذ فتوتهم الباكرة حتى أنهم يتضايقون كثيراً إذا ما توقفوا عنه. أبناء الطبقات العليا يكتفون بشرب هذا القدر من السمن، غير أن أفرد الطبقات الدنيا يضيفون نصف فنجان إلى ذلك، يتنشقونه عبر المنخرين، اعتقاداً بأنهم بذلك يمنعون الهواء القذر من الدخول إلى أجسامهم عبر هذا المجرى. مثل هذه العادة متفشية بين سكان المدينة كما بين البدو. ثم إن أبناء الطبقات الدنيا معتادون كذلك على فرك صدورهم، وأكتافهم، وأذرعهم، وسيقانهم، بالسمن، كما يفعل الزنوج، من أجل ترطيب البشرة. أثناء الحرب توقف استيراد هذه المادة من الداخل توقّفاً تامًّا تقريباً. على أنه حتى في زمن السلم، غير كاف لاستهلاك أبناء جدة. ولذلك يؤتى بالمزيد منه من سواكن. إن النوع الأفضل منه، وهو الأكثر وفرة، يستورد من مصوّع، ويعرف

بالتالي بسمن «دهلك». حمولات السفن الكاملة تصل من مصوع لينقل القسم الأكبر منها إلى مكة. كذلك يستورد السمن من القصيم وهو يأتي من مصر العليا، مصنوعاً من حليب الجواميس، في حين أن سمن سواكن ودهلك مصنوع من حليب الأغنام.

ويكثر العسل في الحجاز، في كل ناحية من جباله. وأفضله من جبال يقطنها بدو النواصرة للجنوب من الطائف. والإفطار الشائع بين الطبقات الدنيا مزيج من سمن وعسل على كسر الخبز الساخنة. والعرب مولعون بالمعجّنات، وقلّ أن يأكلوها بدون العسل.

والزيت الذي يستخدم للإضاءة، هو زيت السمسم، أو السارج، المستورد من مصر. العرب لا يستخدمون الزيت للطبخ إلا لقلي الأسماك، أو يعطى للفقراء مع المعجّنات. والسلطة التي يولع بها الأتراك في الشمال، لا تشاهد على مائدة أي عربي.

وهناك ١٨ منصة للفاكهة والخضار. وزاد عددها عما كان من قبل بسبب قدوم الجيوش التركية التي تلتهم الخضار التهاماً. جميع الثمار يؤتى بها من الطائف الواقعة وراء مكة؛ وهي غنية بالبساتين. وفي تموز/ يوليو وجدت هنا عنباً من أفضل الأنواع، متوفراً بكثرة في الجبال الواقعة وراء مكة، ورمّانا متوسط النوعية، وسفرجلاً غير حادّ الطعم كالسفرجل الأوروبي، يؤكل فجّا، ودرّاقاً، وليموناً حامضاً إلا أنه صغير الحجم، كالليمون الحامض الموجود في القاهرة، وبرتقالاً مرّ الطعم، وموزاً، مع أنه لا ينتج في الطائف، لكنه يجلب بالدرجة الأولى عبر طريق المدينة من الصفرا، وجديدة، وخليص. وتستمر هذه الفاكهة حتى تشرين الثاني/ نوفمبر. وفي آذار/ مارس، يؤتى بالبطيخ الأحمر من وادي فاطمة، وهو، كما يقال، صغير الحجم لكنه جيد النكهة. العرب يأكلون القليل من الفاكهة، باستثناء العنب. هم يقولون إنها تسبّب الصفراء، كما تؤدي أحياناً إلى امتلاء البطن بالغازات. ولعلهم بذلك غير مخطئين. ثم إن الثمار التي تباع في جدة غير صحية؛ توضب في الطائف غير ناضجة، وفي الطريق أثناء النقل تنضج نضجاً غير طبيعي؛ وفي كل صباح يختصم الأتراك ويتقاتلون أمام الدكاكين في محاولة منهم للحصول على الفاكهة، وهي قليلة المقادير مرتفعة الأثمان. والخضار يؤتى بها إلى جدة من وادي فاطمة، على مسافة ستة أميال إلى الشمال. وأنواعها العادية هي الملوخية، والبامية. والباذنجان، والخيار، واللفت البالغ الصغر الذي تؤكل أوراقه وترمى جذوره باعتبارها غير صالحة؛ أما الفجل والكراث فنوعان من الخضار يستخدمان بانتظام، في كل يوم، في الطبخ العربي. وهما صغيران جدًّا، يأكلها العامة بالخبز من غير طهي. وبوجه عام يستهلك العرب القليل من الخضار. أما مأكولاتهم

فتتألف من اللحوم، والأرز والدقيق، والسمن. وفي هذه الدكاكين التي تبيع الفاكهة، يباع كذلك التمر الهندي الذي يعرف هنا بالحُمار. ويستورد من الهند الشرقية، لا كتلاً متراصّة، كما يؤتى به من بلدان الزنوج، بل بحالته الطبيعية، على أنه يتحلّل، ويفسد إلى درجة كبيرة فيغلى بالماء، ويصبح شراباً منعشاً، ويعطى للمرضى ممزوجاً باللحم المطبوخ.

كذلك في جدة ثمانية باعة للتمور. هي أحب إلى العرب من أية مادة أخرى تؤكل. ولديهم تقاليد كثيرة تعود إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبينة تفضيل التمور على كل أنواع المأكولات الأخرى. وطوال السنة، لا ينقطع استيراد التمور. وفي الأشهر الباقية من السنة، على شكل «عجوة»، وهي تصنع بكبس التمور، حين تنضج جيداً، بقوة، في قفف كبيرة، بحيث تتحول إلى كتلة صلبة، أو قرص صلب. وتزن القفة الواحدة نحو مئة كيلو غرام. كذلك يصدر البدو هذه العجوة. وفي السوق تقطع العجوة من القفة وتباع بالوزن. وتشكل العجوة جزءاً من الطعام اليومي لجميع طبقات الناس. أثناء السفر، تحلّ العجوة بالماء، وهي بذلك توفر شراباً عذباً ومنعشاً. ومن العجوة أكثر من ١٢ نوعاً، أفضلها يؤتى به من «طربة» بعد الطائف؛ على أن النوع الأكثر شيوعاً في السوق في الوقت الحاضر هو النوع المجلوب من فاطمة. أفضل أنواعه من خليص وجديدة، متوفر في الطريق إلى المدينة. وأثناء فصل الرياح الموسمية تنقل سفن الخليج عجوة من البصرة، في قفف صغيرة تزن الواحدة منها نحو ٤,٥ كلغ. وهو النوع الذي يفضل على أي نوع آخر. ولدى العودة تنقل سفن الهند الشرقية كميات كبيرة من هذه العجوة لتباع بأرباح كبيرة للمسلمين في الهندوستان.

وهناك أربعة من صانعي الفطاير المحلاة، تباع في الصباح الباكر، مقلية بالسمن، وهي تشكل إفطاراً محبّباً. وفي المدينة خمسة بائعين للفول؛ يبيعونه في ساعة باكرة للفطور مسلوقاً بالماء، يؤكل مع السمن والبهارات. ويسمى بالفول المدمّس، وهو يشكّل طعاماً محبّباً لدى المصريين، ومنهم تعرّف إليه العرب.

وفيها خمسة باعة للمربيات، والسكاكر، ومختلف أنواع الحلوى. الحجازيون أكثر بها ولعاً من جميع الشرقيين الذين رأيتهم. يأكلونها بعد العشاء. وفي المساء تكون منصات بائعي الحلويات محاطة بجماهير الشارين. الهنود هم أفضل صانعيها. لم أر هنا أية سلعة من هذا النوع ولم أجد مثلها في مصر. البقلاوة، الكنافة، الغريبة متوفرة هنا بكثرة كما هي في حلب والقاهرة.

وللكباب دكانان تباع فيهما اللحوم المشوية. يعمل فيهما أتراك، إذ إن الكباب ليس طعاماً عربيًّا.

وللحساء بائعان، يبيعان كذلك رؤوس وقوائم الأغنام المسلوقة. زوارهما في الغالب عند الظهر للغداء. وللسمك المقلي بالزيت بائع واحد، يتردّد إليه البحارة الأتراك واليونانيون.

ولبيع الخبز عشر منصات أو اثنتا عشرة، تعمل فيها النساء على العموم. وللخبز رائحة غير طيبة؛ الدقيق غير نظيف تماماً، والخميرة رديئة. والرغيف الواحد بحجم الرغيف الذي يباع في القاهرة ببارتين، لكنها تباع هنا بثماني بارات مع أنها من نوعية أردأ.

وللبن الرائب بائعان، هو نادر مرتفع الثمن جدًّا، في جميع أنحاء الحجاز. لعله من الغرابة أن يكون الحليب نادراً بين الرعاة في شبه الجزيرة العربية، ولكن الحقيقة هي كذلك في جدة ومكة. الواقع أن الجوار المباشر لهاتين المدينتين شديد القحط لا يصلح لرعي الماشية. قليلون هم الذين يتحملون نفقة إطعام الماشية لأجل حليبها فقط. وحين كنت في جدة، كان رطل (أو بوند) الحليب إذ إنه يباع بالوزن، يكلّف قرشاً ونصف القرش، ولم يكن يمكن الحصول عليه إلا بالواسطة؛ والظاهر أن هذا الذي يسمّيه الأتراك في الشمال «يوغرت» ويعرفه السوريون والمصريون باللبن الحامض الرائب ليس طعاماً عربيًّا محليًّا. إن بدو شبه الجزيرة العربية، على الأقل، لا يعدونه كذلك.

وهناك دكان للأتراك يباع فيها الجبن اليوناني، واللحم المقدّد، والتفاح والتين المجفف، والزبيب، والمشمش المجفف المعروف بقمر الدين، بأسعار تساوي ثلاثة أضعاف أسعارها في القاهرة. الجبن يستورد، وكثيراً ما يستهلكه الجنود الأتراك. وهنالك نوع آخر من الجبن يصنع في الحجاز، شديد البياض، مملح، لكنه لا يدوم طويلاً برغم ذلك؛ هو في كل حال غير مغذٍّ إلى حدّ كبير. البدو أنفسهم لا يعنون بالجبن؛ يشربون الحليب أو يصنعون منه السمن. واللحم المقدّد الذي يباع في هذين الدكانين بقري مملّح ومدخّن مستورد من آسيا الصغرى. وجميع أنواع الفاكهة المجففة المذكورة أعلاه، باستثناء المشمش، يؤتى بها من الأرخبيل. أما المشمش فيؤتى به من دمشق إلى كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية، حيث يعتبرونه من الكماليات، لا سيما بين البدو. تنزع العجوات من الثمار، ثم تعصر هذه الثمار وتمدّ على أوراقها لتجف في الشمس. بعد ذلك تتحول إلى نقوع طيب إذا ما أذيبت في الماء.

وهنالك أحد عشر دكاناً كبيراً لتجار الحبوب، لشراء الحنطة المصرية، والشعير والفول، والعدس والذرة، والأرز الهندي والمصري، وأنواع البسكويت إلخ. والحنطة

التي تباع الآن في الحجاز مستوردة من مصر. وأثناء السلام يؤتى بواردات كثيرة من اليمن إلى مكة، وجدة، ومن نجد إلى المدينة. ولكن الواردات من مصر هي الأكثر إلى حدّ كبير حتى أنه يصح القول إن الحجاز يعتمد على مصر من أجل الحبوب. في السابق، كانت تجارة الحبوب في أيدي الأفراد؛ وكان الشريف غالب نفسه يتعاطى بها. أما الآن فقد حصرها محمد علي باشا كلها في يديه؛ لا يباع أي شيء منها في السويس للأفراد. كل الحبوب تشحن لحساب الباشا. كذلك هي الحال بالنسبة للمؤن الأخرى، من أرز وسمن، وبسكويت، وبصل؛ والمستورد من هذه السلعة الأخيرة كبير جدًّا. أثناء إقامتي في الحجاز الذي ينتج ما يكفي سكانه، كان الباشا يبيع الحبوب في جدة بأسعار تتراوح بين ١٣٠ و١٦٠ قرشاً للأردب، وأما أسعار أنواع المؤن الأخرى فمتقلّبة. كلفة الحبوب ١٢ قرشاً للأردب في مصر العليا، وهي تبلغ ٢٥ إلى ٣٠ قرشاً بما في ذلك نفقات النقل لا اهتمام عادة لإرضاء الناس إلا أن أنصاره وجدوا له العذر بقولهم إنه بإبقاء سعر الحنطة مرتفعاً، ضمن بقاء بدو الحجاز إلى جانبه. لقد كانوا يعتمدون على مكة وجدة من أجل المؤونة، وبذلك اضطروا للدخول في خدمته، وقبض المرتبات منه لتجنّب المجاعة. والناس العاديون في الحجاز يستعملون القليل من الحنطة؛ خبزهم مصنوع من طحين الذرة أو طحين الشعير؛ كلاهما أرخص من القمح بنسبة الثلث؛ ولعلهم يعيشون كليًّا على الأرز والسمن. تلك هي الحال مع غالبية بدو تهامة على الساحل. واليمنيون في جدة لا يأكلون شيئاً غير الذرة. وغالبية الأرز المستعمل في جدة يؤتى بها، كثقل لموازنة السفن القادمة، من الهند. على أن النوع الأفضل يستورد من جزيرات وكوتش. هو نوع الطعام الرئيسي عند أهل الحجاز الذين يفضلونه على أرض مصر ظنًّا منهم بأنه أفضل من النوع الآخر الذي يستخدمه الأتراك وسواهم من الأغراب من الشمال. وحبة الأرز الهندي أكبر من حبة الأرز المصري. وأطول منها، ذات لون ضارب إلى الاصفرار، فيما حبة هذا الأرز الثاني ضاربة إلى الحمرة، على أن أفضل أنواع الأرز هو الأبيض اللون سواء كان من مصر أم من الهند. والأرز الهندي يكبر مع الطهي أكثر من الأرز المصري؛ وهو لذلك مفضل لدى العرب، لأن مقداراً قليلاً منه يملأ الصحن، ولو أن الأرز المصري أكثر منه تغذية. ثم إن الأرز الهندي أقل كلفة؛ وهو ينقل من جدة إلى مكة والطائف والمدينة، ثم إلى نجد. والوجبة المفضلة مؤلفة من مقدارين متساويين من الأرز والعدس، مع السمن فوقهما، وهي بوجه عام النوع الوحيد لدى الطبقة الوسطى على العشاء. وفي كل مكان في الحجاز وجدت أن البدو لا يحملون معهم حين يسافرون غير الأرز والعدس والسمن والتمور. وفي الفترة الأخيرة كثر استيراد البسكويت من مصر لاستخدامه من قبل

القوات التركية. أما العرب فلا يحبونه ونادراً ما يأكلونه حتى وهم على متن السفينة، حيث يخبزون لأنفسهم، كل صباح، حلواهم غير المختمرة في أفران صغيرة توجد في كل السفن التي تبحر في البحر الأحمر مهما كان حجمها.

ويبيع تجار الحبوب الملح كذلك؛ يجمع ملح البحر بجوار جدة، وهو حكر على الشريف. على أن سكان مكة يفضلون الملح الصخري الذي يأتي به البدو من بعض الجبال بجوار الطائف.

وللتبغ ٣١ دكاناً. وفيها يباع التبغ السوري والمصري، وهو التبغ الذي يستعمل لنارجيلة العجمية، ولوازمها، وحب الكاكاو، وحب البن، وقشره، والصابون،. والجوز، والزبيب الحجازي، وبعض البقالة الأخرى. والتبغ المصري الممزوج أحياناً مع تبغ سنّار هو الأرخص ثمناً؛ هو مطلوب أكثر من غيره في الحجاز. وهنالك منه نوعان: ورقة إحداهما خضراء، حتى وهي مجففة، وهي تسمى ربّة، ومصدرها مصر العليا، وورقة ثانية سوداء، وأفضل أنواعها ما يزرع في «نحتا» للجنوب من أسيوط. ثم إن النباريش الطويلة للنارجيلة العجمية، بما فيها من شغل جميل، كانت تستورد من اليمن، فيما كان حب الكاكاو يستورد من الهند الشرقية، أو من الساحل الإفريقي الجنوبي الشرقي، أو من بلاد الصومال: وأثناء فترة الرياح الموسمية يمكن الحصول عليه طازجاً وبأسعار منخفضة. والظاهر أن أهل جدة ومكة مولعون به كثيراً. الحبّات الكبيرة منه، تستعمل «للبوري» أو للنارجيلة العجمية المعروفة، فيما كانت حباته الصغيرة تستخدم كعلب للنشوق.

ويستورد الصابون من السويس؛ ينقل إلى سوريا، ثم تزوّد به جميع بلدان سواحل البحر الأحمر. إن تجارة الصابون ناشطة، وهي في معظمها في أيدي تجار الخليل الذين يأتون به إلى جدة، حيث يعيش بعضهم باستمرار. أما اللوز والزبيب فمن الطائف وجبال الحجاز ثم إن مقادير كبيرة منهما تصدر إلى الهند الشرقية. واللوز ممتاز النوعية في الغالب، والزبيب صغير الحب، أسود اللون شديد الحلاوة. ومنه يحضر نوع من الشراب المسكر.

وهناك ثمانية عشر بائعاً للعقاقير؛ هم كلهم من الهند الشرقية؛ غالبيتهم من صورات. وبالإضافة إلى مختلف أنواع العقاقير، يبيع هؤلاء الباعة الشموع، والورق، والسكر، والعطور والبخور. ويستعمل هذا البخور بصورة واسعة من قبل سكان المدن، حيث تقوم جميع العائلات المحترمة بتطييب غرفها به كل صباح. والمصطكى والصندل أكثر ما يستخدمان لهذه الغاية محروقين على الفحم. ثم إن البهارات من

شتى الأنواع، والعقاقير المثيرة للدفء تستعمل في الحجاز على نطاق واسع. وقلّ أن تشرب القهوة في المنازل الخاصة بدون مزجها بحب الهال وكبش القرنفل. ثم إن الفليفلة الحمراء المستوردة من الهند أو من مصر تدخل كل الطعام. وبين العقاقيريين في جدة ومكة تجارة واسعة ببراعم الورود التي يؤتى بها من حدائق الطائف. ينقعها أهل الحجاز، لا سيما السيدات، بالماء ثم يستعمل هذا الماء للاغتسال والوضوء؛ كذلك تغلى هذه الورود مع السكر لصنع المربى. والسكر الذي يباع في دكاكين العقاقيريين يستورد من الهند؛ لونه أبيض ضارب إلى الصفرة، مصفّى، نظيف، ومسحوق. ويستورد القليل من السكر المصري لكن الناس هنا لا يحبونه. هم بوجه عام يفضلون كل شي يؤتى به من الهند، لأنهم يعتبرونه من نوعية ممتازة، كما أن المنتوجات والمصنوعات الإنكليزية تفضل في القارة الأوروبية. وأصحاب دكاكين العقاقير في الهند أصحاب أملاك واسعة، وأثرياء؛ تجارتهم كثيرة الأرباح، وليس لأي عربي أن ينافسهم فيها. وفي مكة، كما في الطائف والمدينة وينبع، يتحدّر جميع العقاقيريين من أصل هندي. وقد مضت عليهم أجيال في هذه البلاد وتطبّعوا بطباع أهلها كليًّا، لكنهم لا يزالون يتكلمون اللغة الهندية، ويتميزون عن العرب بعادات كثيرة ولو بسيطة، وبذلك يبغضهم العرب بوجه عام، إلى حدّ كبير، ويتهمونهم بالشح والخداع.

وفي هذه السوق أحد عشر دكاناً تباع فيها السلع الصغيرة من الصناعة الهندية، كالخزف الصيني، ورؤوس النارجيلات، والملاعق، والخرز الزجاجي، والسكاكين، والسبحات، والمرايا، وأوراق اللعب، إلخ. أصحاب هذه الدكاكين هنود، غالبيتهم من بومباي. قليلة هي الصناعات المعدنية الأوروبية التي تجد سبيلها إلى هذه المنطقة، باستثناء الإبر، والمقارض، والكشاتبين، والمبارد. وما عدا ذلك من هذا النوع، هو كله تقريباً يؤتى به من الهند. ثم إن الخزف الصيني مرغوب كثيراً في الحجاز. السكان الأغنياء هنا يعرضون منه مجموعات مرتفعة الكلفة مصفوفة على الرفوف في قاعات الجلوس في منازلهم، كما يلحظ ذلك في سوريا. وفي مكة وجدة معاً، رأيت جوطاً من الخزف الصيني بقطر قدمين ونصف القدم على الأقل تحمل إلى الموائد من قبل شخصين، وعليها خروف مشوي بكامله. ويصدّر الخرز الزجاجي من جدّة إلى سوق سواكن وأثيوبيا بالدرجة الأولى؛ هو من صنع البندقية أو من صنع الخليل. وتلبسه النساء البدويات؛ مع أن الأساور المصنوعة من قرون سوداء، والعقود الكهربائية، أكثر شيوعاً، على ما يبدو. وفي هذه الدكاكين يباع خرز العقيق المعروف «بالريش»، ومصدره بومباي، ويستخدم في داخلية إفريقيا. وهنا يرى خرز أحمر، مصنوع من

شمع، بمقادير كبيرة، مصدره الهند ومرسل إلى أثيوبيا في الغالب. وتباع السبحات بأنواع كثيرة؛ منها ما يصنع من اليسر وهو أغلاها ثمناً. وهو نوع من المرجان الذي ينمو في البحر الأحمر؛ وأفضله نوع ينمو بين جدة وقنفد: لونه أسود شديد السواد، شديد اللمعان، وتباع حباته بدولار واحد حتى أربعة دولارات لكل مئة حبة، بحسب حجم الحبة. هي من صنع الخراطين في جدة، مرغوبة جداً في مالايو. وهنالك سبحات أخرى (يؤتى بها من الهند أيضاً) مصنوعة من قلمبق ذي رائحة، ومن خشب الصندل، مطلوبة في مصر وسوريا. وقليلون هم الحجاج الذين يغادرون الحجاز من غير أن يحملوا من المدينتين المقدستين بعض هذه السبحات هدايا لأصدقائهم في بلدانهم.

وللملابس ١١ محلاً تباع فيها أنواع الملابس بالمزاد العلني صباحاً. غالبية هذه الملابس تركية الأزياء، يتعامل بها تجار من الطبقة الأولى والثانية، مع تعديلات قومية طفيفة في التفصيل. وأثناء فترة الحج تزار هذه المحلات بالدرجة الأولى لشراء الإحرام، أي البردة التي يصار إلى الحج بها، وهي مؤلفة بوجه عام، من قطعتين طويلتين من الكتان الأبيض الهندي. وإلى هنا يأتي بدو الحجاز لشراء العباءات الصوفية أو اليدوية، وهي تستورد من مصر التي يعتمدون عليها كليًا للحصول على هذه السلعة، لأن العادة بالنسبة لزوجات البدو الآخرين أن ينسجن عباءاتهن. وإلى هنا أيضاً يؤتى بالسجاد التركي من نوع متدنٍّ، يشكّل أثاثاً لا يستغنى عنه لخيام الشيخ. وفي هذه الدكاكين كذلك توزّع بالمفرق جميع الصادرات المصرية اللازمة للملابس، من ملايات، وتنانير قطنية، وقمصان كتان، وقمصان مصبوغة باللون الأزرق يلبسها الفلاحون، وشباشب حمراء وصفراء، لاستعمال التجار الأكثر ثراء ولجميع السيدات، وقبعات حمراء، وشتى أنواع الملابس، وشالات الكشمير الفرنسي... إلخ. من التجار المحترمين، باعة يبيعون هذه السلع بالمفرّق. إن جميع كبار التجار تقريباً يقومون بتجارة المفرق في بيوتهم باستثناء التجار الهنود الكبار الذين عرفوا هنا، فإنهم لا يتعاطون إلا بالسلع الهندية. أما سواهم من تجار مكة فيتعاطون شتى الفروع التجارية. ذات مرة رأيت شقيق الجيلاني يقتتل مع بائع جوال من ينبع بخصوص سعر ملاية، قيمتها نحو ١٥ شلناً. على أن مثل هذه الحالة معروفة في مصر وسوريا حيث يقوم كبار أثرياء التجار المحليين بالبيع المفرق، ويدخلون في تفاصيل التجارة الدقيقة من غير أن يكون لهم عدد من بائعين متجولين، لأن أسلوب عملهم يجعل ذلك غير ضروري. ولا يحفظ التاجر التركي بأكثر من دفتر حسابات واحد: فيه يسجل مبيعاته ومشترياته خلال الأسبوع، نقلاً عن دفتر صغير يحتفظ به في جيبه. ليست لديهم تلك

المراسلات الواسعة التي يلتزم التجار الأوروبيون القيام بها. تسجيلاتهم هي دون تسجيلات هؤلاء الأخيرين، على أنها وافية، تحقّق الغرض المنشود منها؛ وفي كل بلدة يتاجرون معها لهم صديق، ويقومون بضبط حساباتهم ومقارنتها معه سنويًّا. ثم إن التجار الأتراك باستثناء الذين يعيشون في الموانىء البحرية لا يتعاطون بوجه عام إلا بفرع واحد من العمل التجاري، ولا يقيمون أية مراسلات إلا مع البلدة التي يشحنونها إليها. وهكذا، على سبيل المثال، إن كبار تجار بغداد في حلب، بما لهم من رأسمال يتراوح بين ٣٠ و٤٠ ألف جنيه، يتلقون البضائع من أصدقائهم في بغداد، ثم يرسلونها من حلب إلى القسطنطينية. وهم يوظفون أي كاتب لديهم، إذ إنهم يقومون بهذه المعاملات بأنفسهم. وفي القاهرة يتجر التجار السوريون ببضائع من دمشق وحلب، ولا صلة لهم بتجار المغرب، وسوريا وجدة.

وتزداد هذه المعاملات التجارية تبسيطاً لأن التجار يستخدمون رساميلهم الخاصة بالدرجة الأولى، في حين أن عملية السمسرة هنا أقل نطاقاً مما هي عليه في أوروبا. وإذا ما شحن التاجر كمية كبيرة من البضائع إلى مكان ما. فإنه يبعث معها بشريك أو ربما بقريب له، إذا لم يكن لديه شريك مقيم في المكان الذي ستصله البضائع. والمعاملات المصرفية والفواتير المالية غير معروفة بين هؤلاء التجار المحليين، مما يوفر عليهم الكثير من المتاعب. وفي المدن التي توجد فيها وكالات أوروبية يمكن للفواتير أن تكون متداولة أحياناً إلا أنها غير شائعة مع المحليين الذين ألفوا التعاطي نقداً.

إن الممارسة المتّبعة بين التجار المسلمين والمسيحيين واليهود في الشرق من حيث عدم وضع موازنة دقيقة للرأسمال كما هو بالفعل، هي سبب آخر يجعل عملية مسك الدفاتر وتفاصيلها أقل ضرورة هنا منها في أوروبا. وكما أن البدوي لا يعد خيام قبيلته، ولا خرافه بالضبط، وكما أن القائد العسكري لا يحصي جنوده بالضبط، أو أن الحاكم لا يعد سكان مدينته، إن التاجر لا يحاول أبداً أن يتأكد من قيمة ممتلكاته بالضبط؛ هو لا يريد إلا القيمة التقريبية. ومرد ذلك إلى أن عملية الإحصاء أو العدّ ما هي غير عرض تفاخري بالثروة، ستعاقبه السماء بإنقاصها بسرعة.

ونادراً ما يدخل التاجر الشرقي بمضاربات خطيرة؛ إنه يحصر معاملاته بقيمة رأسماله. والقروض بمبالغ كبيرة لا تتوفر إلا بصعوبة، لأن أوضاع كل فرد هنا معروفة علناً على وجه أفضل مما هي معروفة في أوروبا. لذلك تندر عمليات الانهيار. وإذا ما أحرج تاجر بنتيجة عملية تجارية غير ناجحة، أو نتيجة خسائر لا يمكن تفاديها، لا

يمارس الدائنون الضغط عليه؛ ولكنهم يميلون إلى استيفاء أموالهم بوجه عام بعد صبر قد يبلغ سنوات قليلة؛ بذلك ينقذون سمعة التاجر، ويحولون دون عواقب الإفلاس.

على أن التجار الشرقيين معرضون، من ناحية أخرى، إلى نهج عدم التقيّد بمواعيد استحقاق المدفوعات، وقد يؤجلونها إلى ما بعد الوقت المتفق عليه؛ إن التاجر البالغ الاحترام لا يتردّد في تأجيل دفع الدين أشهراً؛ وكقاعدة عامة يمكن القول إن المبالغ في مصر أو في سورية لا تدفع كاملة إلا بعد مرور ضعف الفترة المذكورة تقريباً. على أن ذلك، كما أكّد لي مطّلعون موثوقون، لم يتحوّل إلى ممارسة عامة إلا في السنوات العشرين أو الثلاثين الأخيرة، وما هو في الحقيقة إلا نتيجة تدهور عام في التجارة وخفض للرساميل. وقد سبق لي أن ذكرت أن جميع المبادلات في جدة تقريباً تتم بالدفع نقداً.

وهناك ثلاثة باعة للأدوات والأواني النحاسية؛ والأواني المتنوعة من النحاس المصقول موجودة في كل مطبخ عربي؛ حتى البدو يملكون مرجلاً نحاسياً واسعاً، على الأقل، في كل خيمة. معظم هذه الأواني مستورد من مصر. وأبرزها كلها هو ما يعرف بالإبريق، أو وعاء الماء الذي يستخدمه المسلم للوضوء. ولا يصل الحجاز أي حاج تركي بدون مثل هذا الإبريق؛ ولعله يشتريه وهو في جدة. وفي السوق كذلك بعض الأواني النحاسية التي يأتي بها أبناء المالايو من الصين، غير أنها ليست مطلية أو مصقولة. نحاسها يبدو من نوع أفضل من نوع النحاس الذي يجلب من الأناضول، عبر القاهرة، غير أن العرب يكرهون استعمال هذا النوع.

وللحلاقين أربعة دكاكين. هؤلاء هم في الوقت نفسه جرّاحون وأطباء في هذه البلاد. يعرفون فصد الدم وتركيب أنواع مختلفة من الأدوية المسهّلة. إن العرب الذين تكون لحاهم أطول وأكثف من لحى الآخرين من أبناء البلاد، يعنون جيداً بحفظ هذه اللحى نظيفة، مقصوصة بحيث لا تكون أية شعرة منها أطول أو أقصر من الأخرى. والشاربان مقصوصان بعناية بحيث لا يترك شعرهما متدلّياً فوق الشفتين. بذلك يختلف العرب عن الأتراك الذين يندر أن يسمحوا للمقرض أن يلامس الشاربين الكثيفين. ويتردّد إلى دكاكين الحلاقين كثيرون من المتسكعين من أبناء الطبقات الدنيا لسماع الأخبار والتسلية بالمحادثات. وفي أحد هذه المحلات وجدت رجلاً من أصل فارسي، يعمل في النقش على أختام؛ لديه عمل كثير لأن الحاج، بعد أن ينتهي من الحج يودّ عادة أن يضيف إلى الاسم المنقوش على ختمه صفة «الحاج».

وهناك أربعة خياطين. وهنالك آخرون كثيرون سواهم في أنحاء مختلفة من البلدة؛

غالبيتهم من الأجانب. خياط طوسون باشا من البوسنة، وله سلطة على جميع الخياطين في المدينة؛ وهؤلاء لا يشكون بمرارة من إخضاعهم إلى أوامره وإهاناته فقط بل إلى ضربات عصاه.

وخمسة صانعي نعال، أو صنادل. ليس في الحجاز أي صانع أحذية، أو إسكافي. وأولئك الذين يحتذون الشباشب أو الأحذية يشترونها من تجار يستوردونها من مصر.

وتختلف أشكال الصنادل في أنحاء شبه الجزيرة العربية بحسب المنطقة. وبالإضافة إلى الأشكال التي ذكرها نايبور هنالك نحو ١٢ شكلاً آخر. بعضها خاص بطبقات معينة. التاجر، على سبيل المثال، يحتذي صندلاً كالذي يحتذيه البحار. وذلك هو الواقع أيضاً بالنسبة للأحذية في تركيا، حيث لكل منطقة وطبقة شكل محدّد من الأحذية. ثم إن مصر وأثيوبيا تصدران الجلد السميك الذي تصنع منه الصنادل.

وهناك ثلاثة دكاكين تباع فيها وتصلح جلود المياه المجلوبة من سواكن ومصر. القسم الأكبر من الحجاز يزوّد بجلود مرغوبة إلى حدٍّ كبير لأنها خفيفة جدًّا، ومخيطة بدقة كبيرة. ثم إن جلد المياه المصنوع في سواكن يدوم في الاستعمال نحو ثلاثة أشهر إلى أربعة.

وهنالك خراطان يثقبان أنابيب النارجيلات، ويصنعان الخرز إلخ.

وثلاثة بائعين للزيوت الحلو، أو العطور، وطيب الزباد، والألوة، والبلسم المكي وماء الورد، من الفيوم في مصر. ونادراً ما يمكن شراء طيب الزباد وبلسم مكة صافيين. إلا من المصدر. وسنة ١٨١٤ كان التجار الأحباش أو الأثيوبيون يأتون بطيب الزباد في قرون البقر الكبيرة، ويبيعونه بأربعة قروش للدرهم. كذلك يباع المسك في هذه الدكاكين، وأفضله بدولارين للمثقال الواحد. ويأتي به الحجاج الهنود والفرس إلى هنا.

وساعاتي تركي. إن جميع تجار مكة وجدة يحملون ساعات، ومنها كثير مما هو صنع إنكليزي جيد. يؤتى بها من الهند، أو من الحجاج من القسطنطينية. ويحدث أحياناً أن الحجاج الأتراك يحتاجون إلى المال في الحجاز، وهم لذلك يضطرون لبيع بعض المواد الثمينة التي يحملون، وأولها الساعات دائماً، ثم المسدسات والسيوف، وأخيراً نسخ القرآن الكريم ومثل هذه السلع متوفرة بالتالي في سوق المزاد في مكة وجدة.

وبائع واحد لنارجيلات التبغ التركي أو الفارسي، وهي مستوردة من بغداد بالدرجة الأولى. ثم إن الأثرياء يعرضون في قاعات الجلوس في منازلهم مجموعات كاملة من أجمل النارجيلات. ثمن الواحدة منها ما يبلغ مئة دولار.

وسبعة صرافين، يجلس هؤلاء على المقاعد في الشارع، وأمامهم صندوق كبير يحتوي النقود. وقبل هذا الوقت كان جميع هؤلاء الصرافين من اليهود، كما هي الحال حتى الآن، إلا في حالات استثنائية، في القاهرة ودمشق وحلب. ولما طرد الشريف سرور اليهود من الحجاز بدأ أهل جدة أنفسهم يمارسون هذه العملية وهم ميالون إليها بطبيعتهم. لدى كل كشك مجموعة منهم متشاركون، يبلغون الستة أحياناً. اللازم لذلك مبلغ كبير من المال لكن العملية كثيرة الأرباح. وقيمة النقد هنا تتغير بأسرع مما تتغير في أي قسم آخر عرفته في الشرق. سعر الدولار والعملة الإيطالية الذهبية يتغيّر يومياً تقريباً، والمؤكد أن الصرّافين هم الرابحون في الغالب. أثناء وجود الأسطول الأميركي يرتفع سعر الدولار كثيراً. وقد بلغ حين كنت في جدة ١١- ١٢ قرشاً وبعد مغادرة الأسطول لم يعد الطلب على الدولارات مباشراً فانخفض السعر. وفي كانون الثاني/ يناير ١٨١٥، كان تسعة قروش. كذلك تتغير العملة الذهبية بمثل هذه النسبة.

قبل هذا الوقت كانت العملات المستعملة في الحجاز قطعاً ذهبية بندقية (نسبة إلى البندقية) أو هنغارية، ودولارات إسبانية، ونقوداً مسكوكة في القسطنطينية. وكانت العملة المصرية ممنوعة منعاً باتاً (٢٤)، وبمجيء قوات محمد علي باشا فرض التداول بالنقود المصرية كلها، حتى صارت عملة القاهرة الفضية في المرتبة الثانية بعد الدولار الإسباني. وفي الفترة الأخيرة أساء والي مصر الذي له الحق بسك النقود باسم السلطات استعمال هذا الحق. وفي سنة ١٨١٥ لزّم معمل صب النقد بمبلغ سنوي قيمته سبعة ملايين قرش، وهي بالنسبة لقيمة الصرف الحالية نحو ٢٠٠ ألف جنيه استرليني، مما يفرض على الناس ابتياع الدولار بثمانية قروش من قروشه، برغم ما يعرف عن أنه يعادل ٢٢- ٢٣ قرشاً حاليًا. ولما لم يكن له في الحجاز قدرة على تنفيذ تدابيره القسرية إلى أبعد مداها، فقد بلغ الدولار في داخل البلاد، حيث ترابط القوات التركية ١٨- ١٩ قرشاً. غير أن البدو ظلوا يرفضون أن يقبضوا القروش المصرية، حتى بمعدل مخفّض، لا يرتضون إلا الدولارات. وكثيراً ما اضطر الوالي للرضوخ إلى هذه الإرادة.

والبارة، أصغر قطعة نقد تركية. معروفة هنا بالديواني، ومنتشرة في أنحاء الحجاز كلها، ومرغوبة إلى حد كبير، لأن لها قيمة ذاتية فيها أكثر مما في القرش، مع أنها كالقرش، مسبوكة في القاهرة. وفي القرش أربعون بارة، ولكن الصرّافين لا يصرفونه أثناء الحج، حين تكون النقود الصغيرة (الفراطة) لازمة لتأمين حاجات الحجاج اليومية، إلا ب ٢٥ بارة. وفي جدة قليل من الروبيات الهندية، لكنها غير رائجة. ولم يصدف أن رأيت نقداً مسبوكاً من قبل إمام اليمن.

وفي هذا الشارع الكبير نفسه للدكاكين، هنالك عشر وكالات غاصة بالأجانب والسلع دائماً. غالبيتها كانت ملكاً للأشراف من قبل، لكنها الآن صارت ملكاً للوالي الذي يفرض على التجار أجوراً سنوية لقاءها. مثل هذه المباني تعرف في سوريا بالخانات، وفي الحجاز بالحوش، أو ما يعني باللهجة المصرية فناء أو باحة.

وفي شارع متصل بالسوق العامة الكبيرة يعيش عدد صغير من الحرفيين، والحدادين، وصانعي الفضة، والنجارين، والجزارين... إلخ. وغالبيتهم من أبناء مصر.

قطر (١٨٦٢):
بلد يعيش في المياه

بقلم وليم غيفورد بالغريف

صباح الثاني والعشرين، كنا قد استدرنا حول ركان واتجهنا جنوباً نحو البدع. وكان الخط الساحلي كلّه شديد الانحدار وإنما قليل الارتفاع. وبين البدع والرأس البحري تقوم بيوت صيادي السمك وحوالى خمسة أو ستة قرى. وقد ذهب ابن خميس، مرافقي، إلى الشاطىء لكي يقدم احتراماته إلى الشيخ ويعدّ لنا مسكناً، غير أن الوقت كان متأخراً ولذا فضلت أن أبقى على متن المركب تلك الليلة، وفي اليوم التالي عاد رفيقي لمصاحبتي وسرنا بصعوبة فوق الشاطىء الرملي إلى أن وصلنا البدع، التي هي البلدة الرئيسية في قطر اليوم.

ولقرائي الأعزاء أن يتخيلوا لأنفسهم أميالاً فوق أميال من التلال الجرداء القاحلة التي حرقتها حرارة الشمس، بلا شجرة واحدة تغيّر من هذه الرتابة المطلقة. وفي ظل هذه التلال يمتد في اتجاه البحر شاطىء من الرمال اللزجة الذي نبتت على أطرافه أعشاب البحر.

كل قرية في قطر مسوّرة بحذر، في حين أن الوهاد القريبة منها مزروعة بالأبراج، وتقوم هنا وهناك قلعة ضخمة مربعة الشكل صغيرة النوافذ، ضيقة الأبواب، تبدو وكأنها أقل ضرورة من برج لندن في القرن التاسع عشر. غير أن هذه القلاع في الحقيقة ليست غير ضرورية أبداً، لأن قطر غنية جدًّا ولا بد من أن تحرس هذه الثروة ضد غزاتها.

من أين تأتي هذه الثروة وسط كل هذا الفقر الظاهر ومما تتألف؟ الواقع أن ما أقدمت على وصفه الآن، ليس أكثر من أكواخ على أبواب منجم. وعلى مقربة منها يقع المنجم نفسه: مخزن غني لا يملّ أبداً.

وقد اعتذر عن عدم وجود غرفة مناسبة لإقامتنا في القصر نفسه، فتطلعت حولي في الأروقة الضيقة والجدران الحجرية المليئة بالثقوب، وقبلت الاعتذار. وكان ابن ثاني قد أمر بإفراغ أحد المخازن القريبة من التمور وبترتيبه على الطريقة القطرية لاستقبالنا. وقد شكرناه على ضيافته وشربنا القهوة وتحادثنا قليلاً ثم انصرفنا.

بعد ذلك أخذنا نتفقد بلدة البدع نفسها. ويقع في وسطها سوق ضيق طويل يعرض فيه بعض التجار البحرانيين بضاعتهم، أما بقية البدع فهي عبارة عن مجموعة من البيوت الصغيرة التي تفصل فيما بينها طرقات غير منتظمة. ويبلغ عدد سكانها حين يكونون على اليابسة. وهو أمر لا يحدث دائماً، حوالى ستة آلاف نسمة. والناس ليسوا غير مضيافين لكنهم ينهمكون دائماً بأعمالهم. وأخيراً فإن مواسم الغطس الطويلة وما يرافقها من صعوبات طوال أشهر وأسابيع تجعل الرجال يبدون متعبين دائماً.

قررنا أن ننوّع إقامتنا في قطر بجولات قليلة إلى الجوار. وكانت زيارتي الأولى إلى الدوحة، وهي قرية إلى جنوب البدع وفي نصف حجمها تقريباً، قائمة في خليج صغير عميق، تزيّنها تلال صخرية ترتفع خلفها على علو يراوح بين ٦٠ و٨٠ قدماً. وفي البلدة قلعتان مرتفعتان، الأولى في قلب البلدة والثانية فوق التلال.

وكانت رحلتي الثانية إلى وقرة، وهي بلدة في حجم مساحة البدع، لكنها في منطقة أعلى من الشاطىء وذات طابع أكثر بهجة. وكان شيخها شاب يدعى محمد هو أيضاً، ذكي مهذب ومضياف لكنه ليس من آل ثاني،وتبدو وقرة مليئة بالحركة في صورة عامة. والطريق المؤدية إليها خالية وجرداء قريبة من الساحل، وتبعد عنها مسافة عشرة أميال. قمت برحلتي على ظهر حمار، ويبدو أن هذه الدواب هي الوسيلة المثلى للانتقال في الرحلات القصيرة. ولم آخذ معي أي رفيق، لأن الطرقات الساحلية آمنة جدًا وحركة العمل عليها كثيرة.

كان قاسم، الابن الأكبر لمحمد بن ثاني وخليفته، غائباً عن البدع، في رحلة قنص على بعد ١٢ إلى ١٤ ميلاً في الجنوب الغربي. وقد استأجرنا بعض الجمال وانطلقنا في مرتفعات صحراوية وطرق مليئة بالحصى. وسررنا بمجموعات من النساء يسعين إلى المياه في الآبار البعيدة، ورأينا قطعاناً من الأغنام أو بالأحرى من الماعز لأنها من النوع الهجين، وكان يحرسها عدد كبير من الرعاة. وبين حين وآخر كنا نرى مسافراً يحمل رمحه على كتفه ضد أخطار الصحراء، لا أشجار، القليل من العشب، وريح باردة حادة من الشمال.

أخيراً وصلنا إلى البقعة التي ننشدها، وهي واد متعرّج معشب ترتفع حوله تلال

صغيرة «على حافة البرية الصارخة». هنا، في الخيام، كان الشيخ الشاب مع رجاله يتقفون الحجال وطيور الفري التي لم يصطادوا منها سوى القليل، كما كانوا يتطلعون إلى الأرانب التي تكثر فوق برّ الجزيرة العربية.

كان مع قاسم حوالى ٢٠ خيّالاً وعدد من الصقارين وحوالى تسعة صقور جميلة بالإضافة إلى كلبين سلوقيين. بقينا حوالى نصف يوم مع حاشية سعيدة وتمتعنا بنوع من النزهة العربية التي كان الأكثر إثارة فيها صيد الصقور.

صباح اليوم التالي استأذنّا قاسم بالانصراف وعدنا بالطريق التي جئنا بها، لكي نأكل السمك ونشرب القهوة مع الشيخ ابن ثاني. وانتظرنا يومين آخرين أن تهب رياح مؤاتية قبل أن نكمل رحلتنا إلى عمان.

كان قبطاننا مستعدًا للسفر ومعه بحارته. وفي السادس من شباط/ فبراير فيما وعدنا مساء جميل بغدٍ هادىء، هبّت رياح غربية ناعمة تؤكد لنا سلامة الإبحار نحو الشارقة، فقمنا نطلب الإذن بالانصراف من الشيخ محمد بن ثاني الذي أصبحنا على علاقة صداقة معه الآن، وودّعنا ثلاثة أو أربعة من الأصدقاء الذين تعرفنا إليهم في البدع، وسلمنا أنفسنا إلى مركب صغير، نقلنا فيه قبطاننا فارس إلى السفينة.

جدة (١٨٥٧): ذات صباح، في الميناء، العلم الفرنسي

بقلم شارل ديديه

حسبت أن مدينة جدة ستكون حفرة كما صُوِّرت لي مراراً في القاهرة ولكم كانت دهشتي كبيرة حين لقيت مدينة جميلة، حسنة البناء حيّة، آهلة بالسكان مهذبة الطرق وأهلاً بمكانتها كميناء لمكّة. وليست أقل من ذلك شأناً في حملها اسمها الذي يعني بالعربية «الثرية». تحميها من جهة البحر، إضافة إلى المياه الضحلة وتلال الرمل التي تتخلّلها، قلعة ومدافع، يبث أحدها، وهو من عيار خمسمئة، الرعب في نفوس البدو، ويحيط بالمدينة من الجهات الأخرى سور عريض حصين مرتفع تعلوه أبراج متينة ويتقدمه خندق. قد لا يستطيع تحصين كهذا الصمود في وجه نيران المدفعية الأوروبية ساعة واحدة، لكنه كان كافياً في الحروب المحلية. تخترق هذا السور أبواب ثلاثة: باب اليمن جنوباً، وباب المدينة شمالاً، وأخيراً باب مكّة. أجمل الأبواب الثلاثة، يحرسه برجان قليلا الارتفاع حديثا النقوش عند قمتيهما.

تبعد جدة مسافة خمس عشرة إلى ست عشرة ساعة عن مكة المكرمة وتضم خمسة عشر ألفاً إلى عشرين ألفاً من السكان وتقسم إلى قطاعين كبيرين، حيّ اليمن والحي السوري وقد سمّيا كذلك نسبة إلى موقعهما الجغرافي فالحي السوري يقع شمالاً باتجاه سوريا، والآخر في الوسط باتجاه المقاطعة العربية ويحمل اسمها. في المدينة كذلك دساكر أخرى يتحدّر ساكنوها من أعراق مختلفة وتنشب بينهم صراعات طاحنة. وتنتهي شوارعها العريضة النظيفة إلى حد ما. إلى ساحات فسيحة أحياناً حسنة التهوئة تشكل رئات المدينة. منازلها المتينة المتعددة الطوابق وذات الأبواب الفوطية الأقواس مبنية من الحجارة وهي جميلة المظهر الخارجي تتخللها نوافذ خارجية وهو أمر يندر وجوده في البلاد الإسلامية حيث الحياة العائلية تحول دون

تسرّب ضوء النهار أو الحياة أو الجلبة أو النظرات المختلسة، وتخلو هذه النوافذ من الزجاج، لكنها تسدّ عند فتحها بشباك خشبية دقيقة التقطيع تسمح بالرؤية من الداخل لكنها تحجب الرؤية من الخارج. وهذه الوشائع الخداعة الناتئة والمقوسة كشرفات القاهرة المسماة (مشاربية) مطلية بألوان زاهية تختلف تماماً عن لون الجدران الأبيض. وتحيط بالعديد من الشرفات سياجات أنيقة نفلية الزخرفة. أما بعض الشرفات الأخرى فتعلوها أكشاك كبيرة من الخشب المحفور كالنوافذ حيث تستمتع النسوة بالهواء العليل من دون أن يظهرن للعيان. ويقضي السكان أوقاتاً طويلة على الشرفات لأن نسائم البحر تلطف حرارة القيظ التي لا تطاق أحياناً كثيرة صيفاً.

تمتد السوق بطول المدينة بكاملها وبخط مواز للبحر الذي يتصل بها عبر طرق جانبية، وهي ملأى بكل أصناف البضائع الأجنبية بغالبيتها، وبالأطعمة المحلية أو الغربية. أما دمشق وبغداد وبلاد فارس ومصر وبخاصة الهند فتتمثل بمنتوجاتها الطبيعية أو المصنعة. وتشهد السوق حركة ازدحام دائمة وليس من السهل على المرء أن يشقّ طريقه بين بالات البضائع والجمال والحمالين. وكذلك الكلاب المتسكعة المسالمة جدًّا والتي تسعى إلى قوتها وسط هذا الازدحام. أما حمالو السوق والميناء فيكادون يكونون جميعهم نوبيين أو جبليين محليين يسمّون (الهدهرم) وهم عامة وسيمو الطلعة أشداء شبه عراة وتتميز بشرتهم الناعمة اللماعة بسمرة شديدة. ونرى كذلك بعض الزنوج الأصليين الوافدين من أصقاع قريبة من خط الاستواء، لكن هؤلاء بعكس أولئك أحرار ويتقاضون بدلات مرتفعة لعملهم. وتكتسب هذه السوق الواقعة بين إفريقيا وآسيا أهميتها بتنوّع الأعراق فيها متفاوتة بين الزنوج الأدنى اعتباراً وصولاً إلى العرق القوقازي المتمتع بالحظوة، فينتج عن ذلك تباين شاسع في اللغات: عرب المدن والبادية، تجار مسقط والبصرة، أتراك، سوريون، يونانيون، مصريون، برابرة، أعداد كبيرة من الهنود، ماليزيون وحتى يابانيون وجميعهم يرتدون أزياءهم الوطنية وينطقون كل بلسانه الأصلي، ويتزاحمون ويتقاطعون ويتصادمون أو يجلسون في المقاهي للتداول في أمورهم الخاصة.

وفي جدة كذلك حرفة نحت الأحجار المزعومة بأنها كريمة برغم كونها ليست بذات قيمة كبيرة، ومن بينها الحجر المدعو حجر مكة من بلاد «عقيقة» وهو ليس بحسب ظني سوى العقيق وتصنع منه خواتم مؤطرة بالفضة غير متقنة والمسابح التي تستهوي الحجاج وتصنع كذلك مسابح من المرجان الأسود ويدعى بالعربية (يُسر) وهو متوافر في الخليج العربي ويتم جنوبي جدّة اصطياد أفضل أنواعه المعروف بصلابته وتألقه.

عرفت جدة، شأنها شأن مكة. والمدينة بكونها مدينة مقدسة وكالمكيين يحمل كل المولودين بين هذه الأسواق ما يسمى بـ (المسالي) وهي ندوب بليغة توسم على وجه واحدهم ما إن يبلغ يومه الأربعين، ثلاث على كل خدّ واثنتان على كل صدغ، فتلازمهم الندوب طوال حياتهم مما يدعو المؤمنين إلى تخصيصهم بالتوقير. إن هذه الندوب المقدسة في الإسلام هي موضوع افتخار من كرموا بحملها.

لم يزعجني في جدة سوى المتسوّلين الذين يتكاثرون في كل أحياء المدينة، ويكادون يكونون جميعهم من الهنود. وقد أتوا من بلادهم للحج ولم يتوفر معهم المال الكافي للعودة وانقطعت عنهم الموارد فألقوا بأنفسهم على عاتق الناس. حال الفقر هذه طاولت الكثير من الحجاج المصريين والنوبيين وبخاصة زنوج السودان، لكن هؤلاء يعملون بشجاعة لكسب المال الكافي للعودة إلى أوطانهم إلا أن الأكثر كسلاً وبلادة يفضلون الاتكال على الحسنات ويؤثرون قضاء حياتهم في المنفى على القيام بأبسط الأعمال. لكن نزراً يسيراً منهم يتجه صوب الوظائف القليلة العناء. وقد وظفت خلال إقامتي في المدينة خياطاً من كشمير يتحلّى بمهارة وصبر عظيمين. أثارت موجات الهجرة السنوية هذه استياء الحكومة البريطانية لكن سياستها لا تسمح لها بمضايقة المسلمين أثناء ممارستهم شعائرهم الدينية واكتفت بإلزام قباطنة السفن التجارية مسؤولية إعادة الحجاج الذين جاءوا بهم إلى جدّة، فكان من ذلك رفض استقبال هؤلاء على متن أية سفينة ما لم يثبتوا أن باستطاعتهم تأمين نفقات الإياب.

يحصر سكان جدة اهتمامهم بالتجارة التي تؤمن لهم سبل الثراء. فهم، وغالبيتهم من مشارب مختلفة، محنكون ومتوقدو الحركة ويتمتعون بفكر يتناقض والبلادة الظاهرة الحمقاء التي تسم الكثير من الشرقيين الآخرين وبخاصة الأتراك. أما بشرتهم فهي شديدة السمرة ويولون اهتماماً بالغاً بمظاهر الزينة شأنهم شأن المكيين. ولباسهم الرجالي والنسائي موحد: ثياب داخلية من الحرير المخطط بالألوان الفاقعة يشده إلى الخصر حزام من الكشمير، وللخروج، يرتد من فوقه مبذلاً مفتوحاً من القماش الرقيق تدعى «الجبة» وتختلف تبعاً لاختلاف فصول السنة، وهذا المبذل يضع عادة في بغداد. وتغطي رؤوسهم قلنسوة بيضاء فاخرة التطريز تطوقها عمامة من نسيج الموصل، أما أبناء العامة فلا يرتدون سوى قميص طويلة خشنة النسيج.

أما النساء فلا أستطيع أن أقول عنهم شيئاً لأني لم أر أية واحدة منهن. ما أعرفه فقط هو أن بشرتهن أقل سمرة من بشرة الرجال، وأن عمرة رؤوسهن شبيهة بعمرة الرجال مع فارق أنهن يزينّ شعورهن بجداول من النقود الذهبية. أما نساء العامة وهن الوحيدات

اللواتي يجبن الشوارع. فإنهن محجبات تماماً ويتوارين خلف كسوات من القطن الأزرق، أما الموسرات فيرتدين سراويل عريضة زرقاء مطرزة بالفضة وأثواب فاخرة من الحرير الهندي. وحين يخرجن، وهن نادراً ما يفعلن، فإنهن يغطين وجوهن بخمار أبيض أو أزرق باهت يسمى «البرقع» ويتلفّفن بعباءة واسعة من قماش التفتا الأسود المعروف لدى المصريين باسم (الهبرة). وهنّ، ككل النساء الشرقيات والغربيات على السواء، مولعات بالحليّ ويتزينّ بالخواتم والعقود والأساور وكلها من الذهب ويمنطقن كواحلهن بحلقات من الفضة. هذه هي أزياؤهنّ الخاصة بالاحتفالات. أما بداخل دورهن، فقد أكّد لي أنهن خفيفات الملبس وبخاصة الرقيق منهن.

لم أفعل حتى الآن سوى الحديث عن حسنات جدّة. هاكم الآن الوجه الآخر لهذه المدينة: ماء الشفة نادرة فيها وهواؤها سيء صيفاً فهو حار ورطب في آن ويسبّب تكاسلاً في الأعصاب وبلبلة في كامل الجسم، وبخاصة نتيجة الريح الجنوبية. ويصعب على العديد من الأجانب، وحتى من السكان الأصليين التكيّف مع هذا المناخ. فالإسهال وشتى أنواع الحمى المقلعة وتلك الناتجة عن انحلال الجثث تكاد تستوطن هذا الشاطىء حيث الأوبئة الأكثر تفشّياً في كل الجزيرة العربية. وأنا نفسي عانيت عدة أيام من هذا المناخ الخبيث. وقدرت من عينة كهذه ما ستؤول إليه الحال في قيظ الصيف. ففي منتصف شباط ارتفعت الحرارة إلى ٢٣ درجة، وهبت من الجنوب ريح مجنونة تنفث ناراً بدلاً من الهواء. وكان الجو من الثقل حتى أنه كاد يسحقني وشق عليّ السير، وكان جسمي غارقاً في نداوة لا تطاق. وكان الزجاج والبعوض شديدي الإزعاج. أما الطيور الأخرى في جدة فهي البزاة الوافرة في كل المدن العربية.

إذا خرجنا من المدينة عبر باب مكة نصل إلى مخيم إفريقي حقيقي. فالنوبيون، عمّال المرفأ والسوق، وبعض عائلات المدينة المعوزة التي حرمها الفقر المدقع امتلاك مأوى لها بين الأسوار، يقطنون أكواخاً من القش أو من سعف النخيل عند حدود الصحراء وما هذه الحدود إلا باب المدينة عينه مثل ينبع وطور والسويس. وتقطن كذلك هذه الأكواخ النساء الحرات اللواتي ينتمين إلى أسفل السلم الاجتماعي. وهم، إلى جانب عملهم المعتاد، يهتمون ببيع الخشب والخضار وترتيب أسواق للمواشي. وثيران المدينة ذوات الحدبة صغيرة جدًّا وباهظة الثمن ويباع واحدها بستة (تالاري) فيما لا يبلغ ثمنه في (مصاوع) سوى تالاري واحد، وليس بعيداً من هنا، نجد عند اقترابنا من باب المدينة ثكنة كبيرة بناها محمد علي. وكان قائدها، إسماعيل بك، وهو بكباشي تركي يبزّ زميله في سيناء لباقة وتهذيباً، وقد أحاطني بحفاوة بالغة معززة

بالقهوة والغليون. أما طواحين الهواء التي شيّدها محمد علي في مكان قريب خصيصاً لجنوده والتي هجرت مباشرة بعد رحيله وكأنها ابتكار أوروبي، فتستغل اليوم مراكز للعساكر غير النظاميين.

كان منزلنا قريباً من ذلك الباب، في الجهة العليا من الحي السوري. وللمسافرين في جدة خانات أو نزل حيث يجدون موادع لأمتعتهم أو لبضائعهم ولأنفسهم جدراناً أربعة لغرفة خالية تماماً. لكن هذه المثاوي محصورة بالتجار، وكوننا لسنا تجاراً ولا نسعى إلى الظهور بهذا المظهر فقد حللنا في منزل كان يقطنه فيما مضى قنصل لفرنسا وبات اليوم خربة تعشّش فيها الطيور. كان مالك المنزل في مكة، ولم يشأ وكيله أو أنه لم يجرؤ على تأجيره أثناء غياب سيّده. فأراد أن يبعث إليه بمرسال للحصول على موافقته، لكننا كنا في عجلة من أمرنا، وفيما هو تتقاذفه الحيرة ويطلب وقتاً للتفكير أقمنا في المنزل بصورة مؤقتة دامت حتى ترحالنا عن جدة، وكان ذلك شهراً بكامله. وبما أننا لم نتفق على أي بدل إيجار، فقد دفعنا عند مغادرتنا خمس تالاري فاعتبر المبلغ بدلاً مناسباً وحتى كبيراً بعض الشيء نظراً إلى حال المنزل. لم يكن من السهل إزالة الركام والأنقاض التي كان داخل المنزل يعج بها. أخيراً نجحنا في جعل غرفتين قابلتين للإقامة تكدّست فيهما أمتعتنا وسجادنا وأرائكنا وفرشنا. واستولى طاهينا (غاسبارو) على المطبخ الكائن على الشرفة، واتخذ الخدم الآخرون أمكنة حيث تيسرت لهم وكيفما تيسّرت لهم. وها نحن نرتع وسط أثاثنا كالبورجوازيين في منازلهم الدائمة.

كانت غرفتي في الطابق الثاني وفيها نافذة كبيرة الحجم نائتة، موصدة أو ربما يفترض بها ذلك بشباك مصاريعه بالغة التعقيد كانت تدع المجال طليقاً للهواء والغبار ونور الشمس والعصافير، لأن الغرفة كانت ملأى بالأعشاش. إليكم ما كنت أراه وأسمعه من الغرفة كل يوم وكل ليلة. في البدء كانت عيناي تقعان على امتداد شاسع من البحر يختلط بآخر تخوم الأفق في السماء لا ترصع لازورديته سوى أشرعة قلائل. وبالعودة إلى البرّ، كان نظري يشرف على كل الجهة الشمالية من المدينة، على السوق حين كنت أسمع جلبة الناس والجمال، وعلى الشرفة حين كنت أبصر ليلاً أطياف النساء، وعلى المساجد التي تعلوها مآذنها.

قريباً من منزلي كانت ترتفع مئذنة ممشوقة، أنيقة مزينة بشرفتين خارجيتين كان يردّد منهما مؤذن شيخ دعاءه خمس مرات في اليوم: صلاة الفجر قبل طلوع الضوء وصلاة الظهر ظهراً وصلاة العصر عند الساعة الثالثة وصلاة المغرب عند المغيب

وصلاة العشية بعدها بساعة، وعلى المؤمن التوضؤ قبل كل صلاة من سوء الحظ أن جاري المؤذن كان ذا صوت حاد مرتعش. وكنت أتذكر عند سماعه ساكن القاهرة القديمة الذي عرفته وكان أحد المؤذنين وهو ذو صوت خلاّب. وبقرب المسجد كان هنالك منزل يتصل به ويقيم العلماء فيه. وكانت تقام فيه كل مساء وحتى وقت متأخر من الليل احتفالات دينية كبيرة تتخللها ترانيم وصلوات وعظات وجميعها في إطار موسيقي خلاّب، على أنغام النايات والطبلات. وفي مكان قريب كانت تقام مهرجانات من نوع مختلف تماماً إذ يمضي أهل السودان العائدين من موسم الحج الأخير في مكة، لياليهم في الغناء والرقص بحسب عاداتهم، وكان غناؤهم ورقصاتهم يروضون بالفكر عميقاً في قلب القارة الإفريقية.

وكل صباح في الساعة عينها، كانت غجرية شابة جميلة جدًّا من أسيوط في مصر، أصيلة العرق الغجري تمرّ تحت نافذتي وهي تردّد بصوت عذب وناعم حداء حزيناً كانت تكرره كل يوم أضفت إليه رتابته مزيداً من الكآبة والغم. ولم يختلف اختلاج قلبي للحداء في اليوم الأخير لإقامتي عمّا عرفته في اليوم الأول. وفي المساء، كان الدور يؤول إلى متسول هندي ينام على حصيرته غند زاوية الطريق ويغني هو الآخر في الغربة أغاني بلاده. وكان غناؤه يدوم حتى وقت متأخر من الليل فيحرمني النوم غالباً لكن لذة سماعه كانت تجعلني أغفر له سهادي. ثم كان هنالك على الدوام صدى «الترابوكا» يتردّد طوال اليوم في مختلف أرجاء المدينة والأبواق العسكرية وطلقات البنادق التي لا تنقطع ودوي المدافع على شرف الانتصارات ضد الروس سواء كان ذلك حقيقة أم لا، وألف صوت، باختصار ألف ضوضاء متضاربة شبيهة بالهمس البعيد للمحيط، الذي كان يطغى بصوته العظيم على كل الأصوات أحياناً.

رأيت ذات يوم عبر نافذتي مركباً آتياً من الجنوب يلج المرسى. وظننتني رأيت بمنظاري أنه ينقل حمولة بشرية. وقيل لي في الواقع إنه ينقل من «مصاوع» حمولة عبيد من الجنسين. وإن بين النساء امرأة تكاد تكون بيضاء برغم أنها حبشية، مما أثار فضولي لرؤيتها لكنها كانت قد بيعت من تركيّ من «ديوان» يمتّ بصلة نسب إلى الباشا، افتتن بلونها الفاتح فاشتراها على الفور بثمن باهظ. فقد ندر الرقيق الأبيض كثيراً اليوم في أسواق الشرق ولم يعد يعرض سوى في القسطنطينية أحياناً لأنه لم تعد من ثروات ضخمة تستحق ابتياعها سوى في تلك المدينة. امرأة كهذه هي نزوة توازي عشرين إلى ثلاثين ألفاً من الفرنكات، وحلى كهذه ليست في متناول كل الميزانيات. أما كبرياء النساء فلا يطاق فهن إذ يعين أنهن مخصصات للأسياد ذوي النفوذ والمركز الكبيرين، يعاملن بقية البشر بازدراء تام. والويل لمن تسول له نفسه من الأفراد العاديين

رغبة اقتناء امرأة منهن فهو لا يعتم أن يغمره الندم ويضطر إلى إعادة بيع بضاعة صعبة المراس ومغرورة كهذه.

كانت للجلاب رغبة كبيرة في بيع الفتاة ميّ، ولم يكن يجهل أن الفرنسيين لا يمكنهم شراء العبيد سوى بهدف إعتاقهم، وأن كل عبد يتحرر عند شراء الفرنسيّ له. طلب سعراً لفتاته بلغ ١٢ كيساً أي ما قيمته ١٥٠٠ فرنك ثم خفض السعر إلى ثمانية أكياس لإغرائي. خطرت لي فكرة القيام بعمل صالح، لكنني لسوء الحظ التزمت مبدأ الديبلوماسي الذي يوصي بعدم القيام بالخطوة الأولى لمجرد أنها صالحة، وقلت لنفسي معتمداً على حساب شخصي صحيح أنني إذا رحت أعتق العبيد فإن ما أحمله من مصروف السفر سينضب بسرعة. ووردت لرفيقي الفكرة عينها، ولكن بهدف أقل برًّا: «كاريتا بيلوزا» أي «....» كما يقول الإيطاليون. وسواء كان صالحاً أم سيئاً فإن مشروعه بقي كمشروعي مجرد فكرة لم تجد لها منفذاً إلى الواقع وبيعت الإفريقية ممن لا أدري من هو. أين هي الآن؟ وفي أية أياد وقعت؟

لا شك أن العبودية تعسّف مثير للحنق فهو يذلّ الطبيعة الإنسانية ويولد الكثير من الانحراف في السلوك، لكن يجب الإقرار بأن مصير هؤلاء الحبشيات ليس مصيراً يرثى له كما يبدو للوهلة الأولى. فبتعينهن من الحريم يصبحن جزءاً من العائلة ويحيين الظروف نفسها التي تحياها سيّداتهن. من الشائع أن السيد يهتك عرض عبداته فيحرّم هو بذلك على نفسه حق بيعهن من جديد. لأن المسلم يجلب العار إلى نفسه إذا باع امرأة ساكنته. ودرجت العادة، وبخاصة في مدن شبه الجزيرة العربية أن يتزوج.

كانت نافذتي منظرة أطل منها على مرسى السفن بكامله ولم يكن يدخل إليه أي شيء أو يخرج منه بغير علمي. بالإضافة إلى المراكب المحلية التي كانت تروح وتجيء كل يوم، كانت تصل عدة قلعيات أو سفن ثلاثيات الصواري من الهند محملة بالسكر والأرز. وذات صباح، لذّني أن أفاجأ برؤية العلم الفرنسي المثلث الألوان يرفرف على سفينة حربية وصلت ليلاً. كانت الحرّاقة «لوكايمان» بإمرة القبطان (كورمييه) من محطة الهند وفي مهمة استطلاع في جدة. وكانت تحمل على متنها إلى جانب طاقمها المعهود، مئة مدغشقري، تطوعوا مؤقتاً في جزيرتهم للخدمة على السفينة، فأضفوا عليها طابعاً متوحشاً بعض الشيء على رغم أنها تتميز بالترتيب التام. عرف الفرنسيون الذين جمعتهم الصدفة في جدة بوصولها فتصادقوا منذ الساعة الأولى. تناولت الغداء مرات عدة على متنها وتناول قائدها وطبيبها الغداء في منزلي وأقيم في القنصلية الفرنسية حفل عشاء رسمي كبير كانت مهمة التشريفات فيه من نصيبي

بسبب مرض القنصل. وهذه التفاصيل الصغيرة التي لا تعني شيئاً في أوروبا تصبح ذات قيمة على بعد من فرنسا فالمسافة تضفي جمالاً على أكثر الأمور تفاهة.

كانت الحرّاقة «لوكايمان» راسية بعيداً جدًّا من المدينة وذلك بناء على اقتراح السلطات المحلية. في الحقيقة أظن أن الباشا كان يخشى هجوماً عسكريًّا مفاجئاً، وأن ضجة المياه الضحلة لم تكن سوى ذريعة وجاءت زيارته السفينة التي رافقتها أبهة كبيرة ردًّا للياقة ليس إلا، بعد أن بادر قائد السفينة إلى زيارته كما يقضي الواجب. وأطلقت طلقات المدافع التقليدية في وقت واحد من كلتا الجهتين، بحشوة مضاعفة أكثر منها مخففة. رست الحراقة طوال أسبوع، ويوم رحيلها، واكبتها ستة أميال وعند عودتي إلى البر مع الملاّح الجداوي الذي أخرجها من المضيق عانيت كثيراً من الحرارة الخانقة ومن ترجيع البحر حدة اللهب. فقد كان البحر ساكناً وباهتاً ذلك اليوم كبقعة زيت. شدد القبطان الطيب على رغبته باصطحابي إلى «بوربون». وكان الإغراء كبيراً بالنسبة إلى مسافر مثلي، لكنني لو أذعنت له لما طالت بي المسافة بعيداً، إذ لم يمض وقت طويل حتى تحطمت «لوكايمان» على شاطىء «زيلا».

كان للقوتين العظميين الأوروبيتين، فرنسا وإنكلترا وحدهما قناصل في جدة. كان قنصلنا ويدعى (روشيه ديبريكور) رجلاً على عتبة الموت، وسوف يتسنى لي لاحقاً الحديث عنه قليلاً، أما السيّد (كول) القنصل، أو نائب القنصل الإنكليزي فهو كزميله في السويس، الوكيل التجاري لشركة الهند بالإضافة إلى منصبه الديبلوماسي. ولم تكن وظيفته منصباً بلا عمل وذلك بسبب العدد الكبير من الهنود والرعايا الإنكليز القاطنين في جدة. وهذا لا ينطبق على زميله الفرنسي الذي لا يملك في كل الحجاز مواطناً واحداً له. ومن المفيد معرفة أن الباب العالي اعتذر عن قبول أوراق اعتماد القنصلين بداعي أن جدة هي مدينة مقدسة. كان منزلنا محاذياً لمنزل السيد (كول) وأقمت عنده قدر ما أقمت في منزلي. كنت قد جئت له برسائل من صديق مشترك لنا، السيد (بورتن) وغمرني بطيب معاملته طوال مدة إقامتي.

لم نأت إلى جدة لأجل جدة نفسها، بل بنيّة المضيّ قدماً حتى الطائف وهي مدينة صغيرة تقع على مسيرة خمسة أيام إلى داخل البلاد وتشتهر في شبه الجزيرة بوفرة مياهها وجودة فاكهتها ونضارة جنائنها. وهي مقر إقامة الشريف الأكبر أمير مكة الذي ابتنى لنفسه فيها قصراً. ونظراً إلى كوننا مسيحيين لم يكن بوسعنا الشروع في الرحلة من دون موافقته. هذه الموافقة طلبها منه السيد (كول) بواسطة (مصطفى أفندي)، وكيل الأمير في جدة، ولم يعتم أن وصل الجواب: قال الشريف الأكبر إنه يرحب

بزيارتنا بكل سرور، وإن ليس علينا الاهتمام بشؤون ذهابنا أو إيابنا، فهو سيرسل إلينا جماله ورجاله لاصطحابنا إلى الطائف ثم لإعادتنا إلى جدة. وردتنا هذه الإجابة الفاضلة في ١٧ شباط/ فبراير وبرغم استعجال الشريف الأكبر في تنفيذ وعده، فقد كان أمامي أسبوع من الانتظار. كان يجب ملء الفراغ في هذا الأسبوع، ولكن كيف؟ لم يعد لدي ما أراه في جدة. قال لي سكان المدينة: «الجأ إلى القف» فكنت أجيبهم: حسناً، «لكن أيمكن اللجوء إلى القف طوال ثمانية أيام؟». سأقول لكم ماذا يعني اللجوء إلى القف.

حين ينتهي الأعرابي من أعماله، مهما كانت. ويخلص نهاره، ينكفىء إلى حريمه، وينزع عنه ثوب المدينة، ويرتدي ثوباً خفيفاً، ويأخذ نارجيلته ويجلس متربعاً على ديوانه حيث يستغرق بدون شعور وهو يدخن في نعاس جسدي وروحي هو بين النوم واليقظة من دون أن يكون أيّا منهما. ولا يجرؤ أحد في العالم حتى ولا زوجته أو عبدته المفضلة على تعكير هذه الهنيهة الارتسامية. وليست هذه الحال المتداخلة الواقعة بين الوجود واللاوجود، التي لا تحديد لها ولا يفهمها الأوروبي، سوى إدراك للحكمة الشرقية أو تطبيقها، تلك الحكمة القائلة بأن القعود أجدى من الوقوف، والاستلقاء أجدى من القعود، والنوم أجدى من الاستلقاء، والموت أجدى من النوم. إلا أن هذا الوضع ليس الموت: إذ إن المرء لا يفكر ولا يشعر ولا يحلم ولا يحيا، لكنه يتنفس ويكون على طريقة النباتات. وأمر كهذا بالنسبة للأعرابي هو الخير الأعظم والمذاق الأول للغبطة الأبدية. هذا هو اللجوء إلى القف، لكن الأتراك، وبخاصة الأثرياء منهم، طبعوا لذة الجسد والروح الفائق الوصف هذه بالنزعة المادية وأفسدوها بإضافتهم الشراب إليها حيث ينغمسون في الشرب حتى يثملون فلا بدّ لهم حينئذ من الاستسلام لنوم البلاهة العميق تتويجاً لهذا القفّ الذي لا يليق باسمه. فنفهم من كل ما سبق أن من المستحيل حتى بوجود أقوى الإرادات في العالم اللجوء إلى القفّ أسبوعاً بكامله. بعد أن استنفدت كل معالم جدّة حيث لم يعد فيها ما يثير فضولي على الإطلاق، وغاب عني كل جديد في الأشياء انقلبت إلى البشر وإليكم الآن أوصاف بعض الذين عاشرتهم لقتل الوقت حتى يحين موعد رحيلي إلى الطائف.

كان الباب العالي يرسل إلى المدن المقدسة ومن ضمنها جدة، باشا بثوب ثلاثي الأذيال تقديراً منه لقداسة المدن. لكن بعد نقض هذا التنويه وسط أسف عامر، فإن جفتلك (ولاية الباشا) مهد الإسلام، بقي يحتل المرتبة الأولى في الإمبراطورية العثمانية والموظف الكبير الذي يتبوأه لا يتلوه في المقام سوى الوزير الأكبر. ويبلغ مرتّبه السنوي مليون ومئتي ألف قرش. قد يبدو من البديهي أن يجعل إقامته في مكة لكنه لا يزور

حاضرة الإسلام سوى نادراً وزياراته للمدينة أكثر ندرة حتى. ويجعل إقامته الدائمة في جدة لأن هذه المدينة هي مقرّ الجمارك التركية والمورد الأساسي والوحيد ربما للمدخول القومي للحجاز. وكأنه حسبما يقول الأب (ترابي) إنه لا يمكن أخذ شيء إلا من مكان وجوده، فإن الباشاوات يغرفون من جدة ملء أيديهم. فحيث يكون كنز التركي، يكون قلبه وذاته.

قمت بزيارة الباشا في اليوم الذي تلا وصولي إلى المدينة، لكن ذلك كان بعد عدة ساعات من الإعلان عن قدومي كما درجت العادة عند ذوي الشأن الذين يتوقعون احترام الآخرين لهم. وكان الاستقبال من أكثر الاستقبالات التي عرفتها كياسة: عساكر عند الباب وعبيد وحشم منتشرون عند الدرج وفي المدخل، غليون وقهوة وشراب وشاي وحلوى وكل ذلك يؤمر به بصوت عال حسبما تقتضيه أصول اللياقة المثلى في الشرق حتى يتسنى للجميع سماع ما سيرد الزائر من مظاهر الحفاوة. ولم يخل الاحتفال من أي تفصيل. فقد أتى الباشا بنفسه لملاقاتي عند باب غرفة الجلوس وأدخلني إلى مقصورة تطل على البحر وتزخر بالسجاد والدواوين والأرائك أي بكل وسائل الراحة في البلاد. أما قنصل فرنسا فهو طريح الفراش والذي منعه مرضه من مرافقتي، فقد مثله رسميًّا الترجمان المستشار في القنصلية، السيد (دكيي) الذي رغب في ترجمة اللقاء وقام بذلك بوافر من الفضل والذكاء.

كان الوالي ويدعى (عصمت عزت باشا) رجلاً مليئاً بالحيوية، مثقفاً بالنسبة إلى الأتراك، شاعراً حتى، ويميط اللثام بكل سرور عن معرفته. دار الحديث طبعاً حول الحرب التي كانت قد اندلعت وطلب إحضار خرائط جغرافية تركية لتتبع التعلميات التي طلبها منّي. بدوري جعلته يستفيض في الحديث عن البلد المولّى عليه. وهذا ما كان يهمني أكثر. ومنه استقيت المعلومات التي ذكرتها آنفاً كما أوفاني بمعلومات أخرى أشك في صحتها: «فهو مثلاً يرفع عدد سكان مكة إلى مئة ألف وليس فيها سوى نصف هذا العدد، وإلى عشرين ألفاً، عدد سكان هذه المدينة الذين تعيلهم اسطنبول وعلمت منه كذلك أن إحدى أرامل الملك (لاهور رونجيب سينغ) جاءت إلى المدينة بعد وفاة زوجها وتعيش على نفقة شركة الهند وتمارس كل فضائل التقوى الإسلامية.

القوافل الثلاث الكبرى التي تقلّ الحجاج سنويًّا إلى مكة تأتي من القاهرة ودمشق وبغداد. وهذه القوافل جيوش حقيقية وتتحلى بكل مظاهر الجيوش إذ يرافقها جنود وتعززها بعض المدافع المحمولة على ظهور الجمال. العادات الشائعة عن البدو

المنتشرين في هذه الأصقاع تجعل هذه الاحتياطات أمراً ضرورياً. وتمارس هذه القوافل التجارة في وقت واحد مع أدائها الفرائض الدينية: فهي تحمل في حلها في مكة وترحالها عنها بضائع من كل الأصناف. أما المغاربة أو البرابرة فقد أصبحوا يأتون بحراً. وهم ينزلون في الإسكندرية ثم يبحرون في نهر النيل صعوداً حتى «كيني» ومن هناك يعبرون إلى «قصير» حيث يعودون لركوب البحر الأحمر وصولاً إلى جدة. أما عرب السودان المسلمون فيقومون بالرحلة سيراً على الأقدام عبر الصحراء الشاسعة، فالمشقات التي يعانون والأخطار التي يواجهون تعزز من قيمة فريضة الإيمان التي يؤدونها مرة في حياتهم على الأقل.

أصبح الحج إلى مكة عملاً فائق الشهرة. لا يزال الفقراء أو ذوي الحال الرثة يفون فريضتهم التقية هذه بأعداد كبيرة. لكن الأثرياء تخلّوا عن ذلك سواء بسبب فتور الإيمان أو البخل وما عاد أحد يرى أن سيّداً من الأسياد العظماء في الماضي يرد من أي صقع من البلاد الإسلامية، أولئك الأسياد الذين كانوا يظهرون في هذا الظرف جلالاً وقوراً وصياماً طواهما النسيان. إلا أنه وخلال الحج الأخير، أتت من أعماق بلاد فارس امرأة عظيمة، أرملة كما أظن، سافرت تواكبها مظاهر الأبهة المعهودة في بلاد فارس كما في اسطنبول وبقية بلدان الشرق المسلم. وكان خصيّ أسود ألحق خصيصاً بشخصها يقوم لديها بمهمة المدير والقيم. وأتت الحاجة الشهيرة عن طريق مصر حيث أعطاها قنصل بريطانيا العظمى العام، ولا أدري لأي غرض، رسالة توصية إلى السيد (كول) الذي لم يتصل بها سوى بواسطة رجل ثقتها الخصيّ.

بعد الباشا، كانت الشخصية الرسمية الأولى التي تعرفت إليها بدافع الحشرية هي «كرد عثمان آغا» الذي يشير اسمه إلى بلاده ووظيفته فقد ولد في كردستان وكان سنجقاً أي قائداً لفرق الخيالة غير النظامية التي يبلغ عددها بين ألف وألف ومئتي رجل والتي تعسكر على عدة فراسخ خارج مكة والمستعدة دوماً للعصيان لأنها لم تكن تتقاضى أجراً. وكانت قد وقعت حوادث شغب كثيرة وكان الجميع يترقبون انتفاضة عامة إن لم يصل المال من اسطنبول على وجه السرعة. وهؤلاء الفرسان المرتزقة المدعوون «باشي بزق» وتعني بالتركية «الرأس المهشم» هم آفة البلاد التي يرسلهم الباب العالي لحمايتها. فهم يأخذون كل شيء من الأسواق من دون أن يدفعوا الثمن ويسيئون معاملة التجار الذين يطالبونهم بالأثمان ولا توازي حياة رجل في نظرهم أكثر من حياة كلب، بل هي أقل بكثير من حياة جيادهم. وقد حدث أن التقى أحد هؤلاء اللصوص بامرأة لم تكن محجّبة فشهر مسدسه وصوّبه وفجر دماغها ببرودة أمام الجميع. ثم أعاد بهدوء السلاح إلى حزامه وتابع طريقه يفتل شاربيه من دون أن يتبادر

إلى أحد أن يعوق طريقه أو حتى ينظر إليه شزراً. تصوّروا قدر الشعوب التي ترميها الحرب تحت رحمة جنود كأولئك لا يقيمون وزناً لإيمان أو قانون.

إن الجنود على مسرى قوّادهم. و(كرد عثمان آغا) هو القائد اللائق بهذه الميليشيا المنفلتة العنان. ويبلغ طوله ستة أقدام وله جسم كهرقل وقد يخاله الرائي قاطع طرق في الجبال. ومع ذلك بدا أن هذا الضخم الجسم جبان رعديد فخلال الفوضى الأخيرة التي سادت معسكره لم يعمد إلى القيام بشيء لإعادة ضبط النظام. وفي انتظار متاعب أكثر خطورة كان يستعد جهراً لا لمواجهتها، بل للفرار إلى مصر حيث أنفذ عائلته وماله، خلال نهب إحدى المدن وكان لا يزال ندّيًا بسيطاً سرق مجوهرات باعها بعشرين ألف قرش وابتاع بالمبلغ جياداً وكانت تلك بداية ثروته. كان مرتبه يبلغ ٧٥٠٠ قرش في الشهر لكنه كان يملك موهبة رفعه إلى عشرين ألفاً. وبفضل قدراته المادية التي نجحت في التعويض عن فشله عسكريًا كوّن لنفسه، بوسائل غير مشروعة رأسمالاً بلغ برغم فتوته مئتي ألف تالاري، ما يوازي مليون فرنك.

إنه محدث بارع ويدّعي الإلمام تماماً بشؤون وطنه الأم، ويقدر عدد الفرسان المنتشرين في كردستان بمئة وسبعين ألفاً ويحدّثني بحماس عن سبعة مناجم من الذهب له معروفة في الجبال. ولم يكن يدع الهياج يغمره في الحديث لأن الأتراك شديدو الاهتمام بصحتهم وسرّهم في ذلك الهضم الفوري للطعام. وكان يفاخر أيضاً بمعرفته التامة لشبه الجزيرة العربية لكنني لم أعرف منه الشيء الكثير. فقد استفاض في البداية في شرح اتسم بضياع تام حول طرق الصحراء العربية ومناطقها لم نستطع، لا أنا ولا مترجمي أن نفهم منه شيئاً وإليكم بعض المعلومات الأكثر دقة برغم شكّي في صحتها، فعلى مسافة ثمانية أو عشرة أيام إلى الشرق من جدة وفي مكان يدعى «دفينة»، يوجد حجر أثري كبير مغطى بأشكال منحوتة مجهولة المصدر. وعلى مسافة بضعة أيام أكثر وفي الاتجاه نفسه يرتفع جبل دائري معزول تماماً يحمل اسم «مرّان» يتدفق من سفحه ٧٥ ينبوعاً. وتحدث (عثمان) كذلك عن ينبوع آخر تتحجر مياهه ما إن تبلغ الهواء. إنني أورد هذه المعلومات كما سمعتها وأترك النقد لفضول القارىء. إن المناطق الداخلية في شبه الجزيرة العربية غير معروفة تماماً وهذه الشعوب لا تمت بصلة معرفة إلى أية من المفاهيم الجغرافية لدرجة أنه يجب الإصغاء إلى كل شيء وحفظه ومن ثم جوجلة هذا الخليط للخروج منه ببعض الحقيقة.

لم يكن (عثمان آغا) يقيم في المعسكر بل في منزل في وسط المدينة مليء دوماً بالضباط الأرناؤوطيين أو الأكراد المكتسين رداءهم البدائي: سترات حمراء مطرزة

بالحرير وسراويل منفوخة معقودة عند الركبتين وحزام عريض مشكوك بالخناجر والمسدسات كان كل ذلك يشكل لوحة حيّة ملأى بالصور. كانت الفرق غير النظامية معفية من ارتداء البزة الرسمية التي فرضها السلطان (محمود) على الجيش التركي والتي ليست باستثناء الطربوش سوى تقليد للزيّ الغربي وعلى كل موظفي الدولة عسكريين أو مدنيين الالتزام بارتدائها. وبات من الصعب معرفة العثمانيين التقليديين العجائز والباشاوات منهم بشكل خاص، تحت القلنسوة الحمراء الشنيعة، وفي السروال الضيق وسترة «الردينغوت» الضيقة. فبعد أن تحوّلوا إلى أوروبيين كما كنا نتقنعّ بزيّ الأتراك في صغرنا، فقدوا تسعين بالمئة في هذا التحول. لأن ضخامة زيهم القديم وفخامته كانت تجعلهم يبدون في أفضل حالاتهم بعد أن كانوا جزءاً لا يتجزأ من نبل الزي وجماله. واليوم بعد أن حرموا من هذه الزينة المستعارة وقزّموا إلى حقيقة منظرهم كأشخاص، ما عادوا يبدون سوى على حقيقتهم، أي ذوي بشاعة بالغة بشكل عام وسمان في سن مبكرة وقد بلغ الانحطاط من روحهم ما بلغه من ظواهرهم. ولم يعد يصبح المثل «قويّ كتركي». حافظ باشا مصرّ على مصالح ضخمة في الحجاز. وهو يرسل للإشراف عليها ومراقبتها. في جدة قائم بالأعمال كان حينئذ (أمين بك) وهو عقيد سابق في سلاح المدفعية ورجل حاذق مهذب وضليع في أمور كثيرة وكان لي في التجارة معه إفادة ولذة كبيرتين. بعد أن عينه (محمد علي)، أبقاه (عباس) في منصبه بالرغم عنه لأن مناخ جدّة أفسد صحته وكان يصرّ على المطالبة باستدعائه إلى القاهرة.

عرفت منه أن الباب العالي عاجز عن الإفادة بشيء من أملاكه في شبه الجزيرة العربية لا بل إن هذه المنطقة تستأثر سنويًا على العكس بحصة كبيرة ـ ٢٩ أو ٣٠ ألف جزّة، من الجزية التي تؤديها مصر إلى القسطنطينية. كان (أمين بك) على علم تام بهذا الأمر لأن المال كان يمرّ بين يديه. كان يشاع أن لـ (عبّاس باشا) حزباً في مكة، لست متأكداً من حقيقة الأمر، لكنني من جهة أخرى أدرك ومن مصادر موثوقة أنه وتبعاً للسياسة التي جعلته يفوز بمراعاة بدو سيناء والحدود السورية له. كان (عباس) يرغب في شدة في الحصول لابنه المتزوج أو المخطوب على الأقل إلى إحدى فتيات السلطان بجفتلك المدن المقدسة لتعزيز نفوذه وبسطه على العرب. وجاء موته ليقطع فجأة تسلسل هذه المؤامرات. وبدا أن سياسة خلفه ـ إن كان من سياسة لخلفه ـ ذهبت في اتجاه آخر وصوّبت أنظارها في هذه الفترة إلى الحدود الحبشية.

كان (أمين بك) يكن عدائية كبيرة لحكومة الأشراف القديمة التي كان يلومها لاتباعها نظاماً كريهاً من الابتزاز والكيد بشتى أشكاله. وهو أمر مستغرب يبدر على

لسان خادم لـ (عباس باشا). تحدّث إليّ بكثير من السوء عن أعمال الشريف الأكبر واتهمه بالبخل والجشع وقلّة الثقة والاحتيال حتى الدهاء. لكنني شككت في صحة هذا الحكم لعدة أسباب: فـ (أمين بك) الذي خلفه (محمد علي) الذي دكّ حكومة الأشراف، والتركي الأصل، كان مشرباً بأفكار سيّده القديم ويشاطر بني قومه العداء لأهل العرق العربي. فبين التركي والعربي والعربي والتركي نفور شديد وعدائية لا مجال لرأبها. فالمثل القائل «كالخلاف بين تركي وعربي» صحيح جدًّا. فالعثمانيون بصفتهم غزاة يعاملون الشعب الذي غزوه بكثير من الغطرسة والاستبداد. فيما العرب وهم العرق المستقل المليء بالكبرياء يكنّون لهؤلاء الأسياد الأغراب كرهاً لا يليه سوى الازدراء. فالعرب الحانقون من جهل الأتراك، يتهكّمون من لغتهم العربية المكسرة ويعيّرونهم بعجزهم عن إجادة قراءة القرآن الكريم وحتى عن ترداد صلواتهم بشكل صحيح. وأكثر ما يثير سخطهم هو غدر الأتراك فهم لا يطلقون عليهم سوى نعت «الخائن» فيسخرون بذلك من لقب «خان» الذي يحمله السيد الأكبر ما يفسر في العربية بـ «خان» من فعل الخيانة. وهذه هي القصة التي يروونها عن الموضوع: إن أحد السلاطين خالف وصايا الإيمان بحق أعرابي فدعاه هذا بـ «سلطان خان» أي السلطان الذي خان. فصور للعثماني جهله هذه الإهانة على أنها لقب شرف وأضافها إلى الألقاب التي يحملها وأورثها المتحدّرين منه. وكلمة «تركي» هي إهانة حتى في أفواه الأولاد فهم يتبادلونها للشتائم. ويطلقونها حتى على الكلاب تماماً كما في أوروبا حيث العديد من الحيوانات تسمى «تركي».

نفهم من هذا أن الباشا والشريف الأكبر ما كانا على وفاق والواقع أن خلافاً عائليًا يسود بينهما. وبغض النظر عن النفور الطبيعي والسياسي فإن النعوت المتبادلة بين هذين الموظفين الكبيرين هي من السوء بحيث تخلق بينهما صراعات دائمة فيعمدان إلى اللجوء إلى كل ضروب الخداع وارتكاب كل السيئات التي يمكن تصوّرها. ومنها تبادل سرقة البريد وحتى قتل السعاة. وهذه العداوة العلنية جعلتني في موضع بالغ الدقة. فالباشا الذي علم أن القصد من مجيئي إلى جدة هو المضي حتى الطائف مقرّ إدارة الشريف ومركز سلطته، وقع في حيرة كبيرة: فقد خشي المخاطرة بنفسه سواء حامى عن رحلتي أو لم يفعل. حتى أنه عرض عليّ، بكثير من التردد، رجالاً لمواكبتي. أما(عثمان آغا) الذي كان يكنّ للشريف الأكبر حقداً أشد وضع خيّالته تحت تصرفي. هذه الطريقة في السفر ما كانت لتناسبني إذ لم أنوِ أن أتقدم من الشريف الأكبر بصفتي زائر يحظى بالحماية يفرضه عليه أعداؤه بل بصفتي زائر حرّ مستقل تماماً. كما أنني لم أرغب برؤية الشعب والطبيعة العربيين كما يراهما الأتراك وبخاصة الـ «باشي

بوزق». فرفضت العروض التي قدّمت إليّ بالجدّ تارة والمزاح طوراً وسلكت السبيل المنطقي الوحيد بتوجهي مباشرة إلى الشريف. هذا التفضيل جرح الباشا كثيراً لكنه بالمقابل أزاح عنه الإحراج وحرّره من كل مسؤولية. وكتركي حقيقي، سعى إلى عدم البوح بشيء من مشاعره أمامي وهو كان تحت وطأة مشاغل أكثر خطورة: فإشاعة عزله كانت قد راجت في جدة وعلمت من مصدر موثوق أن الأمر صحيح.

كان ديوان (أمين بك) قريباً من البحر تفصل بينه وبين ديوان الحاكم ساحة كبيرة حارة وملأى بالغبار كانت تعسكر فيها في ذلك الوقت فرقة غير نظامية، إليكم كيف جاءت. كان في جدة بائع هندي، مولود في كابول، تتقد فيه الرغبة منذ اندلاع الحرب الأخيرة، في لعب دور فيها وخصص كل ثروته لهذا الغرض وتخلى عن التجارة وانتقل بشجاعة من عبادة المال إلى عبادة الحرب وراح يطوّع على نفقته الخاصة كل المواطنين، متسولين أم غير متسولين الذين قبلوا بالعمل. وانخرط في صفوفه آخرون حدتهم النية الطيبة. وجمع (عصمت بك) وهو المرتزق الجديد تحت لوائه ألفي رجل ـ الله يعرف كيف سلّحوا ـ ولا ينتظرون من أجل الرحيل سوى المراكب التي ستحملهم إلى ساحة المعركة في مصر. كان هذا القائد المغامر يقطن قريباً من منزلي فذهبت لرؤيته بدافع الفضول ووجدت فيه مظهراً عسكريًا لافتاً بالنسبة إلى تاجر ترك مهنته. كان يرتدي برنساً أحمر وحزامه يحمل ترسانة كاملة: يطقان وسيف ومسدسات وكل توابعها.

وكان رهط من المتشردين معظمهم في ثياب رثة يشكلون أركان حربه. وتصدح في منزله ليل نهار أهازيج عسكرية ترافقها طلقات البنادق.

لا يوجد في جدّة أي مسيحي باستثناء الأشقاء (ساوا) اليونانيين. الذين أقامهم تحت حمايته الشخصية قنصل فرنسا فيما عملهم تحت حماية قنصل إنكلترا وذلك مزيج باهر الذكاء تضمن الإفادة من الجنسيتين ورعاية أكبر قوتين بحريتين في الغرب وهذه المؤسسة تتعاطى الأعمال مع السودان حيث ينتشر ممثلوها حتى الحدود مع الحبشة. كنت أرى أحياناً أولئك التجار الذين كان والدهم وهو شيخ عجوز جليل من جزيرة «ليمنوس» يحنّ بشدة إلى جزيرته الأم وعلى وشك العودة إليها. ويملك أولئك السادة لاستعمالهم الخاص ولاستعمال زوّارهم مجموعة كبيرة من النراجيل الفارسية، وهي الوحيدة المستعملة في جدة. وسأوضح للهواة أن هناك عدة أصناف من النراجيل يحمل كل منهما اسماً خاصًا: النارجيلة الأكبر والأجمل هي «القدرة» وتتكىء على ركيزة ذات ثلاث قوائم وهي مصنوعة من الفضة الخالصة ومحفورة بشكل فني ومزودة

بأنبوب طويل قابل للثني يدعى «لبيه». والأثرياء يدخنون تبغ «شيراز». أما الصنف الثاني فهو «الشيشة» الشبيهة بال «قدرة» إلى حدّ ما سوى أنها أصغر منها حجماً. أما الصنف الأخير والأكثر استعمالاً فهو جوزة الهند التي تملأ بالماء كالصنفين الآخرين وأنبوبها قصبة واسمها السوقي الشائع هو «بوري». وبشكل عام يدخن في هذه النراجيل تبغاً شديداً يدعى التنباك يستورد من بغداد أو من البصرة.

بدا السادة (ساوا) كرماء ولبّتو العريكة بالنسبة إلى التجار فقد أمّنوا لي كل المال الذي احتجت إليه مع حسم خمسة بالمئة وذلك بموجب سند استحقاقه بعد ثلاثة أشهر مسحوب على السيّد (هاسون) من القاهرة الذي أفاد من مساعيه الحسنة كل المسافرين والذي لاقى في العام المنصرم نهاية تعيسة جدًّا

وتكاد تنحصر التجارة في جدّة في يدي أهل «حضرموت» وهم شعب ماهر يأتي من اليمن عند أرباض عدن وفي يدي الهنود. ولا يندر أن يكون بعض الهنود يملك ثروات تقدر بثلاثة أو أربعة ملايين من الفرنكات. كان أثراهم في ذلك الوقت رجل يدعى (فرج يوسف) وهو يملك عشرة سفن ضخمة. ويكاد هذا الهندي أن يكون أسود البشرة ممشوق القوام وذا وجه ناعم ودقيق في غاية الجمال. وكان ولده وهو يافع وسيم جدًّا يدعى (عبد القادر) أكثر اسوداداً من والده، يقف أمامه احتراماً ولا يجرؤ على الجلوس بغير إذنه. وكانا كلاهما يعتمران عمامة من نسيج الموصل الأبيض وأثواباً فضفاضة من حرير بلدهما. قدّم لي في ذلك المنزل «القشرة» وهي قهوة تصنع من قشرة الحبوب ومتبلة بالقرفة وكبوش القرنفل. وهذا شراب متداول في اليمن لكنه بالغ السوء لم أستطع أبداً إكماله كما لم أستطع تدخين تنباك الشيشة الذي قدّم إليّ، بسبب حدّته والحرقة التي خلّفها في حلقي. ويجدر الذكر أن الهنود يعشقون الاحتفالات.

ولختام رواق الصور هذا الذي طال كثيراً سأتحدث للذكرى فقط عن قبطان المرفأ الذي لم تكن لي معه سوى علاقة عابرة وهو «عبد الله آغا» قائد الشرطة الذي لم أرغب في تعميق العلاقة بيننا برغم إلحاحه. وأخيراً عن (عطا بك) وهو طبيب عسكري شاب من القسطنطينية يجيد الفرنسية تماماً ومسلم ورع كان يتركني عند أول صيحة مؤذن، ولو حتى في منتصف جملة يتفوه بها للذهاب إلى غرفة مجاورة للتوضؤ وأداة الصلاة.

كان مختلف الشخصيات التي تحدثت عنها أتراكاً وهنوداً ويونانيين. وجميعهم غرباء عن البلاد. إلا أنني كنت أبحث عن العرب في شبه الجزيرة العربية ولم تتعمق معرفتي سوى بواحد منهم في جدة. إلا أنه عربي أصيل وأهل بتمثيل عرقه كاملاً. وهو

(خالد بك) ابن (عبد الله بن سعود). الذي اقتيد في صغره إلى مصر بعد موت والده وخراب عائلته، فنشأ في القاهرة تحت رعاية (محمد علي) وناظره. عاد فيما بعد إلى شبه الجزيرة العربية وكان يعيش في جدة على نفقة خصّها له الباب العالي غريباً عن كل الأعمال ومحكوماً عليه بعدم القيام بأي نشاط. كنت أتردّد إليه بكل سرور والتقي عنده دوماً بشيوخ عرب يأتون من القبائل المجاورة وبخاصة قبيلة «الهواري» إذا لم تخنّي ذاكرتي ليكرموا فيه ابناً وحفيداً لأعظم قائدين عرفتهما شبه الجزيرة العربية المعاصرة. كانت روايته قد أثّرت بي وأعجبني شخصه: فقد كان لطيفاً ومضيافاً ونبيلاً وأنيقاً. كان كلامه وسلوكه يحمل على الشعور بأن ثمة قلباً كريماً فيه. ولا أدري أية كآبة ناعمة ومفعمة بالكبرياء كانت تملأ شخصه كاملاً لم تسمح لي بنسيان سوء حظه أو أصله.

برغم أنه نشأ في بلاد غريبة فهو متوقد الذكاء وسط أقرانه في الدين وفي حال التضعضع التي يعيشها الشرق اليوم، لربما يخبيء له المستقبل تعويضاً عمّا حلّ به وقدراً كبيراً. ويفرض عليه وضعه الحذر الشديد ويرغمه على اعتماد التيقظ في كل ما يقوم به. حتى أنني خشيت تعريضه للخطر إن بالغت في زيارته، لأنه، وبسبب الظروف الراهنة، كانت السلطات التركية تصوّر لرحلتي هدفاً سياسيًا بعيداً كل البعد عن الحقيقة. كنت أرغب كثيراً بجعله يستفيض في الحديث عن عائلته وعن نفسه وإذ لم أجرؤ على طلب ذلك مراعاة له، لا في منزلي حيث لم أكن بمفردي ولا في منزله حيث كان من الممكن رصدنا، فاقترحت عليه اللقاء في منزل طرف ثالث، منزل السيد (لوكيه) حيث لا يتنصت علينا ولا يزعجنا أحد. فوافق ودام اللقاء طوال النهار.

تقرير عن رحلة
من الرياض إلى الكويت (١٨٦٦)

بقلم اللفتانت كولونيل لويس بيلي
المقيم السياسي لصاحب الجلالة في الخليج

(...) في النهاية علمت من المواطنين الذين ذهبوا إلى الرياض أن الأمير الإمام (فيصل بن سعود) قد أصبح يتحدث عن زيارتي وكأنه يتعاطف مع كوني لا أكنّ في نفسي سوى الخير للصالح العام. وهكذا قررت أن أسافر إلى عاصمته من أجل لقاء ودي معه. وفي كانون الثاني/ يناير ١٨٦٥ عبرت الخليج الفارسي إلى الكويت ولدى نزولي عقدت اجتماعاً مع الشيوخ وأطلعتهم على خطتي بالتقدم في طريق جنوبي غربي إلى الرياض على أن أعود إلى الساحل بطريق الأحساء والعقير أو عبر أي طريق أخرى تحتّمها الظروف. وفي الوقت نفسه وجهت رسالة إلى الأمير فيصل أعلمه فيها أنني في الطريق إلى زيارته وأنني مقتنع، من خلال ما علمت من مواطنيه، بأن لقاءنا سيكون مرضياً. بعثت هذه الرسالة مع مراسل عاجل، وفي نيتي أن ألحق بها دون تأخير، وقد وافقني الشيخ الكبير في الكويت على هذا الرأي قائلاً باختصار: «خذ الجمال وليكن الله معك». إلا أن الشيخ يوسف بن بدر، الذي طارت شهرته في سوق الخيول في بومباي كمصدّر للخيول العربية، اعترض على الخطوة بجدية. وفي النهاية اجتمع جميع الشيوخ في المجلس وقرروا أنه من الأفضل الانتظار قليلاً بحيث نهيء إبلاً جيدة ودليلاً وننتظر بعض المعلومات من نجد. وفي انتظار الانطلاق قبلت ضيافة يوسف ورحت أجمع من القبائل المجاورة ما استطعت من معلومات طلبتها مني الجمعية الملكية الجغرافية حول طبيعة نجد وجغرافيتها.

مكنتني إقامتي في الكويت من رؤية الداخل والحياة اليومية في بيت شيخ عربي. ولا أعتقد أن هناك «جنتلمان» إنكليزيًا يمكن أن يكون ودوداً ومضيافاً مثل يوسف بن بدر. كان يوسف في الثانية والسبعين من العمر، وقد تزوج على ما أعتقد ٢٦ مرة. ولا تزال واحدة من زوجاته (أو أكثر) تعيش معه، أما الأخريات فيعشن في راحة في بيوت

منفصلة. والاحترام الذي يظهره له أبناؤه الكثر، جميل ولا حدود له. وقد وضع هؤلاء الأبناء وقتهم وخدماتهم في تصرفي. وقد أمضيت معهم أسبوعاً في إحدى القلاع الريفية، نصطاد بالصقور ونركب خيولهم العربية الأصيلة. والقلعة التي أشير إليها هي الجهراء وتقع على الزاوية الشمالية الغربية من خليج الكويت. ويقال إن الموقع قديم جدًّا ويمكن العثور على بقايا مبان قديمة في المنطقة المجاورة.

هنا يقوم يوسف بجمع خيوله التي يؤتى بها في أعداد صغيرة من شمّر وعنيزة ونجد ومن أماكن أخرى، فيضعها ويؤمن عليها ضمن جدران القلعة وينعشها بعد سفرها الطويل، إلى أن يحل موسم التصدير إلى بومباي، فينقلها إلى الكويت ويشحنها من هناك. وقد خصني يوسف بلائحة لأجود أنواع الأصائل، أرفقها هنا، وهي لائحة تأكدت من صحتها في عُمان وأماكن أخرى.

في المساء يجلس الشيخ يوسف في ردهة الاستقبال حيث يتوافد العرب من المدينة أو من الصحراء، يبدأون برواية طرفة بعد الأخرى من دون توقف. ومع أن الشيخ يوسف متشدد جدًّا في أمور الدين فقد سمح لنفسه بأن يقرأ عن الديانات الأخرى أيضاً. أحياناً تكون إحدى الروايات في المجلس إباحية قليلاً لكنها غير صادرة إطلاقاً عن نية سيئة. والعربي أقل تحفّظاً منا في الكلام، لكنه صريح يسمي الأشياء بأسمائها من دون تلك التوريات التي يلجأ إليها اللورد ماكولي.

تدور القهوة والنارجيلة على الناس بلا حساب، إذ يقول الشيخ يوسف إن عظام العربي مصنوعة من البنّ، كما يقول إن أقسى ما يواجهه في شهر رمضان الذي يحلّ قريباً، هو الامتناع عن هذا الترف. خلال تلك اللقاءات يدخل البدو أو الحضر ثم يتربعون على الأرض وقد وضعوا سيوفهم أمامهم، وينصتون إلى الحديث الجاري، ثم، بعصبية يمتاز بها الجنس العربي، ينهضون فجأة ويحتذون نعالهم ويمشون! يأتي أحدهم ليقول مثلاً إن لديه حصان ممتاز في مضاربه، وإنه يحتاج إلى بعض الأشياء والمؤن من أجل نسائه، لكي يستطيع أن يبيعه. ويقول آخر إن قبيلته وصلت إلى مرعى ما، وهي في حاجة إلى المؤن. ويحمل الثالث بضعة دولارات كان قد اقترضها، ربما قبل عام، وكان عليه أن يردها قبل أن يبدأ رحلة الحج إلى مكة. إنه يعد النقود ثم يعرب عن رغبته في اقتراضها مرة أخرى، أو أن يأخذ قيمتها من البضائع. ويمرر بعض هؤلاء البدو ملاحظات حادة ويتحدثون عن الصعوبات المطلقة التي يتعرضون لها خلال موسم الحرّ أو في الغزوات. وبين الأشياء التي تعلمتها منهم ومن الشيخ يوسف العادات التي بها يطلب الغريب الحماية في الصحراء.

قد لا يكون مهمًا هنا أن ندلي ببعض الملاحظات حول خليج الكويت ـ الخليج المقدس عن الأقدمين الذي وقف على شواطئه جيرانهسيس. ويقال إن كلمة القرين (اسم الكويت القديم) آتية من القرن بسبب الشبه بين الخليج والقرن. أما الكويت، الاسم الحالي وعمره حوالى مائة عام، فآت من الكوت أي القلعة. وفي الأساس احتل شيوخ الكويت قلعة تدعى مونغاسار، واقعة على نهر الزبير. وكانوا هم الملاحون الذين يتحكمون بمداخل شط العرب، لكن بعد تعرضهم لهجمات الأتراك اتجهوا جنوباً وأقاموا لأنفسهم مواقع وتحصينات جديدة في الداخل ضد الغزوات. على أن الأرض هنا غير منتجة زراعيًا. والمياه في الكويت نفسها ملوّثة. ومع ذلك فإن الكويت هي إحدى الموانىء المزدهرة على الخليج، ولها تجارة واسعة تمتد إلى الهند وسواحل الجزيرة. ويقال إن البحارة الكويتيين هم الأكثر مهارة في المنطقة. وحجم التجارة الكويتية ضخم جدًا. فهي تستورد الأرز من شوستر والبصرة وساحل مالابار، والذرة من ساحل إيران والتمور من البصرة، والخشب لبناء السفن من ساحل الهند الغربي.

من الناحية البرية تتاجر الكويت مع البدو الذين يحملون في الشتاء والربيع الخيول والصوف، فيبادلونها بالبنّ والأرز والحاجيات الأخرى. ويستطيع البدو الدخول إلى المدينة ساعة يشاؤون بشرط أن يتركوا أسلحتهم عند البوابة حيث يجلس الشيخ الكبير والقضاة يوميًا لسماع الأخبار والإشراف على التجارة والحكم في أمور الناس. وتقام مأدبة ضخمة يوميًا في قاعة خاصة من أجل استضافة الغرباء. والعملات المتداولة في الكويت هي دولار ماريا تيريزا والكران الفارسي والقروش التركية النحاسية. ويمكن أحياناً رؤية بعض الليرات الإنكليزية. كما يمكن الحصول على الأوراق النقدية من البصرة وبوشهر وبومباي والرياض. ويتمتع سكان المدينة، بمن فيهم اليهود، بتسامح ديني. ولا تفرض الضرائب على المواطنين. ويقدم الميسورون هدية سنوية إلى الحاكم. والواقع أنه يبدو أن التدخل الحكومي في شؤون الناس نادر تماماً وربما لا حاجة إليه.

يمارس الكويتيون تجارة منقولة ضخمة، ولذا فهم على الأرجح أفضل بناة البواخر حول الخليج. ومع أن طقس الكويت حارّ جدًا في الصيف فالمناخ صحي جدًا. ويبدو أن الأمراض قليلة ولا يستخدمون من العلاج في الغالب إلا الكي. وقد علمت في الواقع أنه بعد رحيلي قد عمد مضيفي إلى شفاء نفسه من الكوليرا كالعادة بالزكاة. إذ ما إن شعر بأعراض الحمى حتى وضع تحت وسادته ألف دولار توزّع على الفقراء. وقد كان العلاج فعّالاً. وقد لاحظت خلال إقامتي لدى الشيخ يوسف أن المتسولين كانوا يقفون في بابه كل يوم جمعة. فهل هذا هو سرّ نضارته في هذا العمر؟

بالنسبة إلى الطعام، يتناول الأغنياء، كما في كل بلد آخر، الأغذية المعروفة. أما طعام الفقراء على الخط الساحلي فمؤلف في صورة خاصة من السمك المجفف وبعض التمور، في حين أن الوجبة العادية في الداخل هي التمور والذرة وحليب النوق. والواقع أنه في مضارب البدو تعيش العائلات والخيول معاً أحياناً على حليب النوق وحده، برغم كونه مسمن جدًّا. ويعتبر حليب النوق مفيداً أيضاً للعيون وضروريًّا جدًّا لتربية الخيول. أما الأشياء الضرورية الأخرى في تربية المهر فهي التمتع بهواء الصحراء ولا يسمح لأحد بركوبه بعد أن يبلغ العام ونصف العام إلا إذا كان وزنه متناسقاً مع حجم المهر.

وقد أخبرني سيد من أهل البلد التقيت به عند الجهراء أنه ينتقل في الربيع إلى البرّ مع الإبل ويستبدل طعامه العادي بحليب النوق. وقد أكد لي، كما تأكدت من مظهره، أن حليب النوق يسمّن شاربه جدًّا! ويخزن البدو وأهل المدينة في الكويت، على السواء الجراد الذي يعتبرونه طيب المذاق كثيراً. وذات مرة لفت انتباهي كيف خرج أهل المدينة جميعاً يطفقون فرحاً لوصول الجراد وهطول الأمطار معاً. ويدخّن الكويتيون النارجيلة الفارسية. ويأتون بالتبغ من تركيا والفرات والموصل ومن مخاوى في اليمن. أما الأكثر شيوعاً في الصحراء فهو غليون «السبيل»، الأرخص والسهل الحمل.

ثمة اعتقاد في الكويت بأن نهراً صناعيًّا قد مرّ في إحدى المراحل من الفرات نحو منطقة عدان الساحلية في اتجاه القطيف. ولم أستطع العثور على أثر لهذه القناة الآن، لكنني في مناسبة سابقة أبحرت إلى رأس خور الزبير إلى نقطة تبعد حوالى ١٠ أميال عن البصرة، وهناك وجدت قناة صغيرة تربط الخور بأنهار البصرة، وربما يستحسن أن أذكر هنا أن خور عبدالله المؤدي إلى خور الزبير قد يصبح مفضلاً لدى المراكب التجارية بدلاً من القنوات الحالية المؤدية إلى البصرة. المدخل إلى خور عبدالله واسع وعميق بما فيه الكفاية. وقد رسونا عند رأس خور الزبير عند الضفة في مياه عمقها نحو ٢٤ عقدة. ومن هذه المنطقة يمكن إقامة خط حديدي طوله نحو ٨٠٠ ميل من أجل الوصول إلى المتوسط. وقد أكد لي العرب أن هناك خطين مباشرين يتجهان غرباً إلى الفرات، الأول يمرّ عبر الصحراء والثاني يحاذي المناطق الآهلة.

فلنعد إلى الكويت: بعد تمضية بضعة أسابيع في ضيافة الشيخ يوسف وصل من الرياض أحد النجديين الذي يحتل مكانة مرموقة وهو في طريقه إلى بغداد. وقد أحضر الرجل معه ثلاثة جمال تحمل شارة الانتماء إلى الإمام فيصل، وأبلغني أنه مكلّف

بثلاث مهمات مختلفة، والتعليمات التي يحملها تقضي بأن يعيد جملاً في كل مرة ينهي فيها مهمة كدليل على أنه أتمر ما طلب منه. وقد توقف هذا الرجل في الكويت ليوم أو ليومين بسببي وأمدني ببعض المعلومات المتنوعة حول الوضع في العاصمة وحول ردة الفعل على رسالتي الأولى. وقال إن الأمير رفض الفكرة في البداية على الفور، لكن مع وصول الرسالة الثانية لان قليلاً، إلا أن أهل المجلس بقوا على عنادهم. وسألت الرجل إن كان يمكن أن يتخلّى عن الرحلة إلى بغداد وأن يكون دليلي إلى الرياض. وبدا لفترة أنه قبل الفكرة لكنه بعد استشارة مرافقيه في الليل أوضح لي صباح اليوم التالي أن عليه أولاً أن ينفذ أوامر الأمير، غير أنه عرض عليّ أن يعطيني أحد الجمال التي تحمل الشارة الرسمية كدليل كاف لحمايتي، لكنني رفضت تحسّباً لموت الجمل أو لمواجهة معتد لا يجيد القراءة.

بعد أيام ظهر من جديد المراسل الذي أوفدته، وقد عاد بجواب مقتضب من الإمام فيصل يسمح لي بالتقدم، لكنه لم يوفد أي دليل أو مسؤول لمرافقتي، على أن الموسم (المطر؟) كان يقترب ولم يكن لديّ وقت أضيعه. وكنت قد جمعت خلال الأيام الماضية بعض المعلومات الجغرافية. وفي أي حال عقدت اجتماعاً مع شيوخ الكويت وعزمت على السفر فوراً إلى الرياض. ويبدو أن جمالي قد جمعت من كل القبائل، ولم يكن أحدها صالحاً للسفر وبلغ مجموعها ٢٧ إلى ٣٠. وأخذت معي اللفتانت دوس، وهو ضابط ملحق بباخرة المعتمدية خبير في الملاحظات الفلكية. وأيضاً المستر كولفيل، طبيب المعتمدية كمسؤول طبي عن المرحلة مهمته أيضاً جمع العينات النباتية والصخرية من دون أن يثير الانتباه حوله. وبالإضافة إلى مترجمي، المستمر جورج لوكاس، كان هناك اثنان من الموظفين الهنود المسلمين، وخادم فارسي وطاه برتغالي. وقد جعلتهم جميعاً يرتدون العباءات فوق ثيابهم من أجل تجنب الإزعاجات غير الضرورية. وفي ١٧ من شباط/ فبراير خرجت القافلة من المدينة للتأكد من أن كل شيء على ما يرام قبل الانطلاقة الأخيرة، وكان مظهرها مضحكاً حقًّا.

كان معنا خيمة واحدة وكانت مؤننا الغذائية من الحساء واللحوم المجففة وبعض التمور والأرز. وأخذت معي أيضاً ٣ آلاف دولار للطوارىء وبعض الهدايا، كما أخذنا بوصلة ومنظاراً وآلة لقياس الوقت خبأتها كلها في معطفي طوال الطريق البالغ ٨٠٠ أو ٩٠٠ ميل. وقبل الانطلاق طلبت من الكابتن ورنر قائد الباخرة التابعة للمعتمدية، بالسفر إلى البحرين والرسو هناك والاتصال من وقت إلى آخر بميناء العقير للحصول على معلومات حول تحركاتنا ولكي يكون في استقبالنا حين نعود عبر تلك الطريق. إذن، صباح الثامن عشر من شباط/ فبراير تركنا مضاربنا خارج أسوار الكويت وسرنا

نحو ساعة في اتجاه شرقي ثم إلى الجنوب الشرقي نحو قلعة تدعى Kalah تبعد نحو ٥ ساعات عن الكويت. وكان حول القلعة بعض الآبار والقليل من الزرع وبضعة أكواخ مؤقتة. وكان هناك طريق للإبل يمكن سلوكها من المدينة إلى القلعة، لكن بعد ذلك ينتهي كل أثر للطرقات. وتغلب على تلك المنطقة البراري المتعرجة مثل أمواج طويلة. وخلال الساعة الأولى كنا نسير فوق عشب قليل أكله الجراد. وبعد ذلك كانت البطاح مرشوشة بالجيوب التي تحاول أن تبدو خضراء في بدايات الربيع المبكر والتي راحت الجمال ترعى منها ونحن نتقدم. كان علينا أن نستريح بعد ساعة ونصف من القلعة، وقد بدت لنا قلعة قرنية الشكل تدعى وفره وأخرى تسمى سبايا. وقبل أن ننصب الخيمة جمعنا بعض المياه من أمطار هذا الصباح التي امتلأت بها البرك القريبة، أما في العادة فلا مياه هنا.

صباح التاسع عشر قمنا مع الفجر. وبما أنه يوم السير الأول من دون تقطع، قد يكون من الأفضل أن أصفه لكم كنموذج للأيام العادية الأخرى. بعد أن ننهض يدعو رئيس الجمالين رجاله إلى الصلاة، وبعدها نجمع حوائجنا بحيث نبدأ السير مع طلوع الشمس. برغم أن العربي شديد الصلابة، وبرغم أن أحداً من الجمالين لم يقطع الصوم لحظة واحدة ونحن في طريقنا إلى العاصمة، فإن العربي كثير الحساسية للبرد، وأشك في أن أي دافع آخر غير الصلاة كان يمكن أن يحمل أصحابنا على الاستيقاظ في هذه الساعة المبكرة، وما إن تنتهي الصلاة حتى يعودون إلى الارتجاف وهم يحمّلون الجمال أو يتكوّمون فوق النيران التي يشعلونها لكن مع طلوع الشمس كان يبدو أن الحيوية تعود إليهم وتروح القافلة تقطع الصحراء بارتياح بمعدل ٣ أميال في الساعة، لا تشرد الجمال بعيداً بل تتعرج الإبل في مسيرها بحثاً عن الكلأ هنا وهناك. وإذا ما بدت نبتة خضراء اندفع نحوها ثلاثة أو أربعة جمال، يمدّ كل منهم عنقه الملتوي نحوها ما استطاع، فإذا لم يحالفه الحظ اكتفى بنهر جاره انتقاماً. وحوالى الساعة العاشرة كنا نرتاح قليلاً أمام الجمال ونعد القهوة وما تيسر لنا من الفطور إلى أن تلحق بنا القافلة كلها، وهكذا دواليك طوال النهار. وكنا نتوقف عادة قبل الغروب بقليل بحيث نضرب الخيمة ونؤمن أن كل شيء على ما يرام قبل حلول الظلام. وما إن تفرغ حمولة الإبل حتى تمضي الجمال بحثاً عن عشائها، ثم تجمع من جديد حوالى الثامنة أو التاسعة. وننصب خيمتنا في الرمل ثم ننتظر أن ينام الجميع فنبدأ العمل بمقياس الوقت، وكنت أبقي الآلات تحت المعطف حتى ونحن نعمل بها. وبهذه الطريقة استطعنا أن نقيس خطوط الطول وخطوط العرض في البلاد بدقة متناهية.

سوف تتفضل الحكومة وتلاحظ أن الخرائط المرفقة تبيّن تاريخ كل مسيرة خلال



إيزابيل إيرهارت وهي في السابعة عشرة من عمرها.



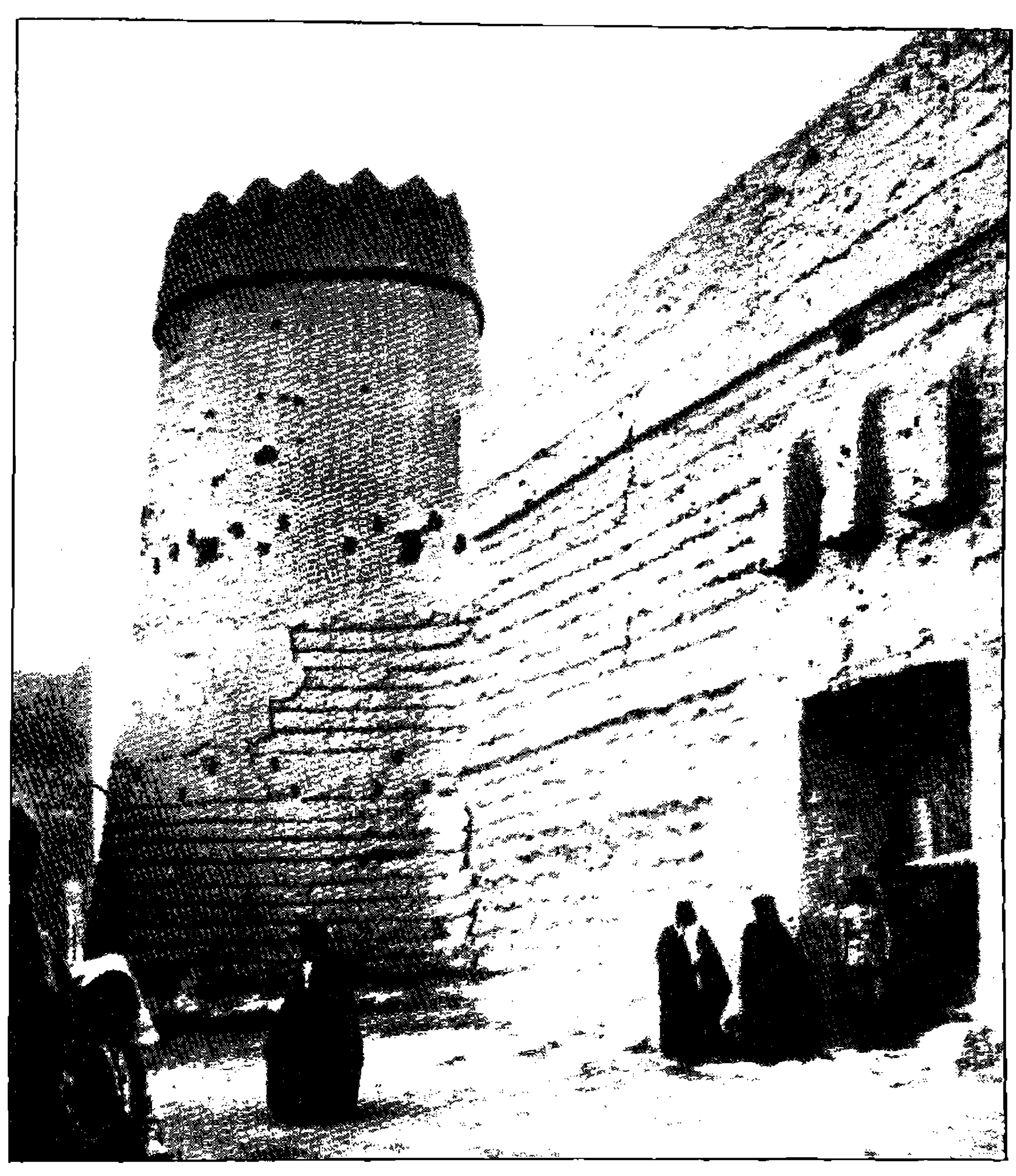
كارستن نيبور في الزي الذي أهداه له إمام اليمن.



وليم غيفورد بالغريف، من صورة له تعود إلى ١٨٨٠ .



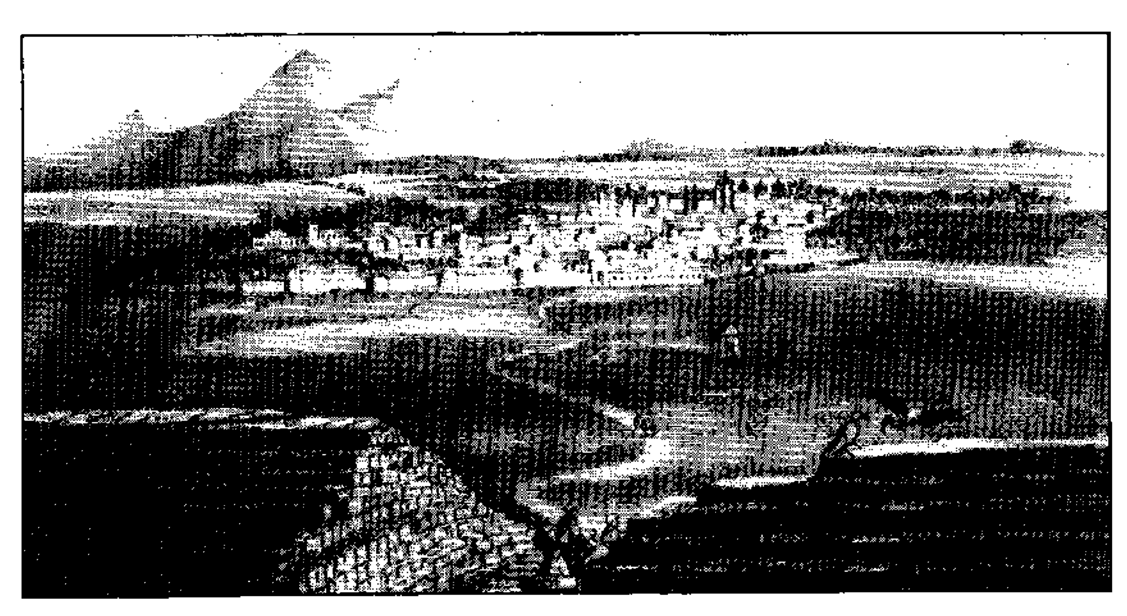
الليدي آن بلانط في زيّ عربيّ.



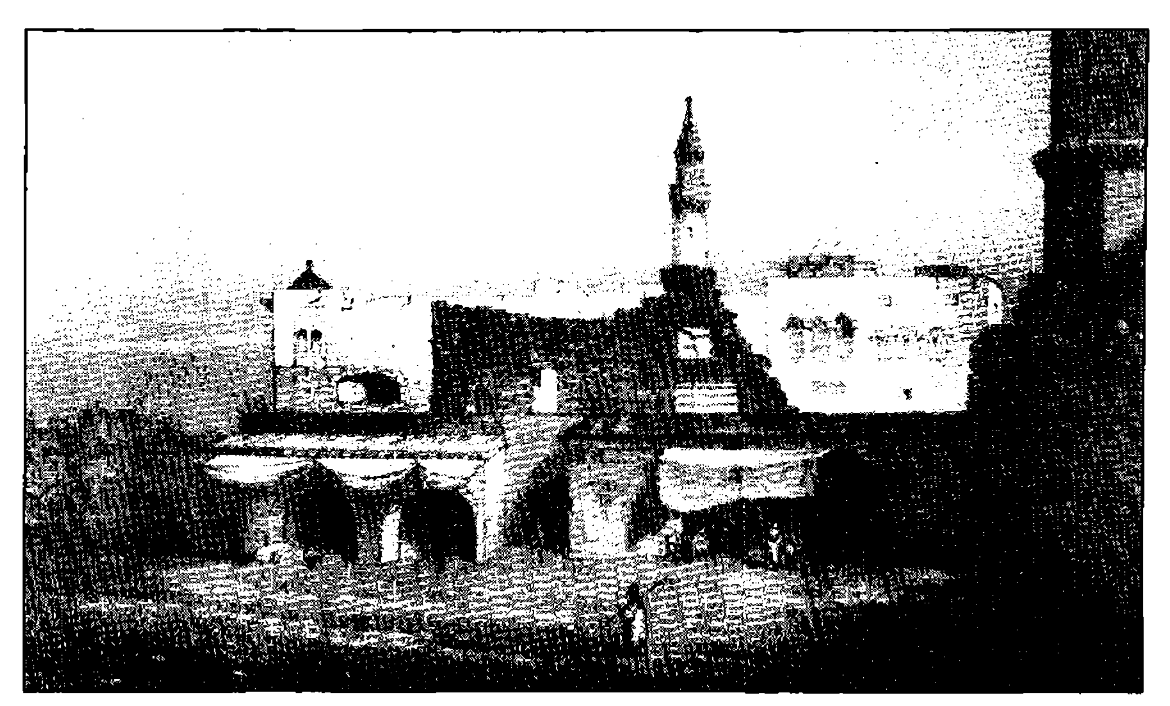
قصر المسمك في الثلاثينات (تصوير جيرالد دو غوري).



مشهد لمسقط حوالي ١٦٦٥ بعد جلاء البرتغاليين عنها.



رؤية بورتون الأولى للمدينة.



ساحة في جدّة، في أواخر القرن التاسع عشر.



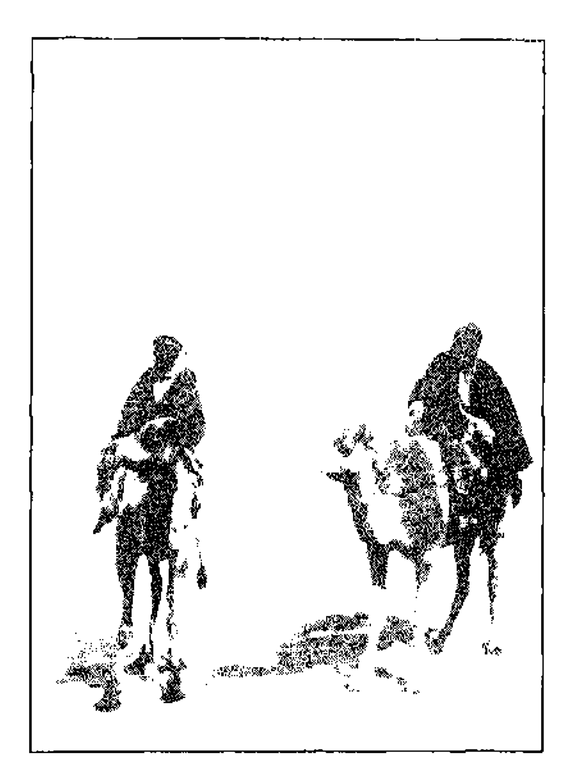
ميناء الحجيج في جدّة على البحر الأحمر.



بائع جوال في جدّة ـ ١٨٨٥ .



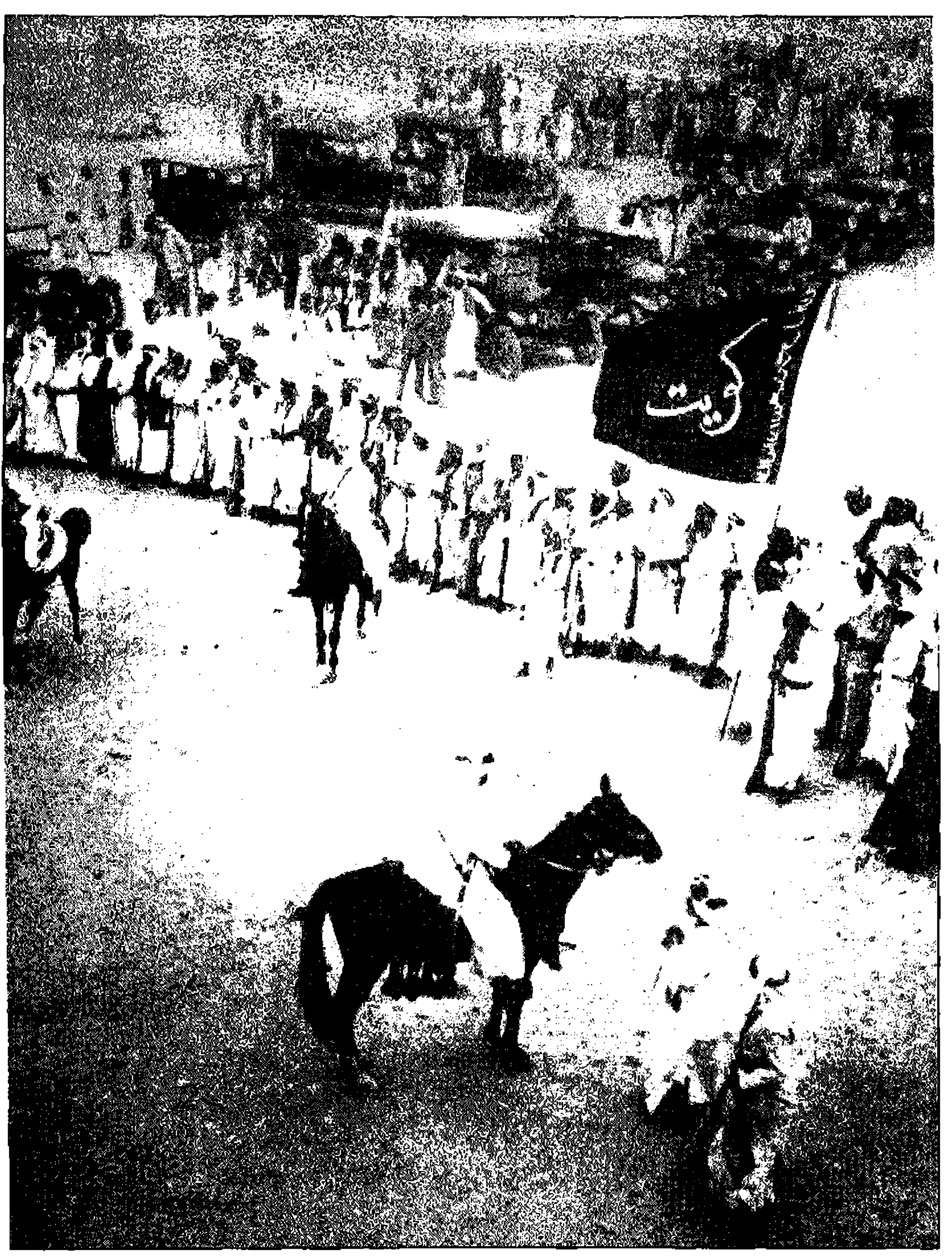
الملك عبد العزيز في الثلاثينات.



في الربع الخالي.



مرافقون من البدو لشكسبير في الداخل الكويتي.



سباق خيلٍ في الكويت في العشرينات.

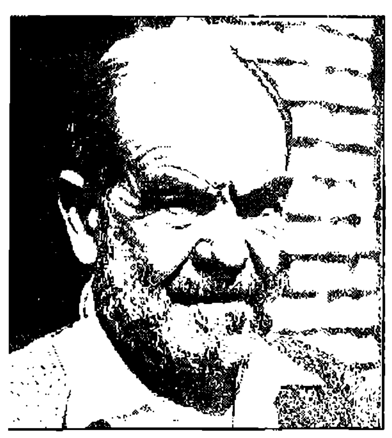


شـالرز داوتي.

لويس بوركهارت.



ريتشارد بورتون.



هاري سان جون فيلبي.



فريا ستارك.



ويلفرد تيسيغر في الربع الخالي في ١٩٥٨ .

الرحلة. كذلك وضعنا تواريخ جمع النباتات والصخور. لكن فلنعد إلى مسيرتنا في التاسع عشر (من شباط/ فبراير). قبل الانطلاق بقليل حدثت المشاجرة الأولى بيني وبين رئيس الجمالين بسبب رغبتي في تغيير الطريق والتقدم من خلف السدير. وخلال ذلك انضم إلينا أحد مشايخ القبائل الذي كنت قد اشتريت منه حصاناً في الكويت، وكنت قد وافقت على أخذه معنا ظنًّا بأنه قد يكون مفيداً في معرفة الخيول. وكان هذا رجلاً قبيح الملامح لا نفع منه، لكنه ادّعى بأنه من حاشية الإمام عبد الله بن فيصل. وقد اشترط علينا بألا يذهب إلى أبعد من الرياض وطلب مني ٥٠ دولاراً لقاء ذلك. وقد تبيّن لي فيما بعد أنه لم يستطع أن يعرض عليّ حصاناً واحداً، وأنه حتى بعض أهل قبيلته الذين التقينا بهم في الطريق لم يظهروا له الكثير من الاحترام.

هذا الصباح أيضاً تركنا ابنا يوسف بن بدر اللذان رافقانا إلى الحدود وعادا إلى بيتهما تاركين فينا أطيب الأثر عن اللياقة والضيافة. وقد بعثت مؤخراً إلى ذلك البيت بعض الهدايا كعربون عن الامتنان.

...تقول السلطات الكويتية إن سلسلة التلال المنخفضة التي أمامنا تشكل الحدود الداخلية لمنطقة العدّان التي وصفتها في مذكرتي السابقة. لكن أهل القطيف يقولون إن العدان اسم يطلق عادة على المنطقة الساحلية الممتدة من الكويت إلى رأس تنورة، وتشكل الحدود الشمالية لمنطقة القطيف، في حين أن الوجه البحري الذي تقوم فيه جزيرة البحرين الحالية كان يعرف سابقاً كله بالبحرين. ويبدو أن البدو يميزون مناطقهم المتعددة من خلال اتجاه الطبقات الأرضية العليا. وخلال موسم الحرّ حين لا يعود من الممكن تبيّن العلامات الأرضية بسبب كثافة الجو، يحفر البدوي قليلاً في الأرض لكي يعرف أين هو.

... في الرابع والعشرين تركنا مكان استراحتنا متوقعين أن نصل إلى وربة في ساعة أو ساعتين. لكن بما أننا لم نكن نعرف كيف ستكون حالة الآبار ولا عدد المضارب القائمة هناك فإن رجالنا ملأوا القرى السبع من البرك التي امتلأت بمياه الأمطار. وإلى يمين الوادي وجدنا بعض الخيام التي ينتمي أهلها إلى قبيلة صاحبنا الشيخ الذي ذكرته. كانت هناك أربع أو خمس عائلات جعلت خيمها بعيدة بعضها عن بعض. وقد جاءت لنا العائلات بصوان مدورة كبيرة مليئة بالأجبان التي اختلط فيها شعر الماعز، وبعض التمور النجدية ووعاء من الزبدة البدوية وقد كانت كل هذه الأطايب طبعاً ضيافة الشيخ وفقاً للتقاليد. كنا جياعاً مثل الصيادين وقد تمتعنا بهذه الوجبة اللذيذة. بعدما تركنا هذه الخيام وصلنا خلال نصف ساعة إلى الوادي الذي تقوم فيه آبار وربة

التي هي محطة رئيسية للقبائل المتجهة إلى الساحل. وهناك نحو ١٠٠ بئر تفصل بين الواحدة والأخرى نحو ٤٠٠ ياردة مربعة، وكانت تملأ المكان آثار روث المضارب الكثيرة. أما نحن فلما وصلنا لم تكن خيمة واحدة هناك، وقد تزودنا بالمياه من بئر قيل إن مياهه أكثر عذوبة من الآبار الأخرى، وحفرت هذه الآبار العميقة في الصخور الرملية وقد تركت الحبال أثرها في أفواهها جميعاً. ويقال إن الآبار هناك منذ التاريخ الشديد القدم، وهو أمر تدل عليه مظاهرها. وعندما يصل البدو إلى هنا والعطش يهدهم، ينكب الرجال والحيوانات على السواء على إطفاء ظمئهم، في شيء من الفوضى المخيفة.

وتشكّل وربة نقطة مركزية تلتقي عندها طرقات عدة. وتنطلق الطريق إلى الرياض مباشرة من هذه الآبار في اتجاه الجنوب ثم الغرب. وبعد الآبار بقليل تقوم قلعة يقال إنها قديمة جدًّا، لكنني أعتقد من خلال تفحص الحجارة والآثار أن الموقع قديم لكن الركام الحالي لا يعود فعلاً إلى مئات السنين.

في الخامس من آذار/ مارس تركنا مضاربنا في وادي حنيفة وصعدنا مباشرة نحو سهل عردة نحو ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قدم، وإذ اتجهنا جنوباً امتدت أمامنا السهول المتعرجة نحو الرياض. إلى شمالنا، أي شرقاً ومن هناك قبالتنا إلى الجنوب الغربي والغرب امتدت السهول بعيداً في الأفق الذي راح يضيع في تلال عردة والتوابع. وقد سرنا ووادي حنيفة إلى يميننا. وبعد قليل وصلنا إلى قرية صغيرة ثم إلى آثار العاصمة القديمة الدرعية.

قبل ساعة من بلوغنا الرياض مررنا بمنزل ريفي وحدائق للأمير. وقد استقبلني خارج المدينة مبعوث من قبل الأمير (الإمام فيصل) وكان استقباله مقتضباً ولكن كافياً، وقادني إلى منزل وسط حديقة أقيم خصيصاً للأتراك والأجانب الآخرين. وبعد قليل جاءنا سكرتير الأمير الشخصي، محبوب، وأوضح لي أنه من الأفضل أن نظل خارج المدينة لأننا نتعاطى التدخين المعيب والناس قد تضايقنا. وقبل أن ينصرف سألني إن كان الضابط البحري الذي معنا هو أحد الضباط الذين يستولون على السفن في الخليج. ثم أعرب لي عن المرارة التي تشعر بها حكومته تجاه سلفي، وقال إنه لو بقي هناك لكانت بلاده عمدت إلى الانتقام من تصرف ضباطنا البحريين. وفي المساء عاد السكرتير وكرّر الكلام أمام رفاقي. وفي غضون ذلك كنا قد أخفينا القبعة الفضائية. وشرحت للسكرتير أن الضابط الشاب الذي معنا ليس أحد الضباط الذين استولوا على السفن بل هو مجرّد مرافق لي وأنه من المهم جدًّا أن يكون مع القافلة ملاح جيد أثناء

عبور هذه البحار من الرمل كما هو مهم لعبور بحار المياه. وسألته متى أستطيع مقابلة الأمير فقال إنه غير واثق تماماً لكن الإمام يصوم يومين إضافيين بعد انتهاء رمضان وأن غداً هو أول هذين اليومين.

انتظرت موفداً من سموه في السادس من آذار/ مارس لكن أحداً لم يطل. لكن بعد صلاة المغرب أرسل من يقول إنه سيسرّه لقائي في القلعة فذهبت إليه فوراً ومعي بقية الوفد. ولم تكن القلعة بعيدة بل في قلب المدينة. كانت هناك ساحة كبرى أمامها، وداخل البوابة الخارجية مباشرة كان هناك بضعة مدافع قديمة تسدّ الممر. ولم يكن في المبنى الكثير من الزخرفة الهندسية أما صالة الاستقبال فكانت ردهة طويلة سند سقفها بأعمدة خشبية تصعد إليها على سلم خشبي. وقد وجدت الإمام يجلس في صدر الغرفة على سجادة جميلة وقد أسند ظهره إلى مسند ضخم. وكان ابنه الأصغر يجلس إلى جانبه. وعلى مسافة بعيدة كان يجلس محبوب، سكرتيره الخاص. وحين اقتربت وقف الإمام في صعوبة ومدّ لي يده يصافحني ثم دعاني إلى الجلوس إلى جانبه على السجادة. كان شحيح النظر تماماً لكن وجهه كان رائعاً. وبدا عليه أنه جاوز السبعين، وكانت ثيابه تدل على ذوق رفيع جدًّا. وكان صوته منسجم النبرة وكلماته هادئة ومحسوبة. كان رجلاً جليلاً ولطيفاً، وبعد تبادل المجاملات قدمت أعضاء الوفد وأعربت له عن تشرفي بمعرفته. وردّ قائلاً إن الرياض مدينة غريبة على الأجانب وإنه لم يسمح لأحد من قبلي بالدخول إليها، لكنه واثق من أن كل شيء سوف يسير على ما يرام. وقد أكدت له أنني قمت بزيارات مماثلة للزعماء في آسيا الوسطى، وأنه لم تكن هناك سوى ذكريات حسنة بالنسبة إليهم جميعاً، وأن أي قلق يساوره بالنسبة إلى الأحداث الماضية يجب أن يبعد. ذلك أنه لا رغبة للحكومة البريطانية بالنسبة إلى قبائل الجزيرة العربية سوى أن تراها تعيش في ازدهار في ظل حكامها. وقال الأمير إن لبلده علاقات قليلة مع الخارج لكن له وكلاء في كل مكان يطلعونه على سير القضايا.

الجوف

بقلم جورج أغسطس فالين
(الحاج عبد الولي)

إذا هطلت أخصبت
أكثر من أي صحراء

أخبرني البدو أن وادي السرحان الذي اجتزنا قسماً منه يبدأ على ساعتين إلى الجنوب من دمشق، ويتتابع إلى محلة تبعد يوماً واحداً عن الجوف إلى الشمال، فتعترضه جبال «جال الجوف» ويجوز أن يقال عنها إنها، على مسمّاها، جوف القسم الشمالي من الجزيرة. ويمتد الوادي على جانبي السلسلة حتى يصل إلى النفود والدهناء، في الجهة الجنوبية من الجوف. ولا يجوز عدّ وادي السرحان وادياً منتظماً على ما رسموه في خرائطنا، فهو انخفاض في الأرض تعلوه ربى رملية ناعمة، وأرضه تشبه أرض النفود، إلا أن تلال النفود تمتاز عنها بأنها أعلى ارتفاعاً وأعظم قاعدة. ويخيل إليّ أن تلال السرحان الرملية تكونت من فعل الرياح التي قذفت برمل الصحراء وجمعته في أكوام حول جذور الشجيرات، فأخذت الأكوام تكبر تدريجاً مع الزمن وصارت تلالاً وجبالاً. وإذا هطل المطر بغزارة جعل هذه المحلة أكثر أراضي الصحراء خصباً. وقد رأيت الأعشاب والشجيرات تكسوها. وعبثاً حاولت الحصول على أية معلومات عنها في كتابات الجغرافيين العرب، بل إني لم أجد اسمها فيها وأظن أنهم حسبوها في الماضي جزءاً من الدهناء، وأن اسمها الحالي لم يطلق عليها إلا مؤخراً.

إن وادي الجوف دائري الشكل تقريباً، تحيط به سلسلة «جال الجوف» ذات الارتفاع المتساوي. وهذا الارتفاع يقارب خمسمائة قدم فيما إذا قيس من السفح. و «جال الجوف» جبال صخرية رملية تنحدر عموديًّا إلى الوادي وتغطيها الرمال بعض الأحيان في حين أنها تلتصق تدريجاً، من الجانب الآخر، بتلال الدهناء الرملية. وفوق

قمم السلسلة، إلى الشمال الشرقي، ترتفع هضبة الحمايات وتنفتح السلسلة إلى الشمال الغربي في شعب يطلق عليه اسم «القأو» فيه ممرّ يوصل إلى سورية. وتعترض الشكل الدائري في الغرب قمم معزولة ومتساوية الارتفاع تتفرع من السلسلة وتتصل بجبل كلسي آخر أقل انخفاضاً، ثم تنحدر تدريجاً إلى مركز الوادي فتنتهي في الرمال. وبلدة الجوف هي في آخر منحدرات الجبل الكلسي، في بقعة نصف دائرية الشكل، يبلغ طول قطرها من الغرب الشمالي الغربي، إلى الشرق - الجنوبي الشرقي حوالى ٣٥٠٠ خطوة.

وفي مركز نصف الدائرة هذه تنتصب «قلعة المارد» القديمة مواجهة للشمال فوق حرف من الجبل الكلسي، وتطلّ على الجوف والوادي بكامله. وهي خربة خالية من السكان، تبدو وكأنها مركز البلدة فقد شيدت حولها الأسواق والأحياء.

إن قطر الوادي، من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وهو أطول قليلاً من قطره في الاتجاه الآخر، يبلغ حسب تقديري حوالى ثلاثة أميال إنكليزية. أما التربة فرملية صلبة، ومجدبة في الغالب. وكلما ابتعدنا عن الجبل الكلسي ازدادت التربة محلاً، ذلك لأن الينابيع هي في الجبل، والآبار تحفر فيه.

إن أكثر بيوت الجوف مشيدة بالطين المجفف بالشمس (اللبن)، والمصبوب في قوالب مستطيلة الشكل، طول الواحد منها ثماني بوصات وعرضه أربع تقريباً، وعلوه بوصتان. وكل حي في الجوف يحيط به سور من اللبن يفصله عن الأحياء المجاورة له. والبيوت داخل السور قائمة من غير ترتيب، تفصل بينها في الغالب بساتين صغيرة وحفر عميقة نشأت من جرّاء الحفر في الرمل لاستخراج الطين. والأسواق ضيقة غير متناسقة ولا مرصوفة. وفي كل حي ساحة ينيخ فيها الغرباء جمالهم، وكذلك يحطون رحالهم فيما إذا لم يكن لهم أصدقاء أو من يعرفونه من الأهلين. وأهل الحي يجتمعون في هذه الساحة أيضاً قبيل المغيب ليبحثوا في أمورهم.

وأكثر المنازل فيها غرفة مستقلة عن البناء الرئيسي يسمونها «غرفة القهوة» يستضيفون فيها الغرباء. وفيها يتناول الضيوف الطعام والقهوة. والبساتين ومزارع النخيل بعيدة عن البيوت وتمتد في سفح الجبل الكلسي، وتتابع إلى أعماق الوادي. ولكل بستان سور خاص به يفصله عن البساتين الأخرى. وبين الأسوار ممرات ضيقة يستعملها المالكون للتنقل وتُستعمل أيضاً ليلاً ونهاراً أقنية لجرّ المياه من الينابيع إلى المزارع. ويخصص لكل بستان عدد من الساعات، بالنسبة إلى مساحته، يجرّ فيها الماء إليه، وهذه الحصة تحددها في النهار مواقيت الصلاة، وتحدد في الليل بواسطة

النجوم. غير أن هذا الري لا يكفي المزارع كلها فحفرت في البساتين آبار لتمدّها بما تحتاج إليه من مياه. أما العثور على الماء في هذا الوادي فسهل ولا يتطلب استخراجه الحفر العميق كما هو الحال في الجوار، فأعمق الآبار فيه لا يتجاوز عشر قامات. وبالإضافة إلى النخل المثمر الذي يبدو متأصلاً هنا، ينمو في الجوف أكثر الأشجار المثمرة المعروفة في البلدان ذات المناخ المماثل، وإن بكميات قليلة، كالتين والمشمش والإجاص والبرتقال والعنب.. إلخ. أما الرمان الكثير النمو في القرى القائمة على طول طريق الحج السوري وفي نجد، فلا تنجح زراعته هنا. وزراعة الخضار قليلة جدًا وهي أقل بكثير منها في نجد. وتزرع الذرة بين الأشجار في البساتين ويكاد محصولها يكفي حاجة زارعيها، وهذا أمر نادر في قرى الصحراء.

فيما يلي أحياء مدينة الجوف ابتداء من جهة الغرب:

الحي الأول: الغرب، ويقسم ستة أقسام اسمها: أشوان (عشوان؟ أصحوان؟). ابن حسيني. صنّاع المرعي. الجفرية. عين أم سليم. ابن قعيد. وهي قريبة بعضها من بعض، وتقع في الطرف الشمالي الغربي من الوادي، ويقطنها حوالي مئة أسرة تنحدر من شمّر وتحمل اسم «حمولة المناصبة»، ويقيم أكثرها في «ابن قعيد» (أكبر سوق في الحي) وفي «الجفرية» و «ابن حسيني». وسكان «أشوان» أصلهم من الرولة الرحل من قبيلة عنزة. وسكان «عين أم سليم» من عرب سرحان. وفي «صنّاع المرعي» يقيم الحرفيون الذين نزحوا من سورية وبلاد العرب. ويبدو أن حيّ «الغرب» هو أحد أحياء المدينة الحديثة.

الحي الثاني: الدرع، أو سوق ابن الدرع. وهو أقدم أجزاء البلدة. فيه بناء عتيق من حجر منحوت يقال إن الخليفة عمر حوّله إلى مسجد، وإن الإمام ابن سعود رمّمه. وفي قرب المسجد تنتصب مئذنة غير متصلة به، وهي المنارة الوحيدة في البلدة، بنيت على قوس باب الحي. وقد تكون «البرج المربع الرائع المبني بحجارة ضخمة وعريضة»، والذي ظن ريتر (بالاستناد إلى يوسف الملكي مرجع زيتسن) أنه مسلّة، أو قد تكون أيضاً ما ذكره بوركهارت أنها أحد «الإهرامات» التي أخبره عنها في حلب رحالون أتراك وقالوا له إنها موجودة في الدرعية. ولكنني لم أجد هذا البناء خارقاً، فهو باب مثل سائر الأبواب التي تستخدم في الشرق مدخلاً لمدينة أو لحي، يعلوه بناء مربع صغير له نوافذ وكوى كالأبنية المماثلة التي تصادفها في جميع الشوارع تقريباً، وفي القاهرة خاصة. ولما دخل الدين الإسلامي البلدة وبدا أن أفضل مكان للآذان هو الباب، شيّدت مخرطة برجية فوقه لتكون مئذنة. ولم أرَ سواها بناء يماثل المسلّة أو الهرم المزعوم.

ويقال إن هذا البناء كان في الماضي يتصل بقلعة المارد ـ وهي في الحي عينه ـ بواسطة نفق، وهذا النفق مغلق الآن، تطمره أحجار ونفايات. وقد شاهدت في القلعة المكان الذي يقال إن النفق ينتهي فيه. ويقول الأهلون إن ارتفاع أسوار «المارد» كان ضعف ما هو عليه الآن. وهي مبناة بعناية بحجارة كبيرة مربعة منحوتة، تشابه بهندستها أسوار قلاع دمشق القديمة. وعلوها يبلغ ثلاثين إلى أربعين قدماً فوق الجُرُف الذي تطلّ عليه. ومدخلها الرئيسي في يومنا هو في هذا الحي على منحدر الجبال الجيرية، ولكن هناك، في الجانب الغربي، ممرًّا خلفيًّا ضيّقاً يقال إن باباً حديديًّا قويًّا كان في طرفه، ويروى أن الخليفة عليًّا شقّه بضربة واحدة من سيفه يوم الفتح الإسلامي للجوف. ولم أر في الداخل شيئاً يستحق الذكر، ولم أجد آثار نقوش. ولم يطرق سمعي أن كنوزاً أو أشياء ثمينة اكتشفت في الأطلال.

إن الكثير من بيوت هذا الحي مبناة جزئياً بحجارة مربعة ومنحوتة شبيهة بحجارة القلعة والمسجد. وأما البيوت في الأحياء الأخرى، وفي جميع قرى الصحراء، فمبناة باللبن والصلصال.

وسكان الدرع متخالطون. يقال إن القسم الكبير منهم نزح إليه من الشقراء في نجد العريض. وريتر يشير في كتابه إلى بني در بأنهم يقيمون في واد في جبل أجأ وادي حفل (أو هفل؟). وقد يعتبرون أجداداً لسكان الدرع، اضطروا إلى مغادرة مساكنهم، وربما سلكوا الدرب التي ما تزال مطروقة، عبر القسيم، إلى جبلي طيء، ومن هنا إلى «جبة» فالجوف. ولا تزال بعض أسر أقدم سلالة تدعو نفسها القراريط تزعم أنها نزحت في البدء من جبة، ولعلها بقية الذين أشار إليهم مؤلف «القاموس» باسم «قروط» فقال إنهم من «كلاب». والمعروف عن هؤلاء أنهم عاشوا قديماً في هذه النواحي، وربما في جبة حيث لا يزال حي اسمه «سوق الكلاب». ولما كنت في جبّة أخبرني أهلها أن هؤلاء القراريط يملكون كتباً قديمة جدًّا مكتوبة بلغة مجهولة وتحوي تاريخهم وأنسابهم. ولم أسمع شيئاً من هذا في الجوف مع أني كنت صديقاً حميماً لشيوخها ومعمّريها. وفي الدرع ثلاثة ينابيع غزيرة: الكبرى، وبرد زبيدى، وعين الجمل. ومجموع السكان هنا يبلغ حوالى مئة وثلاثين عائلة.

الحي الثالث: سوق السعيديين، أو السراح، تقيم فيه خمس قبائل هي السعيدين، والعمر، والعباس، والسلمان، والهبوب. ويرجع أصل الأربع الأولى إلى قرية السراحية وقرية رخام في سورية، والقبيلة الخامسة من «الموالي» وجميعهم يبلغون مابة وعشرين عائلة. ويظهر أن هذا الحي يعدّ، بعد الدرع، أقدم أحياء البلدة. وفيه قلعة القصيرة

الجديدة إلى حد ما، والمبناة باللبن فوق الصخرة عينها التي بنيت عليها قلعة المارد، وقد بنيت قبالتها وعلى قرب منها. ويقال إنها بنيت قبالة قلعة المارد في زمان كان العداء مستحكماً بين الحيّين المتجاورين.

الحي الرابع: سوق الرحيبيين، وفيه حوالى سبعين عائلة، يقال إنهم نزحوا من قرية رحيبة السورية التي ذكرها الرحّالة الأميركي الدكتور روبنسون وقال إنها في الأرض «التحتا» بين حوران والنبك. وفي هذا السوق نبع جارٍ اسمه العروس.

الحي الخامس: العلاج، فيه أربعون عائلة نزحت من الطفيلة. ونبع مائة اسمه غنرنه.

الحي السادس: خذما، وسمي هكذا باسم نبع فيه، وسط الحي، يعطي ماء الري الضروري لبساتين الجوار. ويبلغ عدد سكان الحي ستين عائلة يقولون إن أجدادهم من الطبقة السادسة نزحوا من وادي السرحان إلى الجوف. وبما أنهم حافظوا على لغة بدوية صافية وعلى عادات البدو أكثر من سواهم من أهالي الجوف فهم يدعون أنفسهم بدواً، أو رحلاً، ويسمّون جيرانهم «قراونة». وهذه الكلمة كثيرة الاستعمال في سورية ولها معنى كلمة «فلاحين» في مصر. وبين سكان «خذما» عشر عائلات زنجية الأصل تعرف باسم «المتولّدين»، يمتاز أبناؤها عن الآخرين بلون بشرتهم القاتم، وببقايا ملامح زنجية صارت طفيفة. وفي الأحياء الأخرى يعيش بعض عائلات أخرى من المتولّدين من زنوج، بيعوا عبيداً في سوق مكة وجاء بهم مالكوهم إلى مساكنهم في الجوف وأعتقوهم فيما بعد، وتزوجوا نساء منهم، وزوجوهم، فيما ندر، نساء عربيات. وهكذا تكاثر المتولدون وانتشروا في الصحراء، ويصادفون في القرى وفي خيام البدو الرحل.

الحي السابع: الدلهمية، وكان في السابق صغيراً وقريباً من «خذما» فيه حوالى عشرين عائلة تنحدر وسكان السرّاح الذين هم حلفاؤها من منبت واحد. وكان بينهم وبين سكان «خذما» و «الجرعاوي» ـ المتحالفين ـ نزاع قديم. ومنذ ثماني سنوات، انتصر لأنسبائه في الجرعاوي فدمرت عساكره حي الدلهمية ونهبوه وخربوا بساتينه وقطعوا نخيله وطمروا آباره، ولم يتركوا لأصحابه سوى الحياة و «حرية» اللجوء إلى حلفائهم السراح.

وعلاوة على تلك الأحياء السبعة، القريب بعضها من بعض، والكائنة من منحدرات الجبل في شكل نصف دائرة ـ هنالك في الوادي خمسة أحياء صغيرة أخرى، هي:

الحي الثامن: القراطين، في الجزء الغربي من الوادي، بين جبال الجوف والجبل الداخلي، وفيه أسرتان محالفتان سكان «الغرب».

الحي التاسع: الوادي، في سفح جبل منفرد يسمّى «سبّه» مخروطي الشكل، في الجانب الآخر من الوادي إلى الشمال الغربي من «المارد» قرب جال الجوف، وفيه ثماني عائلات من قبيلتي «ذربه» و «مناحي» تحالف سكان الدرع.

الحي العاشر: غطّي، في شمال شرقي «المارد» في قعر الوادي تسكنه عائلتان تحالفان السراح.

الحي الحادي عشر: السعيدان، وهو مزرعة نخيل يرويها بئر، وتملكها أسرة زنجية تسكن خذما.

الحي الثاني عشر: الجرعاوي، فيه أربع عائلات من أصحاب الحرف، نزحت من جبة أصلها من «أرمال» أحد بطون شمّر. وفي أثناء النزاع الذي كان بين السراح والدلهمية من جهة، وبين خذما والجرعاوي من الجهة الأخرى، دُمّر حي الجرعاوي تدميراً شاملاً وطرد أصحابه من أرضهم فذهبوا إلى حلفائهم في خذما. وبعد أن تسلّط (ابن الرشيد) على الجوف وأنهى النزاعات بين أسواقها، أذن للجرعاوي بالعودة إلى حيّهم وبناء بيوتهم وتنظيف آبارهم وإعادة زرع ما قطع لهم من نخيل. ولما غادرت الجوف كانوا يتأهبون للرجوع من خذما إلى بيوتهم الجديدة.

إن سكان الجوف لا يحتفظون إلا بالقليل من تقاليد مدينتهم القديمة ومن تاريخها. ويزعمون أن بلدتهم الأصلية تعود إلى زمان سليمان بن داود، وأنها أسست سنة ٨٠٠ للميلاد. وهذا عصر لم يطرق ذكره سمعي، في أي مكان آخر من العالم الإسلامي.

إن أبناء الشمال العربي وأبناء نجد يعتقدون أن الملك الحكيم المذكور «حاكم الأنس والجن والحيوان» هو أول من مدّن بلادهم وأقام القرى وحفر الآبار التي يفترض أنه بناها بمساعدة الجن. ويبدو أن اعتقادهم هذا يرمز إلى أن المدنية أتتهم من سورية، على عكس من المدنية المفروض وجودها عند عرب اليمن، وهي مدنية أخرى مختلفة عن الأولى، كانت وليدة موقع اليمن الجغرافي، وثمرة العلائق والمبادلات التي جرت منذ القدم بينها وبين الهند والحبشة. وأبناء الجوف لا يعرفون شيئاً من تاريخ المدة الطويلة التي تفصل بين سليمان الحكيم والنبي محمد (ﷺ) سوى أن بلدتهم كان اسمها «دومة الجندل»، وهو الاسم الذي يطلقه عليها إلى يومنا هذا الجغرافيون العرب.

ويروى أن البلدة في ذلك الزمان كانت أكبر حجماً، وفيها من بساتين الفاكهة والنخيل ما يغطي مساحة أكبر من الوادي، فيها آبار وعيون كثيرة. ويحيط بها كلها

سور واحد. وهنالك حتى الآن آثار عديدة لزراعة الماضي في أرض تفوق مساحتها مساحة الأرض المزروعة حاليًا. وبين وقت وآخر تكتشف أنفاق مبناة بحجارة مربعة دقيقة النحت وممتازة التقطيع، فقد تكون بنيت لجرّ مياه الأمطار، أو لجرّ مياه الآبار والعيون التي اختفى أثرها. وفي مقامي هنا اكتشفوا في السعيدان نفقاً للمياه قديماً وكبيراً يكاد يتسع لأن يقف الإنسان فيه منتصباً. والمرجّح أنه متصل بالبئر الوحيدة هناك، وكان الرمل يطمره. وما رفع منه من الرمل حتى الآن لا يفسح لمعرفة طرفيه معرفة أكيدة. وكذلك اكتشفت أنفاق أخرى في البلدة تمتد إلى محلات ليس للزراعة فيها من أثر الآن.

وفي قعر الوادي بقايا جدران من طين مجفف في الشمس يقال إنها بقايا السور الذي بناه «الأكيدر» ليحيط بلدته به. وكثيراً ما يكشف عن أوانٍ منوعة مطمورة في الأرض، منها هواوين حجرية تشبه الهواوين التي تستعمل في جميع بلاد نجد لطحن البن المحمص، والتي اشتهر بصنعها سكان الجوف. وتصنع هنا كميات كبيرة منها تباع في نجد، وقد يبلغ ثمن الواحد منها جنيهاً. ويكشف الحفر أيضاً عن «محامل منافخ» تماثل في شكلها تلك التي يستعملها اليوم الحرفيون العرب، إلا أن الأولى منحوتة من الحجر، وأما الحالية فأكثرها مصنوع من الطين. وقيل لي إنه عثر على نقود عتيقة وإن بعضها يرجع إلى أيام موسى (!) وعلى الرغم من التنقيب، ومن البحث بين الأهالي، لم أقع على سوى قطعة نقد ذهبية واحدة من العهد الفاطمي. ولم أعثر على أية نقوش أو كتابات قديمة.

في أول عهد آل سعود دخل البلدة أحد قادة ابن سعود بجيشه ودمّر في حي الدرع قبراً قديماً تعلوه قبة، كانت الناس تعتبره مدفناً لذي القرنين. وبعد أن جمع القائد الزكاة - إحدى فرائض الإسلام الأساسية الخمس - تابع طريقه وترك في الجوف ممثلاً يحكمها باسم ابن سعود. والأئمة المتعلّمون (ويسمونهم «الخطباء» هنا وفي نجد) يتلقون علومهم في المدينة والدرعية بنفقة ابن سعود. ويرسلون أيضاً إلى هنا بنفقته ليعلموا الناس الدين الإسلامي تعليماً نقيًا إصلاحياً وهكذا خمدت النزاعات والعداوات، وسادت العدالة والأمن أراضي ابن سعود الواسعة. والناس جميعهم هنا يذكرون تلك الأيام بحماسة. ولما انحسرت سلطة آل سعود أمام والي مصر (محمد علي باشا) الذي احتلت جيوشه مقاطعات نجد وشمالي الجزيرة العربية كلها، إلا الجوف وحدها، عادت الفوضى والاضطرابات إلى سابق عهدها في الجوف، فقام لها عبدالله ابن الرشيد، بعد أن ثبّت سلطانه في جبل شمّر، وبعث أخاه عبيدالله إليها فوضع حدًّا للعداء الذي كان بين خذما والدلهمية والذي بسطته سابقاً. وقد جرى ذلك حوالي

سنة ١٨٣٨. ومن ذلك الزمان خضعت الجوف لسلطان رئيس شمّر دون أن يكون له ممثل يقيم فيها.

إن لكل حي في الجوف شيخه الذي يحكم بخلافاته الصغيرة. أما النزاعات الكبيرة الأهمية فتعرض على رئيس شمّر شخصيًا، وهذا الرئيس يدعو المتنازعين إلى عاصمته حائل ويناقش المسألة علناً في اجتماع عام وبمشورة القاضي.

والزكاة في الجوف يجمعها خمسة يختارهم شيخ شمّر من أبناء البلدة. وأما شؤون الدين فيقوم بها «خطباء» تنتخبهم أحياؤهم. ويجري ذلك بأن كل حي ينتخب خطيبه من سكانه على حدة. ولا يزال في خدمًا خطيب واحد هو بقية الذين تلقوا علومهم في المدينة، إنه من جبل شمّر. أما الآخرون فمن الجوف. ولكل سوق مسجده تقام فيه الصلوات اليومية وتُلقى من على منبره خطبة الجمعة. وجرت العادة أن يفسّر الخطيب بعد صلاة الظهر أحاديث نبوية أو آيات من القرآن الكريم.

إن الأولاد هنا ـ كما في جميع القرى ـ يلقّنون (منذ الصغر) أصول الدين وشعائره. والكتابة والقراءة منتشرتان بينهم أكثر مما هي عليه في المدن العربية التركية. ومع أن المعروف عن أهل الجوف أن طباعهم قاسية، وأنهم يميلون للتشاكس، فالجميع يشهدون لهم بأنهم مضاييف كرماء، ومهذبون مع الغريب. وأعلن، فيما يتعلق بي شخصيًا، أني لم ألق، حتى بين أكرم عرب الصحراء، قبيلة تفوق أهل الجوف في أفضالهم. ولم يستقبلني أحد أحسن من استقبالهم إيّاي. وهم مشهورون أيضاً بمواهبهم الشعرية. ولم تمض ليلة لم أسمع فيها أغنية تصاحبها آلة البدو الموسيقية الساحرة، على رتابتها. ولا أقول إن أهل الجوف يفوقون البدو الآخرين بمواهبم الشعرية والموسيقية، فهذه المواهب تهمّ البدو أجمعين. وأما ما ذكره بركهارت عن أن رجال الجوف يجولون أحياناً في الأرض المجاورة مغنّين فلم أقع على دليل يثبت صحته. بل لم ألتق في بلاد العرب، ولا في المناطق المجاورة، مهاجرين أو رحّالة من الجوف. ويندر أن يغادر الجوفيون أسواقهم إلا فيما إذا طلبوا إلى حائل، أو فيما إذا قصدوا مكة المكرمة لإتمام فريضة الحج.

إن أبناء الجوف لا يغزون لحسابهم الخاص، وقد يشترك بعض منهم في غزوات عرب شمّر. وليس من عاداتهم أن يقصدوا البلدان المجاورة كما يفعل سكان شمّر والقصيم ليتموّنوا القمح والأرز والضروريات الأخرى، ولكن حلفاءهم من عنزة والشرارات يأتون بهذه الأصناف من سورية والعراق. ولما كانت بساتين الفاكهة والنخيل تُسقى، إلى حد بعيد، من مياه الينابيع والآبار القليلة العمق التي يسهل

استخراج الماء منها فليس للناس من حاجة إلى الإبل. ولهذا قلّ عدد الذين يملكون جملاً، وهو الحيوان الذي لا غنى عنه في البلاد العربية. وتستخدم الثيران والبقر، بدلاً من الجمال، في استخراج الماء من الآبار العميقة. والماء يسحب منها في قرب من جلود الإبل والثيران والبقر.

والمواشي هنا، وفي جميع بلاد العرب، من نسل صغير وهزيل، والعربي يتلكأ كثيراً عن ذبح ماشية لطعامه. وجميع الحيوانات التي تستخدم للري، بما فيها الإبل، تسمى بالصواني. وبما أن أهل الجوف لا جمال عندهم - وهذه وحدها وسيلة النقل والاتصال في الصحراء - فهم يعتمدون على البدو اعتماداً كليًّا في قضاء حاجاتهم التجارية. وحالهم في هذا عكس الحال في بلاد العرب. وعلاوة على ذلك فالنزاعات والحروب الداخلية المزمنة بين سكان الجوف كانت دائماً تكبح النشاط التجاري. والموقع الذي اختاره أولوهم لبلدتهم كي يدرأوا عنهم الغزاة، لا يشجع على المواصلات والتجارة.

ونستطيع أن نخلص إلى القول إن تأثير الجوف في التاريخ العربي بقي دائماً ضئيلاً. ذلك لأن المدينة تحيط بها رمال شاسعة لا مياه فيها، فلا تمرّ بها طريق الحج من سورية، ولا من العراق، إلى مكة التي اعتبرت مركز تجمّع العرب في جميع الأزمنة وكانت مهد المدنية العربية والإسلامية.

وبسبب هذه العزلة عن البلاد الحضرية المجاورة، اضطر أبناء الجوف للاعتماد على مواردهم القليلة من محصول أرضهم الفقيرة. وهذا المحصول أكثره من التمر، ليبادلوه بأصناف أخرى.

يقول بعض الكتاب العرب إن الزيتون كان نامياً هنا. وأما في الوقت الحالي فليس أية شجرة. وأشك بكون التربة صالحة لزرعه. ومن المحتمل أن القليل الذين كانوا يحتاجون إليه مما لا تنتجه بساتينهم، كانوا يأتون به، كما هو الحال، من المقايضة بالتمر، فيشترونه بأنفسهم من السوق السنوية، وهي التي قال القلقشندي عنها إنها كانت تقام عندهم في الأزمنة القديمة. وقصو الجوف عن الدروب المطروقة وصعوبة الوصول إليها كان السبب الرئيسي لإقامة سوق فيها.

إن تمر الجوف من أطيب أصناف التمر. ونكهته تفضّل على نكهة تمر البصرة وبغداد. ومع أنه كاد يظلّ طعامي الوحيد طوال أربعة أشهر فلم أملّ تذوّقه أبداً. وبه وبتمر تيماء يضرب المثل. ولكن في تيماء صنفاً واحداً جيداً وأما تمر الجوف فجميع أصنافه جيدة وتعدّ من أطيب الأصناف. وقد أكلت منها خمسة عشر صنفاً، على الأقل،

وكلها من ذات النكهة الفائقة. والأهلون يقولون إن السبب في جودها يرجع إلى أن النخيل في الجوف لا يروى بكثرة كما هو الحال في المناطق الأخرى. وفيما يعمل أهل نجد بالمبدأ القائل: «كلما رويت الأشجار بكثرة زاد السكر في أثمارها» يعاكسهم ملاكو الجوف فلا يروون أشجارهم إلا مرة كل ثلاثة أيام، أو أربعة.

ويؤدي سكان الجوف الزكاة لزعيم شمّر فيتصرف بها على مشيئته. غير أن هذه التأدية لا تدرأ عنها هجمات رحّل الجوار. وكل حي (سوق) يدفع «خوة» لشيخ، أو لعدة شيوخ من البدو. و «الخوة» في الغالب كمية معينة من التمر. والقبائل الرئيسية التي تستوفيها هي الشرارات والرولة من عنزة - وتسمى أيضاً كلاس - والنايف والشعلان، وهما بطنان من الرولة عظيمان، يعيشان أكثر أيام السنة في حوران. والبدو يعرفون حوران باسم «نقرة الشام». وينتشرون صيفاً في النفود سعياً إلى مراعي إبلهم العديدة، ذات اللون الرمادي الفاتح، في جوار الجوف وجوار بئر الشقيق، ويذهبون أحياناً جنوباً حتى القصيم، وشرقاً وشمالاً شرقاً حتى الجزيرة وتخوم العراق حيث يلتقون فيها بعض أنسبائهم. ويعيش عدد كبير من أثرياء البدو أكثر الوقت في المدن، كلٌّ بنفقته الخاصة، ويرسل قطيعه مع راع خاص إلى الصحراء المجاورة ولا يلبث أن يرجع هذا بالقطيع بعد بضعة أيام في طلب الماء.

ولمّا ينضج التمر يجمع شيوخ البدو ما استطاعوا منه لقاء «الخوة» التي فرضوها على الأهلين، ويضعونه في جلود ويقايضون به وببعض الجمال المسنّة التي صارت للنحر كي يحصلوا على ملابس مختلفة ثم يعودون إلى منازلهم في حوران.

ويعيش أكثر الشرارات - على ما قلناه سابقاً - في وادي السرحان، ومنه ينتقلون إلى النفود، وقد ينتقلون إلى جبال الشراة. والبطون الرئيسة في القبيلة هي:

أ - الفُليحان، وشيخهم يدعى «الحاوي» وهو سيّد القبيلة بأسرها.

ب - الضباعين، والعشيرة الرئيسية في هذا البطن اسمها شوشان.

ج - الحُلساء، أو: الحلسة وشيخهم ابن دعيجة.

د - العزّام، وشيخهم شبلي.

هـ - السليم، وشيخهم الدويري.

والشرارات يعتبرون الجوف بلدتهم، ويلزمون جوارها ما استطاعوا. وفي موسم الحصاد يأتونها زرافات للمقايضة بقطعانهم وبالأصواف والأرز والزبد والأجبان التي

استطاعوا جلبها من أماكن أخرى. والأصناف الرئيسية التي يعرضونها هي التمر والحصر المنوعة وأقمشة الخيام والأكياس المصنوعة جميعها من الصوف، ومنها أردية كثيفة مدفئة يدعى واحدها «عباءة» - وفي الغالب يدعى «مشلح» - اشتهر سكان الجوف بحياكتها. وهذه العباءات - على خشونة نسجها - متينة ومدفئة، وتحمل للبيع بعيداً حتى مكة عبر جبل شمّر. وهذا الاتجار يتم بالمقايضة بسبب ندرة النقد هنا، وهو حال أكثر الصحراء.

يعتقد سكان الجوف أن مدينتهم في وسط الدنيا، ولذا يطلقون عليها اسم «جوف الدنيا». والواقع أن المسافات التي تفصلها عن عبور الصحراء، المحيطة بها، إلى أقرب الأراضي المزروعة تكاد تتماثل. فيمكن الوصول من الجوف إلى دمشق في سورية، وإلى النجف أو مشهد علي في العراق، وإلى المدينة في الحجاز، وإلى الكرك في فلسطين، في حوالى سبعة أيام. والعرب الحاليون يسمّون دمشق باسم «الشام الكبيرة» محاكاة لتسميتهم القاهرة بمصر الكبيرة، واسمها القديم (دمشق) يقتصر استعماله على المتعلّمين الذين يلفظونه كما ضبطه الكتاب العرب، اما العامة في الجوف ونجد، وحتى في سورية، فيلفظونه دمشق، وأحياناً: دمشق. ويضرب السوريون المثل بقولهم «الشام دمشقاء» أي أن دمشق نظيفة وجميلة وأن شعبها أنيق لبق. وإذا استحقت مدينة شرقية مثل هذا المديح فدمشق به أجدر.

والأهلون يعدّون مواضع الماء في الطريق من الجوف إلى دمشق في الأماكن الآتية: النبك (في وادي السرحان، وعلى يوم من الجوف)، ومريرة، وغراب، وقراقر، والحازم، وأزرق، وبصرى (في نقرة الشام)، وحريره، ورزدلي في طريق الحج، والعوج، ودمشق. ومواضع الماء من الجوف إلى الكرك هي هذه: مبقوع، العيون البيض، العمري، الحفاير، اللجون.

والطريق من الجوف إلى الرياض، وهي المطروقة في الأكثر، تمر عبر جبل شمّر والقصيم، ويحتاج قطعها إلى حوالى اثني عشر يوماً أو ثلاثة عشر. ومن المحتمل أن لا تزيد المسافة من الجوف إلى الرياض على سبعة أيام فيما إذا كان السير عبر الصحراء، بينما يصعب الوصول إلى المدينة (المنورة) في طريق تيماء والحجر بأقل من تسعة أيام. والطريق من الجوف إلى العراق تمرّ بأرض النفود، إلى الشمال الشرقي من الجوف، وتتصل بالدرب الذي يطرقه أهل جبل شمّر في زياراتهم المتعددة للعراق. أما الجوفيون فلا يزورون العراق إلا نادراً.

والكتاب العرب لا يذكرون مدينة الجوف باسمها هذا مطلقاً ويبدو أن هذا الاسم

مرجعه شكل الوادي الواقعة فيه البلدة، والذي وصفناه بأنه فجوة غائصة في سلسلة الجبال المحيطة بها. وأما الصحراء المحيطة بالجوف والتي قد يقال إنها تابعة لها فليست أرضاً منخفضة تنحدر تدريجاً من نجد إلى سورية كما وهم فون هامر الذي استشهد به ريتر في مؤلفه «أرض كوندي» فقد فسر كلمة الجوف العربية بمعنى السهول الفسيحة والأرض المنخفضة بالنسبة للجبال العالية التي تحيط بها. وأنا رأيت العكس. ولا أجد مفرًا من عدّ أرض الجوف أعلى، نسبيًا، من أرض نجد وجبال «جال الجوف»، ومن الأراضي الجبلية والحجرية المحيطة بها من الغرب ومن الشمال، وهي تشكل ما يقرب من قمة الهضمة الشمالية من جزيرة العرب. وعليّ أيضاً أن أفنّد ما ذهب إليه هذا الجغرافي العالم الذي قال إن القسم الجنوبي من منطقة الجوف جبلي، معتقداً أن القسم الشمالي منخفض نسبيًا ومسطح. والواقع هو العكس: فقد رأينا سابقاً أن القسم الشمالي من سلسلة الجبال يرتفع عالياً ويمتد إلى الغرب، أو إلى الشمال الغربي، مع سلسلة العضيري التي هي أدنى منه. ومنحدرات السلسلة الشمالية تتألف من بقاع جيلية تمتد على مسافة يوم حتى وادي السرحان. وأما الأجزاء الجنوبية والشرقية من السلسلة فهي، على العكس، منخفضة ولا تمتد إلى أرض نجد بل تنتهي في طرف الوادي. ولذا أقول إنه ليس هناك من صلة بين هذه الجبال وجبلي طيء اللذين ظن ريتر أنهما ينحدران تدريجاً حتى أرض الجوف المزعوم انخفاضها.

وإلى الشمال الشرقي من الجوف، على إحدى عشرة ساعة منها، بلدة أخرى اسمها «سكاكة» (وهنا يسكّنون سينها ويلفظونها: سكاكة) وفيها حصن خرب يعرف بزعبل، وفيها أيضاً أربعة أحياء أو أسواق، هي: العمران والسحيان والحرقان والفياد. وياقوت الحموي يحسب سكاكة في عداد القرى التي منها دومة الجندل، ويروي أنها مسوّرة غير محصنة تحصين دومة الجندل، ويقول أيضاً إن سكانها أقل بأساً من سكان دومة الجندل وأظن أن قوله هذا ينطبق على أصحابها الحاليين أيضاً، رغم أني لم استطع خلال إقامتي في الجوف أن أزورها، ولكن كان يأتيني منها في الغالب رجال ليستشيروني في أمراضهم فبدوا لي خشنين.

وإلى الشمال الشرقي من الجوف، وعلى ثماني ساعات منها، محلة صغيرة تدعى قصر الطوير، تسكنها حوالى عشر عائلات. وبين المحلتين موضع ثالث يقال له «قارة» تقطنه ما يقرب من عشرين عائلة أصلها من الدغمي من عنزة، وفيها حصن قديم يعرف بالمشرفة. وقيل لي إن القرى الثلاث تقع في أرض منبسطة ذات تربة قاسية فيها مياه وآبار عميقة، مما جعلني أعتقد أن الصحراء في هذه المنطقة تحاكي الصحراء الممتدة إلى الشمال الغربي ولمسافة يوم تقريباً، في ميزات أرضها الجبلية، تنبثق من جال

الجوف وتعترضها سلاسل، وهذه المنطقة كلها تخضع لشيخ شمّر وتؤدي له الزكاة التي يجبيها جباة الجوف أنفسهم.

ولا يزال الأهلون يذكرون اسم الجوف القديم ـ دومة الجندل ـ والجوف لم يعرف عند جغرافيي العرب إلا بالاسم القديم. ويقول أبناؤه إن هذا الاسم يعني كومة من حجارة كبيرة. وإذا صدق قولهم جاز اعتبار هذا الاسم أنه قد يرمز إلى الجبل الكلسي الذي أشرت إليه والذي يرتفع فوق منبسط الوادي في شكل الكومة. إن بعض السكان يؤكدون أن كلمة جندل تعني الصخور التي يتألف منها الجبل المذكور. غير أن المؤلفين العرب لا يتفقون على أصل الكلمة، فالبعض يرجعونها إلى دوم، ودومان، ودومة، ودوماء بن إسمعيل بن إبراهيم. وكما اختلف المؤلفون في ضبط اسم مؤسسها كذلك اختلفوا في لفظها، فمنهم من يرفع الدال ومنهم من يفتحها.

وأورد ياقوت في معجمه الجغرافي العظيم زعم ابن الكلبي أنه:

«لما كثر ولد إسمعيل عليه السلام بتهامة، خرج ابنه دوماء حتى نزل موضع دومة وبنى به حصناً فقيل: دوماء، ونسب الحصن إليه. وهي على سبع مراحل من دمشق».

وقال أبو سعد:

«دومة الجندل في غائط (حفرة) من الأرض خمسة فراسخ، ومن قبل (جهة) مغربه عين تثج (تسيل) فتسقي ما به من النخل والزرع».

وربما استطعنا القول إن هذه العين هي عين أم سليم. ويتابع أبو سعد قوله إن في البلدة حصناً أطلق عليه اسم المارد نسبة للحجارة الضخمة والثقيلة التي بني بها.

وقال أبو عبيد السكوني:

«دومة الجندل حصن... قرب جبلي طيء، كانت فيه بنو كنانة من كلب. ودومة من القريات، من وادي القرى إلى تيماء أربع ليال. والقريات (هي) دومة وسكاكة وذو القارة. فأما دومة فعليها سور يتحصن به، وفي داخل السور حصن منيع يقال له مارد، وهو حصن أكيدر الملك، ابن عبدالملك بن عبدالجن بن أعيا بن الحارث بن معاوية ابن حلاوة بن أبامة بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن أشرس بن غفير وهو كندة السكوني الكندي. وكان النبي (ﷺ) وجّه إليه خالد بن الوليد من تبوك وقال له: «ستلقاه يصيد الوحش». وجاءت بقرة وحشية فحككت قرونها بحصنه فنزل (أكيدر) إليها ليلاً ليصيدها فهجم عليه خالد، فأسره، وقتل أخاه حسان بن عبدالملك وافتتحها خالد عنوة، وذلك في سنة تسع للهجرة (٦٣١م). ثم إن النبي (ﷺ) صالح أكيدر

على دومة، وأمنه وقرر عليه وعلى أهله الجزية، وكان نصرانيًا، فأسلم أخوه حريث فأقره النبي (ﷺ) على ما في يده. ونقض أكيدر الصلح بعد النبي (ﷺ) فأجلاه عمر رضي الله عنه من دومة في من أجلي من مخالفي دين الإسلام إلى الحيرة، فنزل في موضع منها، قرب عين التمر، وبنى فيها منازل وسماها دومة، وقيل دوماء، باسم حصنه بوادي القرى، فهو قائم يعرف إلا أنه خراب. قال: وفي إجلاء عمر رضي الله عنه لأكيدر يقول الشاعر:

يا مَن رأى ظعناً تحمل عدوةً

من آل أكدر، شجوه يعنيني

قد بُدلت ظعناً بدار إقامة

والسير من حصن أشم حصين».

و «أهل كتب الفتوح مجمعون على أن خالد بن الوليد رضي الله عنه غزا دومة أيام إبي بكر رضي الله عنه عند كونه بالعراق سنة ١٢، وقتل أكيدر لأنه كان نقض وارتدّ، وعلى هذا لا يصح أن عمر رضي الله عنه أجلاه. وقد غزي وقتل في أيام أبي بكر رضي الله عنه.

«وأحسن ما ورد في ذلك ما ذكره أحمد بن جابر في الفتوح له، وأنا حاك جميع ما قاله على الوجه، قال:

«بعث رسول الله (ﷺ) خالد بن الوليد رضي الله عنه سنة تسع إلى أكيدر بن عبدالملك بدومة الجندل فأخذه أسيراً، وقتل أخاه.

«وقدم بأكيدر على النبي (ﷺ) على أرضه وكتب له ولأهل دومة كتاباً وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب للإسلام وخلع الأنداد والأصنام، ولأهل دومة:

«إن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور. ولا تُعدل سارحتكم ولا تعدّ فاردتكم ولا يحظر النبات. تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة لحقها. عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم به الصدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين».

قيل: الضاحي هو البارز: الضحل الماء القليل. البور الأرض التي لم تستخرج.

المعامي الأرض المجهولة. الأغفال التي لا آثار فيها. الحلقة الدروع. الحافر الخيل والبراذين والبغال والحمير. الحصن دومة الجندل. الضامنة النخل الذي معهم في الحصن. المعين: الظاهر من الماء الدائم. لا تعدل سارحتكم: أي لا يصدقها المصدق إلا في مراعيها ومواضعها ولا يحشرها. وقوله: لا تعد فاردتكم أي لا تضم الفاردة إلى غيرها ثم يصدق الجميع فيجمع بين متفرق الصدقة. ويتابع أحمد بن جابر كلامه قائلاً: «فلما مات رسول الله، ﷺ، منع أكيدر الصدقة وخرج من دومة الجندل ولحق بنواحي الحيرة وابتنى قرب عين التمر بناء وسماه دومة. وأسلم أخوه حريث بن عبدالملك على ما في يده فسلم له ذلك، فقال سويد ابن الكلبي:

«فلا يأمنن قوم زوال جدودهم

كما زال عن خبت ظعائن أكدرا»

وقال ياقوت:

«وتزوج يزيد بن معاوية ابنة حريث. وقيل إن خالداً لما

«انصرف من العراق إلى الشام مرّ بدومة الجندل التي غزاها

«أولاً وفتحها وقتل أكيدر... وروى أيضاً أن أكيدر

«كان منزله أولاً بدومة الحيرة، وكان يزور أخواله من

«بني كلب، وإنه لمحهم وقد خرجوا للصيد إذ (ظهرت)

«لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا حيطانها، وهي مبنية بالجندل

«فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها

«دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة، وكان

«أكيدر يتردد بينها وبين دومة الحيرة».

انتهى ما نقله ياقوت عن دومة، وهي بلدة الجوف الحالية. وهناك - إلى هذه الرواية - إشارات عديدة من الشعراء إليها. وفي مخطوط «معجم البلدان» لياقوت، وهو مخطوط ثمين يملكه المتحف الآسيوي في سانت بطرسبورغ، وعنه نقلت هذه المقتطفات، أخطاء كثيرة فلم أستطع وضع ترجمة حرفية لنصها.

ومن الواضح أن دومة الحيرة التي قال ياقوت عنها إنها أخت لدومة الجندل هي المحلة التي أطلق عليها بوركهارت اسم «دومة حير» أو «دومة حور» . ومثله فعل

ريتر - وهذه الدوحة تقع في أرض العراق المنبسطة والمنخفضة، وهي على بعد ستة أيام، في الأقل، من دومة دمشق. ولصاحب «جيوغرافيا ساكرا» كل الحق بأن يسمّيها بالأرض المنبسطة. ولكن لا سبيل للجغرافي الألماني الشهير لأن يستنتج أن نايبور لم يعرف الجوف من طرفها الجنوبي، على أساس أنه الجانب الجبلي الوحيد، بينما هو يشير ومثله زيتسن إلى أن الجانب الشمالي منها هو أرض منبسطة.

أما آخر مؤرخي العرب القدماء، وأكثرهم دقة، كوسان دي برسفال فقال في مؤلفه «بحث في تاريخ العرب قبل الإسلام»، نقلاً عن الطبري وعن سواه من كتّاب العرب:

«في السنة الثانية عشرة للهجرة، عندما أرسل أبو بكر قائديه خالد بن الوليد وعياض بن غم في طريقين مختلفين لفتح العراق لحق (أبو بكر) بعياض الذي سلك الطريق الرئيسي عبر الصحراء لإخضاع دومة الجندل الثائرة. وحاصر عياض البلدة ولكنه لم ينل منها فكتب إلى خالد في عين التمر - وكان قد احتل الحيرة والأنبار - أن يأتي إلى نصرته فترك خالد حامية في البلدان المحتلة وأسرع إلى نجدة زميله في دومة الجندل، فأخضع البلدة وثائريها، وأعدم أكيدر الذي رفض محاربته وطلب إلى السكان أن يسلّموا المدينة ويصالحوا المسلمين. وأعدم أيضاً حاكماً آخر هناك هو جودي الذي هاجم خالداً على رأس مقاتلين من دومة من بدو الجوار، وأخذ أسيراً في القتال. ويضيف برسفال: إن مؤرخين آخرين يروون أن أكيدر وحده أسر وجيء به إلى المدينة أمام النبي (ﷺ) وأطلق عمر (رضي الله عنه) سراحه فيما بعد ونفاه إلى العراق حيث ابتنى دومة الحيرة».

وقد نستخلص مما تقدم أن أكيدر اضطر إلى الفرار من المسلمين، أو أنه ما كان أسره ليطول أمده فيما لو وقع أسيراً، ولكان أذن له بالعودة إلى بلدته، أو أنه نفي إلى العراق، وربما عاد من الدومة التي أسسها هناك إلى دومة الجندل التي كان له فيها نفوذ، وذلك إلى الوقت الذي قرر فيه عمر (رضي الله عنه) في بدء خلافته، تنفيذ أمر النبي (ﷺ) بعدم السّماح لغير معتنقي الإسلام بالإقامة في بلاد العرب فاضطر عندها أكيدر إلى مغادرة موطنه واللجوء إلى دومة الجديدة.

ويبدو أن التقاليد المعمول بها اليوم ما تزال تروي نبأ احتلال المسلمين دومة الجندل وطردهم المسيحيين منها، كما تنسب إلى عمر (رضي الله عنه) احتلال البلدة. وفيما تذكر هذه التقاليد أن عليًا (رضي الله عنه) ساعد في الغزو، وأنه شقّ بضربة من سيفه الباب الحديدي لقلعة المارد، فأنا لا أعرف مؤلّفاً ذكر أن عليًا (رضي الله عنه) شارك في قهر دومة الجندل. والتقاليد تخلط آخر احتلال للدومة في خلافة عمر أو أبي بكر بغزو الرسول (ﷺ) لها عندما كان في تبوك وأرسل جنوده بقيادة خالد لاحتلالها.

وسكان تبوك والجوف الحاليون يرون أن تلك الحملة كانت الوحيدة التي قام بها المسلمون على مدينتهم. ومن المحتمل جدًّا أن الاحتلال المذكور تمّ في ذلك الوقت إذ إن النبي (ﷺ) تلقى وهو في تبوك رسائل من مدينتي أيلة وأذرح يعرض فيها أصحابهما تأدية الجزية شرط أن تبقى لهم حرية الاحتفاظ بدينهم. أما الغزوة التي تمت في السنة الخامسة للهجرة وذكرها رشيد الدين في تاريخه، ووردت في «تاريخ الخميسي» وفقاً لكوسان دي برسفال فكانت لمعاقبة بعض قبائل كلب وسكون الذين هاجموا قوافل آمنة في طريقها من سورية إلى المدينة المنورة، ولم يكن لها من تأثير في الوضع السياسي للمنطقة إلا ما سلبه المهاجمون من السكان.

القلقشندي، في «الأنساب»، يعد دومة الجندل سوقاً من أسواق العرب كانوا يأتونها من قريب وبعيد، في أول يوم من شهر ربيع الأول ويتاجرون فيها بالمقايضة حتى آخر الشهر، فيستضيفهم أكيدر حاكم البلدة، ويقول القلقشندي أيضاً إن بني كلب كانوا يهتمون أحياناً بتلك السوق ويرعونها ويقوم شيوخهم باستضافة العرب.

«... فكانوا ينزلون دومة الجندل في أول يوم من ربيع الأول، فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، فيعشرهم رؤساء آل بدر في دومة الجندل، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر». ـ «أنساب العرب» (ط. بغداد).

ويضيف كتّاب العرب إلى ما تقدم أن سكان دومة الجندل كانوا يعبدون صنماً اسمه «ود». ورأيي أن الصحراء لم تكن أبداً موطن عبدة أصنام، فهذا ليس من طبيعة البدوي القح، كما أن طبيعة الأرض لا تتفق وعبادة كهذه. وأعتقد أن الذين أدخلوا في القديم عبادة الأصنام إلى بعض مناطق بلاد العرب هم قبائل يمانية أخذت تنزح إليها بين وقت وآخر واحتلت نجداً وشمالي بلاد العرب. ومن المحتمل أن عبادة الأصنام أتت اليمن من الهند. وكان ـ ولا يزال ـ بين الهند وأجزاء الجنوب العربي بعض اتصال، ولكنه اتصال نشيط جداً. والنازحون من اليمن كانوا يطرقون درباً تقودهم إلى مكة التي تبدو لي أقرب إلى المدن الهندسية بميزاتها منها إلى العربية. ومن هنا انتشروا في الحجاز وتهامة وفي سفوح الجبال المتلاصقة والممتدة من السلسلة الرئيسية في اتجاه شمالي شرقي، والقائمة حدوداً لنجد في الشمال، ومن هناك أتوا تدريجاً إلى جبلي طيء. وكان عليهم، وهم في تلك الحالة، اختيار واحد من الطريقين يؤدي أولهما شمالاً شرقاً إلى العراق وفارس، والآخر يؤدي شمالاً غرباً بطريق الجوف، أو تبوك، إلى سورية ومصر وشمالي إفريقية. وربما كان أولئك النازحون يحملون «معبودهم» في أسفارهم وينصبونه حيث أقاموا ليسجدوا له ويعبدوه.

٣٠ من آب/ أغسطس ـ غادرت الجوف ترافقني عائلة بدوية من قبيلة صغيرة اسمها هوازم تعيش مع الشرارات في جوار سُكاكة. أظن أن هوازم هذه من بقايا قبيلة «العدوان» القديمة ذات النفوذ الكبير، وقد انتشرت باسم هوازم في قسم واسع من نجد، وكان لها تأثير شديد في الماضي البعيد. وهذه البقية تعيش عيش قلّة إذ يغزوها دائماً جيرانها الأشداء في شمّر، بل ينهبها صغارهم أيضاً ويسوق الغزاة مواشيها إلى مضاربهم. فحفاظاً على نفسه وعلى ما تبقى له من إبل قليلة قرر مرافقي أن ينزح مع عائلته إلى أرض أعدائه، ثقة منه بأنه يعيش آمناً في طاعته شيخ شمر وتأديته الزكاة له. ولما كان رفيقي في حاجة إلى من يحميه في طريقه فقد طلب إلى امرأة متزوجة أصلها من جبّة شمّر ومقيمة في الجوف أن ترافقنا مع زوجها فكانت مرافقتها لنا كافية لرد الغزاة من قومها الذين التقيناهم في طريقنا.

قطعنا وادي الجوف باتجاه جنوبي شرقي في ثلاثة أرباع الساعة. ثم تسلقنا جبال «جال الجوف»، وهي في هذه الناحية منخفضة تغطي الرمال الناعمة جوانبها. وتابعنا السير فوصلنا إلى رمال سهل النفود دون أن ننزل من القمة، وذلك لأن السهل وآخر القمم متساويان في ارتفاع واحد. وهذا الرمل يمتد إلى قرب سلسلة أجأ في جبل شمّر. وبعد خمس ساعات من السير في هذه البقعة الرملية توقفنا للمبيت.

٣١ من آب/ أغسطس ـ سرنا ثلاث عشرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة في اتجاه جنوبي ـ جنوبي شرقي حتى أتينا إلى آبار الشقيق الست. وهي في سهل تربته مالحة صلبة على عكس الرمل الناعم الذي تتكون منه الأراضي المحيطة بهذا السهل. وعمق الآبار من عشرين إلى خمس وعشرين قامة، وقعرها أحواض واسعة تنتهي عند السطح بفتحات. قطر الواحد منها حوالى الياردة ـ وهي مبنية بحجارة كبيرة ومهارة وعناية فائقة، وعلى الفوهة لاحظت رسوماً مختلفة ولأشكال قد تكون حروفاً. والرسوم ممحاة غير واضحة. والماء عذب جيد ومتوافر طوال السنة. وهذه هي الآبار الوحيدة بين الجوف ونجد، تقع في أرض غنية بمراعيها، حتى في أواخر فصل الصيف. ولها أهمية كبيرة لأنها صلة الوصل بين سورية ونجد، ولأن العرب الرحل يقعون فيها على المرعى في جميع الفصول. وطوال الشهرين الأخيرين من هذا الصيف نزلت على الآبار مئات من عائلات الرولة والشمّر والشرارات إذ وجدت مراعي تكفي إبلها العديدة. ولما بدأت الآبار تشحّ اضطرت هذه العائلات إلى مغادرة المكان فرحلت قبل يومين من وصولنا.

والمسافة بين الجوف والشقيق اثنتا عشرة إلى أربع عشرة ساعة، قطعناها في ما

يقرب من عشرين ساعة على جمالنا الهزيلة. وقد تكون الآبار الست هي التي ذكرها ياقوت وقال إنها «ماء لبني أسيد بن عمرو بن تميم. وشقيق الشيء أحد جزأيه. وقيل: الشقيق جمع شقيقة، وهو كل غلظ بين رملين». وهذا الوصف ينطبق على طبيعة الأرض التي حفرت فيها الآبار الست المذكورة. وقد لاحظت أن جميع الآبار التي مررت بها في أرض النفود هي في تربة شبيهة كل الشبه بهذه التربة.

أول أيلول/ سبتمبر ـ لم نسر سوى ست ساعات فقط، فقد قضينا أكثر النهار عند الآبار نملأ قربنا ونسقي جمالنا. ثم سرنا، كأمس، في اتجاه جنوبي جنوبي شرقي، ورأينا إلى يميننا طوال الوقت سلسلة منخفضة من الجبال اسمها «الطوال»، تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ما لبثت أن اختفت عن أنظارنا في اليوم الثاني قبيل الظهر.

٢ من أيلول/ سبتمبر ـ سرنا أربع عشرة ساعة ونصف الساعة في الاتجاه عينه، في درب واضح المعالم اسمه «الخل»، على طول الطريق من الجوف إلى جبّة، تغطيه الرمال التي تذريها الرياح في بعض الأماكن. وهذه الرمال حيّرت دليلنا ولم يعد متأكداً من أننا على الطريق الصواب، ولكن في الصباح بدت أمامنا في الأفق ـ أي إلى الجنوب ـ الجنوب الشرقي ـ قمتان منعزلتان ترتفعان فوق هذا المحيط من الرمال كأنهما منارة تهدي إلى منتصف الطريق بين الجوف وجبّة.

٣ من أيلول/ سبتمبر ـ وصلنا بعد ثلاث ساعات إلى الجبلين، وهما متلاصقان تقريباً. وتبدو قاعدتاهما كأنهما واحدة ترتفع منها القمتان في شكل مخروطي. والقمة الشمالية اسمها «العليم»، واسم الثانية: «التركي». وقد تكونان القمتين اللتين أسماهما ياقوت باسمي: «السعد» و «دجوج» وقال إنهما على يوم واحد من دومة الجندل وترتفعان عالياً وتكادان تتلاصقان. ويقول ياقوت أيضاً إن دجوج رمال تمتد على مسيرة يومين لتكون على يوم واحد من تيماء التي تبتدىء بعدها الصحراء «الصحراء السورية على الأرجح».

«دجوج: رمل متصل بعلم السعد: أيلان، من دومة على يومين. ودجوج: رمل مسيرة يومين إلى دون تيماء بيوم، يخرج إلى الصحراء بينه وبين تيماء». ـ ٨: ٤٤٢.

وعلى يوم من تيماء تبدأ أرض النفود. والمسافة من القمتين إلى تيماء تقدر بمسيرة ثلاثة أيام على الأرجح. ومسافة اليوم الواحد ـ التي قال ياقوت إنها تفصل بين الجبلين والجوف ـ ولا تتوافق وبُعد القمتين عن الجوف.

وللجبلين أهمية العلامة، وهي أهمية كبيرة في صحراء يسهل فيها أن يتيه المسافر بسبب رتابة مناظرها. ومن الجبلين سرنا في ذلك اليوم اثنتي عشرة ساعة ونصف الساعة.

٤ من أيلول/ سبتمبر ـ مشينا ثماني عشرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة. وفي الصباح الباكر شاهدنا أمامنا في الأفق ـ إلى الجنوب الشرقي ـ جبلاً آخر اسمه جبل أم سلمان وفي سفحه مدينة جبّة التي نقصدها. فتابعنا السير في اليوم الثاني ثلاث عشرة ساعة حتى وصلنا إلى جبّة.

طالت الرحلة من الجوف إلى جبّة سبعاً وثمانين ساعة. وكانت جمالنا ضعيفة جدًّا وهزيلة، ولا سيما في خلال الأيام الأربعة الأخيرة إذ لم تذق فيها الماء. وكثيراً ما بركت تعباً في اليومين الأخيرين بالرغم من الضربات والرفسات التي انهالت عليها لحثّها على القيام. واضطررنا لأن نترك جملاً ملقيًّا في ظلّ شجيرة. وكانت الجمال ترعى في الطريق ما تلقاه من عشب يابس. وصار بعضها الذي لا يمتطيه أحد يبعد أحياناً عن الدرب (طلباً للمرعى) فنضطر، أنا ودليلي وزوجته الحاملة طفلها على صدرها ومعها ولداهما الصغيران، أن نترجل لنعيده إلى الدرب مما سبّب لنا تأخيراً كبيراً. وإذا نظرنا، بالإضافة إلى ما تقدم، إلى طبيعة الأرض المتموّجة ذات التلال والأودية المتالية، والتي تغطّيها رمال ناعمة كانت حوافر الجمال تغوص فيها أحياناً، وإذا نظرنا أيضاً إلى انعطافات الدرب وانحناءاتها لتفادي الأرض الوعرة، قدّرنا أن جميع تلك العوائق زادت ما يقرب ثلث المدة من الوقت عما كنا نحتاج إليه لقطع المسافة عينها في أرض متساوية سهلة. واتجاه طريقنا كان نحو الجنوب ـ الجنوب الشرقي، وفاقاً للقاعدة التي ينصح بها سكان المنطقة للمسافر الذي ينوي قطع هذه الصحراء، وهي: «اتجه بحيث يكون النجم القطبي على عظم لوح الكتف اليسرى».

تقع جبّة في سهل فسيح إهليلجي، تربته حجرية صلبة تميّز مواضع المياه في هذه المنطقة ويحيط بالسهل تلال متصلة منخفضة جداً ومكوّنة من صخور رملية، يرتفع فوقها إلى الغرب ـ الشمال الغربي جبل «أم سلمان» العالي، وإلى الشرق ـ الجنوب الشرقي قمة أخرى أقل علواً اسمها «الغوطة».

والمسافة بينهما عشرة أميال إنكليزية تقريباً. والسهل في الاتجاه الآخر من الشمال إلى الجنوب أطول قليلاً من هذه المسافة. والتلال التي تحدّ السهل في الطرف الجنوبي منخفضة جدًّا، تغطيها الرمال جزئيًّا، حتى ليصعب تمييزها عن تلال النفود الرملية المتاخمة لها. أما تلك التي في الشمال فأكثر ارتفاعاً. وإلى الشمال قرب «أم سلمان» قمة صغيرة اسمها عنيزة تقع في الجزء الشمالي من السهل على مسافة ميل

واحد من «أم سلمان» ـ وتتألف من خمس أسواق هي: الطريف والسلال والحمالة والكلاب والمجعلان. والمجعلان منفصلة عن الأسواق الأولى وتمتد في السهل نحو الجنوب، بينما الأسواق الأربع الأخرى تتلاصق في صف واحد من الشرق إلى الغرب.

وتبنى منازل جبّة من اللبن ـ واللبن مادة البناء الأولى في الصحراء، وتكاد تكون الوحيدة ـ وهذه المنازل فسيحة ورحبة أكثر من منازل الجوف، وتصميمها الهندسي مختلف. ولواجهات البيوت الكبيرة شكل يحكي مداخل المعابد المصرية القديمة وكل منزل له بستان يلاصقه، وفي الغالب يحيط به، في حين أن جميع بساتين الجوف بعيدة عن البلدة. وفي كل بستان هنا بئر للريّ يستقى منها بواسطة الجمال. ويعنى بالبساتين عناية فائقة، وتنسق تنسيقاً حسناً. وفوق الآبار عرائش، وكذلك فوق الممرات التي تمشي عليها الحيوانات وهي تسحب الماء من البئر. والماء يسحب بدلو من الجلد. أما النخيل في جبة فأقل جودة من بلح الجوف وتيماء. وإلى التمر الفاكهة الأخرى التي تنتجها هذه البلاد هناك شجرة من فصيلة الصنوبر اسمها «الأقل» تنبت قليلاً جدًّا في المناطق الشمالية من بلاد العرب، وهي برية، وأما في نجد فيزرعها الأهلون كثيراً لأجل خشبها الذي يستعملونه دون سواه في البناء.

وليس في جبّة ينبوع ماء جار، بل فيها آبار كثيرة جميعها عميقة، ومياهها ثقيلة مع بعض ملوحة.

عدد العائلات في جبة يقرب من مئة وسبعين بيتاً جميعهم من قبيلة أرمال التي تعتبر من أشرف بطون شمّر وأعظمها شأناً. وهؤلاء الجبّيون يختلفون عن سكان المناطق التي مررت بها. وكذلك تختلف ملامحهم عن ملامح السوريين. فبشرتهم تبدو سقيمة، وأجسامهم ضعيفة، وفي بلدتهم أمراض عديدة تتفشى، وقد يكون هذا سببه ملوحة الماء والتمر غير الجيد الذي هو الغذاء الرئيسي للسكان، هنا وفي أنحاء نجد جميعاً. وعيش الجبيين هو عينه عيش البدو الرحل، فيما عدا أنهم يقيمون في مضارب ومنازل ثابتة. وأكثرهم يملكون قطعاناً كبيرة من الإبل يوكلون العناية بها إلى إخوانهم البدو أو يرسلونها مع رعاة منهم إلى الرعي في الجوار. ويساعدهم موقع البلدة وعدد رجالهم على درء هجمات الأعداء، وعلى عدم وقوع أي نزاع بينهم وبين شيوخ البدو والرحّل، بل إنهم يغزون بدون انقطاع الشرارات والقبائل الأخرى في الأجزاء الشمالية من أرض النفود.

قلّ أن يأتي جبّة باعة جوّالون أو تجار عابرون، كالذين نلقاهم في القرى على درب الحج وفي بلدان الصحراء الكبيرة. غير أني لقيت أثناء إقامتي في البلدة تاجراً من المدينة المنورة كان يتذمر من قلة العمل.

والسكان يشترون ملابسهم ولوازمهم من حائل. ويشترون مؤونتهم، القليلة، من الأرز من العراق بواسطة حلفائهم من البدو. وهم يزرعون بأنفسهم القمح والذرة والشوفان وغالباً ما يفوق المحصول حاجتهم.

ويأتي إلى هنا كثيرون من قبائل مختلفة، ولا سيما في موسم التمر. وفي أثناء إقامتي في جبة بلغ عدد خيام البدو الرحل في السهل، وبين المنازل، أكثر من مئة وخمسين خيمة جلّهم من الرولة وشمّر، وكان في العداد أيضاً أفراد من عنزة، وبشر، وتقراء، ومن الشرارات وهوازم اللذين حالفوا شمّر. وحشود الرحل لا تفارق جبّة في جميع الفصول لأن في جوارها أخصب مراعي منطقة النفود، ولأنها المحلة الوحيدة التي فيها ماء بين هذه المراعي والشقيق.

إن التقاليد القليلة التي ورثها أهل جبّة عن أجدادهم وعن أصحاب أرضهم القدماء، هي التقاليد التي يعمل بها الشمّريون. ولا أشير هنا إلاّ إلى ما يتعلق منها بجبّة وحدها لأني سأذكرها فيما بعد.

يرتفع جبل أم سلمان حوالى خمسماية قدم عن السهل، ويشكّل علامة بارزة في المنطقة. ويقال إنه في الأزمان السالفة كان اسمه القطيفة. وسنحت لي الفرصة مراراً في رحلتي أن أعرف كيف تستبدل بأسماء حديثة أسماء المواضع القديمة التي نقلتها إلينا التقاليد أو الجغرافيون. وهذا التغيير أمرٌ طبيعي جدًّا في بلاد العرب حيث تعاقب الكثيرون على حكم منطقة ما، أو على الإقامة فيها. ومن المحتمل كثيراً أن يكون هذا التغيير قد حصل لجبل أم سلمان. فالكلمة تبدو حديثة. ومثله حصل لقمة التركي التي سبق ذكرها.

والسكان الحاليون يروون أن سلفاءهم في هذه الأرض كانوا يقيمون منازلهم وقصورهم في الجبل حيث تشاهد آثارها حتى اليوم. وقد دلّوني إلى مواضع أسواق البلدة القديمة وإلى طرقها الممتدة بين الجروف وهم يزعمون أن جوانب الجبل العمودية المرتفعة إنما هي بقايا جدران القصر الذي بناه الجنّ لإيواء الجدود. وأكدوا لي أنه يعثر أحياناً على قطع أدوات في بعض شقوق الجبل.

أما أنا فلم ألحظ في بقايا منازل أجدادهم المزعومة سوى كهوف خربة وشقوق في جبل من صخور رملية لينة. وبفعل الأزمان فُتّتت تلك الصخور وصارت مغاور وشقوقها كبيرة فجعلتها مخيلاتهم الواسعة منازل وقصوراً سكنها جدودهم. وربما كان هؤلاء من ساكني الكهوف. ومن المحتمل أيضاً أن تكون تلك الكهوف من صنع زلزال شديد مفاجىء، فهنالك حجارة ضخمة جدًّا وصخور كبيرة قد تناثرت في السفح مما يحمل

على الظن أنها انسلخت من القمة وتدحرجت إلى أسفل. وهكذا يبدو السهل من داخله وكأنه واد صغير أو قاعة كبيرة بلاطها الجبال وجدرانها الجبال. ويقول السكان إن السهل بكامله ـ لا جزءاً منه ـ كان يزرع في القديم وتغطيه حقول الذرة والبساتين، ويرويها كلها نبع في اسم سلمان لا يزالون يشيرون إلى رأسه في أحد الشقوق. وكان الماء ينقل في أقنية إلى السهل المجاور. ويقال إن بعض الأثلام التي نراها في أجزاء من السهل تشير إلى مجاري الأقنية. ويقال أيضاً إن الآبار في ذلك الزمان كانت غزيرة وعديدة أكثر منها اليوم، حتى لتتّسع فوّهة الواحدة منها لستين دولاباً تسحب بها جميع الدلاء الجلدية الثقيلة في آن واحد. أما اليوم فالنبع جاف. وجميع محاولات السكان للعثور على طرفه قد ذهبت سدى. وكذلك فشلت التعاويذ والرقى التي يرغمون كل غريب يأتيهم على التلفّظ بها لعل الماء يفور من جديد.

وصاحب «القاموس» هو الكاتب العربي الوحيد الذي ذكر هذا المكان وقال: إن جُبّة لبني طيء. وياقوت يذكر «قُطيفة» على أنها جبل في أعلى طرف وادي مُبهل كان لعبدالله بن غطفان. وينقل عن أبي زيد «أن قطيفة ماء لعمرو بن كلاب». ولإثبات هذين القولين روى شعراً لامرىء القيس في الأول، وشعراً لأبي جابر الكلابي في القول الثاني. ويجوز عدّ القولين صحيحين فيما إذا ذهبنا إلى أن امرىء القيس يعني الجبل وأن الشاعر الآخر يعني النبع الجاف. ولعل النبع كان ذا مياه في زمانه. وإذا كان مبهل اسم السهل الذي فيه البلدة ـ ولم يطرق هذا الاسم سمعي أبداً ـ كان جبل أم سلمان في طرف السهل الأعلى، وذلك لأن السهل ينحدر نحو الجنوب ـ الجنوب الشرقي باتجاه قمة الغوطة المقابلة.

وعلى جوانب أم سلمان، وعلى الصخور الضخمة الكثيرة في سفحه، نقوش عديدة مختلفة، بعضها نقش بأداة حديدية حادة، ونقش البعض الآخر بألواح حجرية لونها ضارب للحمرة، وأكثرها من صنع الصغار الذين يمضون الوقت في نقشها وهم يرعون المواشي. ولكن هناك، ولا ريب، نقوشاً تعود إلى الماضي البعيد، وأكثر أشكالها تمثّل جمالاً، وخيلاً، وخيلاً أخرى يمتطيها فرسان حاملين رماحاً، وتمثّل كلاباً، وخرفاناً وحيوانات برية من الصحراء. ولفت نظري رسم قديم يمثل عجلة صغيرة ذات أربعة دواليب منخفضة جدًّا يجرّها جملان. ومن المشهور أن العجلات، اليوم، نادرة جدًّا في الشرق، ولا سيما في بلاد العرب حيث لم أر سوى في تيماء أناساً يستعملون أحياناً عجلة صغيرة لها دوالي منخفضة لجرّ الحجارة وهي تشبه بمنظرها وتركيبها العجلة المرسومة على صخرة في سفح أم سلمان.

إن جميع هذه النقوش والرسوم غير متقنة، صنعتها يد غير مدربة، وتحاكي تلك التي رأيتها في أماكن أخرى من شمالي بلاد العرب، في جوار تبوك. ووجدت أطولها وأوضحها في الجانب الشمالي الشرقي من أم سلمان، على سطح يخيّل إلى الناظر أن قسماً منه سوّي لهذه الغاية. والحروف مطموسة في الصخر الرملي الهش وتصعب قراءتها. ولعل هذه الحروف، أو العلائم، نقشت في الأصل على كامل جزء مسطح في جانب جبل له شكل القطع الناقص. وقد قدرت طول أكبر قطريه بحوالى الياردة. وتُرى نقوش أخرى على بعض الصخور الضخمة المنقورة في السهل بسفح الجبل.

وفي أسفل النقوش رسم جمل. وقيل لي إن جوانب السلسلة مغطاة جميعها برسوم ونقوش كهذه، فنزلت إلى السفح متفحصاً جوانب الجبل والصخور وتبيّن لي أن النقوش تكاد لا تذكر كلما ابتعدت عن القمة الرئيسية أم سلمان. وعلى الجانب الشمالي الغربي من أم سلمان وجدت نقشاً بالحرف العربي الحديث.

١٨ من أيلول/سبتمبر ـ غادرت جُبة يرافقني دليل من شمّر وسرنا عبر السهل باتجاه قمة الغوطة ووصلنا إليها بعد ساعات ثلاث. وفي الجانب الآخر من القمة، ومباشرة، تبدأ أرض النفود مرة أخرى وقد اعترضها سهل جبّة المتموّج بالتلال والأودية الرملية.

ومن هنا تشاهد قمم معزولة كثيرة ترتفع فوق المتموّجات ويحدّها كلها سلسلة جبال أجأ العظيمة التي بدت لنا من بعيد إلى الشرق ـ الجنوب الشرقي.

سرنا اليوم ست ساعات أخرى فقط.

١٩ من أيلول/ سبتمبر ـ وصلنا بعد تسع ساعات في سيرنا نحو الشرق ـ الجنوب الشرقي إلى قرية صغيرة اسمها قنا، في سهل أرضه «طباشيرية» شديدة البياض، وتحيط بالسهل سلسلة من تلال صخور رملية. وسكان القرية خمسون عائلة من قبيلة أرمال، وفيها ست آبار عميقة، مياهها غزيرة وعذبة، وبين الواحدة والأخرى مسافة قصيرة، وقامت حول كل بئر في السهل قرية صغيرة من ستة منازل إلى عشرة، وتتصل بها بساتينها. وسكان قنا يجزمون، مثل سكان نجد، بأن بلدتهم مسقط رأس أبي زيد بطل بني هلال الشهير في حكايات العرب، وأن «السلطان حسن»، زعيم بني هلال أقام هنا.

وينقل ياقوت عن أبي زياد أن قنا ماء لبني قشير، ونقل أيضاً عن رجل من طيء: أن «قنا جبل في شرقي الحاجر، وفي شماليه جبلان صغيران يقال لهما صايرتا قنا».

وعلى ساعة إلى الجنوب من قنا تنتهي فجأة أرض النفود وتتحول إلى أرض مستوية،

صلبة، تغطيها طبقة رقيقة من الحصى الغرانيتية الخشنة. وهذه الأرض يتألف منها أكثر نجد ويسمّيها العرب «قاعا» لاستوائها، ويسمّونها «جلدة» لصلابة تربتها. أما الأرض المتموّجة وذات الجبال أو التلال الرملية فيسمّونها «وعراً».

واسم «النفود» يكاد يكون الاسم الوحيد الذي يطلق اليوم على البقعة الرملية الفسيحة التي جعلناها سبيلنا من الجوف. وكلمة النفود ـ مثل اليوم كلمة «البطحاء» ـ تستعمل لتعني الرمل الناعم المتفكّك، وتطلق على كل منطقة أو سهل أو واد تربته من هذا الرمل. وفي اللغة القديمة كانت تعني القحط وعدم وجود المؤونة والماء. ومن المحتمل أنها أطلقت في البدء على كل بقعة صحراوية فسيحة يتعرض فيها المسافرون وجمالهم للهلاك بسبب طول الدرب ونقص المؤونة والماء. وهكذا استعملت كلمة «مهلكة» وكلمة «بيداء» للمعنى عينه. والأراضي التي تنطبق عليها هذه التسمية قليلة، ولعل أجدرها بها هي هذه البقعة المعروفة اليوم باسم النفود. وقليلاً ما يسميها السكان الحاليون باسمها القديم «الدهناء» الذي عرفها به كتاب العرب. وإذا ما استعملوا كلمة «الدهناء» فللدلالة على رمل ناعم وكثير. وهم يقولون الدهناء (بفتح الهاء وليس بتسكينها). ولم تطرق سمعي لفظة «ضحي» سوى مرة أو مرتين. ويستعملون كلمة «طاووس» لتسمية التلال الرملية التي تكثر في النفود.

إن النفود من أعظم بلاد العرب ومن أوسعها. تغطي نصف الجزء الشمالي بكامله من البلاد العربية. وإذا عددنا وادي السرحان جزءاً منها كان بدء حدودها الغربية من جبل حلوان المنعزل، وهو على مسيرة ثماني ساعات إلى الشرق من تيماء، إلى وادي أويسط ومنه إلى محلة تبعد يومين إلى الجنوب أو الجنوب الشرقي من دمشق. والحدود الجنوبية تمتد من حلوان بشكل نصف دائري، وعلى طول الطريق الذي اتبعته من تيماء إلى جبل شمّر، وتقترب هذه الحدود كثيراً من جبل أجأ، حتى لتكون منه أحياناً على ساعات قليلة.

والحدود الشرقية غير (منتظمة) بسبب التلال الرملية التي تمتد بغير تساو، فمنها ما يصل تقريباً إلى الخليج الفارسي، ومنها ما ينتهي بسرعة في السهل الحجري بين النفود وساحل البحر. وأعظم هذه التلال وأطولها سلسلة اسمها الدهناء، وقال لي بدو شمّر إن أولها قرب الجوف وتتابع نحو الجنوب الشرقي محاذية مقاطعة الأحساء التي تشكّل حدودها، حتى تنتهي في رأس الخيمة. ومن المحتمل كثيراً أنها تتصل برمال يبرين الفسيحة.

أما الحدود الشمالية والشمالية الشرقية لأرض النفود فلم أستطع معرفتها معرفة

أكيدة، وقد تكون من تكملة سلسلة الدهناء الشمالية التي تنعطف إلى الشمال الغربي حول أرض الجوف وتتصل بوادي السرحان. والأجزاء الغربية من النفود مرتفعة وغير سوية. وهي سلاسل تلال وأودية رملية تتالى في جميع الاتجاهات.

أما الأجزاء التي بين الجوف وجبّة وبين حلوان وأويسط فهي متوسط النفود. والحدود الغربية تتمثل جليًا بسلسلة النفود التي بدت لي، من المكان الذي شاهدتها فيه، أنها ترتفع ما يقرب من ماية أو مايتي قدم عن سطح الصحراء السورية المتاخمة، وتتلاصق تلالاً رملية وكأنها أسناد جبال تحدّ ذلك السهل الحجري الماحل. وفي ناحية الحدود الجنوبية، في الأرض المنحدرة نحو أجأ، تتسع الأودية لتصير سهولاً مجوّفة ويقلّ ارتفاعها، وتعترضها هنا وهناك تلالٌ رملية منخفضة تتفرع من الأجزاء الغربية المرتفعة. ويحيط كل تلّين منها بواد مسطح وطويل ينحدر على مسافة قد تطول أو تقصر نحو الخليج الفارسي.

وما رأيته من وادي السرحان له الميزات عينها. على أن تموّجات السطح فيه أقل بروزاً منها في هذه البقاع. وبين وادي السرحان والنفود ـ وهما الجزآن الرئيسيان من هذه الصحراء الرملية الفسيحة ـ ترتفع عالية سلسلة «جبال الجوف» والأرض الجبلية المتاخمة لها، وتطلّ على هذين الجزءين، وتمتد على جانبيها تلال من الرمال.

إن أرض النفود من أغنى مراعي بلاد العرب، لكن العرب لا يروونها إلا في فصل الربيع فقط، طلباً لمياه الأمطار التي تتجمّع في برك وأحواض. والماء قليل جدًّا في أجزائها الوسطى، لذا يندر أن تشاهد مضارب للبدو بين الشقيق وجبّة. أما الأجزاء الشمالية من وادي السرحان ومنحدرات النفود الجنوبية المتاخمة لجبل شمّر فيزورها العديد من البدو طوال السنة.

وينزل الشرارات والرولة في الأجزاء الشمالية من وادي السرحان، ويضرب بشر والشمّر في المنحدرات. وفي المنحدرات الشرقية يتنقل الشمر والضفير والمنتفق في الشتاء والربيع. أما في الصيف فيتجه البدو جميعاً إلى الأراضي المزروعة: فالشمّر إلى أراضيهم والآخرون نحو الفرات ودجلة. وفي هذه الآونة يصادف القليل من البدو في الدهناء إلا عائلات من سلابة، أوضع عشائر هتيم.

وقرب آبار «لينة» الغزيرة تنزل أحياناً إحدى القبائل الكبيرة وترعى قطعانها في الأرض المجاورة. وإقامتهم هناك خطرة لأنهم يتعرّضون لجماعات البدو الغازية التي تمرّ بالمكان كثيراً لتموّن الماء. وفي هذه النواحي من المنطقة تكثر الآبار والصهاريج، غير أن كمية المياه ومدة وجودها ترتبطان بهطول المطر. وقال لي البدو

إن الماء العذب متوافر طوال أيام السنة في طريق الحج العراقي، عبر منحدرات صحراء الدهناء الشرقية والمعروفة إلى يومنا باسم «درب زبيدة». وقالوا لي أيضاً إن الآبار هنا عميقة ولكنها لا يفوق عمقها عمق الآبار المحفورة داخل المنطقة.

وفي مؤلف ياقوت الجغرافي (معجم البلدان) مقال طويل عن هذه البقعة سأحاول أن أقتطف بعضه على رغم من أن في المخطوطة التي استطعت مراجعتها أخطاء كثيرة، واعترف بأني لم أفهم المعنى في كثير من المواضع. فبعد أن ذكر ياقوت اشتقاق الكلمة قال: «... ولعل الدهناء سمّيت بذلك لاختلاف النبت والازدهار في عراضها (...) قال أبو منصور: الدهناء من ديار بني تميم معروفة. تقصر وتمدّ، والنسبة إليها دهناوي (...) وهي سبعة أجبل من الرمل في عرضها، بين كل جبلين شقيقة. وطولها من حزن ينسوعة إلى رمل يبرين، وهي من أكثر بلاد الله كلأً مع قلة أغذية ومياه. وإذا أخصبت الدهناء ربّعت العرب جميعاً لسعتها وكثرة شجرها، وهي عذاة مكرمة نزهة، من سكنها لا يعرف الحمى لطيب تربتها وهوائها».

ويتابع ياقوت: وقال غيره: إذا كان المصعد بالينسوعة ـ وهو منزل بطريق مكة من البصرة ـ صبحت به أقماع الدهناء من جانبه الأيسر واتصلت أقماعها بعجمتها وتفرّعت جبالها من عجمتها. وقد جعلوا رمل الدهناء بمنزلة بعير وجعلوا أقماعها التي شخصت من عجمتها نحو الينسوعة ثفناً كثفن البعير. وهي خمسة أجبل على عدد الثفنات، فالجبل الأعلى منها الأدنى إلى حفر بني سعد واسمه خشاخش لكثرة ما يُسمع من خشخشة أموالهم فيه. والجبل الثاني يسمى حماطان، والثالث جبل الرمث، والرابع مُعبر، والخامس جبل حزوى. قال الهيثم بن عديّ: الوادي الذي فيه بلاد بني تميم ببادية البصرة في أرض بين سعد يسمونه الدهناء، يمرّ في بلاد بني أسد فيسمونه منعج ثم في غطفان فيسمونه الرمة ـ وهو بطن الرمة الذي في طريق فيد إلى المدينة ـ وهو وادي الحاجر، ثم يمرّ في بلاد طيء فيسمونه حائل، ثم يمرّ في بلاد كلب فيسمونه قراقر، ثم يمرّ في بلاد تغلب فيسمونه سُوى!

البحرين: (١٨٤٠)
موسم المحار واللؤلؤ

بقلم ج. آر. ولستد

كانت طريقنا في الأيام القليلة الأولى تمتد حول ضفة ضخمة تزنر الجزء الأكبر من الساحل العربي على الجزيرة. وكانت الصخور المرجانية التي على مستوى واحد تقريباً من سطح المياه، ترفع نفسها هنا وهناك، غير أن عمق البحر بصورة عامة كان يراوح بين ٣٠ و٩٠ قدماً. هنا، منذ الزمن القديم، عرف العالم صيد اللؤلؤ على أوسع نطاق. وتلك اللآلىء التي تصطاد هنا هي على ما أعتقد، الأفضل نوعية والأكبر حجماً والأكثر قيمة. وهذا المصدر التجاري وحده يؤمن المعيشة تقريباً لكل سكان ساحل الجزيرة العربية. والواقع أنه يمكن العثور على أصداف اللؤلؤ على طول الساحل العربي.

وحق الصيد مشترك لكل أهل الخليج، غير أن أكثر الذين يمارسونه هم أهل ساحل الإمارات وجزيرة البحرين، وبفعل العادة والممارسة أصبح كل فريق يعرف حدوده. ونادراً ما يذهب أهل الساحل إلى أبعد من حلول، فيما الصيادون القادمون من البحرين يعملون بين حلول وميناء القطيف. ويقول الميجور ولسون إن اللآلىء التي تصطاد في البحر قرب جزيرتي الخرج وبورغو تتفوق بلونها الجميل وهي مؤلفة من ثماني طبقات أو طيّات، في حين أن للأخرى خمساً فقط. على أن المياه عميقة لدرجة تجعل البحث عنها صعباً وغير مربح. وحين تمتلىء مراكب البحرين تعود إلى موانئها للكشف على الصدف، بينما يتجه أهل ساحل (الإمارات) إلى جزرهم الكثيرة للغاية نفسها. ولا يقل عدد مراكب الصيد خلال الموسم على ثلاثة آلاف، وقد تسنى لنا أن نشق طريقنا بين أساطيل من ٢٠٠ و٣٠٠ مركب. وكانت كلها تعمل في حيوية في طقس حار رطب ومياه هادئة شديدة الصفاء.

أريد هنا أن أنقل مرة أخرى من أطروحة الميجور ولسون المثيرة للاهتمام: «ينقسم

موسم الصيد إلى جزءين، الأول يسمى القصير البارد والثاني يسمى الطويل الحار. وما يسمى القصير أو البارد معروف في كل مكان. وخلال الأيام الأكثر برودة من حزيران/ يونيو يمارس الغطس على طول الشاطىء، لكن الموسم الحقيقي يبدأ مع أشهر الحرّ الشديد في تموز/ يوليو وآب/ أغسطس والنصف الأول من أيلول/ سبتمبر إذ تمتلىء ضفاف البحرين كلها. والواقع أن الصيادين يضايقهم البرد وهم لا يستطيعون أن يفعلوا الكثير حين لا يكون الهواء حارًّا».

ويقدر موسم الصيد كله في الخليج بحوالى نصف مليون استرليني سنوياً. إلا أن استخدام اللؤلؤ يبدو إلى انخفاض. ويبدو أن الأقدمين كانوا يقدرون اللؤلؤ أكثر من المعاصرين. وإنني أنقل عن الميجور ولسن مرة أخرى حين يقول «إنني لم أشمل في هذا التقييم أكثر من سدس المبلغ الذي ذكره التجار المحليون، لأن معظم الأرقام كان تقديريًّا ومن الصعب الحصول على الحقائق كاملة... وقد بنيت تقديراتي الخاصة إلى حدٍّ بعيد على الأرباح المقدرة للمراكب الصغيرة. لكن حتى هذا الرقم الذي تقدمت به يعتبر مبلغاً سنويًّا ضخماً حين نتذكر أن اللؤلؤ في أفضل حالاته وفي أقصى قيمته ليس سوى حلية تزين بها النساء. وتستخدم كمية كبرى من اللؤلؤ المزروع في أنحاء آسيا في المعجون الذي تصنع منه معظم الحجارة الكريمة باستثناء الماس الذي لا يدق بسبب قساوته. وتعطى الأفضلية عادة للمعجون الذي يحمل كمية كبيرة من اللآلى. لكنني لا أعتقد أن اللآلىء من مادة كريمة حقًّا، وأما عقد كليوباترة فلم يكن أكثر من صنع المخيلة.

«يقدر عدد سفن الصيد في البحرين بحوالى ١٥٠٠ وهذه الصناعة هي في أيدي التجار هناك الذين يملكون رساميل ضخمة. ويعامل التجار الصيادين بقسوة، والصياد الذي لا يعود إلا بالقليل قد لا يجد ما لا يأكله.

«ويقدم التاجر إلى الصياد عادة كسلفة مبلغاً ضئيلاً جدًّا من المال والمؤونة الضرورية جدًّا من التمور والأرز وغيرها. كذلك يزوّد الصيادين بالمراكب مما يخوّله الحق بحصة كبرى من الصيد، ثم يشتري اللؤلؤ بعد ذلك بالسعر الذي يفرضه، لأن الصيادين مدينين له في أي حال.

«وتجري الأمور عادة بأن يتفق خمسة من الصيادين وخمسة من السيابرة أو السحابين على أن يأخذوا مركباً واحداً معاً. وفي العادة يكون المموّل قد أقرضهم بعض المال سلفاً في وقت سابق من العام. فإذا كان موسم الصيد جيداً استطاعوا أن يسددوا القرض، وأن يتحولوا إلى رأسماليين هم أيضاً، وإلا فإنهم ازدادوا أعباء. وأحياناً

تحضر الأصداف إلى الشاطىء وتباع قبل أن تفتح كنوع من الحظ. لكن في معظم الحالات تفتح في البحر وتنقى منها الجواهر. ويحتفظ الصيادون بالأصداف الكبيرة الحجم، التي يبلغ قطر الكثير منها ٦ إلى ٩ بوصات. أما المحار نفسه فلا يؤكل برغم ندرة الطعام في البلاد.

«ليس من الضروري أن يكون من السهل الحصول على بضاعة ما في مكان إنتاجها، أو إذا حصلت عليها في مكانها أن تكون بالضرورة الأفضل والأرخص هناك. لذلك فإن المحصول يرسل أحياناً، بعد مساومات طويلة، إلى سوق خارجية. والأفراد الذين ليسوا تجاراً يدفعون عادة ثمناً باهظاً من أجل انتقاء بضاعة من الدرجة الأولى، لأن انتقاء هذا النوع من اللآلىء يفقد الباقية قيمتها التجارية. أما اللآلىء السيئة والعادية فكثيرة ورخيصة الثمن، وهي تستخدم لتطريز فساتين النساء وأثواب الرجال في فارس. وثمة مظهر رائع جدًّا لتلك الصدريات المخملية الزرقاء المزينة باللآلىء وما تعتبره البلدان الشرقية جيداً بين الجواهر الكبرى من حيث الشكل والحجم قد يعتبر في أوروبا هجيناً وسيء الترتيب. لكن الواقع أن الآسيويين يتفوقون على الأوروبيين بدقة الأفكار. الواقع أن البشر من كل جهات العالم ربما كانوا جميعاً يريدون قول الحقيقة، لكن كم يختلف وصف الأشياء بين فارسي وعربي أو هندي عن ذلك الوصف الذي يقدمه الإنكليزي».

عندما يصل مركب إلى بقعة تعتبر مناسبة من حيث العمق، يُرسى هناك وينقسم الملاحون إلى فريقين: الأول يبقى في المركب لتلقي الأصداف ويشدّ الغطاسين، أما أهل الفريق الثاني فيخلعون ثيابهم ويقفزون إلى البحر. عند ذلك يعطى كل واحد منهم سلة صغيرة تتسع لثماني أو عشر صدفات يربطونها بأذرعتهم. ثم يسدّ الغطاس أنفه بقطعة من مادة قرنية مطاطة ويضع قدمه على حجر مربوط إلى حبل ويتخذ نفساً عميقاً، وما إن يرفع يده اليمنى كإشارة حتى يرخى الحبل فوراً ويغطس في الماء. وبعد أن يجمع ما يستطيع يهزّ الحبل فيسحب إلى السطح. تدوم هذه العملية ٤٠ ثانية. أما الحدّ الأقصى للبقاء تحت المياه فهو دقيقة و٣٥ ثانية. الآن يتعلقون لدقائق بالحبال المتدلّية لهذا الغرض من جانبي المركب، ويكررون الغطس إلى أن يشعروا بالتعب، فيتبادلون الأدوار مع أولئك الذين ظلّوا على المركب، وهكذا دواليك إلى أن تكتمل حمولتهم. يقدر ثمن الأصداف قبل فتحها بدولارين لكل مائة منها، فإذا كان معدل كل غطسة خمس أصداف، يكون أجر الصياد بنساً واحداً للغطسة. إنه «أجر زهيد جدًّا لمثل هذا العمل غير الصحي. ولا ينال أحداً أجراً محدّداً، لكن الصيادين يعطون حصصاً وفقاً لإنتاجهم ومقدرتهم. ويبدو أنهم لا يخافون الحيتان كثيراً بل سمك

القرش، وقد سمعت حكايات عن رجال كثيرين قطعتهم هذه الأسماك الوحشية إلى نصفين. ومن أجل أن يحموا أنفسهم من شحم الحيتان الذي يعوم في بعض الأماكن، والذي إذا وصل جسم أحدهم التصق به بقسوة، يغلفون أجسامهم برداء أبيض، يبدو منظره جميلاً مع انعكاس الشمس.

هناك طرق كثيرة لفتح الصدف، لكن الأكثر شيوعاً تلك التي بالسكين، إذ يعثر على اللؤلؤة في الجزء العضلي من المحار حيث يكون ملتصقاً بالصدفة. وبين الوسائل أيضاً أن تترك الأصداف على الشاطىء في الشمس إلى أن تهترىء وتبرز منها اللآلىء. وتفرض الحكومة ضريبة تراوح بين ثلاثة وخمسة دولارات على كل مركب، وفقاً لحجمه، ويقدر مجموع الضرائب كل موسم بحوالى ٨٠ ألف جنيه، ويصدّر ثلثا الموسم إلى الهند، أما الثلث الباقي فيجد طريقه إلى فارس والجزيرة العربية.

بعد مغادرتنا رأس الخيمة بخمسة أيام رأينا مجموعة من الجزر الصغيرة تسمى مجموعة «مود» وهي متشابهة في الحجم والشكل إلى حدّ بعيد. ويبدو أن هذه المجموعة تكوّنت من بقايا بركانية لأنها مليئة بالكبريت والحديد. ويبدو منظر هذه الجزر من البحر رائعاً حقًّا. ويبدو لك سير بانياس على سبيل المثال، مجموعة من الذرى الصخرية المختلفة الألوان: بعضها أسود، بعضها أخضر، بعضها بني، والبعض الأخير أبيض تماماً.

للأسف إنني كنت مريضاً حين مررت بتلك الصخور وإلا فإنني كنت توقفت لأتفحصها، لذلك أكتفي بأن أوصي بذلك إلى رحّالة آخر.

ثمة خور جميل في هذه الجزيرة يمتد تقريباً حتى وسطها. ولأن الخور ضيّق فإن المياه فيه هادئة مثل مياه الجداول. وتأتي المراكب إلى هنا بأعداد كبيرة خلال موسم الصيد، وغالباً ما تكون حافة الميناء مليئة بأكوام من الأصداف الفارغة. وخلال إقامة الملاّحين والبحّارة هنا تحوّل ساريات المراكب إلى خيام، وهم يعيشون غالباً على التمور وما يستطيعون اصطياده من السمك والمياه، وفيما أبحرنا بينهم في سفينتنا، رحبوا كثيراً بما قدمناه لهم من خبز وأرز. وكانت النقطة الثانية المثيرة للاهتمام التي وصلنا إليها، رأس ركان، وهو رأس رملي منخفض تسكنه قبائل مقاتلة من البدو. ولم نهتم بالرسو هنا غير أننا أكملنا الطريق إلى البحرين التي هي أكثر البقع خضرة. إن الخريطة المرفقة بهذا الكتاب مأخوذة من عملية المسح الواسعة النطاق التي قامت بها شركة «شرق الهند» وهي تعكس التقدير الكبير للضباط الذين قاموا بوضعها، وإنني لفخور بأن أعدد أسماءهم على هذه الصفحات. إننا حتى العام ١٧٦٤ لم نكن نملك

أي خريطة للخليج. ولعل نيركوس كان أول أوروبي عبر مياهه. وقد تحدث عنه بنجامين توديلا في العام ١٢٩٢، لكننا لم نتوصل إلى خريطة حقيقية إلا بعد رحلة (كارستن) نايبور، إن الدقة الخارقة لهذا الرجل الرائع واضحة في هذا العمل بقدر ما هي واضحة في كل وجوه المعرفة الإنسانية التي اهتم بها خلال وجوده في الشرق. كذلك زودنا اللفتنانت ماكلور، وهو أحد أدق واضعي الخرائط البحرية، بخريطة ومذكرات عن هذه المناطق المهمة.

بعد سقوط رأس الخيمة (أمام الإنكليز) تبيّن أن القراصنة (بحارة القواسم) كانوا ينجون من سفننا بالفرار نحو الموانيء الصغيرة التي يمتليء بها الساحل العربي، ولذا فإن حكومة الرئيس مونتستوارت الفينستون تنبهت فوراً إلى مسح هذه المخابيء، فأرسلت بارجتين لهذا الغرض في العام ١٨٢١.

لقد أكد علماؤنا الجغرافيون اسم البحرين في ذلك الجزء من الجزيرة العربية الواقع قبالة ما سماه بطليموس (العالم الروماني) تياراً وما سماه سترابو «إيكاريا». وقد ورد ذكر البحرين لدى الأوائل وخصوصاً لدى البرتغاليين حين أقاموا لأنفسهم محطات في الخليج.

وسوف يأتي وقت قريب تعطى فيه البحرين المزيد من الاهتمام. إننا هنا أمام تربة خصبة تسقيها الجداول العديدة بلا حساب، بحيث تبدو، مثل واحات الصحراء، في قلب مساحات شاسعة من الحرّ والعزلة. وموانئها جيدة مع أنه من الصعب الوصول إليها. وإذا كان للبريطانيين أن يحتلوا جزراً في الخليج، فليكن ذلك في البحرين والخرج. وإنني أكنّ احتراماً شديداً للبرتغاليين لمقدرتهم على اختيار المحطات المهمة.

في البحرين الآن حوالى خمسة آلاف نسمة. وقد سبق وقلنا إن صيد اللؤلؤ يشكل الدخل الرئيسي بالإضافة إلى التجارة الكبرى مع الموانيء الأخرى في الخليج. وتقع البلدة الرئيسية، المنامة، على الطرف الشمالي للجزيرة التي يبلغ طولها نحو ٢٠ ميلاً وهي ضيقة وتأخذ في الارتفاع في الجزء الأكبر من طولها.

من المؤكد أنه لم يفت أولئك الذين وجهوا أبحاثهم نحو هذه المناطق المهمة، كمثل الجغرافيين العرب، والذين اتّبعوا خطاهم فيما بعد، أن ثمة نهراً ينبع من الداخل وتصب مياهه على الساحل قبالة البحرين. وإنني لست أدري إن كانت السفن الماسحة قد عثرت على هذا النهر، أو أنه واحد من تلك الأنهر القصيرة العمر التي يحدثها هطول الأمطار. إن الكابتن سادلر، خلال عبوره التاريخي للقارة، لا يأتي على ذكره. وثمة شيء

آخر ملحق بهذه الظاهرة، وهو أن المياه العذبة حول البحرين موجودة تحت البحر. ويشرب السكان هذه المياه كما تزوّد بها السفن. أما الحصول عليها فسهل ومتميّز معاً. إذ ينزل غطّاس ومعه ضرف جلدي فارغ إلى حيث تندفع المياه العذبة، وحين يمتلىء الضرف يُربط فيعوم على السطح.

بين الجوف والنفود (١٨٧٩)

بقلم الليدي آن بلانط

الأول من كانون الثاني/ يناير ١٨٧٩ جليد أسود، متجمد. لقد غيّرنا طريقنا وكنا طوال النهار نتجه شمالاً ـ قطعنا حوالى ٢٥ ميلاً ـ نشق وادي سرحان، وهو سهل من الرمل والحصى تتخلّله هنا وهناك كثبان من الرمل الأبيض. وتقضي خطتنا اليوم أن ننهض عند أول لمعة من الفجر ونحمل خيمنا، فنشرب القهوة ونأكل قطعة أو قطعتين من البسكوت أو الكعك ثم نسير حتى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر من دون التوقف لحظة واحدة، على أن نتناول نحو ١٢ تمرة وبعض الكعك ونحن نتقدم. ثم فور أن نتوقف وقبل أن ننصب الخيام نتناول القهوة التي تسدّ رمقنا إلى أن يحين موعد العشاء مع الغروب. كم هي رائعة هذه الكمية القليلة من الطعام التي تكفي المرء وهو مسافر. لم نتناول لحوماً منذ أربعة أيام، مكتفين بالشاي والبرغل والتمر وأحياناً بعض البصل المقلي أو الطحين المجبول بمسحوق «الكاري» والزبدة، مخبوزاً في شكل كعكة. إنها أكلة لذيذة وسهلة التحضير. على أننا اليوم اصطدنا أرنباً طاردته الكلاب حتى وكره. وأرنب الصحراء أكبر قليلاً من حجم الأرنب الكبير في المدن، وهو كثير على فرد وقليل على اثنين. إلا أن محمد (الدليل) يتخلّى بكبر عن حصته ويقول إن في إمكانه الانتظار.

أراد محمد أن ينسينا الخلاف الذي قام بيننا هذا المساء حول مكان المخيم فراح يروي لنا حكايات عن مغامراته في الصحراء ورحنا نروي له مغامراتنا (الليدي بلانط وزوجها). ولمحمد شقيق صغير «أبيض الوجه مثل فتاة» هو الشقيق المفضل لدى أمه، التي خبرها، هو، مثل كفه. ويروي محمد أنهم في تدمر غالباً ما يتشاجرون بسبب الشيخات. وبعد إحدى هذه المشاجرات أرسل شقيقه إلى قرية «السخنة» القرية

ليمضي بعض الوقت مع أقاربهم هناك. غير أنه في نهاية الأمر سئم البعد عن أهله وأراد أن يعود لرؤية أمه فانطلق مع صبي في مثل عمره (١٥ سنة) عائداً إلى تدمر. كان الوقت صيفاً وقد ضيع اليافعان طريقهما وتوفيا من العطش. وقد خرج محمد للبحث عنهما فعثر عليهما جثتين إحداهما قرب الأخرى. ومرة أخرى كاد محمد نفسه يلقى حتفه. فقد ذهب وحيداً مع جماله فوقع في وجه غزوة جرّده رجالها من كل شيء إلا قميصه وطربوشه. وقد تمكن من إخفاء بندقيته في جبّ قريب، لكنهم لم يتركوا له مياهاً أو طعاماً وكان الوقت صيفاً أيضاً. وكانت أقرب قرية إليه تبعد ٤٠ ميلاً كما أن ساقه أصيبت بضربة قاسية. وبعد ذهاب اللصوص انطلق في اتجاه القرية واستطاع أن يمشي الليل وطوال النهار التالي إلى أن وصل إلى خربة تدعى قصر الخير فهوى بلا وعي وظلّ ٢٤ ساعة يعاني من الألم والعطش. وحين شعر أنه قارب على الموت مرّت به قافلة من قرية السخنة فوجدته ملقى هناك. وظنوه في البداية عبداً بسبب احتراقه في الشمس لكن أحد رجال القافلة تعرف إليه وسقاه ماء. ولم يستطع المشي غير أنهم وضعوه على أتان وحملوه معهم إلى تدمر.

أما القصة التي رويناها نحن لمحمد فهي خناقتنا مع أبو جناد وهربنا من العقبة إلى غزة حين كدنا نموت من العطش. إنها بداية جميلة للسنة الجديدة لولا أن ويلفرد (زوجها) أصيب بالبرد وفقد صوته من جرّاء ذلك. ٢ كانون الثاني/ يناير: جليد قاس. المياه مجمّدة في القرب. وصلنا إلى آبار شبية في الثامنة والنصف وسقينا الجمال. المياه ملوثة جدًّا، في الواحدة وصلنا إلى بئر أخرى قرب صخرة غريبة اعتقدناها في البداية قلعة. لقد قطعنا الآن وادي سرحان ونحن على حافته الغربية. مررنا بخربة قديمة تدعى أبو قصر غير ذات أهمية تاريخية وفي الرابعة والنصف توقفنا تحت تلال رملية جميلة قرب بئر تدعى بير الجراوي. لقد استعاد ويلفرد صوته لكنه لا يزال يعاني من البرد، وأنا مريضة كالعادة مع أن آلامي أقل مما كانت. يخيل إليّ أحياناً أنني لن أستطيع المشي ثانية.

الجمعة، ٣ كانون الثاني/ يناير ـ لقد كانت لنا مغامرة أخيراً، وهي غير محبّبة. إنها أمثولة قاسية حول أخطار المضارب قرب الآبار. بدأنا الاستعداد باكراً، لكننا تأخرنا ساعة كاملة عند بير الجراوي في تحميل المياه ولم نترك الآبار إلا في الثامنة، ثم انطلقنا عائدين شرقاً عبر الوادي. كانت التربة المكونة من الرمل الأبيض الصافي تثقل خطانا فأخذنا نسير في بطء عابرين المنخفضات المتعرّجة من دون أي معالم تهدينا سوى تلك الآثار التي تركناها خلفنا. وهنا وهناك كانت بعض المرتفعات الصغيرة التي قررنا، ويلفرد وأنا، أن نرتاح عندها قليلاً ونتناول شيئاً من الطعام. عند الظهر، فربطنا

خيولنا في العشب، فيما أخذت الكلاب تلهو وتطارد بعضها بعضاً. وما إن انتهينا، وما إن بدأنا نتحدث حتى مرت بنا الإبل، وما قطعت نحو ٢٠٠ متر عنا حتى سمعنا فجأة وقع أقدام خيول تعدو فوق الرمل. ونهض ويلفرد مسرعاً وصرخ: «إنها غزوة. إلى فرسك. إلى فرسك». وفيما جمعت نفسي وهرعت إلى فرسي شاهدت فرقة من الخيالة تقبل مسرعة مع رماحها. كان ويلفرد قد انتصب واقفاً، في حين وقفت بصعوبة شديدة بسبب الألم في ركبتي، ثم وقعت من جديد. لم يكن هناك وقت للتفكير وما إن وقفت مجدّداً حتى كان العدو قد صار فوقنا وألقاني أحدهم أرضاً بضربة من رمحه. ثم استداروا جميعاً نحو ويلفرد الذي وقف ينتظرني وقفز بعضهم إلى الأرض وأمسكوا برسن فرسه. كان ويلفرد يحمل بندقيتي لكنها كانت فارغة من الذخيرة. أما بندقيته وسيفه فكانا على الذلول. ومن حسن الحظ أنه كان يرتدي ثياباً سميكة: عباءتان إحداهما فوق الأخرى وتحتهما ثياب إنكليزية، ولذا فإن الرماح لم تؤذه كثيراً. وأخيراً نجح مهاجموه في انتزاع بندقيته منه وحطموا عقبها على رأسه. أما أنا فبدت مقاومتي بلا معنى ولذا صرخت في أقرب الخيالة إليّ «أنا دخيلك». أي أنا في حمايتك. وحين سمع ويلفرد هذا الكلام واقتنع أنه يخوض صراع غير متكافىء، رجل ضد ١٢، رمى نفسه عن فرسه. وبعدما أخذ الخيالة فرسينا والتقطوا أنفاسهم بدأوا يسألون من نحن ومن أين أتينا. وأجبنا أننا إنكليز قادمون من دمشق وجمالنا قريبة منا. وكانت قافلتنا خلال هذه المعركة التي استمرت ٥ دقائق قد تجمعت على نفسها في شكل مربع واستطعنا أن نرى الجمال وهي تنوخ. وطلبنا من الخيالة أن يتجهوا معنا إلى القافلة، فتركنا رئيسهم نمشي نحوها. هناك رأينا محمد وبقية الرجال يحتمون خلف الجمال وبنادقهم مصوبة، وإذا اقتربنا وقف محمد وصرخ:

- مين أنتم؟
- فأجاب أحدهم:
- رولى من ابن الضبعة.
* والله؟ هل تقسمون بالله؟
- والله نقسم، وأنت؟
* محمد بن عروق من تدمر.
- والله؟
* والله؟
* وهل هؤلاء فرنج يسافرون معك؟
- والله فرنج وأصدقاء ابن شعلان.

كنا سعداء الحظ. لقد وقعنا في أيدي أصدقاء، وكان لا بدّ لابن الشعلان، صديقنا منذ العام الماضي، أن يحمينا حتى في قلب الصحراء ولا يجرؤ أحد من رجاله على أن يلحق بنا أي سوء. وبالإضافة إلى ذلك فإن محمد تدمري، والرولة لا يمكن أن يؤذوه لأن تدمر تدفع الضريبة لابن الشعلان وللتدمريين الحق في أن يطلبوا حمايته. وما إن اتضح كل شيء حتى أمر رئيس الفرقة المهاجمة بإعادة فرسينا والبندقية وكل ما سقط منا في الشجار، حتى علبة التبغ العائدة لويلفرد. وبدا على الشبان الذين أخذوا الفرسين الحزن حين اكتشفوا أننا أصدقاء وأن عليهم أن يردوها. وقد رددوا بصوت عال: يا للخيول الجميلة، يا للبندقية الجميلة! لكن العرب يتمتعون دائماً بروح الدعابة مهما كانت أخطاؤهم، وما لبثنا أن أصبحنا أصدقاء فجلسنا جميعاً على الأرض في شكل دائري نأكل التمر وتتبادل غليون السلام. إنهم الآن ضيوفنا.

إن ما أثار دهشتنا أكثر من أي شيء آخر هو الطيبة التي صدقوا بها كل كلمة قلناها لهم. طبعاً قلنا الحقيقة، لكن لماذا صدقونا؟ إنهم لا يعرفوننا ولا يعرفون محمد، ومع ذلك فقد قبلوا كلامنا على أننا أصدقاء مع أنه كان في إمكانهم الهرب بممتلكاتنا من دون أن يعرف أحد بذلك أو يعرف من هم. ويبدو أن ابن الضبعة، الشيخ وأصدقاءه، كانوا فريقاً صغيراً من الرولة يتقدم قرب بير الجراوي حيث ارتحنا الليلة الماضية. وحين جاءوا إلى هناك في الصباح طلباً للمياه ورأوا آثار أقدامنا في الرمال، تبعونا على وجه السرعة. ومن الصدف أننا كنا ساعة وصولهم بعيدين عن القافلة فانقضوا علينا. إن كل شيء يتوقف على السرعة في هذه الهجمات. إذ لو أنهم تردّدوا قليلاً لكنا أصبحنا في مأمن مع جمالنا، إذ برغم أنهم يفوقوننا عدداً فلم يكونوا يحملون سوى الرماح، بينما كنا مسلحين بالبنادق. وقد شعروا بخجل شديد لأنهم استخدموا رماحهم ضدي وأخذوا يعتذرون تكراراً. لقد رأوا إنساناً يرتدي عباءة وظنوا أنني رجل. وقد صدقت روايتهم في الواقع لأنهم كانوا مأخوذين بمشهد الفرسين فلم ينتبهوا إلى أي شيء آخر. وأعتقد أنهم حزنوا لفقدان الفرسين أكثر مما حزنوا بسبب إساءتهم معاملتنا. في أي حال ودعونا ومضوا.

كانت أفراس الفرقة المهاجمة صغيرة، ضعيفة، حادة، لها أكتاف جيدة ورؤوس جميلة لكنها كانت أقرب إلى البغال منها إلى أفراس عنزي التي معنا، وكانت جميعها حمراء ولها أرسن. وبعد ذهاب الرولة تفقدنا جراح ويلفرد فوجدناها طفيفة، أما أنا فساء جرح ركبتي في المعركة. ويقول ويلفرد إنه شعر بخوف شديد وكاد يتركني ويهرب، لكنني لا أصدقه. وحين أفكر في الأمر الآن أشعر بخوف يفوق خوفي أثناء القتال.

أما بالنسبة للآخرين فإن محمد يشعر بخجل شديد بسبب الدور اللابطولي الذي لعبه في المسألة. إن موقف القافلة الدفاعي كان بلا شك شديد الحذر. لكن في الوقت نفسه لم يظهر محمد الكثير من الفروسية التي كان يتحدث عنها. وهو لا يكف عن تأنيب نفسه لكننا نطيب خاطره. ولا شك أنه كان خطؤنا أن نفاجأ بهذه الطريقة. ولو أن المهاجمين كانوا لصوصاً حقيقيين لكان الأمر أسوأ طبعاً. والواقع أنه لو اندفع محمد إلى مساعدتنا لكان عرض القافلة للهزيمة وهو أمر يعني في هذه الحال الموت من البرد والجوع.

يبدو أن أفراد القافلة ندروا خرفاناً كثيرة للذبح خلال المعركة. وقد قررنا أن نذبح خروفاً لدى وصولنا إلى الجوف ـ إذا ما وصلنا فعلاً إلى هناك.

الآن كل شيء هادىء. وحمدان الشرايري يردد أغنية تروي حكاية شاب وفتاة فرق بينهما العذّال، وفي النهاية استطاعا الاستمرار في المراسلة بأن ربطا رسائلهما إلى قرون الماعز عندما تنطلق إلى المرعى.

٤ كانون الثاني/ يناير لم يكن هناك أي لهو هذا الصباح، لأننا جميعاً بدونا جدّيين، وقد انطلقنا في السابعة وسرنا مسافة ٣٠ ميلاً من دون توقف بمعدل ٣ أميال ونصف الميل في الساعة. لقد تركنا وادي سرحان تماماً وها نحن نتجه إل الجوف. لا مياه على هذه الطريق لكن خطر الغزوات أقل هو أيضاً. التربة حصى أبيض قاس ولا عشب ولا نبات. وعند الواحدة وصلنا إلى تلال من الحجر الرملي ذي الغشاء المعدني وكانت تلك بداية الأرض المتشقّقة التي قال إن الجوف يقوم عليها. كنا نسير في طريق تصاعدية طوال النهر وحين وصلنا إلى أعلى نقطة في طريقنا سجل البارومتر ٢٦٦٠ قدماً. وهنا وجدنا عدداً من الحفر الصغيرة التي قال لنا حمدان إنها تستخدم لخزن «السمح» وهو حبوب حمراء تنمو برية في هذا الجزء من الصحراء ويتناولها أهل الجوف كطعام لهم.

بعد وقت قصير رأينا رجلين على جمليهما وهما أول أناس نشاهدهم منذ أن تركنا قاف باستثناء المهاجمين. وقد اتجه ويلفرد ومحمد نحوهما لمعرفة من يكونان. وتعويضاً عن تصرفه السابق. أطلق محمد النار في الهواء وأدخل الرعب في قلب الرجلين. كانا فقيرين ليس عليهما سوى قمصان عتيقة ومعهما جراب من التمر وجراب من المياه. وقالا إنهما يبحثان عن رجل ضاع في وادي سرحان. وكان هذا مع رجال من جماعة ابن الرشيد توجهت إلى القاف، وفي طريق العودة شعر بأعراض المرض فتوقف متخلّفاً عن الركب ولم يره أحد منذ تلك الساعة.

بقيت أنا مع جمالنا أصغي إلى ملاحظات عواد وحمدان اللذين ماتا من الفضول لمعرفة ما يقوله الرجلين القادمين من الجوف. وفي النهاية نفد صبر حمدان وطلب من عواد أن يرافقه، فترجّلا وركضا نحو الرجلين لكن ويلفرد ومحمد كانا عائدين الآن. وقدم إليّ ويلفرد من وصوله كمية من التمر هي أطيب ما تذوّقت في حياتي. وحين عاد الشراري وعواد بعد ذلك لم يحصلا مثل ويلفرد على التمر لكنهما كان يحملان الكثير من حكايات الجوف.

نصبنا خيامنا هذا المساء قرب بعض التلال الغريبة من الصخور الرملية الحمراء والصفراء والأرجوانية اللون، وهي تشكيلة شبيهة تماماً بأجزاء من شبه جزيرة سيناء. ثمة مشهد رائع إلى الجنوب ونستطيع أن نرى في البعيد خطًا أزرق من التلال (جبل الطويل) التي يقال لنا إنها خلف الجوف على حافة النفود.

أمضينا بعض الوقت نستجوب حمدان حول قبيلته، الشرارات. وليس لدى الشرارات خيول، إلا أنهم يربون أفضل الجمال السريعة في الجزيرة. وتسمى أفضل الإبل «بنات عديان». ويقول حمدان إنه إذا انطلق المرء على ظهر إحدى هذه الإبل من حيث نحن الآن إلى القاف عند الغروب وصلها غداً في الفجر. أي مسافة ١٨٠ ميلاً! ويروي أن لصًا أقدم قبل فترة قصيرة على سرقة جمل شراري في المزاريب وهرب به إلى حائل قاطعاً المسافة في ٧ أيام و٧ ليال.

٥ كانون الثاني/ يناير ـ رحلة متعبة طويلة من ٢٢ ميلاً: الآن يطل الجوف والجوف لا يطل. وبدأت الأرض تتفتق إلى تلال ومرتفعات رائعة لكن على مستوى أقل انخفاضاً من الأمس. والواقع أننا كنا ننحدر طوال النهار. وبين حين وآخر كان يبدو لنا وادي سرحان من جديد وخلفه التلال الزرقاء لكن أمامنا كانت هناك سلسلة لا تنتهي من التلال الصخرية. وأخيراً من فوق أحد هذه التلال بدا لنا شكل أسود ضخم قبالة مجموعة من التلال الرملية الصفراء والأودية الجرداء فعرفنا أنه لا بدّ أن يكون حصن مارد. لقد بدت قلعة ضخمة حقًا، وإن تكن كئيبة وسط هذا الخواء. وأخذنا نتقدم لمشاهدتها عن قرب فمررنا بجسر قال عواد إنه جزء من طريق رومانية. وكنا نتمنى أن نصدق ذلك. لكن بدا بوضوح أنها من صنع الله، مضينا في هذه الطريق بضعة أميال إلى أن اختفت من خلفنا. وفجأة وصلنا إلى حافة ما يشبه الحوض، وهناك من تحتنا بدت واحة من النخيل يحيط بها جدار من البروج وبلدة صغيرة مبنية حول الحصن الأسود. إننا في الجوف.

الجوف ليس على الإطلاق ما كنا نتوقع. لقد كنا ننتظر منطقة واسعة من الزراعة

لكنها ليست أكثر من بلدة صغيرة. ولا شيء إطلاقاً خارج الجدران سوى بعض المربّعات المزروعة بالذرة الخضراء. وتسقى هذه البساتين من الآبار عبر قنوات صغيرة مثل الحدائق التي في الداخل. ولا يزيد حجم عرض الجوف كله، في الواقع، على ثلاثة أميال في أكثر النقاط اتّساعاً، والأرجح أنه بقايا بحر داخلي ضربه الجفاف. أما كيف جفّ ومتى فإني لا أستطيع حتى التخمين. إن المرء يمكن فقط أن يقول مع محمد إن المسألة «من الله». إلا أن أثر البقايا البحرية واضح في كل مكان. ويبدو المكان أكثر انخفاضاً من وادي سرحان الذي يتصل به على الأرجح. وقد ظننا في البداية أنه آخر بئر مائية من بقايا ما سميناه البحر الذي جفّ. لكن الأمر ليس كذلك، إذ إن الجزء الأكثر انخفاضاً منه يقع تماماً على مستوى المنخفضات في الوادي. وتعلو آباره بين ١٨٠٠ و١٩٠٠ قدم فوق سطح البحر. وتسحب المياه من الآبار في سطول بواسطة حبل طويل تجرّه الجمال. ويبلغ طول البلدة نحو ميلين من الشمال إلى الجنوب وعرضها نحو نصف ميل. أما بقية السهل فرمال تتخلّلها تربة قاسية هنا وهناك أو أرض طينية حيث تتجمع مياه الأمطار، وتترك خلفها الملح حين تجف.

وحيثما شحت بئر أقيمت فوقها حديقة وسوّرت بالجدران وزرعت بالنخيل. وهناك نحو ١٢ بستاناً من هذا النوع يحتل كل منها مساحة ١٢ ألف متر مربع تقريباً. وفي أحد الأماكن هناك أربعة أو خمسة بيوت إلى جانب بعضها بعضاً هي وحدائقها تبدو مثل قرية. وفيما عدا هذه الواحات فإن اللون الأبيض يطغى على الحوض كله حيث تبدو بساتين النخيل فوقه وكأنها مربّعات سوداء. ولا تضم الجوف نفسها أكثر من ٦٠٠ منزل، هي مربعات من الطين بني معظمها حول خرائب مارد، وانتشر الباقي في أماكن أخرى. وأكثر هذه البيوت لها برج، أو طابق علوي، كما أن هناك أبراج مبنية بصورة غير منتظمة حول السور الخارجي. والعلامة المميزة للبلدة، بالإضافة إلى مارد، قلعة جديدة خارج الحارة الرئيسية يسكنها الحاكم المعين من قبل ابن الرشيد. وتقع القلعة فوق تل مرتفع وهي عبارة عن مبنى ضخم مربع له أسوار علوها ٤٠ قدماً وفوقها أبراج مربعة ومستديرة تعلو ٤٠ قدماً عن السور نفسه. وليس للأبراج نوافذ بل مجرّد فجوات تطلق منها النار.

ليس في الجوف سوق بالمعنى التقليدي أو حتى شوارع بالمفهوم العادي للكلمة، بل بضعة ممرّات ضيقة ملتوية تعلو إلى جانبها جدران من الطين. وإذ دخلنا البلدة وجدنا هذه الممرّات مليئة بالرجال المسلحين، الداكنين اللون، ويحملون جميعاً السيوف. وبدا أنهم لم يسرّوا كثيراً برؤيتنا. وحين ألقينا تحية السلام عليكم ردّوا بشكل عادي من دون أي حركة ومن دون أن يظهروا أي ترحيب. على أن هذه البرودة

الظاهرة في الاستقبال لم تكن أكثر من رسميات عربية عادية، وحين بدأ محمد يسأل عن بيت أقربائه دلّوه على الطريق بكل تهذيب بل إن اثنين منهم قرروا مرافقتنا إلى هناك.

تقدّما أمامنا في طرق فرعية صغيرة ثم عبر بساتين النخيل إلى الجهة الأخرى من البلدة، ثم عبرنا بوابة أخرى إلى إحدى المزارع المعزولة التي كنا قد رأيناها من التلال المشرفة. كانت المزرعة تبعد نحو ربع ميل وما هي دقائق إلا وكنا نترجّل ونستقبل بضيافة القهوة في بيت حسين! ما هي صلة القربى بين محمد وحسين بالضبط، لا أدري ـ ومحمد نفسه لا يعرف تماماً ـ لكن من الواضح هنا أن أي صلة بالدم، مهما كانت بعيدة، تُعطي أهمية كبرى. ولم نكد نجلس حول الموقد حيث راح حسين يحمص البن حتى أطل قريب آخر بلغه نبأ وصولنا، ثم جاء آخر، وأخذ كلاهما يعاتب لأننا قبلنا ضيافة حسين وليس ضيافتهما. قبّلا محمد وعانقاه، وكان محمد يهدّىء خواطر هذين القريبين الشاعرين بالإهانة بأن يعدهما بالمكوث أسبوعاً لدى كل منهما حال انتهاء زيارتنا لحسين. إن الدم في هذه البلاد أكثر سماكة حقًّا من المياه، لم يتوقف الأمر هنا طبعاً. ففي نهاية المطاف كان المنزل قد امتلأ بالرجل العشرين من أقرباء محمد.

ذبحوا لنا خروفاً وقدّم لكل منا حمّام في خيمته، وهو أمر لم نعرفه منذ فترة طويلة، كما تسنّى لنا تغيير ثيابنا بصورة كاملة. لقد نصبت خيمتنا في حديقة صغيرة خارج المنزل وها نحن نشعر باطمئنان شديد، نستعيد ما حدث، ونخطط للمستقبل.

٦ كانون الثاني/ يناير ـ الليلة الماضية، ونحن نشرب القهوة للمرة التاسعة أو العاشرة منذ وصولنا، دخل شابّان وانضما إلينا، كانا يرتديان عباءتين حريريتين وقميصين مطرزين، وكوفيتين قطنيتين حمراوين، وكان مقبضا سيفهما من الفضة. وقد وقف كل من في المجلس لدى دخولهما وخُيّل إلينا أنهما من أبناء أحد الشيوخ أو من شخصيات الجوف الكبرى. وسأل ويلفرد حسين عنهما همساً فضحك وقال إنهما ليس من أبناء الشيوخ ولكن من «زلم ابن الرشيد»، أي جنوده.

وكانت الكوفية الحمراء والسيف ذو المقبض الفضي نوعاً من اللباس الرسمي. وقد جاء الرجلان من قبل دواس، الحاكم بالوكالة، لدعوتنا إلى القلعة. ومع أننا شعرنا بالأسف إذ تركنا حديقة حسين الهادئة وضيافته، فقد وجدنا أنه من الأفضل أن نقبل دعوة الحاكم. ولم يكن في حساب حسين أو أي رجل آخر أن في إمكاننا أن نرفض دعوة من أحد ضباط ابن الرشيد. والجوف مدينة مهزومة، تعيش بصورة دائمة في حالة

حصار، والنظام يطبّق هنا بصرامة شديدة. وهكذا نقلنا المخيم كله إلى جوار المقر الرسمي. لقد بني القصر القائم، كما قلت، خارج البلدة، قبل حوالى ١٢ عاماً على يد متعب بن الرشيد شفيق الأمير طلال، ومع أنه بناء حديث فإنه قديم المظهر لأن الهندسة لا تتغير في الجزيرة العربية. إنه مبنى جميل حقًّا له أربعة أبراج عند الزوايا، هي أيضاً لها ثقوب لا نوافذ. ويتعرّج ومن ثم حديثة صغيرة تسوّرها الجدران العالية، ثم مجلس وإلى جانبه غرف كثيرة جميعها قاتمة ومظلمة مثل الكهوف. هنا يعيش نائب الحاكم مع ستة جنود، جميعهم من حائل، يحكمون فيما بينهم الجوف وحاميتها. أما الحاكم نفسه فهو غائب الآن في مسكاكة، وهي بلدة صغيرة أخرى في منطقة الجوف، تبعد ٢٠ ميلاً من هنا.

يختلف الجوفيون في أصولهم عن شمّر ونجد لأنهم خليط من مجموعة من العروق كما هو الحال في تدمر وقرى الفرات. ويقول لنا حسين الكلب، مضيفنا الأول هنا، إنه من قبيلة الطائي، وإن جيرانه من سرحان وبني لعم. وهو ليس في الحقيقة ابن عم محمد بل ابن ابن عمه، أما أبناء عمومته الحقيقيون فيعيشون في مسكاكة. ومع أننا كنا مرتاحين جدًّا في ضيافته فإننا لسنا أقل راحة هنا. والواقع أن القصر أكثر إثارة للاهتمام. والدواس، نائب الحاكم لطيف جدًّا، أما جنوده فغاية في التهذيب. إنهم قوم طيبون يحدثوننا في كل شيء. وفي القصر بضعة عبيد لكن لا نساء بينهم. أما الجنود فيتركون زوجاتهم في حائل حين يأتون إلى الخدمة هنا. وليس في الجوف خيول باستثناء مهر في العام الثاني يملكه دبجه، أحد الجنود. وقد أعرب الجميع عن إعجابهم «بالشقرة»، فرسنا، قائلين، إنه ليس هناك مثلها. وليس في الجوف أيضاً حيوانات حاملة أخرى كالحمير. والجمال القليلة الموجودة هنا تستخدم في سحب المياه من الآبار، أما الحيوانات الأخرى ذات القوائم الأربع التي رأيتها فهي بعض الماعز وثلاث بقرات جائعة في «القصر». وليس هناك ذرة من النبات خارج الجوف وعلى الجمال وهذه البقرات أن تأكل القش والتمر غيرالصالح.

عشاؤنا الليلة كان مؤلفاً من لحم الضان وثلاثة أنواع أخرى ـ بينها نوع من المرق الذي يشبه الصمغ الذي يلصق به الورق، والثاني زبدة مع البصل والثالث خبز منقوع في المياه ـ كلها رديئة ما عدا الخروف، إلا أنه كان هناك نوع رابع هو عبارة عن شريحة من لحم «البقر الوحشي» (أرجّح أنه الوعل) الذي أحضر من النفود، وقد شوي في الرماد وهو من أطيب اللحوم التي تذوقتها في حياتي.

في المساء أقيمت حفلة رقص وغناء شارك فيها دواس والجنود. وقد أدّوا نوعاً من

الرقص بالسيف، وكان أحدهم يدق على طبل مصنوع من خشب النخيل وجلد الخيل، فيما رفع الآخرون سيوفهم فوق أكتافهم وراحوا يغنون ويرقصون بجدية. ومن حين إلى الآخر كانت السيوف تجرّد وتسمع صرخة كتلك التي يطلقها الصيادون عندنا. وحين انتهى الرقص أحضر إلينا دبس الخروب وعصير الترنغ الشبيه بعصير الليمون. ها نحن الآن في هدوء خارج القصر الذي يغلق خلال الليل، ولنا الحرية في أن نكتب أو أن نرسم في ضوء القمر، وهي أشياء لا نجرؤ على أن نقوم بها إلا في ضوء القمر.

٧ كانون الثاني/ يناير ـ هذا الصباح عاد دليلنا حمدان الذي كان قد اختفى فجأة دون أثر، لكي يقبض ما تبقى له من أجر. وقد قال إنه يخشى أهل القصر ولا يستطيع البقاء معنا. وقد وصل مراسل من مسكاكة ومعه دعوة لنا من جوهر، وسوف نذهب إلى هناك غداً. لكننا لن نحل على جوهر (حاكم الجوف) لأن لا بيت له هناك بل إلى بيت نصر بن عروق الذي عرف بوجودنا فأرسل ابنه إلينا وهو شاب متواضع ومهذب. قمنا هذا الصباح ببعض زيارات وداعية إلى حسين الكلب واثنين من وجهاء البلدة. ويقول حسين إن عائلة بيت هبوب التي ذكرها (في كتاباته وليم بالغريف) بالغريف موجودة فعلاً لكن أهم العائلات هنا هي عائلة محسن بن ديرة الذي كان شيخ الجوف سابقاً، وابن ديرة ليس مسروراً إطلاقاً بالوضع السياسي في الجوف، لكنه لا يجرؤ على أن يظهر أكثر من التذمر المكبوت، لأن محمد بن الرشيد يتخذ من ابنه الأكبر رهينة لكي يضمن ولاءه. والابن ليس سجيناً في حائل لكنه أيضاً لا يستطيع العودة إلى أصدقائه. وقد قدم لنا الطعام والقهوة مع الهال في كل البيوت بلا حساب، وأكلنا كميات لا حدّ لها من التمور التي يقال إنها حلاوة الجوف وإنها الأطيب في الجزيرة العربية. إن لها طعماً رائعاً لكنها كثيرة السكر ولصيقة. ويعيش أهل الجوف تقريباً على التمور، ولكن ليس على النوع المسمى الحلاوة الذي هو الأكثر ندرة.

هناك من أنواع التمور في الجوف بقدر ما لدينا من أنواع التفاح في بساتيننا وكل واحد يختلف عن الآخر اختلافاً شديداً. والنوع الذي نفضله في الأكلات العادية ذو لون أشقر قليلاً، قارش وأكثر استدارة من «الحلاوة». ومن الخطأ الاعتقاد أن التمور الطازجة هي الأفضل. بل بالعكس تزداد طراوة مع الوقت. وتلك الحلوة تحمل الكثير من السكر بحيث تحول إلى عصير حين تطبخ مع وجبة ما، ولا شك لديّ أنه يمكن استخراج السكر العادي من التمور.

١٠ شباط/ فبراير ـ في الثامنة وصلنا إلى آبار شيبة. ثمة ٤٠ بئراً منها وسط منطقة

ضخمة جرداء، ترتفع إلى شمالها بعض التلال الرملية البيضاء (راجع وصف الكولونيل لويس بيلي للمكان). كانت الريح تهب عنيفة فتدفع الرمل وكان المكان يبدو قاسياً بقدر ما يستطيع المرء أن يتخيّل، مما أعطانا الذريعة الكافية لئلا ننتظر هنا وصول الأمير ابن الرشيد. تقع شيبة على طريق الحج القديمة التي تمرّ شرق حائل وتتجه مباشرة الى بريدة في القصيم، وسوف أشرح لماذا ابتعدنا شرقاً إلى هذا المدى. الآن استدرنا شمالاً وثمة طريق محددة جيداً سوف يكون من السهل علينا اتّباعها إذا ما تركنا دليلنا الشمّري. بعد مغادرة الآبار تقدمنا بضعة أميال بين تلال الرمل الأبيض التي كانت «الريح تحول شكله إلى إكليل شبيهة بأكاليل الثلج فوق الألب. وقد لاحظت أن الرمل الأبيض أخف من الأحمر وأكثر عرضة لهبوب الريح. ومع أن عشباً أقل ينبت فيه فإن تلاله أقل استمرارية من تلك التي في النفود. وفيما كنا نرقب تلك التلال تحولت الريح وبدأت رؤوسها تتحول معها، منحدرة من ناحية الريح ومستديرة من الناحية الأخرى. وبعد ذلك صعدنا عبر طريق من الحجارة المكسرة إلى سهل مليء بالحصى حيث استطعنا أن نرى على بعد أربعة أميال الخط الأحمر للنفود الحقيقية. وبعد قليل رأينا حيواناً على بعد نصف ميل يعدو فلحق به محمد. وظننت بادىء الأمر أنه ذئب أو ثور بري، لكن ما إن اقتربنا منه حتى تبيّن أنه ضبع بدا أنه يحمل شيئاً في فمه، فبدأت الكلاب تطارده فهرب الوحش بأقصى ما يستطيع في اتجاه الأرض المشققة التي كنا عليها حيث الأرجح أنه جعل وكره، وأسقط في جريه ساق الغزال الذي كان يحمله في فمه أو الصيد العائد به من النفود. هاجمته الكلاب الثلاثة بقوة شديدة، وأمسك به الكلب «صياد» بين كتفيه، لكنها لم تستطع إيقافه، ومع ذلك حاولت أن تعدو في أثره. وكان يمكن للضبع أن ينجو لولا أننا لم نسدّ طريقه، فتوقف وتراجع بقوة من جديد. إنني لم أر مخلوقاً في هذا الجبن. إذ برغم أنه أكبر حجماً بكثير من أي كلب فهو لم يحاول مرة أن يرتد ليدافع عن نفسه كما لو كان فعل خنزير بري أو ثعلب. وقد أصرّت الكلاب على مهاجمته بحيث لم يتسنّ لويلفرد أن يطلق النار إلا بعد عناء فسقط مضرجاً عند مياسم الجمال. وقد فرحت الجماعة فرحاً كبيراً، وإذ شعر محمد وعواد بلذة الانتقام، أعلن عبدالله في الحال أن لحم الضباع طيب: «خوش لحم». وسلخ وقسم على الفور. وأعترف أن مشهد الذبيحة لم يكن مثيراً للشهية، إذ إن الشحم الذي يغطيه أصفر اللون.

قال ويلفرد إنه مستعد لأكل اللحم، أما أنا فمع أنني تناولت لقمة واحدة منه لم أستطع أن أكمل الوجبة. غير أن أصحابنا أتوا على الضبع كله، ولست أدري إن كان محمد قد امتنع كما قال أم لا. في أي حال، الجراد الآن جزء من طعامنا اليومي.

وبعدما جربنا الجراد في أطباق مختلفة توصلنا إلى الاقتناع بأنها أفضل ما تؤكل مغلية. ويجب أن تسحب سيقانها الطويلة أولاً، ثم تمسك الجرادة بجناحيها وتغطس في الملح وتؤكل. أما طعمها فهو أقرب إلى الخضرة منه إلى السمك أو اللحم. والواقع أنها بالنسبة إلينا تحلّ محلّ الخضار التي نشعر بحاجة شديدة إليها. والجراد الأحمر أطيب طعماً من الأخضر، ويعتقد ويلفرد أن الجراد شهي لدرجة قد يحتل معها مكاناً بارزاً في المطاعم الباريسية. أما أنا فإني لست واثقة تماماً من ذلك! وأفضل وقت لالتقاط الجراد في الصباح حين تكون نصف مخدرة بسبب الصقيع وتكون أجنحتها رطبة بالندى فلا تستطيع أن تطير. ويعثر عليها آنذاك متجمعة في الأجباب الصحراوية فتجرف من دون عناء وتعبأ في الأكياس. أما فيما بعد فإن الشمس تجفف أجنحتها ويصبح من الصعب صيدها. وتستطيع الجرادة أن تحلق بقدر ما يحلق السمك الطائر، وأن تحط لحظة تشاء. والواقع أنها نادراً ما تترك نفسها تتجه نحو الرجال أو الجمال وتستطيع رفوفها أن تحسب بدقة مكانها من العصي التي تطاردها.

وهذا العام يغطي الجراد البلاد كلها في جيوش هائلة خلال النهار تختبىء في الأجباب ليلاً. إنها تأكل ما هو أخضر وتأكلها بدورها كل الحيوانات والطيور في الصحراء. وقد مررنا اليوم برفوف من الغربان السحماء والصقور رابضة على الأرض تلتهم الجراد بنهم. وتجترّ الجمال الجراد مع طعامها وتطاردها الكلاب طوال اليوم تأكل منها ما تستطيع التقاطه. ويقدم البدو الجراد إلى خيولهم، ويقول عواد إن قبائل عديدة لن يكون لديها ما تأكله هذا العام سوى الجراد وحليب النوق. أي أن الجراد الذي هو طاعون حقيقي يعوّض عن ذلك أحياناً بتحوّله إلى طعام للمحتاجين.

إننا نخيم الليلة مرة أخرى في النفود، وسط الكلأ نفسه، على أن هذه النفود متقطعة، إذ ثمة خطوط متداخلة من الأرض الجرداء، بين تلال الرمل التي تتجه هنا بصورة خاصة شرقاً وغرباً. وعمق الرمال لا يزيد على ٨٠ قدماً.

١١ شباط/ فبراير ـ انضم إلينا بعض الصبية مع جمالهم الليلة الماضية، بدو من قبيلة عبدة الشمرية وهم في طريقهم لملاقاة قافلة الحج كما أمرهم ابن الرشيد. لقد أعطونا بعض المعلومات عن الطريق. إننا سنصل إلى مناطق ابن دوالا خلال خمسة أيام. لكننا سنبلغ مضارب الدفير وشيخها ابن سيوطي في اليوم التالي. ويقال إن لابن سيوطي نوع من العطفة مثل ابن الشعلان لكنها تغرز في الأرض أثناء المعركة. ولقبيلة عجمان قرب الكويت عطفة حقيقية من ريش النعام كما تتقدم فتاة تغني خلال القتل. وقد رووا لنا أيضاً هذه الحكاية الرائعة.

هناك في الصحراء، كما يقولون، على مسيرة خمسة أيام من هنا شرقاً وعلى مسافة عشرة أيام من سوق الشيوخ على الفرات، ضريح للولي الرفاعي، في منطقة تسمى تلتي الغرب، وقرب القبر بركة مليئة دائماً بالمياة. وللضريح باب يظل مفتوحاً، لكن حوله تنام طوال الليل والنهار حية ضخمة يلتقي فمها وذنبها تقريباً بحيث يستطيع رجل واحد المرور. ولا تسمح لأحد بالدخول إلا إذا كان من الدراويش، ويذهب الكثيرون من الدراويش إلى هناك للصلاة. وفي الداخل هناك بئر تؤمن المياه، وللدرويش أن يمضي ثلاثة أيام، حيث يعثر على الطعام ثلاث مرات في اليوم، لكن في اليوم الرابع عليه أن يخلي المكان. وداخل القبر هناك أيضاً أسد موثوق من عنقه.

البركة في الخارج مليئة دائماً بالمياه لكنها محاطة بالأفاعي التي تبخ فيها السم فلا يستطيع أحد الاقتراب منها. لكن في المساء يأتي الأريل، وهو غزال ضخم، فيضرب المياه بقرنية فتنظف وتصير عذبة. وبعد ذلك تتبعه جميع حيوانات الصحراء وطيورها وتشرب. ولم يقل الصبيان الذين رووا الحكاية أنهم شاهدوا الضريح بأنفسهم.

إننا على طريق مرتفعة الآن وكانت مسيرتنا طوال النهار في النفود: أفواج الجراد نفسها في كل مكان وأمواج الطيور نفسها أيضاً، خصوصاً الصقور السوداء التي راح عبدالله يتمنى لو أنه يستطيع صيد واحد منها لأن عظامها مثل العاج، وهي تستخدم في حشو البنادق بالبارود وفي حشو الغليون أيضاً، لكنه لم ينجح في ذلك مع أنه أطلق النار بضع مرات. وقد كان ويلفرد أكثر حظًا في اصطياد ما كنا نصبو إليه أكثر: حبارى! وقد كان أطيب الطيور التي تذوّقناها. ومع أن الحبارى كثيرة هنا إلا أنها نادراً ما تصل إلى مرمى الصيادين إلا أن طريدتنا أخافها الصقر فطارت وحلقت فوق رؤوسنا.

عند الظهر وصلنا إلى مبنى معزول وسط النفود يسمى قصر طربة. إنه مربع ذو أبراج عند الزوايا وتعلو أسواره ٢٠ قدماً. ويحمي هذا القصر أربعة من جنود ابن الرشيد وقد منعونا من الدخول وهددوا بإطلاق النار علينا إن نحن أخذنا الماء من البئر في الخارج. وللحظة فكرنا في اقتحام المكان، وكان في إمكاننا أن نفعل ذلك دون عناء، لأن البوابة كانت مهترئة وكنا جميعاً عطشى وغاضبين، لكن التأني هو دائماً الأفضل في البادية، وبعد تفكير بلعنا الإهانة ومضينا. وبعد ذلك بقليل مررنا بشاب وأمه ومعهما ثلاث ذلول يسافران في الاتجاه نفسه. كانا يبحثان عن أهلهما الذين في مكان ما في النفود لكنهما لا يعرفان أين. ولما لم يكن هناك أثر لأحد فقد توقفا لتمضية الليل معنا وكانا لطيفين جدًا وقالا إنهما من شمّر وقد كان في حائل في عمل.

١٢ شباط/ فبراير ـ خيبتنا في العثور على المياه أمس جعلتنا نعود إلى طريق الحج

وآبار خضرة التي تبعد ١٣ إلى ١٤ ميلاً عن مخيمنا الليلة الماضية. إلا أننا مارسنا بعض الرياضة في طريقنا. فقد رأينا أرنباً بريًا يعدو فأطلقنا الصقر في أثره. وبما أن النفود مغطاة بالأعشاب المرتفعة راحت تتقفى أثره، كان منظراً جميلاً إذ أخذ الصقر يتوقف إذا ما توقف الأرنب والكلاب تركض وترفع رأسها إلى فوق. حاولنا أن نعدو خلفها لكن الرمال الثقيلة أبطأت سيرنا، وسرعان ما اختفت عن أنظارنا. وفجأة وصلنا إلى حافة النفود وهناك، رأينا على بعد عدة أمتار، الصقر يحوم والكلاب تندب حظها عند أحد الأوكار التي اختفى فيها الأرنب.

بدا المطاردون الأربعة أغبياء وفي حيرة من أمرهم، أما نحن فبرغم خسارة المباراة غرقنا في الضحك. إن الأرانب في الصحراء تهرع دائماً إلى الاختباء تحت الأرض. وقد أصرّ محمد وعبدالله وعواد على أن يحفروا خلف الأرنب إلى أن كادت الرمال تطمرهم، لكن عبثاً فقد كان الوكر كبيراً لدرجة أنه يستطيع أن يواري ضبعاً. لكن حين لحقنا أرنباً آخر بعد قليل لم نسحبه هو فقط بل سحبنا أيضاً ثعلباً فضي اللون كان ينحني فوقه. كذلك شاهدنا بعض الغزلان.

هناك ١٤ بئراً في خضرة هي عبارة عن ثقوب في الأرض من دون فوّهات تحميها أو تميزها. وما إن وصلنا حتى شاهدنا جماعة كبرى تحتلها. وبدا وكأن في الأمر غزوة، إذ كان هناك نحو ٤٠ رجلاً مع جمالهم مسلحين بالرماح. إلا أنهم لم يضايقونا مع أن نظراتهم لم تكن ودية على الإطلاق. وقد أبلغونا أنهم من الدفير وينتظرون الحج مثل الجميع، وأن مضارب شيخهم ابن سويتي لا تزال على بعد يومين شرقاً خلف لينا، التي هي أيضاً مجموعة من الآبار. وقالوا إنهم سمعوا عنا وعن هديتنا إلى الأمير، البندقية التي تطلق ١٢ رصاصة وغيرها. غريب كيف تنتقل الأخبار في الصحراء، وقد لاحظت أن محمد قال ردًا على أسئلتهم إنه من الموصل، وقد فسّر لنا بعد ذلك أن ثمة ثأراً قديماً بين تدمر والدفير بسبب عركة قتل خلالها ٢٠ شخصاً. وهكذا قررنا ألا نقوم بالزيارة المقرّرة إلى ابن سويتي. وقد كانت هناك معركة مؤخراً بين قبيلة الإمارات قتل فيها أحد أعضاء عائلة ابن هدال.

١٢ شباط/ فبراير ـ قطعنا نحو ٢٤ ميلاً اليوم، إذ لم يلهنا أي شيء على الطريق وقد وصلنا إلى الأوائل من خزانات زبيدة. وقد فوجئنا بأن هذه الخزانات ليست في مكان منخفض بل على تل. وكان لا بدّ أن نتسلّق نحو ٢٠٠ قدم على الأقل للوصول إليها. إنها مبنية عبر قناة ضيقة من الإسمنت الصلب الذي تبلغ سماكته ٦ أقدام، مربع تقريباً، ٨٠ ياردة بخمسين. وينزل المرء إلى داخل هذه الخزانات على درج، لكن كثرة الناس

لم تبق من المياه سوى القليل. وقد رأينا بعض العرب هناك الذين ما لبثوا أن مضوا حين رأونا فأرسلنا خلفهم نستفسرهم فعرفنا أنهم من بني وهاري، وهي قبيلة متفرعة من الشرارات، وهم يتولون العناية بإبل ابن الرشيد وخيوله.

في هذه الأثناء أخذ محمد، وقد ارتاح لابتعاده عن صراعات حائل، يروي لنا بعض الحكايات والأساطير، معظمها له علاقة ببلدته تدمر. إنه له موهبة ممتازة كراو، وذاكرة جيدة. أما موهبته الكبرى فهي أنه يصدق ما يروي. وإليكم إحدى حكاياته التي هي مزيج من الأسطورة والتقليد التاريخي مثل جميع رواياته!

وقع سليمان بن داود في هوى نصرانية تدعى الست بلقيس وتزوج منها. وكانت هذه النصرانية تحب أن يكون لها بيت بين العراق ودمشق لأن هواء الصحراء نقي، لكنه لم يتم العثور على مثل هذا البيت. وهكذا استدعى سليمان، الذي كان ملك جميع الطيور وجميع الناس، طيور الهواء لكي تقول له أين يعثر على المكان الذي تمتته بلقيس، وقد لبّت كل الطيور دعوته ما عدا النسر. وسأل سليمان الطيور الحاضرة إن كانت تعرف بقعة بين دمشق والعراق منعشة الهواء فأجابت بالنفي. وبعد ذلك أرسل في طلب النسر سائلاً سبب عدم حضوره، فقال النسر إنه يعتني بأبيه، وهو نسر قديم فقد كل ريشه ولم يعد يستطيع التحليق من أجل أن يأكل، وأمر سليمان بإحضار النسر العاجز عن الطيران في صندوق لكن النسر كان ثقيل الوزن فلم يستطيعوا حمله. وعندما أعطاهم سليمان مرهماً وطلب منهم أن يمسحوا به جلد النسر هكذا وهكذا وهكذا وبعدها نبت الريش في ظهر النسر وأجنحته فطار وهبط أمام عرش سليمان. وسأله سليمان عن المكان الذي تريده الست بلقيس بين دمشق والعراق، فقال: «إنها تدمر، المدينة الرابضة تحت الرمل».

وأشار إلى المكان، فأرسل سليمان الجنيّات لرفع الرمال وبدت تحتها تدمر بأعمدتها الرخامية الجميلة.

لكن الآن تبيّن أنه ليس هناك ماء. وكانت المياه محجوزة في كهف في التلال تحرسه أفعى لها ٢٠ ألف ذراع مضاعفة وتسدّ مدخل الكهف، ونادى سليمان على الأفعى أن تخرج لكنها خافت أن تفعل، فوعدها بأنه لن يقتلها، لكنها ما إن أخرجت نصف جسمها من الكهف حتى وضع سليمان ختمه عليها وقتلها وقامت الجنيات بسحبها فيما تدفقت المياه. إلا أن الماء كان سامًّا ولم تستطع الناس أن تشرب فقام سليمان ورش الكبريت في البئر وصارت المياه عذبة. ويقول محمد إن العفاريت كثيرة أيضاً بين خرائب تدمر!

بعد أن كتبت هذا الكلام حدث شيء غريب. فقد خيمنا باكراً (١٤ شباط/ فبراير) داخل بركة مهجورة وما إن استعدينا للنوم حتى رأينا ستة رجال على جمالهم يعدون صوبنا مباشرة من الشرق. وقد تساءلنا فيما بيننا عمن يكونون: شرفاء أم لصوص؟ شمّر أم دفير؟ إنهم في وضوح ليسوا من قوافل الحجاج، إذ إن كل واحد منهم كان فوق جمل وكان يحمل رمحاً. وقد اتجهوا مباشرة نحونا وأناخوا جمالهم ورفعوا عنها الخروج ورتبوا خيمتهم لليل. ثم قاموا إلينا وراحوا يتحدثون إلى محمد والخدم الذين دعوهم طبعاً لتناول القهوة. وجاءنا محمد يهمس أنه مقتنع بأنهم من الدفير لكنه سيتأكد من ذلك خلال فترة قصيرة. وجلسوا وبدأوا يتحدثون في أمور عامة كما هي العادة إلى أن تقدم إليهم القهوة، وبعدها سألهم محمد من هم ومن أين أتوا. وأجابوا أنهم من بني كثيرين أرسلهم شيخهم إلى حائل في أمر، وأضافوا أن هذا الأمر هو العثور على قريب لهم عرفوا أنه في ضيافة ابن الرشيد... وربما نكون سمعنا عنه. إنه يدعى محمد بن عروق!

وما هو اسم شيخهم؟ مطلق بن عروق؟ يا للصدف. لقد عثر محمد أخيراً على نسل قريبه المفقود منذ زمن. تصوروا فرحة محمد. يا لها من مناسبة الآن لكي يردّد قصيدة ابن حروق الشهيرة في قبيلة، هو وأقربائه:

طلعنا من الشام البلاد بعيدة

نمشي مع الوديان والبك خلوة

وبيتت في الجوف الدار الجريوي!

الكويت (١٩١٢):
«أول دولة عربية مستقلة في الخليج»

بقلم باركلي رونكاير

تقع مدينة مبارك، التي هي أساس الخلاف في صراع القوى بين إنكلترا وألمانيا في الشرق الأكثر دنوًّا، على ساحل يمتد جنوباً ـ غرباً بشمال ـ شرق ويرتفع قليلاً جدًّا عند خليج الكويت الغني بالرواسب القادمة من طين شطّ العرب. وفيما عدا الأهمية السياسية للمدينة، فإنها لا تدعي أيّ إثارة أخرى، لأنها، باستثناء المكلا، على الشاطىء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، الأقل تعرّضاً للحضارات الأجنبية بين مدن الساحل العربي المستقلة التي لها أهمية معينة.

وأطول امتداد في المدينة يقع على الميناء ويبلغ كيلومترين، أما عمق المدينة، الى الداخل فهو حوالى الكيلومتر. وفي وسط الواجهة البحرية يقع قصر الشيخ، وهو مجمع ضخم غير منتظم من المباني، له ملحقات بنيت خلال مراحل مختلفة، وفي هندسات مختلفة. وهكذا تتمثل في القصر الهندسة المعمارية العربية وهندسة ما بين النهرين والهندسة الفارسية. وينقسم القصر إلى ثلاثة أقسام، مسكن الشيخ الخاص المطل على البحر، وخلفه أجنحة للحرس الخدم والعبيد والضيوف، وأخيراً السراي أو مبنى الحكومة، وهو على الشاطىء مباشرة.

والمبنى الذي يسكن فيه الشيخ، يشبه قلعة مقامة حول ساحة مربّعة. وليست لأسواره العالية نوافذ مطلة على الخارج، بل مجرّد دوائر مفتوحة في بعض النقاط، ويتصل المبنى كله بالعالم الخارجي فقط عبر باب صغير ورواق ضيّق يفصل الطابقين العلويين من القصر. وفوق الرواق بحوالى خمسة أو ستة أمتار هناك جسر يربط بين شطري القصر، وأخيراً هناك شرفة خشبية الجدران، تربط المبنى بالسراي.

بنيت السراي بالهندسة، بالحجر الأصغر المحروق، وهي من طابقين يتوسطها في

الدور الثاني مجلسان محاطان بالقناطر. ولقاعتي المجلس نوافذ كبيرة، بعض ألواحها من الزجاج الملوّن. وتغطى الأرض في القاعتين بالسجاد الفارسي، فيما وضعت مع الجدران كراسٍ عريضة وكنبات هي خليط من الطراز الأوروبي والشرقي، أما السقف فقد قسم بالأعمدة الخشبية، وزين بلوحات فنية كثيرة.

في الصباح، بعد أن يتناول الشيخ مبارك طعام الفطور، يتجه من المسكن إلى السراي، يرافقه خادمان هما محط ثقته الكاملة ورهط من الحرس. وكلما قطع شيئاً من الجسور والأروقة ينضم إلى موكبه حراس هذه المواقع، بحيث ما إن يصل السراي حتى يكون عددهم قد بلغ الخمسين حارساً مسلحاً. وإذا كان الطقس معتدلاً ـ وهو هكذا في صورة عامة ـ يتخذ مبارك مقعداً له تحت القنطرة على الجهة المواجهة للبحر، وهناك، لساعة أو أكثر، ينصرف إلى مراسلاته، يصغي إلى أحد مساعديه يقرأ له ما ورد، ويملي عليه آخر الردود.

حين يفرغ من ذلك يغادر السراي، يحيط به حراسه أكثر مما فعلوا داخل جدران القصر ويتجه إلى برّوشة (عربة) سوداء لماعة يجرّها اثنان من الجياد المطهّمين بغطاء من الحرير، تنقله إلى أحد مباني السوق. هنا يستقبل الزوار ويقرر في شؤون التجارة ويحكم في الخلافات القانونية. ذلك أن الذين يسمح لهم بالدخول إلى القصر نفسه، هم نخبة خاصة من الذين يثق بهم أو لهم حظوة لديه.

يسير الحراس أمام العربة، وخلفها، على حصان أبيض، يتبعها زنجي عملاق يرتدي بزة زرقاء ويحمل رشاشاً من طراز «موزر» جاهز للانطلاق. يتجه الموكب عبر الشارع الأطول في السوق تحت أشجار النخيل التي تتسرّب منها أشعة الشمس. ويتوقف كل عمل في السوق لبرهة من أجل إلقاء السلام على الشيخ.

في أبعد زاوية في قلب السوق يقوم مبنيان، كل منهما من طابقين، وفي الطابق الثاني من كل منهما نوافذ عريضة الزجاج يستطيع المرء أن يرى من خلالها المنظر كاملاً. هنا، في مبنى أو في الآخر، يعقد الشيخ مجلسه. وما إن يترجّل من العربة ويدخل إلى المبنى حتى تشدّد الحراسة وينتشر الحرس الآن في ساحة السوق كلها. إذن، وسط هذه السوق المليئة بالمساومة والمقايضة والصراخ وعرير الجمال والماعز والأطفال، تستطيع أن ترى أيضاً خمسة إلى عشرة مسلحين يجلسون في شكل نصف دائري على الأرض، وجماعات أخرى من المسلحين تتمركز على الزوايا القريبة من السوق.

حين يكون الشيخ في السوق، ينصرف بقية الحرس في القصر إلى التدرّب على

الرماية. ويستلقي رجال البدو المسلحين ببنادق «المارتيني» أو رشاشات «الموزر»، على سطح الجناح الوسطي من القصر، ويروحون يطلقون النار على الأهداف. وعندما يحين الوقت ويعود الشيخ، يأخذ جميع هؤلاء مراكزهم بسرعة حول المداخل، التي لم تهجر تماماً بالطبع، حتى في ذروة المبارزة بالرماية.

وإذا حدث وأنهى الشيخ عمله في السوق باكراً وعاد قبل موعد الغداء، فإنه يذهب إلى السراي مرة أخرى لكي يجلس على الشرفة ويمتّع ناظريه بألوان البحر المتغيرة من الأخضر إلى الأزرق الداكن إلى الرمادي إلى الصافي مثل مرآة. وإلى جانبه دائماً طاولة عليها علبة سجائر مطعمة بالماس ومنظار حربي يراقب به الزوارق الصغيرة أو الباخرة البريطانية التي تحمل البريد.

ثم يحين وقت الغداء. ويهرع الخدم في القاعات وفي الأروقة وعلى رؤوسهم أطباق نحاسية عريضة وفي أيديهم قطع من القماش المطرز التي توضع عليها الصحون. ويوضع في الوسط عادة طبق الأرز المطبوخ بالسمن، وتوضع حوله أكوام من الخبز المستدير وصحون أصغر حجماً من لحم الضاني والسمك. وخلال نصف الساعة التي يستغرقها الغداء، تفرغ الأسطح والأروقة تماماً. ثم يعود الخدم مرة أخرى لكي يحملوا بقايا الطعام. ويتبع ذلك «ساعة من الهدوء» تستمر في الواقع من منتصف النهار إلى الساعة الثالثة. تنحدر الشمس باضطراد في الأفق وتنعم المدينة كلها بهدوء عجيب. الشيخ ينام، والقصر ينام، والجزء الأكبر من المدينة يخلد إلى النوم.

المخلوقات الوحيدة التي لا تنام هي الذباب، التي يبدو أنها تئزّ أكثر من أي وقت آخر، ولا تترك رجلاً أو داجناً إلا وتغطّ عليه. وأخيراً تنتهي قيلولة بعد الظهر ببعض دقات متقطعة أولاً لا تلبث أن تتحوّل إلى نغم معين، يعقبها رنين فطنين وفي النهاية رنّة معدنية صافية، ثم يتكرّر النغم مرتفعاً، يرافقه غناء زنجي بصوت أجش عال. إنه رجل إفريقي يدق البن وهو يردّد لحناً حمله معه من بلده الأم. وعلى هذا الصوت يستيقظ القصر تدريجيّاً، فتسمع وقع الأقدام على السطوح وتلمع البنادق عند الأبواب والجسور، وفجأة يبدو كل شيء مهيأ لعبور الشيخ من مسكنه إلى السراي. هنا، يتخذ مكاناً له على كنبة في نهاية إحدى غرف الاستقبال، فيما يجلس الضيوف ووجهاء المدينة على الجانبين.

يدخل رجل أسمر ومعه كدسة من الفناجين التي لا أذن لها بيد، وباليد اليمنى إبريق نحاسي من صنع الأحساء. وتقدم القهوة للضيوف بالدور، ثم يعرض الشيخ مبارك سيجارة على من يريد أن يكرمه بصورة خاصة، فيما هو يحادث معظم

الموجودين. وبعد ساعة تقريباً يتجه الشيخ مرة أخرى إلى السوق ولا يعود إلا قرب المغيب لكي يتناول وجبة اليوم الرئيسية، التي تقدم مباشرة بعد الصلاة.

حين يهبط الظلام ويبدأ البرد قليلاً، يشعل الحراس بعض المواقد في المداخل وعلى السطوح. وتشرب القهوة. وعلى أضواء النيران الآخذة في الانطفاء يظلّ البدو يرددون بعض الألحان البسيطة حتى ساعة متأخرة من الليل.

هكذا، في صورة عامة، تمضي الأيام والليالي في قصر الشيخ مبارك، لكن هذا الرجل المتقدم في السن، البالغ ٧٣ عاماً من العمر، يشعر أحياناً بالضجر فيستدعي فرقة موسيقية من البصرة، ويمضي القصر وبعض ضيوفه بعض الليالي الخارجة عن رتابة الألحان البدوية. وتضاء عادة إحدى قاعات الاستقبال بمصباحين ضخمين، ويتخذ الموسيقيون أماكنهم في آخر القاعة، في انتظار قدوم الشيخ.

لا يفرض الشيخ مبارك ضرائب مباشرة على المواطنين. ولذلك تحصّل الخزانة الأموال عادة من عائدات الميناء والسوق معاً. ولذا فإن للميناء وللسوق بالنسبة إليه أهمية تجارية وسياسية معاً.

المبنى الذي يحول الشاطىء الرملي الفسيح إلى مرفأ، متواضع الأبعاد جدًّا لكنه كاف لتأمين الحماية لأن التضخم في الخليج نادر الوقوع. وقد أقيمت حول الميناء أسوار من الطوب المستقدم من شط العرب. على أن حجم الميناء ليس متناسقاً مع حجم الملاحة. إذ مرة واحدة في الأسبوع فقط ترسو باخرة البريد الإنكليزي على نصف ميل تقريباً، يساعدها في ذلك نحو عشرة من القوارب التي تنقل حمولة الباخرة. ويتقدم هذا الأسطول الصغير رئيس الجمارك لدى الشيخ مبارك، الذي يصعد إلى الباخرة البريطانية قبل السماح بإفراغ حمولتها. وعندما تعود المراكب إلى الشاطىء، ترسل البضائع إلى مبنى الجمارك الضخم المستطيل الشكل والواقع قرب السراي، وبين مبنى الجمارك والمياه تربض ثلاثة مدافع ضخمة يستدل من شكلها أنها تعود إلى أيام لاحق البرتغاليون التجارة والقرصنة في الخليج. وتستخدم هذه القطع العسكرية الثلاث للتحية في المناسبات الاحتفالية، كما حدث أثناء وجودي حين استقبل الشيخ ضيفاً تركيًا. وتنطلق هذه المدافع في ابتهاج واضح، لكن ليس من دون أن تشكل خطراً على الناس والمباني المجاورة.

ومع أن الكويت لا تحتاج إلى أكثر من بضعة مراكب لتأمين الحركة التجارية إليها، فإن المدينة غنية بالسفن. ومعظم هذه السفن تقريباً تستخدم في صيد اللؤلؤ في البحرين، ولذا فإنها تظل مربوطة إلى اليابسة في الجزء الأكبر من السنة، إلى أن يحين

موسم الصيد ويأخذ الصيادون في التدافع من داخل البلاد. ويبلغ عدد السفن في الكويت حوالى خمسمائة ولكل سفينة نحو ثلاثين بحاراً، ويراوح عدد صيادي اللؤلؤ في الكويت بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً.

ولا تستطيع الكويت طبعاً تأمين كل هذا العدد من الرجال لصناعة واحدة ولذا تستعين ببحارة من مناطق عديدة في نجد وإيران والعراق. وفي شهر نيسان/ أبريل مع اقتراب الموسم، يأتي عدد كبير من الرجال من واحات نجد. ويصل هؤلاء بعد رحلة طويلة مليئة بالمخاطر الصحراوية لكي يقوموا بعمل لا يخلو من الخطر هو أيضاً. ويبدو أن المغامرة لا المال هي التي تجتذب أكثر هؤلاء. وليس للصياد ما يخسره في أي حال، لأنه يأتي وليس معه سوى ثوبه، في حين أنه قد يربح شيئاً ولو ضئيلاً في نهاية المطاف.

والواقع أنه ليس هناك ربح كثير. إذ مقابل الأجور الضئيلة والطعام التعس يمضي صيادو اللؤلؤ الصيف بطوله في البحر بين الصخور والنتوء، شمال البحرين، يواجهون الحرارة الرطبة الخانقة، التي لا يخفّف من شدّتها سوى العواصف المتكررة. وبعد انتهاء الموسم يكشف هؤلاء أنهم لا يحصلوا على الكثير من أصحاب السفن.

تعود صناعة صيد اللؤلؤ، التي يشترك فيها شبان كثيرون من مختلف مناطق الخليج، إلى أزمنة قديمة إلا أنها لم تتخذ هذا الحجم إلا الآن. وهي صناعة مسالمة إلى حدّ بعيد إلا من بعض الخلافات.

ويقتحم البحارة الخليجيون، في مراكب سريعة العطب وغالباً بلا دفة، أعماق المياه فيصلون إلى المحيط الهندي، حتى خلال الرياح الموسمية، ويبحرون حول طول ساحل الجزيرة وصولاً حتى عدن ومنها إلى جيبوتي. ومن ذلك الميناء بالذات يحصلون على الأسلحة الممنوعة التي هي أقرب لعبة إلى قلب البدوي، ومن الطفولة حتى الوفاة. إلا أن السفن البريطانية تقوم بأعمال الدورية في المنطقة وغالباً ما تُرمى هذه الأسلحة في أعماق البحار. غير أن بعض هذه الأسلحة يمرّ من خلف ظهر الإنكليز، ويجد المهربون السعداء الحظ أنفسهم في حيازة أسلحة نارية يطلبون أثماناً فادحة لها.

وبالنسبة لهذه التجارة نفسها فإن الكويت تختلف عن غيرها في مدن شرق الجزيرة العربية. ذلك أن السلطة في الكويت هي في يد رجل واحد، وهذا الرجل يملك الإرادة والعزم لتحطيم كل معارضة. لذلك فالأمن العام في الكويت أكثر ثباتاً منه في أي مكان على الساحل، وبالتالي فإن سكانها، باستثناء حرس الشيخ، لا يملكون أي أسلحة. ولهذا السبب وحده فإن تجارة السلاح هنا لا أهمية لها.

برغم عدد السفن الكبير فإن بناءها نادراً ما يختلف عن النموذج التقليدي، وتسمى الكبرى منها «اليوم»، والصغرى «حراشب». ويرى المرء على الشاطىء المنحدر قليلاً، عدداً كبيراً من المراكب التي جرت إلى البر لتصليحها، كما يرى عدداً آخر قيد البناء. وثمة جسور صغيرة توصلت إلى المياه هنا وهناك. وتقع المدينة على بعد متر أو مترين فقط من الشاطىء، لا يفصل بينها وبين الميناء سوى طريق كثير الاستخدام، وقد بنيت معظم البيوت المهمة هناك. وعلى بعد مئات الأمتار من السراي يقع بيت المعتمد البريطاني الذي يرفرف علم بريطاني فوقه من فوق عامود شديد الارتفاع. وفي الليل يعلّق فوق هذا العامود قنديل زيتي فيتحول إلى منارة للبحارة. وبريطانيا، التي يسمى مندوبها «الوكيل السياسي»، هي الدولة الوحيدة التي لها مندوب هنا. ولا أثر مرئي لتركيا. وبما أن الكويت رسميًا أرض عثمانية فلا يستطيع الأتراك تعيين قنصل هنا، لكن أيضاً لا يرى المرء أي موظف تركي آخر في أي حال، والشيء الوحيد التركي هو العلم الأحمر وفي قلبه الهلال والنجمة الأبيضان.

معظم التجارة والملاحة الأوروبية في الكويت هي في يد الإنكليز. وتحتكر حركة السفن العاملة على البخار شركة «الملاحة البريطانية الهندية» الشهيرة، التي تأتي سفنها أسبوعيًا ويمثلها هنا وكيل هندي. وأكثر الصادرات أهمية هي الصوف وجلود الماعز والأغنام المجففة. وتصنع المادة القطنية البيضاء التي يصنع العرب منها غالباً أثوابهم، شركة من بوسطن لها مقر رئيسي في عدن، وتحمل هذه البضاعة من عدن إلى كل الجزيرة على ظهور القوافل.

البضائع القطنية الملونة معظمها ذو منبع إنكليزي، وخصوصاً الكوفية. وفي العراق تختلف ألوان الكوفيات وتتعدّد، فالذوق مختلف وهي إما حمراء أو بيضاء. أما الواردات فتشمل بعض المصنوعات الشرقية، فتأتي النحاسيات من بغداد وبومباي، والسجاد من إيران والبن من جاوا. كذلك يستورد الفحم الحجري وعيدان الثقاب والزبدة والبهارات والثمار والشاي والسكر. وتطغى في أسواق آسيا التركية عيدان الثقاب النمساوية الصنع، لكن هذه بدأت تخسر مواقعها الآن أمام الصناعة السويدية التي تستوردها إلى الخليج شركة الملاحة هامبورغ ـ أميركا. ومع أن الشعب هنا متحفظ بطبيعته فإنه يبدي حماساً كبيراً لأي بضائع جديدة قادمة من أوروبا.

بالإضافة إلى الشركتين المذكورتين، هناك شركات إنكليزية أخرى تعمل في الخليج، وأخيراً هناك شركة روسية بدأت الملاحة بين أوديسا والبصرة قبل أشهر قليلة. وهذه بالطبع خطوة مناقضة للتفاهم الروسي ـ البريطاني الذي يجعل من جنوب إيران والخليج منطقة للنفوذ الإنكليزي.

ولأن الشيخ مبارك لا يريد أن يرى سفناً أخرى غير السفن البريطانية في الميناء، فإنه رفض مؤخراً العروض المغرية التي قدمتها إحدى الشركات الألمانية لفتح مكتب لها في الكويت. ولا بدّ أن نلاحظ أن الكويت في وضع سياسي دقيق، لأن العلاقات الودية جدًّا بين الشيخ مبارك والحكومة الهندية تتناقض مع وضع الشيخ الرسمي ضمن الإمبراطورية العثمانية. وعواطفه المعلنة ضد الألمان تتناقض مع موقف تركيا. إن للكويت أهمية كبرى في صراع المصالح بين إنكلترا وألمانيا في الشرق الأكثر دنوًّا (يستخدم رونكاير هذا التعبير الجغرافي بدلاً من الشرق الأدنى) لأنها تعتبر المفتاح الرئيسي إلى بلاد ما بين النهرين. والمحطة النهائية المثالية لخط بغداد الحديدي الذي يبنى برأسمال ألماني، هي في خليج الكويت، إلا أن وضع الكويت السياسي يمنع شركة الخطوط الحديدية من استخدام الخليج من دون دعم وتعاون بريطاني.

إذا حاولت الشركة أن تحل هذه المشكلة بجعل نهاية الخط في الفاو، على رافد شط العرب، فإن ذلك لن يكون حلاً مثاليًّا. إذ برغم أن هذا الأمر ممكن من دون تدخل بريطانيا العظمى، فإن الخط الحديدي يفقد أهميته السياسية الأولى. إن الدولة الكبرى التي يكون لها موقع في الكويت هي التي ستتحكم بفم شط العرب. وفي أي حال فإن بناء ميناء في الفاو سيواجه صعوبات فنية كبرى بسبب نشاط النهر الدائم الذي يشكل دلتا في المنطقة.

يعود الوضع السياسي الحالي على رأس الخليج إلى العام ١٩٠١ حين قام الإمبراطور الألماني بزيارة إلى تركيا يوم نشأت فكرة الخط الحديدي المشترك بين البلدين. وبعد ذلك حاولت تركيا جعل الكويت إقليماً عاديًّا في إمبراطوريتها غير أن بريطانيا تدخلت بحماس ظاهر وذلك بعرض كبير للقوة البحرية في مدخل الخليج. وكان الشيخ مبارك يملك في ذلك الوقت، ولا يزال يملك، بساتين نخيل ضخمة في الفاو. ولذا فإن له مصلحة كبرى في أن يمدّ حدود الكويت حتى شط العرب.

أما الباقي فإن حدود إمارة الكويت متغيّرة جدًّا بسبب طبيعة البدو غير المستقرة في داخل البلاد. لذلك ليست هناك حدود ثابتة سوى في الكويت والجهراء والحدود التي يمكن رسمها وفقاً لولاء القبائل للشيخ مبارك. وعلى هذا الأساس يمكن القول إن حدود الكويت تمتد من المنطقة الواقعة شمال الجهراء بمحاذاة وادي رمانة وصولاً حتى آبار (هفر) Hafar ومن هناك إلى بئر الصفاة حتى آبار وربة وتنتهي على الخليج الفارسي عند رأس تناجيب. وفي الصيف مثلاً تضرب بعض القبائل الرحل الغربية، مثل عجمان، جنوباً في الأرض الكويتية، بينما يضرب المطير إلى شمالهم.

يتألف سكان مدينة الكويت نفسها من عنصرين، العرب، وهم الأكثرية (وقد جاءوا في الأساس قبل زمن من قلب الجزيرة) والفرس. وقد جاء الفرس (الإيرانيون) بصورة رئيسية من بوشهر وجوارها، وتستطيع أن تميّزهم عن العرب فوراً من زيّهم، الذي هو عادة عبارة عن سترة زرقاء اللون وسراويل بيضاء وقبعة من القماش الأسود. غير أنهم، خلافاً لذلك، لا يؤثرون على طابع المدينة.

من دون شك، الكويت هي أهم مدينة تجارية على الساحل الشرقي للجزيرة العربية، بما في ذلك مسقط. ذلك أن تجارة مسقط محصورة في عمان نفسها، وهذه تعزلها الصحراء الجنوبية العربية وليست لها اتصالات أرضية مع بقية شبه الجزيرة. وهكذا فإن الجزء الأكبر من التجارة داخل شبه الجزيرة العربية يمرّ في الكويت ولذا فهي، بشكل أو بآخر، ليست فقط المدخل إلى بلاد ما بين النهرين بل أيضاً إلى قلب الجزيرة. إنها المدينة الوحيدة بين شط العرب ورأس مسندم التي تملك ميناء جيداً. إذ بعيداً منها صوب الساحل المتصالح تجفّ المياه أحياناً بحيث تجد المراكب العربية الصغيرة نفسها صعوبة في الإبحار، والشيء نفسه ينطبق على الطرق البحرية حول البحرين. أما على الساحل المتصالح نفسه فالظروف أفضل أحياناً، كما هو الحال في دبي، الميناء الوحيد الذي ترسو فيه السفن البخارية بين الكويت ومسقط. لكن حتى في دبي تضرب رياح شمالية عاتية في ساحل من دون أسوار، لكن العوامل الجغرافية تجعل التجارة البرية صعبة على دبي. صحيح أن جدة وينبع على البحر الأحمر تشكّلان مراكز تجارية كبيرة جدًّا، غير أن معظم التجارة الداخلية تتعلّق بسكان وزوار الأعتاب المقدسة.

ثمة عوامل أخرى تجعل الكويت أكثر أهمية من الموانىء الأخرى في التجارة. إذ بما أن الكويت دولة عربية مستقلة فهي البقعة الوحيدة التي يجد فيها أهل المنطقة ممرًّا حرًّا إلى البحر. ذلك أن العرب هنا يكنّون كرهاً شديداً للأتراك، ولذا يتجنّبون المرور في الطرق والمرافىء التي يسيطرون عليها. أما الكويت فيستطيعون الوصول إليها من دون عذاب، وبكل أمان، بسبب سلطة الشيخ مبارك.

السوق المفتوح في الكويت ليس فقط مكاناً للتجارة بل هو أيضاً منطلق للقوافل. وحين تستعد قافلة ما للانطلاق يظهر رعاة الإبل مع ذلولهم في الجزء الجنوبي المفضي إلى الصحراء وإلى هناك يحمل التجار بضائعهم. والحركة في السوق، مثل كل شيء آخر يفعله العرب، يرافقها ضجيج كبير وصراخ، ولذا هناك دائماً حاجة إلى المياه لترطيب الحناجر الجافة. وهكذا ترى عدداً في المقاهي في السوق حيث تقدم القهوة والشاي وحتى النراجيل.

وأحد المقاهي في أطراف السوق هو ملتقى الطبقة الراقية وكبار التجار وأصحاب القوافل وبعض سكان القصر. وبما أن التجارة في الكويت كبيرة إلى هذا الحدّ فإن السوق تشبه معرضاً للناس والبضائع معاً. وتقام على أطراف السوق خيم سوداء، بطريقة عشوائية، يقطنها عادة البدو الرحل من أهل الكويت نفسها. وهناك ترى طوال النهار، النساء والأطفال والأغنام والأولاد يلهون بكسل تحت أشعة الشمس. والشوارع المؤدية إلى السوق لا يمكن المرور بها في المساء، إذ لا بدّ للمرء أن يتعثر بحبال الخيم أو الأسافين فيقع فوق الخيم الصغيرة التي لا تعلو أكثر من بضعة أقدام. وعلى مقربة هناك أيضاً سوق الفحم الذي يحضر إلى هنا من الميناء وقد استورد على الأرجح من إيران. ويكتظ المكان كلّه بالحمير وعلى ظهورها السلال لنقل الحمولات. كذلك تستخدم ساحة السوق المفتوح كمعرض للجمال والغنم والماعز التي يأتي بها البدو من قريب وبعيد. ويعين الشخص رجلاً مسؤولاً عن استيفاء الضريبة على كل ما هو يباع، وتبلغ الضريبة عادة أربع «أنات» على الماعز والغنم، وروبية إلى أربع روبيات على كل حمار وفقاً لحجمه و١٠ في المائة من أثمان الإبل التي تراوح بين ٥ جنيهات و٢٥ جنيهاً.

كل صباح، تقام في السوق، خيم كثيرة مصنوعة من الحصير وأوراق النخيل أو الجنفيص وترفع على إطارات من الخشب. وتصف هذه الخيم عادة إلى جانب بعضها بعضاً بحيث تبدو مثل بيوت مصنوعة من ورق اللعب، ويتخذ البائع مكاناً له في ظل بيته ويعرض بضائعه، غير أن معظم الباعة من النساء.

هنا تتم التجارة تقريباً في كل شيء: الثمار والبلح والعباءات الصوفية واللبن المجفف و «الفقع» (الكما) المستقدم من كل الصحاري القريبة واللحوم والضروف المليئة بالسمن والأواني والصواني وأشياء كثيرة أخرى. وفي الطريق من سوق الفحم إلى الشارع الرئيسي تقع على يمين الطريق «المكتبة الأميركية لبيع الأناجيل». ويجلس خلف طاولة المكتبة المليئة بالطبعات العربية من الإنجيل، يوماً خلف يوم خلف يوم، رجل موهوب بطاقة فائقة من الصبر. إذ كل يوم يرى أمامه سيل من الناس والتجارة والمساومة لكن نادراً ما يعبر أحد عتبته.

يقوم المسجد الأكبر في الكويت على يسار الشارع المؤدي من سوق القناطر إلى السراي. وعلى المدخل الرئيسي إلى الجهة الشمالية تقوم المئذنة. وإلى جانب الجامع الكبير هناك مساجد صغيرة أخرى في المدينة ذات هندسة متواضعة. والمئذنة التي تبدو ظاهرة جدًّا في المدن الشرقية الأخرى، ليست كذلك في الكويت، إنها منخفضة لدرجة تكاد معها لا تبين من فوق البيوت.

في شارع إلى اليمين من هذا الشارع الرئيسي المؤدي إلى السراي يقع مكتب شركة الملاحة الإنكليزية والبعثة الأميركية التي هي عبارة عن خان كان يسكن فيه الشيخ مبارك من قبل. إن الكويت، بكل تأكيد، مدينة واقعة بين البحر والصحراء، بلا حدائق أو بساتين من أي نوع. وتأتي الذرة والخضار إلى هنا من الفاو وأماكن أخرى وليس فيها شجرة واحدة. إن مدينة هؤلاء البحارة والرعاة هي في الواقع بيوت من الطوب بين البادية والبحر.

الكثبان تغني في الربع الخالي (١٩٣٠)

بقلم برترام توماس

ها هي رمال شعيط في الجوار تنحدر يميناً إلى الغرب وتبدو وجهتنا قبالتها. وهنا وهناك بدا وكأننا نودّع بادية لتستقبلنا أخرى من خلف تلة أو كثيب. وبعدما كان اللون الفاتح هو الذي يميز الجانب الجنوبي من البطاح المحاذية، تغيّر الآن إلى لون أحمر يغطي التلال التي راحت تتلاحق كلما أوغلنا في المسير. وقد امتلأت طريقنا بالأودية المنبسطة فأطلنا الركوب إلا إذا رأينا مرعى ضئيلاً على منحدر ما، فكنا آنذاك نسعى إليه للراحة والرعي.

وقد لفت انتباهي فجأة تلك السحبات الفضية في القنوات السفلى، والتي بدت لنا من بعيد كأنها رقائق من الجليد أو طبقات من بقايا بحيرات مالحة أصابها الجفاف. وقد ظهرت هذه الغدائر بصورة أكبر (تبين أنها مساحات من الجبس) في كل مكان من كثُبان جبيلا وجديلا، كما ظلّت تظهر لنا خلال رحلة استمرت يومين في الجبال الرملية حول ورق الدعية.

تركت المسيرات اليومية التي تستغرق تسع أو عشر ساعات، أثرها الواضح على جمالنا، بحيث اضطررنا إلى أن نعيد توزيع الأحمال. وقد وجدنا الآن أن سلتي التمر (٦٠ أقة للسلة) اللتين كانتا الحمل العادي للجمال صارتا حملاً فوق طاقتها، فخفضنا الحمولة إلى النصف وأعدنا توزيع الباقي على ظهور الجمال الأكثر أهلاً لتحمل مشاق الطريق الوعرة التي تنتظرنا، فيما راح رعاة الإبل يتمتمون متذمرين. وكاد ينشأ خلاف فيما بيننا لكننا في النهاية اتفقنا على أن تنقل الجمال التابعة لي حملاً صغيراً كل يومين أو ثلاثة. وخلال الجدل افتقدت مرة أخرى الشيخ صالح وطريقته في حسم الأمور.

أدت وعورة الطريق الشديدة وتعب الجمال إلى استطالة القافلة أحياناً، بحيث إن بعض أفرادها كانوا يغيبون عن الأنظار خلف مطاوي الرمل ومنعطفاته. ولم يكن مثل

هذا الوضع مريحاً في مواجهة الكمائن المحتملة، إذ إن تعبنا كان يزداد وحركتنا تضعف مما يجعلنا فريسة سهلة لأي قافلة مهاجمة تعمل حول إحدى الآبار الثلاث التي أصبحت الآن على مسيرة يومين منا.

وكنا كلما اقتربنا من تل ترعف، يقوم أحد رجال القافلة، الذي تكون يومها نوبته في التحرر من الأحمال، باستكشاف ما خلف التل، مبقياً رأسه مع الأرض لكي لا يبين، منبطحاً بلا حراك، فيما نعبر نحن الطريق في أسفل التل. بعد ساعة كان رجل آخر يكرر العملية نفسها، فيما نحن في الأسفل نراقب ما حولنا تخوّفاً من أي عدو.

كان هذا التباعد بين أفراد القافلة، يعني أن الرحلة ستأخذ وقتاً أطول، كما صار من الصعب علينا أن نعثر على مكان مناسب للقيلولة اليومية. ذلك أن مثل هذا المكان يقرره توافر الكلأ في هذه الأرض الجرداء، لكن كان علينا أن نأخذ في الاعتبار أيضاً الوقت الذي يستغرق كل أفراد القافلة للتجمع هناك قبل حلول الظلام. وذات مرة عثر كشافنا على مرعى غير عادي فدبّ به الفرح وراح يلوح لنا بعقاله من التل العالي كمن أصابه الجنون، إذ أنساه مشهد العشب الكثير الخوف من أن يعرف بنا الأعداء.

تقاطرت الجمال لكي يساعدها رعاتها على إزاحة أحمالها ثم راحت تعدو إلى أقرب الأشجار الخفيضة تكلأ منها. لكن الرعاة لم يكتفوا بذلك بل راحوا يبحثون في التلال المجاورة عن علف وأخذوا يطعمون النوق بأيديهم كما تطعم أم طفلها. وبعدما أطعمت الإبل، اصطفّ الرجال لأداء الصلاة قبل أن يقوموا إلى إفطارهم. وأقيمت أربع أو خمس حرائق صغيرة لمواجهة صقيع الليل، تحلّق حولها الرجال كما يشاؤون، وكنت أختار كل مرة، مجموعة أجلس معها.

هذه الليلة كان همّي أن أرقب الطريقة التي يخبزون بها الأرغفة الخالية من اللب. وجلس معيوف، الذي كان طباخ فريقنا، القرفصاء على الرمل وسط حلقة من المتفرجين الجائعين، وأخذ يملأ طنجرته بالطحين، ثم رش فوقه الماء وراح يجبله ويعجنه حتى حوّله إلى قطع ناعمة جدًّا، قسّمها إلى كرات بحجم قبضة اليد، وقاسها ووزنها بيديه، عين على العجين وعين على الرفاق.

وظل معيوف يجبل ويدور إلى أن تساوت المقاسات وشعر بالعدل وهو يضع العجين أمامه، وعندها أخذ الكرة الأولى ورش عليها المزيد من المياه ثم رقّها براحة يده وطرحها فوق الجمر المتوهج. وحين شممنا رائحة احتراق عُرف أنه لا بدّ من قلب الرغيف إلى الجانب الآخر وهكذا استوى الجانبان. حينذاك حفر حفرة في الرمال الحارة تحت النيران وطمر فيها الأرغفة واحداً بعد الآخر، ومن ثم انتشلها من جديد

نافضاً عنها الرمل بيده أو نافخاً عليه، لكن كثيراً منه كان قد طبخ مع الخبز. ويفضل رفاقي أن يتناولوا هذه الأكلة الطيبة حارة، إلا أن القليل منها كان يكفيني، فهي ثقيلة عليّ، لعلها تزن ثلاثة أضعاف الخبز الإنكليزي، ومع أن الأرغفة كانت محترقة من الخارج فإنها كانت لا تزال عجيناً من الداخل.

لعل هذا أطيب ما في هذا الخبز لكنه أيضاً المصدر الرئيسي لاضطراب المعدة الذي شكا منه الجميع. لم يكن البدو معتادين الطعام الكامل، ولذا فإن ما قدمته لهم من تمر وخبز كل يوم ومن أرز يوماً بعد آخر، كان شيئاً من الترف الذي لا يعرفونه إلا مرة أو مرتين في العام كمثل عيد الفطر المبارك. غير أن معيوف تمتع اليوم بطبق إضافي: الأرنب الذي انتشل من حفرته يغلي الآن في الوعاء! غير أن طباخ الرمال الهاوي لا يعرف استخدام الزبدة، خصوصاً وحليب النوق خال من الدسم لا يستخلص منه لبن أو زبدة (مع أن سنام الجمل الصغير الذي يذبح في مناسبات نادرة، مليء بالدهن) ولذا لم تستهوني كثيراً فكرة الأرنب المغلي بالمياه المالحة فتركت حصتي للرفاق.

هل أفضل لحم الغزال؟ وما إن طرح أحدهم السؤال حتى راح آخر يروي حكاية الغزال والأرنب، وحكايات الحيوان محبّبة لدى البدو. وكان في ودّي أن أنقل الرواية هنا لكن جمالها الحقيقي في أن تروى بنغمها الشعري البسيط، إذ إن معظم الروايات لدى البدو تروى شعراً.

مضى الليل قارس البرودة والبدو المساكين يرتجفون. ولم نستطع أن نؤجج نار المواقد لأن لا حطب هناك. وإذ راحت النار تنطفىء أخذوا يتمدّدون، الواحد بعد الآخر، إلى جانب بنادقهم، ولم يبق سوى الحراس وقوفاً بينما رحت بدوري أرصد النجوم كالمعتاد.

لقد كان يوم الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر يوماً لا نتائج كثيرة له، أمضيناه نمشي في رمال جديلة وكلما اتجهنا جنوباً في محاولة لتخطي الحواجز كانت حرارة الشمس تلفح وجوهنا حرقاً. وكنا نتعثّر بين الكثبان الضخمة حين قطع الصمت فجأة أزيز ضخم رتيب. وذهلت للحظة وأنا لا أدري سبباً لذلك. وصرخ رفاقي في صوت واحد: حنانيا حنانيا! «اصغ يا صاحبي إلى التلة تزأر». وأشار رجل إلى تلة من الرمل تعلو حوالى ١٠٠ قدم وتبعد عنا نحو ١٠٠ ياردة. ولم أستطع أن أجيب لما تملّكني من دهشة. كانت الساعة ٤,١٥ بعد الظهر وريح شمالية خفيفة تندفع من وراء التل.

كنا قد مررنا قبل ذلك، في رياح مشابهة، بعدد من التلال المماثلة، لكن لم يصدر

عنها أي صوت، إذ لم تكن سوى طبقة خفيفة من الرمل ترتفع مع الريح حتى تتجمع فوق رؤوس التلال مثل غيوم خفيفة. كان الجانب غير المواجه للريح من التلة منحدراً قليلاً ورحت أبحث عبثاً عن حنجرات رملية، إذا ما دخلتها الريح، يمكن أن يصدر عنها مثل هذا الصوت الضخم. ويبدو لي أن التعبير الشائع «الرمال التي تغني» ليس وصفاً دقيقاً لوصف هذا الصوت الذي لا يمكن تمييزه عن بوق باخرة متوسطة الحجم. وقد استمر الصوت حوالى دقيقتين ثم توقف فجأة كما بدأ.

إن أحد تفسيرات هذه الظاهرة هو أن الرمل كان قد غلى بالحرارة طوال النهار ولما انخفضت الحرارة بعد الظهر تداعى الجانب الآخر من التلة وانهار. ومثل هذا الانهيار يحدث في أوقات مختلفة، و «الرمال تغني»، كما قال لي الرفاق، حتى في الليل. وثمة أنواع أخرى من أصوات الرمل، أو من موسيقاه، إذا شئت. وقد قيل إن رمال «أم الريح» الواقع إلى الشمال من أم الحيط تتطاير فجأة حين تدوسها الجمال وتسبّب لها صفيراً في الروايا. وذهلت شخصيًا أيضاً بعد شهر تقريباً من رمال صواحب حين سمعت صوتاً يشبه صوت سقوط الرصاص الفارغ حين وطىء جملي الرمال بميسمه. حدث ذلك مرة واحدة فجأة ولم يتكرر. وحين سألت أحد رجال بني مرة الذي كان إلى جانبي تفسيراً لذلك، قال إن السبب نشاط غير عادي في الطبقة العليا من طبقات الأرض السبع! غير أن لا علاقة لذلك، على ما أعتقد، بالأصوات المتلاحقة التي تصدر عن الكثبان والتي يقول العرب إنها وقف على هذه المنطقة وحدها.

والآن، بعد يومين طويلين، صعبين، في شعيط كان لا بدّ أن نلقي تحية الوداع على هذه المعسكرات الحانية والجائعة معاً، بين البادية والرمل، وفي الرابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر استدرنا نحو الشمال الغربي ورحنا نضرب في بلاد الكثبان الكبيرة، حيث ارتفعت أمامنا جبال من الرمل الأحمر.

بدا على الفور أننا نواجه رحيلاً صعباً. وقد ذكرنا ذلك بما حدث لي قبل عام في رمال مغشن، على بعد ٢٠٠ ميل تقريباً إلى الشمال الشرقي، التي حاولت أن أعبرها على الإبل الجبلية، غير أنني اضطررت بعد يومين إلى التراجع! يا له من منظر مهيب، مشهد الكثبان الكبرى حين تقع عليه عينك للمرة الأولى. إنه أشبه بمحيط واسع من الرمال المتلاحقة، تعلو هنا مثل عملاق غاضب وتنخفض هناك منحدرة نحو الوديان الأكثر رفقاً بالجمال، مع أن لا خضرة فيها على مدى النظر. كثبان من كل الأحجام، لا انسجام بين أحدها والآخر، لكنها مستديرة ناهدة، ترتفع طبقة بعد أخرى مثل نظام جبلي هائل. لا ظلال هنا وسط أشعة الشمس العامودية المسلّطة على رمال ناعمة

صافية الألوان. والواقع أن هذه الرمال الهائلة النعومة تملؤها أشعة لامعة مثل التموّجات الصغيرة على الشاطىء، وما يبدو من البعيد بساطاً، يلمع عن قريب بألوان الخضرة والذهب. وإذ تهبّ ريح خفيفة من الشمال ترفع الرمل على المنحدرات وتشكل طبقة مسطحة أخرى فوق حافة الكثيب. ومن بعيد تبدو لنا رؤوس الكثبان مثل جدران مدينة سحرية مبنية على مرتفع.

وصلنا متأخرين إلى المخيم ذلك النهار، وكانت الإبل قد حلّت من أحمالها كالعادة واقتيدت إلى مراع قريبة سمعنا من خلف إحداها فجأة أصواتاً احتفالية وضجيج. وبعد قليل ارتفعت صرخة عالية بدت لي مثل استغاثة حيوان. غير أن الصرخة نشرت إنذاراً فوريًا في المخيم كله، وصرخ البدو بي «قم. قم. غزاة. غزاة». وجاء خادمي يعدو نحوي ومعه بندقيتي وحزام الذخيرة. واندفع حراسنا من قبيلتي العوامير والكراب وهم يهتفون «أنا أبو فلان من القبيلة الفلانية وهذه قافلتي وهي في حمايتي». وكان الهدف من ذلك توفير أي قتال إذا ما كان المهاجمون من القبيلة نفسها. ومن التقاليد هنا أن صرخة الاستغاثة لا تردّ! وقد دبّت الفوضى ساعتها وتدافع الرجال في كل مكان وأصبح من السهل أن يختلط العدو بالصديق. لكن ساعة مرت من دون أن تتكرر الصرخة ثانية، بل من دون أي صوت على الإطلاق، ومع ذلك ظلّ قبضايات القافلة منتشرين حول المخيم للقيام بأعمال الحراسة الليلية.

كنت تعباً جدًا. وقد ساعدني ذلك على الاقتناع أكثر بأن تلك الصرخة أطلقها وحش لا عدو. والواقع أن ظني كان في موقعه. ففي صباح اليوم التالي رأينا آثار مواطىء ذئب مرّ من هناك، ويبدو أن عواءه سمع وكأنه العوان، أي صرخة الحرب التي يطلقها الغزاة قبيل هجوم ما.

إن أسلوب الغزو في الصحراء أمر يجب أن يدرسه جميع الرحالة. وأي قافلة تقترب لا بدّ أن تعتبر عدوة مع أنها قد تكون صديقة. ولو ثبت أن صرخة الذئب كانت ما خشينا، لكانت قافلتي ردت على الفور بإطلاق النار في الهواء في ذلك الاتجاه، وهي خطوة الهدف منها خفض حماس المهاجمين وإدخال الخوف في نفوسهم. وبعد ذلك يردّد حراس القافلة أسماءهم في صوت مرتفع. ومن السهل معرفة أصحاب هذه الأصوات لأن لكل قبيلة خصائص صوتية واضحة. وفي هذه الحال يردّ أهل الفريق الآخر بإعلان أسمائهم، فإذا كان صديقاً، سمح له بالتقدم.

إذا ما التقى فريقان خلال النهار يتقدم حراس القافلتين نحو بعضهما بعضاً إلى مسافة أمتار حتى يسهل تعرف أحدهما على الآخر، فيما تنتظر بقية القافلة بترقب. فإذا

تبين للكشاف أو Cabia أن الفريق الآخر عدو، عاد مسرعاً إلى قافلته فيما رجالها يطلقون النار من بعيد. أما إذا ظهر عدو فجأة، فإن الرجال يقيلون الإبل ويركضون أمامها وهم يطلقون النار على المهاجمين. والهدف في الحالتين هو إخافة القادمين.

وفي الغالب فإن الفريق المنتصر هو الفريق الأقوى عدداً وإبلا، ونادراً ما يكون الهرب عمليًا للفريق الضعيف. أما إذا كان الفريق المهاجم لا يملك إلا تفوّقاً بسيطاً، فإن حرب استنزاف تنشأ بين الفريقين حتى لا يعود لدى أحدهما من ذخيرة، إذ تقضي تقاليد الصحراء بألاّ يستسلم أحد ما دام لديه طلقة رصاص واحدة. لكن إذا كان الفريق المهاجم طاغي القوة، لا يعود هناك وقت للمزاح. سوف ينقض على ضحاياه انقضاضاً.

إن الاستسلام لأول مهاجم هو الأمل الوحيد لأي فرد. والرجل المستسلم يصرخ فوراً «سلمني» وهو يضع بندقيته فوق رأسه أو إلى جانبه، بينما يتوجب على المنتصر أن يردّ «في وجهي»، إذا كان يريد إظهار العفو.

إذا كان لدى الأسير المحتمل، سبب يحمله على الاعتقاد بأنه سيلقى شروطاً حسنة، يجب أن يقول «سلمني مع بندقيتي» أو «سلمني مع خنجري». لكن هذه مخاطرة لا تركب إلا نادراً. وإذا ما قتل أحد المهاجمين في المعركة فإن قانون الثأر قد يطبق آنذاك، ولذا فإذا لم يرد المهاجم بالقول «في وجهي» فإن على الضحية ألا يتوقع أيّ رحمة. وبالتالي فإن الفرق المهاجمة عادة فئتان: واحدة لا ثأر دمويًا بينك وبينها، والأخرى ثمة ثأر معها. لكن أي كان نوع تلك الفرق فإن المهاجمين في كل الأحوال يريدون جمالك وأسلحتك وإن كانت الفئة الثانية تريد حياتك أيضاً.

كان صباح الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر إذ تركنا مخيم «الإنذار» (الواقع إلى الشمال من وادي وربة) واتجهنا نحو ما تبين أنه أعلى وأفسح الرمال التي لقيناها في رحلتنا «عروق الدعية». وطوال الساعات الأربع الأولى توالت أمامنا سلسلة من الجبال والتلال والكثبان. وكانت جمالنا المتعبة تتسلّق في صعوبة الذرى الحادة مثل السكين ثم تنزلق غارقة حتى ركابها في المنحدرات. وكنا، هنا أو هنا، نغيّر طريقنا إما خوفاً أو بعد العثور على طريق أفضل، أو نترجّل لكي نحفر بأيدينا في الرمل طريقاً للإبل كي تستطيع التسلّق.

وإذ كنا نسير كان الرمل الناعم يغطي كواحلنا في كل خطوة. ففي هذه الحال كان انتعال الأحذية غير وارد إطلاقاً. كذلك كان ركوب الجمال أكثر صعوبة لأنه كان يعني أن على الجسم أن ينزلق مرة إلى الوراء فوق مربع الجمل ومرة على العنق إلى

الأمام، ودائماً في زاوية حادة. وكان يثير خوفنا أكثر من أي شيء آخر أن نتطلع من فوق كثيب حادّ مرتفع نحو مائة قدم، لكي نرى الطريق التي سوف نسلكها. غير أن جمالنا القوية كانت تتقدم ثابتة القوائم والأقدام برغم انغرازها في الرمل وإذ ترفعها من جديد ترسل حولها غباراً شديداً من الرمال.

لا حصان يستطيع على الأرجح أن يقطع هذه الرمال الجنوبية حتى لو أمكن وصوله كل هذه المسافة عبر المساحات الخالية من المياه. أما السيارة فيستحيل عليها تماماً أن تعبر هذه المنطقة. غير أن عذابنا لم يخل من تعويضات. إذ غالباً ما وقعت أنظارنا فجأة على مشهد طبيعي رائع أو على شكل هندسي فريد أو على ألوان خارقة الصفاء، من الأحمر ـ الزهري، تحت سماء صافية لا غيم فيها. وفي النهاية بعدما عبرنا شبكة من الكثبان تسمى «ثروب بن إيماني»، التي يقال إنها تشكّل منتصف الطريق بين مياه خور الدعية العذبة وبين مياه نبع حمودة المالحة، أصبحت الطريق أكثر سهولة، ذلك أننا غيّرنا طريقنا واتجهنا شمالاً في محاذاة الأودية الرملية القائمة بين الكثبان العملاقة.

قبل المغيب بقليل ثمة من هتف: توقفوا. إنه خور الدعية! أنخنا الجمال وركضت إلى حافة التل أمامي لأنظر من فوق إلى ذلك الوادي الرملي الهائل المتجه شمالاً ـ شرقاً وجنوباً ـ غرباً. كان عرضه حوالى ميل كامل على الأقل، وفي أرضه، تحتنا بثلاثمائة يقدم، بدا لنا المرعى الأخضر ونبع المياه الشهير، حيث كان يفترض في «الشيخ صالح» أن يلقانا ومعه عدد جديد من الجمال، في اليوم الرابع للقمر! اليوم كان اليوم الخامس، وهذا يعني أنني تأخرت يوماً كاملاً عليه. غير أنه لم يكن هناك أي أثر لصالح أو لجماعته. كانت هناك فقط مساحات خالية إلا من الصمت.

فقط من أجل الحذر، توقفنا في المساء قبل الواحة في مراع ضئيلة بينما حمل رجلان من القافلة جرابات المياه واتجها إلى الوادي لتعبئتها ولاستكشاف المكان. وقد راقبت مسيرتهما بالمنظار المكبر وأنا أتساءل ما إذا كان عدو ما قد كمن في المكان. لكنهما عادا سالمين بعد تفتيش المكان بدقة وراحا يتسلقان الجبل بصعوبة إلى أن بلغا القافلة قبل حلول الظلام.

كانت الأخبار سيئة وحسنة في وقت واحد: لا صديق ولا عدو جاء إلى المكان منذ أسبوعين. لكن مبارك، رفيق الشيخ صالح، قد زار البئر أمس فقط، وسوف يريانني آثار قدميه غداً! كان طعام العشاء عبارة عن حساء مجفف، لا حاجة لإضافة الملح إليه، لأنه مطبوخ بمياه الدعية، بالإضافة إلى واحدة من علب الفاصولياء التي أحملها معي للمناسبات الخاصة. أما وجبة الغداء فشيء لم أسمح لنفسي به، لأنه لم يكن من

الممكن التوقف طويلاً عند الظهر. ذلك أن قاعدة الحياة في الصحراء تتطلب التنقل السريع من مرعى الى مرعى. وبدلاً من وجبة الغداء كنت أحمل شيئاً من حليب النوق وحبوب الحليب المجفف.

إن الوقفات في الصحراء هي عادة من أجل الإبل. فهذه الحيوانات المسكينة التي يبدأ المسافر باحتقارها ثم يتعلّم مع الوقت كيف يعجب بها بشدة، هي الوسيلة الوحيدة التي تنقله في الصحراء إلى النجاة أو إلى النجاح. فإذا مات الجمل في الأماكن الجرداء النائية، مات صاحبه. ولذا كان مهمًّا بالنسبة إليّ أن ألاحظ هذا الاهتمام الذي يوليه رفاقي للإبل. وغالباً ما وجدت نفسي الرجل الوحيد في السرج، بينما يسير الآخرون لساعات طويلة من أجل راحة جمالهم، وكانوا ينتقون لها العشب الذي يرويها قليلاً ويشبعها وهي في الطريق.

لقد تعبت جمالنا. وكان التعب واضحاً في سناماتها التي كانت ضخمة ومليئة في بداية الرحلة. إن السنام هو أفضل مقياس لحالة الجمل، وها هي جمالنا تبدو تعبة من شكل أسنامها. وكان مثل هذا الأمر متوقعاً بالطبع بعد رحلة دامت ثمانية أيام تحت أعباء ثقيلة وفي أراض صحراوية قاحلة.

صباح اليوم التالي كنا باكراً في حالة استعداد. وقد قاد البدو جمالهم إلى السفح على أفضل ما يستطيعون وهم يرددون بفرح أغان عن المياه التي تنتظرهم والجمال العطشى. أما أنا فنزلت سيراً على الأقدام لكي أتحاشى المزالق الرهيبة فوق الرمل الناعم ولكي أتجنب رؤية الجمال وهي في حالات بهلوانية وعلى ظهرها كل آلات القياس الدقيقة. وعندما بلغت السفح كان السقي قد بدأ وسط أصوات فرحة لا تسمع في أي حالة أخرى أو مكان آخر. ولم يكن عرض فم البئر يزيد على ياردة واحدة، وقد أحاطه أول الواصلين بحزام من الطين الأصفر. ونظرت إلى عمق البئر فوجدت عربيًّا آخر هناك يعبىء سطول المياه التي تتدلى إليه، الواحد بعد الآخر. وإلى جانبي وقف بدوي يقدم لناقته السطل بعد الآخر، إلى أن رفعت رأسها علامة الارتواء، فرمي ببقية المياه على عنقها تحبّباً وراح يلعب بالسطل في الهواء مثل كرة.

لكن أين الشيخ صالح والجمال التي انتظرها؟ أمضيت النهار أتساءل، مع أن كليتوت، ابن الشيخ صالح، كان جاهز الأجوبة. وقد قال لي إن خور الدعية بقعة مخيفة يعرفها ويأتي إليها رجال من سوار وآخرون من حضرموت! تركنا ساحة البئر في ساعة متأخرة من بعد الظهر وأدركنا الغياب ونحن فوق منبطح رملي مرتفع، مليء بالزهر الصحراوي. وقيل لنا إن مراع أفضل تنتظرنا، وإن الشيخ صالح سوف يكون

هناك من دون شك. وصباح اليوم التالي انطلقنا من جديد، وراح رجال القافلة يبحثون عن آثار أقدام الشيخ صالح. وفجأة ارتفعت صرخات الحملة إذ تبين أن بين الآثار، واحدة تعود إلى حمد بن هادي، وهو رجل من بني مرة وعدني الشيخ صالح بأن يكون مرشدي. وكانت هناك أيضاً آثار المزيد من الإبل، حوالى عشرين جملاً، مما يعني الراحة لإبلنا التي قامت بالرحلة إلى ظفار ومنها، والتي لم يعد في إمكانها التحرك أكثر من ثلاثة أيام بدون أن تستريح.

«انظر يا صاحبي» قال لي الرجال: «هذه آثار أقدام فلان وهذه أقدام فلان. وهذه هي ناقته وقد كان هو عليها وكان معها فلوها». أذهلتني دقة رجالي في وصف القافلة التي سبقتنا. وأذهلتني السهولة التي يقرأون فيها الآثار التي علينا تتبعها. إن أسلوب معرفة البصمات المتبع في الغرب لا يبدو شيئاً أمام هذه المقدرة الفائقة.

إن الرمال مفكرة عامة يستطيع أن يقرأ فيها حتى الراكضون. وجميع رفاقي يعلنون أنهم من الرمل يستطيعون معرفة كل رجل من رفاقهم وناقته أيضاً. لا يمكن أن يمرّ طائر أو وحش أو حشرة من دون أن يترك تاريخه في الرمال، ويظلّ السجل قائماً إلى أن تحمل الريح رمالاً أخرى وتمحيه. إن الأرانب والثعالب الرملية والزحافات مدينة بموتها لتقفي هذه الآثار. الأوكار والحفر لا تستطيع حمايتها.

الآن، إذن، أصبحت الرمال هي مرشدنا الرئيسي إلى أصدقائنا عبر آثار أقدامهم، وهي التي تقودنا في الزوايا الصحيحة إلى طريقنا السابق في اتجاه شمالي شرقي عبر موطن الكثبان. وإذ رحنا نتسلّق التلال الرملية أخذت أبحث بتلهف عن مخيم الشيخ صالح. وفجأة سمعنا ضجيجاً مرحاً. لقد عثرنا أخيراً على الهدف.

اللقاء مع عملاق
في حجم جبل (١٩٣٤)

بقلم جيرالد دو غوري

غادرت جدّة من «بوابة المدينة» في التاسعة من صباح يوم الجمعة ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٣٤ في حرارة تبلغ ٩٥ درجة فهرنهايت ورطوبة تبلغ ٨٦ في المئة. وصرخ بنا الحراس عند البوابة «إلى أين تذهبون».

وردّ زعيم فرقة البدو التي تواكبني بلهجة التأنيب «إلى الرياض، إلى الرياض»، ثم التفت إلى سائقي وقال «أكمل»! وتراجع الحرس إلى الوراء وهم يردّدون «إلى الرياض»، وكأننا عربة البريد الملكي أو شيء يستحق التهيّب.

وقد رافقني حتى «أم السلام» حيث تناولنا القهوة معاً، كل من القائم بالأعمال (المفوضية البريطانية) وسكرتير المفوضية ونائب القنصل والقنصل وزوجته. ولم يكن في وسعهم أن يخرجوا إلى أبعد من ثلاثة أميال من جدة قبل الحصول على إذن خاص. وكانت الرحلة إلى الرياض أمراً غير مألوف لدرجة أنها استحقت هذا الوداع التشجيعي. ولم يكن أحد من المفوضية البريطانية قد دعي إلى القيام بالرحلة من قبل. وكانت تعليمات الملك واضحة بالنسبة إلى زيارتي: «يرحب به إذا ارتدى الثوب العربي ورافقته مجموعة من رجالنا».

اتبعنا الطريق في قعر الوادي ومن ثم إلى السهول الخضراء في وادي فاطمة ونصبنا الخيام هناك في التاسعة مساء، ثم انطلقنا باكراً في اليوم التالي إلى بئر «جراح» المبني من الحجارة، وهي البئر التي ترسل منها المياه إلى الملك حين يكون في مكة المكرمة. إن العرب قوم يتذوقون المياه ويحرصون عليها كما نحرص نحن على أشعة الشمس النادرة. جلسنا نستريح، فيما راحت قطعان الماشية ترعى وتحلق حولنا بعض الصبية يقلّدون أباءهم في أداء التحية، ثم يطرحون الأسئلة علينا. وقد طلب مني

أحدهم، وهو أصغرهم وفي السادسة من العمر، قميصاً، قائلاً إن قميصه قد اهترأت. واعتذرت أنني لا أحمل قمصاناً صغيرة على قياسه، فابتسم كمن تفهّم الأمر وأكمل لهوه. ثم أكملنا طريقنا حتى قلعة زايمة حيث امتلأت تلك البقعة بأشجار الحمر وبالموز والذرة والشعير. وكانت التلال المجاورة حمراء بلون النحاس المحترق. وفي الضحى وصلنا إلى سايل، وهي قرية بيوتها مبنية من الحجارة، استقبلنا أهلها بذبح نعجة تكريماً لنا. وقد أمضيت استراحتي في كوخ صغير بينما راح الحرس يرسلون شخيراً خفيفاً. وقد ظن أهالي «سايل» أنني دمشقي، وهو أقصى نوع من الغرباء قد عرفوه. أمضينا تلك الليلة في قلعة الملك عبدالعزيز، وفي اليوم التالي أخذت الطريق تسوء أكثر فأكثر بعد الدفينة، حيث كان كثيرون من قبائل العتيبة يسقون، وهكذا أكملنا الطريق عبر بساتين السدر حتى العفيف وأخيراً حتى القعية التي وصلناها في الثالثة بعد الظهر، فقررنا الاستراحة بعدما تعبنا أيّما تعب من الهبوط والصعود فوق المطيّات.

يقول لي صالح رئيس المرافقين بطريقته البدوية «أنني لا أحب ركوب السيارة وأفضل عليها الجمل». ثم مرّت بنا جماعة من الرعيان فحيتنا من بعيد، وسألنا أحدهم إن كنا نريد نعجة حية أو ذبيحة، فقلنا لا هذه وتلك، فحمل إلينا بدلاً من ذلك شيئاً من حليب النوق! في اليوم التالي لاح لنا من البعيد جبل الطويق، الذي هو عامود نجد الفقري، وإلى الشمال لاحت لنا كثبان الرمل تلمع مثل الذهب مع خيوط الشمس الأولى. وإذ نقترب من آبار عين المعمر والعونيا، يخبرني صالح أن قرية المعمر قد أخليت قبل مائة عام حين هاجمها النمل. لكن الحقيقة أن القرية قد هزمت في الحرب، وتعويضاً عن كبرياء أهلها قيل إن مهاجميها كانوا أكثر عدداً من النمل.

إنه الثاني من تموز/ يوليو والحرّ رهيب. وأروح أشرب المياه باستمرار وحليب النوق الذي يقدمه البدو لنا. إن الحرّ والوهج يبعثان الجفاف في الشفاه والحمرة في العيون، فأداوي الأولى بالدهن والثانية بالكحل كما يفعل البدو. وقبل الرياض بعشرة أميال نتوقف لكي أغيّر ثيابي بعد خمسة ليال من السفر المتعب. وقد سبقنا صالح لكي يبلغ عن وصولنا الوشيك.

لدى اقترابنا من الأسوار ترجّلت واتجهت إلى إحدى الخيم. وخلال دقائق وصل سكرتير الملك الخاص، الشيخ يوسف الياسين، وهو من طرابلس في المشرق (١١) لكي يأخذني إلى منزله قرب البوابة الشرقية. سرنا في ممرّ ضيق، يتعرّج وسط بيوت لا نوافذ لها على الجانبين، ولم تمض دقائق حتى وصلنا إلى بوابة خشبية ضخمة. إنها لقفير من البشر هذه العاصمة الصغيرة، حيث يخبىء السكان أنفسهم في بيوت مثل

العلب! اعتذر مني الشيخ يوسف لاضطراره للذهاب إلى البلاط مرة أخرى، وترك معنا أحد خدمه للاعتناء بنا، كما أراد أن يترك لنا الوقت الكافي للاستحمام وتغيير الثياب. ويميل الشيخ يوسف قليلاً إلى السمنة، وهو أبيض البشرة، له لحية سوداء مقلمة بعناية، ويختلف إلى حدّ ما عن بعض أهل الجزيرة الداكني السمرة هنا. وقبل أن يتركنا قال لي إنه سوف يرافقني بعد العشاء لمقابلة الملك.

أحضر متاعنا إلى الدار على ظهر جمل ووزّع علينا بسرعة. والحمام في هذه المنازل ليس أكبر من حجم خزانة، وفيه خزان مياه صغير تشعل النار تحته في الشتاء من أجل تسخينها. ويقوم خادم يلف نفسه بحرام قطني بصبّ المياه على المستحم ثم يقدم له المنشفة. بعد الحمام جلسنا في الردهة ننتظر الشيخ يوسف الذي ما إن عاد حتى أعلن أن العشاء جاهز، لكنه قبل أي شيء اتجه إلى ركن في البهو صوب القبلة من أجل تأدية الصلاة.

على العشاء راح يتحدث بمرح عن خدمة الطيران التي ستبدأ بالعمل فور عودة الطيارين الذين يتدرّبون في إيطاليا. أما الطائرات نفسها فقال إنه لم يتقرر بعد من أين ستشترى. وقال إن المتمرّنين قد حطموا طائرتين إيطاليتين مع المدرّبين. ومن حسن الحظ أن عقد التدريب يغطي كل الخسائر. وقد ضحك الشيخ يوسف طويلاً لذلك. وتحدث لنا عن شركة النفط الأميركية وعن المناطق التي تنوي استكشافها. وقال إن حق التنقيب أعطي للأميركيين، لأن البريطانيين أخفقوا في التقدم في الوقت المناسب وفي عرض الشروط المناسبة.

السيارات لم تصل إلى الرياض إلا منذ فترة قصيرة، والجميع يسألونني هنا، كم استغرقت الرحلة. ولقد لمست المفاجأة لدى الجميع حين عرفوا أننا قطعنا المسافة بين جدّة والرياض بأقل من ست ليال. إنه لرقم قياسي! تناولنا العشاء في شعور من الضيق. فقد قدم لنا الشيخ يوسف طاولة وكراسي وسكاكين وشوك، وبدا أن الخدم تضايقوا من أننا نأكل على الطريقة الأوروبية. وبعد العشاء قدم لنا عنب الرياض وهو ليس في طعم العنب الذي أكلناه على الطريق في مراد، وهو ألذّ عنب أكلته في حياتي. الدكتور حسين، مدير مصلحة الطب في الرياض. انضم إلينا للحلوى. إنه تركي على ما أعتقد.

قبل أن نتجه إلى القصر، تربع الشيخ يوسف على الأرض وراح يصغي إلى آخر الأنباء من الراديو. وما إن انتهى من سماع النشرة حتى نهض ولحقنا به في الممرّات الضيقة يتقدمنا حاملو المصابيح، الذين كانوا يقولون كلما التقينا بمارة آخرين «طريق. طريق للشيخ يوسف»!

غياب الحركة في هذه الممرّات الرملية الهادئة، التي يغلّفها الظلام إلا من ضوء مصابيحنا، وجدران البيوت التي لا نوافذ لها ألا من بضع أبواب خشبية مغلقة، ومداخل الممرّات الضيقة التي تتشابه في رتابة هائلة، بدت كلها مثل أحجية هندسية يضيع فيها أي غريب، من دون أن يعثر في الليل على من يدلّه الطريق. وتقوم الساحة المفتوحة الوحيدة أمام قصر الملك عبد العزيز الذي يشبه القلاع. وقد كان هذا القصر القديم في الرياض مقرّ القيادة العسكرية الشتوي للملك، يترك فيه عائلته فيما يخوض معاركه. ويتيه المرء في القصر أكثر مما يتيه في الشوارع المحيطة به: سلالم متعرّجة تؤدي إلى ساحة بعد الأخرى. وكنا كلما اقتربنا من السطح كلما ازداد عدد الحرس وأغلبهم يجلس في الممرّات وقد وضع بندقيته بين ساقيه. والردهة القديمة هي حيث استقبل فيصل، جدّ الملك عبد العزيز، السير لويس بيلي، المقيم السياسي في الخليج في منتصف القرن التاسع عشر. وكان بيلي خائفاً من مواقف الناس للدرجة أنه أحرق أوراقه وقطع زيارته. وعندما أبلغ فيصل أنه يريد السفر، شعر بشيء من الارتياح.

حين وصلنا إلى السطح خلع الشيخ نعليه وفعلت مثله. ووقف الحرس تأهباً فأكملنا طريقنا وعبر الردهة المضاءة بالقناديل شاهدت ابن سعود يقف منتصباً بقامته البالغة ستة أقدام وأربع بوصات. حتى بين رجال الحرس البدو الطوال، المنتقين بعناية، كان يبدو عملاقاً في الطول والمنكبَيْن، رجلاً في شكل جبل.

مدّ لي يده ثم شدّ بي أن أجلس إلى يمينه، على السجادة الفارسية الصنع، بينما ارتفع من الجانبين مصباحان شاحبان. وقد ابتسم الملك وهو يطرح الأسئلة حول الرحلة والطريق. لم أرَ في حياتي ابتسامة طاغية أكثر من هذه الابتسامة. إن لبعض الحكام العرب سحراً طاغياً، وها هو سحر ابن سعود يبدأ في أسري.

لم يكن ذلك الاجتماع طويلاً، لكن في اليوم التالي استقبلني باكراً قبل أن يبدأ حرّ النهار، وراح يتحدث عن كل قضايا الساعة، وعن الاعتداءات على الحدود. وقال لي «نحن معتادون على أمور الصحراء»، ثم راح يؤكد ذلك بسرد نادرة بعد أخرى. وكان أحياناً يتحدث عن المعارك لا عن الغارات، وعن دوره فيها وعن جراحه مضيفاً «أن برودة الصباح والاستحمام بالمياه الباردة يوقظ فيه ألم الروماتيزم. وأنت تعرف ذلك». ولست أدري من هو الذي أبلغه بأنني أصبت بالجروح في معارك كثيرة.

كانت ابتساماته مليئة بالرجولة ولهجته مليئة بالثقة ويتحدث بعربية فصحى يلوّنها بأقوال بدوية بين حين وآخر. وما إن يبدأ في الحديث حتى يتحوّل كلامه إلى فيضان، لا يوقفه شيء سوى الدعوة إلى صلاة الظهر. وخلال هذه اللقاءات، التي يعقدها مرتين

في النهار، يتحدث عادة عن المسائل القبلية وسياستها وتاريخها، أو عن تاريخ عائلته وتاريخ الدولة! ثم أثار موضوع المعاهدة التي وقعها جدّه فيصل مع السير لويس بيلي، وقال إنه تمّ البحث عنها في المحفوظات من دون جدوى. لقد ضيعت خلال فترة نفي والده، إذ أعطيت، إلى إحدى نساء العائلة حرصاً على ألا تضيع، لكن يبدو أن السيدة نسيت أين خبأتها! وبعد ذلك سألني «أين نسختكم منها»؟ لكن الواقع أن السير لويس بيلي لم يأت على ذكرها حين عاد إلى الخليج. تراه مزّقها أو أحرقها قبل أن يترك الرياض؟

قوته، كما بدا لي، في ذكائه الخارق. وكان معاونوه ورجاله، وهو أيضاً يتفحصون جميع القادمين إليه إذا ما كان لهؤلاء أي شأن. وكان مؤخراً قد أقام في مقرّه جهاز إرسال واستقبال من طراز «ماركوني»، وهو أمر جديد فعلاً في الجزيرة. ومن شأن هذه الأجهزة أن تساعد على ثبات الأمن والاستقرار في مملكته الواسعة.

وينطلق زوار الملك، العرب، في الكلام على سجيتهم في هذا الجو من المآدب السخية والهدايا والسلاح والثياب. غير أن سحره الشخصي وتفهمه يظلّ أقوى من أي شيء آخر. ولم يكن سيل الزائرين ينقطع. منهم من جاء من أرجاء المملكة الفسيحة ومنهم من جاء من خارج الحدود. لقد كان مثل قالب العسل الذي يجتذب الجميع. غير أن داره طافت بالمعجبين والمحبين لدرجة اضطر معها لتحديد مواسم معينة للاستقبال، بحيث يكرس الأشهر الباقية لتفقد المملكة وإدارة شؤونها. والواقع أن الإدارة كانت بسيطة إلى حدّ ما، قوامها التوازن بين المصاريف وبين دخول الدولة من الحج والجمارك. وليس للمصروفات أكثر من دوائر قليلة، أضيف إليها الآن بند جديد هو «الشؤون الخارجية» وتقع كل هذه الدوائر تحت سلطة وزير المال الذي يحرس المال بنفسه، في بلد خال من المصارف، وهو يضع معظم هذا النقد في شكل عملات ذهبية تركية وإنكليزية، وهناك أيضاً قطع فضية ودولارات وروبيات هندية.

يطيب للملك عبد العزيز، حين يسمح وقته بذلك، أن يمازح الذين حوله. وقد صدف أنني كنت إحدى ضحاياه. إذ كنا نتناول طعام العشاء ذات مرة وقد جلسنا على الأرض أمام وعاء ضخم من الدجاج المحشي والأعشاب، فما كان منه إلا أن مدّ يده بحركة نبيلة وحمل دجاجة من إحدى رجليها وقدمها إليّ، فأمسكت بها من الطرف الآخر فإذا هي حارة تحترق، فرميتها وأنا أكاد أصرخ ألماً بينما الضيوف يبتسمون.

في اليوم التالي دلّني صالح على بيت عبد الله فيلبي الواقع على جانب أحد الشوارع. وقال لي إن لديه زوجة وخادمة. ووصف لي الزوجة الحسناء على طريقته

بالقول إنها تساوي «ثماني مواتير» مثل سيارة فاخرة. الجميع تقريباً يدخنون في الرياض لكنهم يقولون عكس ذلك، أما الملك عبد العزيز فإنه قطعاً لم يلمس سيجارة في حياته.

في الصيف يأتي الملك من قصره الصيفي في البادية حوالى الساعة الثانية والنصف ليلاً بالتوقيت العربي، أي بعد الغروب، وينصرف إلى أعماله فيوقع الرسائل واحدة بعد الأخرى ثم يعطيها إلى سكرتيره، كما يستقبل الزوار ويصغي إلى عرض لأخبار المقاطعات وأخبار العالم، ولا يصغي إلى الموسيقى إطلاقاً. وعند منتصف الليل بالتوقيت العربي يقرأ القرأن الكريم أو يصغي إلى قراءته، وبعد ذلك يقرأ أسماء الشهداء وينام حتى الفجر حيث يقوم إلى تأدية الصلاة، وبعد ذلك يرتاح قليلاً ثم يعمل حتى موعد صلاة الظهيرة. وبعد الظهر يعود إلى القصر الصيفي في وداي حنيفة المليء بالأشجار.

قبل أن نذهب لزيارة الملك عند المغرب، الشيخ يوسف ياسين وأنا، نجلس على الأرض لكي نصغي إلى نشرة الأخبار من الراديو. وغالباً ما نستمع إلى إذاعة القاهرة. وبعد أن يستمع إلى الأخبار يسرع الشيخ يوسف إلى الملك لكي ينقلها إليه قبل أن ينساها. وبعد ذلك بقليل يأتي خادمه ومرافق وحامل القنديل لمرافقتي إلى القصر. حيث يدور الحديث حول «توازن القوى». واستأذنت بالانصراف بعد قليل لكن الملك طلب مني البقاء وصرخ «قهوة»، فراحت الكلمة تنتقل من رجل إلى آخر. وتسمى هذه «قشر»، وهي شاحبة اللون، لأن ثمة شكًا بأن قهوة البن قد تكون مخدرة ولذا فهي محرمة. ثم انتقلنا إلى موضوع الحبشة والحرب الدائرة هناك. ورأى الملك أن السلاح الذي يستخدمه الإيطاليون سوف يمكنهم من ربح الحرب. ويرى أن الحرب قد تتطور إلى حرب كبرى. وهكذا يتنقل الحديث إلى مواضيع كثيرة، مثيرة للاهتمام.

ليس من السهل كثيراً النوم على السطوح في الرياض. ذلك أن صوت النواعير الخشبية يشبه صوت متمرّن لا يكف عن العزف!

بعد الاستئذان من الملك جاء إليّ الشيخ يوسف بهدية الملك، وهي عباءة من وبر الإبل مطرّزة بخيوط الذهب وكوفية وعقال وخنجر ذهبي. ومن هنا سأتوجه إلى الكويت مع فرقتي المؤلفة من صالح، رئيس الفرقة ومعه بندقيته، ومرشدين مسلحين بالبنادق، وسائقين يحملان المسدسات، وسائق مساعد غير مسلح، واحد أقرباء شيخ الكويت وهو يحمل مسدساً أوتوماتيكيًا ضخماً، وخادمي ومعه مسدسه، وجنديين

يحملان البنادق والمسدسات. وقد انضم إلينا خباز في الخامسة عشرة من العمر وهو مسلح فقط بخنجر، مثل جميع الآخرين.

غادرنا الرياض قبل ساعتين من حلول المساء. صعود تلال العرمة صعب. وسيارة الشيفروليه التي ليس لها كابح يدوي بدأت تغرز في الرمال من ناحية المنحدر. وبدا لنا الموت محتماً إلى أن أوقفت انزلاقنا صخرة كبرى هي الصخرة الوحيدة التي شاهدناها طوال الطريق! الطقس بارد في الليل في صحراء السمان حتى في الصيف. بدأت أشعر بالتعب وربما بالمرض، لكنني برغم ذلك استطعت أن أسجل ملاحظاتي كاملة! وبعد ثلاثة أيام وصلنا الكويت، وقد وزعت على المرافقين ثلاثة ريالات لكل منهم، ما عدا الطباخ والسائق الثاني والخباز الذين نالوا ريالين لكل منهم. وقد سرّوا جميعاً لأنهم، باستثناء خادمي، يتلقون رواتب من الملك. وقد زودتنا الحكومة أيضاً بغذاء الرحلة كلها بالإضافة إلى الوقود والسيارات، وبالتالي فإن عبوري الجزيرة العربية من البحر إلى البحر لم يكلفني كثيراً. والأرجح أن أسلافي الأوروبيين الذين قاموا بالرحلة نفسها كانوا على ما أعتقد: سادلير في العام ١٨١٩، شكسبير (الكابتن) قبل الحرب العالمية الأولى، فيلبي خلال تلك الحرب، هاملتون في شركة النفط الأميركية قبلي مباشرة، مع أنني لست واثقاً من أنه عاد إلى الرياض بالطريق التي جاء بها أم لا.

لقد تبيّن لي الآن أنه لم يكن من المفترض أن أغادر جدة في رحلة مثل هذه. فقد شعرت بالمرض قبل سفري ويبدو أن الطبيب الهندي الذي ذهبت إليه أخطأ في تشخيص مرضي. وها هم يقولون لي في البعثة الأميركية في الكويت الآن إنه كان عليّ أن أرتاح لثلاثة أسابيع على الأقل! لقد جربت مياه كل الآبار على الطريق وأخذت عينات منها، وبعض هذه العينات أرعب أطباء السلاح الجوي (البريطاني) في العراق. وقد تطلع إليّ هؤلاء في دهشة عندما قلت لهم إنني شربت من كل هذه المياه. والواقع أن المرء يعتاد هذه الأمور بالممارسة. إن الأميركيين العاملين مع شركة النفط، الذين يتخذون أقصى الاحتياطات ويستخدمون الأغذية المعلبة، معرّضون للإصابة بأمراض خطيرة حين يضطرون إلى استخدام المياه أو الطعام المحلي.

في البر
مع الملك عبد العزيز (١٩٣٥)

بقلم جيرالد دي غوري

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي فتحت صناديق الهدايا التي أحضرناها معنا وسلّمت إلى عبد الرحمن الطبايشي، كبير مرافقي الملك. وقد جرت العادة أن يقوم زوار العرب الكبار بتقديم الهدايا لحظة وصولهم إما عن طريق المرافق أو السكرتير. ولا يعاد يؤتى على ذكرها بعد ذلك، لا من الزائر ولا من المضيف. وحين يغادر الزائرون في نهاية إقامتهم، يحمل المرافق أو السكرتير إليهم الهدايا من المضيف، أيضاً من دون أن يشير إليها أي من الفريقين. ومن العادات أيضاً أن يقدّم المضيف الهدية فوراً إلى أحد القريبين منه، لكن يجب أن يؤخذ ذلك كتكريم وليس العكس. كذلك من الأفضل تجنّب كتابة أي شيء على الهدايا.

كانت الشؤون الملكية لا تزال تدار في القصر القديم داخل الأسوار المعروف بقصر فيصل، نسبة إلى جدّ الملك، وقد نقلنا إلى هناك في إحدى سيارات الملك من أجل لقاء غير رسمي. عبرنا السهل خارج أسوار المدينة حيث يقوم مناخ الجمال بالنسبة إلى جميع الزوار القادمين من أنحاء الجزيرة. ويأتي العدد الأكبر من الشيوخ خلال التجمع السنوي للقبائل في بداية الصيف. إنهم يأتون للقاء الملك وتقديم الاحترام، وإذا كانت لديهم مطالب تقدموا بها أو شكاوى عرضوها. ويعطى كل منهم الهدايا وفقاً لمكانته. وقد تكون الهدية فرساً وأكياساً من الأرز، وأسلحة إذا احتاج الأمر، لكنها تشمل دائماً الكسوة أو عباءة الشرف، وأحياناً الذهب. في مثل هذا الفصل يكون قسم المحاسبة في القصر مشغولاً من الصباح إلى الليل.

الآن، في تشرين الثاني/ نوفمبر، كان هناك القليل من الزوار لكن كانت هناك جماعة كبيرة عند بوابة المدينة وفي الطريق الرملي المؤدي إلى قصر فيصل. والقصر

القديم الواقع في قلب عاصمتهم هو بالنسبة إلى أهل الجزيرة مثار اهتمام تاريخي كبير كمثل قصر السان جيمس في إنكلترا بالنسبة إلى الإنكليز.

وعلى مسافة قصيرة من قصر فيصل، في شارع ضيق، تقع قلعة المصمك التي هاجمها ابن سعود مع حفنة من رجاله وانتزعها من الحاكم الرشيدي الموالي للأتراك في العام ١٩٠١. وكان ابن سعود قد انتظر مختبئاً مع رجاله حتى الفجر حتى اعتاد الحاكم أن يتفقد خيوله عند بوابة المصمك. وذلك الصباح فاجأته الجماعة الصغيرة الشجاعة هو ورجاله وبعد قتال ضار في ساحة المدخل، حيث لا يزال الرمح عالقاً في البوابة، قتل الحاكم وهزم حرسه. وقد روى لنا أحد العرب هذه القصة ونحن نمرّ بالمكان.

إن أهل نجد يعرفون تاريخهم معرفة حسنة. ولا تزال في هذا البلد الذي تغيب فيه معالم التسلية، والذي ليس فيه سوى القليل من الأسرار الحكومية، لا تزال رواية الحكايات عن الماضي أفضل ما يصغي إليه الناس. وقد كان في إمكان أي بدوي من أولئك الذين ازدحمت بهم السوق، أن يقدم لنا عرضاً دقيقاً لتاريخ نجد خلال السنوات الخمسين الماضية. لقد منحتهم حكايات الماضي التي نشأوا عليها وذلك الحذر الدائم من أن يوقع بهم عدو أو أن توقع بهم الطبيعة نفسها في كارثة، ذاكرة خارقة وحكمة كبرى. وتنتقل الأخبار هنا في سرعة هائلة ولكن في دقة شديدة أغلب الأحيان. والبدوي الذي عرف طبيعة أرضه معرفة تامة، قادر على اختيار الطرق التي عليه أن يسلكها بلا تردّد. وحين يهطل المطر باكراً في إحدى المناطق، ولا يهطل أبداً في منطقة أخرى، فهو يعرف تماماً إلى أين سيتوجه. إن الكلأ سيؤمن المعيشة مثلاً لقطاع ما من قبيلة ما ولذا نراها تقطن هناك لبضعة أشهر. والبدوي يعرف معرفة تامة الآبار والبرك ومن منها مليء ومن منها جاف. ومن هنا، فإن في إمكانه أيضاً، أن يعرف قبل بضعة أشهر، أين ستكون هذه القبيلة أو تلك. وهو يعرف أيضاً، بالسمعة أو السماع، كل شيء عن شيوخ القبائل البعيدة. وقد يذهب بدوي من شمال شرق الجزيرة حتى عسير بحثاً عن رجل مدين له بجمل أو كمية من المال قد تبدو بالنسبة إلينا ضئيلة في ضوء مثل هكذا مسافة. ويمتلك البدو أحياناً حصصاً في فرس ما، وإذا ما حان موعد بيعها قام جدل كبير حول تقاسمها. إنهم يمضون في عالمهم مقبلين غير مدبرين وهم لا يملكون شيئاً، ثم تراهم يعودون بعد أشهر وقد حققوا عملاً أو نجاحاً ما. إن الرجال الذين اعتادوا معيشة الصحراء، المتحدّرين من عدة أجيال من الحياة الصعبة التي لا يقوى عليها أوروبي، هم قوم أقوياء أصلاب مثل سلك الحديد، ثاقبو الأعين، أشداء الوجوه. وهم نحيلون من دون أونصة لحم إضافية واحدة على

أجسامهم. وهؤلاء هم الرجال، نبلاء الأرض، الذين يشقون الآن طريقاً لأنفسهم وسط الزحام في أسواق عاصمتهم، الرياض.

تقدمت السيارة ببطء وسط الحشود وبين حرس الشرف حتى البوابة الكبيرة حيث كان الشيوخ في الحاشية الملكية ينتظروننا تحت قناطر المدخل. إنها أول مرة يقوم بها وزير بريطاني بزيارة للعاصمة السعودية. إنه الرابع والعشرون من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٥.

وقد كنا سعداء الحظ إذ وصلنا إلى ديار نجد مع هطول الأمطار. وكانوا يرحبون بنا قائلين «قدومكم أخضر» ويبتسمون ملء وجوههم آملين أن الموسم سيعود عليهم بالمرعى الكبير من دون أن تترافق الأمطار المبكرة مع وفاة عزيز. وكان رجال البلاط يقودوننا عبر الرواق الطويل المظلم نحو أشعة من الضوء حيث يبدأ السلم إلى مجلس الملك، وهم ما زالوا يرددون: قدومكم أخضر! قدومكم أخضر!

ثمة مشاهد كثيرة ملفتة للنظر في أروقة القصر: بدوي يتشاور مع قريب له في الحرس، أو مجموعة من العلماء يتناقشون في قضية ما! وللنجديين ذوق شديد في الألوان ويصح في لباسهم القول إنه جلي وأنيق وهو ما قاله (تشارلز) داوتي عن لغتهم. ومع أن الاتصال المباشر مع العالم الأوروبي عن طريق الدمشقيين، الذين يصنعون الآن أفضل الأقشمة، جعلهم يميلون إلى الألوان الداكنة، فإن الناس البسطاء والزنوج لا يزالون يرتدون أثواباً ذات ألوان زاهية ومتناسقة. وأثواب الخدم الملكي إما حمراء أو صفراء شاحبة يزينها تطريز مذهب عند العنق والأكمام والأطراف. وتأتي ثيابهم من بومباي. أما الحراس البدو فيرتدون أثواباً مزركشة من دمشق. ويرتدي البدوي عادة ثوباً أبيض طويلاً حتى الأرض. وفي الشتاء يستخدمون إما المعاطف المصنوعة من جلود الخرفان أو العباءات البنية والبيضاء الخشنة المصنوعة من وبر الإبل.

ثمة تقيّد شديد بالأصول في القصر لكن من دون أي رسميّات متحجرة. وهم يقولون هنا إن الضعفاء والمذنبين وحدهم يرفعون الحواجز بينهم وبين الآخرين. وثمة قول شهير في نجد أن «المحاصر يستسلم». وهم ينادون زعماءهم، وأي أوروبي، بأسمائهم مجرّدة من أي لقب، لكن ما يكنونه من احترام للزعيم الذي يوالونه حقًّا، يفوق أي احترام معروف في بقية العالم، وهم يحبون كثيراً أن يكونوا في خدمة رجل كبير، وغالباً ما يتحدثون عن هؤلاء الرجال بأسماء قبائلهم فيقولون مثلاً: «الشعلان قادم إلى الحج هذا العام» أو «النوري ذهب إلى الرياض».

ليس من السهل على المرء أن يصف جناح العمل في القصر، حيث معظم مكاتب

الحكومة كما في أيام الخلفاء، لأن ذلك شيء بعيد عن معرفتنا. ومهابة ابن سعود تطغى على القصر والقلعة والمدينة. ويشير إليه الناس فيما بينهم بلقب «الشيوخ»: ذهب الشيوخ، جاء الشيوخ، الشيوخ يصلون، الشيوخ يأكلون، الشيوخ في الصيد! كل هذه الأخبار تعرفها ساعة بساعة في عاصمة مليئة بالحركة مثل قفير النحل. وترى على السلالم وقرب قاعات الاستقبال الملكية في الطوابق العليا، زواراً دائمين من رسميين وحرس وفرّاشين و«خدّام». وهؤلاء عادة ذوو مظاهر حسنة، وقد أثبتوا مقدرتهم وولاءهم، والآن يعملون جباة للضرائب أو مبعوثين أو في أي مهمة أخرى تتطلّب الثقة. وبين الزوار عرب من كل الشرق الأوسط، وفيما نحن نصعد الدرج التقينا شيخاً شابًا من بدو الرولة من سورية. وبدا من مظهره ومظهر مرافقيه أنهم بذلوا كل ما يستطيعون من أجل إعطاء الانطباع الحسن في زيارتهم الأولى إلى الملك.

قادنا كبير المرافقين مباشرة إلى المختصر في مجلس ابن سعود وعبره إلى الديوان الملكي نفسه دون توقف، من جهة، كان للديوان نوافذ تطلّ على ساحة، أما الجهة الأخرى فكانت مفتوحة على طاقات تطل منها الشمس، بحيث يمكن رؤية الداخلين من دون أن يروا هم قلب الردهة المليء بالظلال. الضوء قوي من الجهة الخارجية، ناعم من الداخل. الأرض مغطّاة بسجاد فارسي أحمر، وعليها أعمدة بيضاء في قلب القاعة، التي في آخرها، كان الملك يقف وحيداً، منتصب القامة.

كانت قامته العملاقة تنتصب مثل رمح. وهذه الوقفة الدقيقة مثل العسكريين، هي عادة الأمراء العرب في استقبال ضيوفهم. كان جامداً شامخاً تتدلى عباءته من فوق كتفيه حتى الأرض بتكسّرات منتظمة مثل شلّال. وكان ثوبه بسيطاً، أنيقاً ومرتّباً بدقة، مصنوعاً من مادة رمادية تأتي عادة من دمشق وتعرف باسم «صدر الحمام». وكانت غطرته من الصوف الأسود والقصب الذهبي، وهو النوع الذي لا يعتمره في نجد سوى الملك ومن يتشرفون بهدية مماثلة منه.

ويرتدي الملك في الصيف عباءة أخف سماكة وثوباً أبيض طويلاً. وتعلو قامته على ستة أقدام وجسمه ضخم متناسق، أنفه بارز لكنه معتدل. ابتسامته عذبة تكشف عن أسنان مرتبة، بشرته بيضاء حرقتها الشمس كثيراً في الماضي، وفي يده اليمنى ندبة من جرح قديم أصيب به في معركة ضد الأتراك وحلفائهم آل الرشيد في معركة البسكرية. وفي معركته مع قبيلة عجمان، أصيب بجرح في وركه. وإلى الآن لا تزال تتجدد آلام الجرح كلما تغير الطقس فجأة وهبت رياح الشتاء، وهذا أمر يعرفه جميع الجنود القدامى.

يقوم الملك قبل الفجر من أجل الصلاة ويقسم بقية النهار حسب مواعيدها، وهو يصوم رمضان بإيمان عميق ويحج إلى مكة المكرمة كل عام. ويتلو المقرئون آيات من القرآن الكريم في الردهات بين صلاة المغرب وصلاة العشاء ويجلسون في ظلال القناطر على مقربة من مجلس الملك بحيث تصل تلاوتهم إلى مسامعه بوضوح.

يتحدّر جلالته، عبر عدنان، من إسمعيل بن إبراهيم عليهما السلام وهو محدّث متّقد لا يتعب. وإذا لم يعثر على جواب من سامعه، أيًا كان، فإن على معاونيه أن يستمروا في البحث إلى أن يعثروا عليه. وتستخدم في القصر باستمرار الموسوعات والمراجع. وليس في الرياض صحيفة لكن الأخبار البرقية تقرأ للملك مرتين في اليوم. أما بالنسبة إلى بعد نظره وحكمته فيقول رجاله إنه «أسرع من البرق».

فيما كنا نتحدث كان مقدمو القهوة في حركة دائمة، وفي حضور الملك تقدم القهوة إليه أولاً، أما في أي مكان آخر فتقدم القهوة إلى الضيف أولاً إلا إذا كان الضيف من الذين يعملون لدى المضيف. وإذا كان الضيف والمضيف من مستوى واحد، أو إذا كان أصغر سنًّا من المضيف، فمن دواعي التهذيب أن يرفض وأن يشير بيده إلى الخادم كي يقدمها للمضيف أولاً. وغالباً ما يلقى هذا التواضع من الضيف ترحيب الحضور. ويحب العرب أن يروا مثل هذا التهذيب، وإذا ما كان صاحبه أجنبيًا ذا مكانة مرموقة ازداد التقدير له.

ويختلف العرب في النظر إلى التواضع عن الفرس القدماء. والعربي غير المتواضع يعتبر ناقص المعرفة وقليل الخلق، وحين سألت أحد العلماء عما قرأ تردّد كثيراً في الإجابة بسبب تواضعه، ثم عرفت أنه قرأ كل كتب العالم التي استطاع الحصول عليها.

يتكلم الملك بثقة مطلقة بالنفس وببلاغة أنيقة، ويثري كلامه بالأمثال العربية القديمة وأقوال البدو وآيات من القرآن الكريم. وحين يتحدث في أمر ديلوماسي أو سياسي يتكلم عادة بالتفصيل، مرتباً الحقائق أمام سامعه بوضوح شديد، نقطة نقطة، إلى أن يصل إلى ذروة القول فينحني قليلاً إلى الخلف، ويغيّر جلسته قليلاً، ويرسم ابتسامة جذابة مهذبة. إن اتقاده ووضوح وجهة نظره أمر يبدو رائعاً في أي مكان.

كان هذا اللقاء الأول لدى وصولنا لقاء غير سمي وكانت الأسئلة التي طرحها ابن سعود فقط حول رحلتنا وحول صحة السير أندرو (الوزير الذي يرأس الوفد) وإقامتنا في قصر الضيافة وما إلى ذلك! ولذا استأذن السير أندرو جلالته سريعاً بالانصراف، وهكذا خرجنا وظهورنا إلى الوراء، وقد انحنينا ثلاث مرات ونحن نتراجع. وتفرق السيافون المحتشدون عند الباب لكي يفتحوا لنا الطريق. وأولئك الذين كانوا في الرواق وقفوا

ثم عادوا فتربعوا. وبدا المشهد مثل أزهار التوليب فتحتها نسمة ثم أطبقت من جديد. وفي الشمس، في الخارج، كان الطقس دافئاً. وقد جعلنا هواء نجد نشعر بالسعادة والنشاط، وأحس السير أندرو بتحسن حاله مع أنه كان لا يزال يعرج قليلاً، إننا ضيوف أكثر الشعوب كرماً في العالم، أولئك الذين ما زالوا على صفاء الشرق ولم تمسّهم العادات الغربية بعد. كانت الحرارة معتدلة، لا حارة ولا باردة، مثل طقس المتوسط ظهر يوم مشمس.

عدنا إلى مقرنا في وادي حنيفة حيث يسمح لنا الوقت أن نتمشى في الحدائق والبساتين على طرفي الوادي. وقد شاهدنا تحت أشجار النخل العملاقة أشجار المشمش والرمان. وكان الحمام يطير ويهبط فوق سعف النخل، كما كانت أصوات النواعير تهدأ كلما وصلت الحمير التي تجرها إلى خط الاستراحة الدائري حول الآبار. وقد حدثنا أصحاب البستان بفخر عن طاقة البئر ونحن نحاول النظر إلى قعرها.

يروي نزول الأمطار من جبل طويق هذه البساتين طوال العام، كما يروي طول هذه السلسلة، التي هي العمود الفقري للجزيرة العربية، وهناك مجموعة من الواحات في ظل الجبل تعتبر الرياض إحداها. أما الأخرى فهي سليل وسلمى وليلى ودغارة وديلام ومنفوحة وسدوس والحوطة والمجمعة التي هي، بالإضافة إلى جلاجل والزلفى، مدن كلها ذات بساتين. والأرجح أن المياه السطحية التي تعلق بالأرض الكلسية في شرق نجد ويستخدمها العرب لري بساتينهم قد تكون جزءاً صغيراً من ذلك الكل الذي يذهب إلى البحر في أعماق الأرض. ولعلّ الوسائل الحديثة في رفع المياه قد تحصر تلك الكميات الذاهبة سدى وتغير بالتالي في اقتصاد الجزيرة. ويعتقد العرب أن آبارهم وينابيعهم متصلة بعضها ببعض تحت سطح الأرض ويروون حكايات عن هذا الأمر كمثل حكاية الوعاء الخشبي الذي رمي في أحد الينابيع وعثر عليه لاحقاً في نبع آخر يبعد مائة ميل: وهم يقولون أيضاً إنهم يعرفون متى تمطر في منطقة بعيدة من ارتفاع منسوب المياه في منطقتهم. ويغطس صيادو اللؤلؤ في الخليج بحثاً عن المياه العذبة في قلب مياه البحر المالحة، وإذ يرفعون المياه العذبة من قعر البحر يجدون فيها صوف الإبل أو الغنم، كدليل على أنها آتية من ينابيع الداخل. وللمياه، في أراضي الجزيرة الجافة، معنى خاص لدى المسافر الذي يتطلع إليها كمثل أهل البلاد على أنها هدية ربانية ثمينة. ومثلهم أيضاً يتعلّم أن يشعر بوجودها عن بعد. لكن خلافاً لهم فهو لا يستطيع أن يمتلك تلك الحاسة السادسة التي تمكنهم من أن ينقبوا عن المياه في مكان ما ويجدونها. إن البدوي المتقدم في السن يعرف مكان وجود المياه تحت الأرض أكثر من أي خبير أوروبي أو أميركي.

وتمنع القوانين والعادات العربية قطع أي شجرة من جذورها تحت طائلة العقاب الشديد. وعاماً بعد عام يمنع الرعي في بعض المناطق للحفاظ عليها. وللعائلات المالكة والشيوخ مراع خاصة تستخدم بالتناوب، حماية لخصب الأرض. وتعود هذه التقاليد إلى أجيال قديمة ولا يسمح الملك بخرقها إطلاقاً. وفي وسط الجزيرة، غرب الرياض، هناك بالتتابع بساتين كثيرة وأجمات أكبر من تلك التي في الصحاري الشمالية العارية من كل شيء إلا الأجمات الواطئة. والواحات التي في وسط الجزيرة هي أيضاً مترفة وخصبة.

انضم إلينا الكثيرون من رجال الحرس في السهول خلف قصر البادية وهم يجرون سيوفهم التي كانت رؤوسها المذهبة تلاصق العشب وهم يمشون. إنهم تذكار رائع من حروب الصحراء، وإنك لن تشعر بالطمأنينة بينهم من دون أن تعرف شيئاً عن أصولهم البدوية وأصول خيولهم وإبلهم. تركناهم مع سيوفهم وعدنا إلى القصر لتناول الشاي، ثم انصرفنا كلية إلى التحضير لبرنامج الغد.

أخذنا نجرب اللباس الرسمي المزركش الذي سنظهر به أمام الملك. ولما كنت الأطول قامة بين الجميع، تقرر أن تجري التجربة عليّ. لكن الغروب داهمنا ولم يعد في إمكاننا أن نقرأ ورقة التعليمات، فطلبنا قنديلاً، ولما أحضره أحد الخدم وقف في الباب مندهشاً أمام الزركشة التي رآها. فوضع القنديل على عجل وهرع سريعاً إلى رفاقه ليخبرهم عن غرابة الإنكليز.

الأمر الذي فاجأ الخدم في القصر اليوم سيكون حديث الجزيرة كلها غداً. لقد أرسل ملك إنلكترا ثوب النبلاء وشعاراً مرصعاً إلى عاهل المملكة العربية السعودية. وهكذا جاء كل رجل يستطيع الحصول على سيف إلى القصر في اليوم التالي لكي يحضر الاحتفال بتقديم رسمي معالم التكريم من الملك جورج إلى الملك عبد العزيز آل سعود. وإذ غادرنا قصر البادية الصيفي رأينا عدداً من الذين وصلوا متأخرين، راكبين وراجلين، يسرعون على الطريق إلى الرياض من الواحات المجاورة. وعند مدخل المدينة وفي أبواب القصر الرئيسية وفي الردهات، كانت هناك صفوف طويلة من الرجال بالثياب المذهبة.

عند أحد المداخل كان يقف دليل الملك، وربما كان أيضاً أكبر دليل ومتقفّي آثار عرفته الجزيرة العربية، مشاكة بن هدباء، وهو ذو منظر رائع صبغ شعره بالحنة وأغرق عينيه بالكحل. وقد وقف خلفه فصيله من الادلاّء وصف من المتمرّنين، إنهم متقفّو الآثار الذائعو الصيت الذين ينتقون غالباً من قبيلة بني مرة في صحاري الجنوب

القاحلة الكبرى، وهم أصلب الرجال. في الجزيرة، يجوبون الصحراء بكل ثقة حتى حيث تتخوف قبائل الشمال من الاقتراب. وفي إمكان هؤلاء أن يعرفوا آثار الجمل الأبيض من الجمل الأسود، وأن يميزوا آثار أقدام الفتاة من آثار أقدام المرأة المتزوجة، وآثار الرجل المقاتل من الصبي اليافع. وجميع أهل الجزيرة يصدقون وجود هذه المقدرة لكن أحداً لا يستطيع أن يفسرها.

كان ينتظرنا، في نهاية القاعة، خمسة من أبناء الملك. وقد وقف الملك نفسه إلى جانبهم فيما أخذوا يصافحون الوزير، الواحد بعد الآخر. وقد اصطفّ في جنبات القاعة، وفقاً لمراتبهم، الشيوخ والعسكريون وموظفو القصر وخلفهم الحرس.

اتخذ جلالته مكاناً له في نهاية القاعة. وخلفه كان يقف حارسه. وفي المدن لا يحمل الأمراء والوجهاء السيوف، وإنما يحملها فقط حراسهم، وتعتبر إهانة للزائر أن يحمل أمير سيفه. لكن إلى جانب الملك هناك دائماً أحد سيوفه الشهيرة: «الأجرب» و«الرقبان» و«الخافق» و«الخطّاف». ويروي السعوديون حكايات هذه السيوف في حماس شديد. وثمة قول شهير عن «الأجرب»، أو السيف الصدىء، خلاصته «عندما يهجرني جميع الرفاق هناك دائماً الأجرب أشده إلى قلبي خلاً وفيًا أكثر من جميع الأصدقاء».

أشار الملك بابتسامة وبحركة هادئة إلى أن للوزير أن يقرأ الآن رسالة الملك جورج، فراح صوت السير أندرو يعلو ويهبط، صوت إنكليزي جدًّا ولهجة إنكليزية جدًّا: «من ملك بريطانيا... تحيات إلى العاهل الكبير». ساد صمت على المجلس فيما قرئت رسالة بلغة أجنبية من ملك من وراء البحار. ونظرت عبر النوافذ فرأيت عبرها أشجار في البعيد تتحرك رؤوسها بهدوء. وكان الصمت شديداً لدرجة أنه كان كلما قلّب السير أندرو ورقة لدى انتهائه من قراءتها، كنا نسمع حفيف طيّها عالياً. ثم قمت بدوري بقراءة ترجمة الرسالة باللغة العربية. وبعدها ردّ الملك في صوت عميق شديد الوضوح، شاكراً الملك جورج على أرفع الأوسمة البريطانية وعلى براءة الوسام، ثم تراجعنا ونحن ننحني أمام جلالته.

وفيما كان أبناء الملك يودعوننا بابتساماتهم النبيلة عند المدخل والموظفون يهرعون لمرافقتنا، علا صوت المؤذن داعياً إلى صلاة الظهيرة: هيا إلى الصلاة، مكرراً النداء إلى المسلمين! مررنا عبر الممرّات الضيقة والجنود يصطفون على الجانبين، إلى أن وصلنا البوابة الكبرى.

مكنتنا إقامتنا في الرياض من التعرف إلى بعض عادات الملك وشعبه. ولدى جلالته

مجموعة من الرجال تنتظر دائماً في باب الديوان طاعة لأوامره. وإذا ما نادى الملك أحدهم أجاب هذا قائلاً: «سم» التي قد تكون مشتقة في الأصل من «سمعاً وطاعة». وحين يؤتى إليه بالأوراق للنظر فيها، يقرأها ويختمها ويرميها بحركة منضبطة متكررة بحيث يتلقفها أحد كتابه الواقف أمامه. وحين يحضر السياف القهوة المصنوعة من القشر والمطيبة بالهال، تقدم مرة واحدة وليس ثلاثاً كما هو الحال في أي مكان آخر. وخلال المجلس ينادى على السياف مرتين أخريين. ويتكرر الأمر (بإحضار القهوة) بصوت عال عند الباب ويردّده الرجال في الأروقة إلى أن تصل أصداء صرخة «قهوة» الغرفة الخاصة بالقهوجيين، فيرفع القهوجي مدقته هاتفاً: «إيه والله قهوة». ويفرح العرب لصوت المدقة تطحن البن في الجرن، ولذا يرفع القهوجي بين حين وآخر نغمة المدقة. وفي نجد تصب القهوة دائماً باليد اليمنى، ويرون أن من الجهل صبّها باليسرى كما يفعل بعض العرب الآخرين. ولا تعبأ الفناجين إلا إلى ربعها وينتظر القهوجي أن يفرغ الشارب فنجانه قبل أن ينتقل إلى ضيف آخر. ويقدّم العشاء في القصر الآن عادة حول المائدة، لكن في معظم البيوت الأخرى وفي المضارب يقدم الطعام بالطريقة التقليدية إذ يركع الضيوف حول طبق دائري مرفوع على منصة وضعت عليه كمية من الأرز وفوقها الخروف النجدي الطيب. وتوضع تحت الطبق وحوله عادة صحون أخرى من اللحوم والمحشيات والسلاطات الصحراوية من مختلف الأنواع. وإذا كانت إحدى القوافل قد وصلت لتوها من الشمال، تضاف بعض الحلويات الدمشقية، وأحياناً هناك بعض الفواكه النجدية كالمشمش والتمور وكبوش التوت. ويستوي المشمش في الربيع، وفي هذا الموسم تمتلىء الأودية الشمالية بأسراب من طير أصفر العنق يأكل الثمار كلها إذا لم ينقذها السعوديون بإرسال الأولاد لتخويفها. ويكون طعم العصافير في هذا الوقت مثل طعم الثمار التي تأكلها كمثل «عصفور التين» في سورية خلال شهر أيلول/ سبتمبر الذي يكون طعمه بطعم التين.

قبل أي وجبة يقوم خادم بصب المياه على أصابع اليد اليمنى للضيف، لأنه يستخدم اليد اليمنى وحدها. ويدعو المضيف ضيوفه للقيام إلى الطعام فيرددون في صوت واحد «بسم الله» وهم يضعون في أفواههم اللقمة الأولى. تبادل الكلام ليس إلزامياً خلال الأكل لكن بين الشيوخ هناك على الأقل محادثة خفيفة قبل انتهاء الوجبة. ويبقى المضيف جالساً - إذا كان قد أقنع بالانضمام إلى ضيوفه - إلى أن يكون آخر الضيوف وقد شبع. وإذ يقومون يرددون «بارك الله في المضيف» أو شيئاً من هذا القبيل. ويحمل الخدم أو أبناء المضيف أو أصحابه إلى الضيوف الإناء مرة أخرى لغسل أيديهم.

تقدم القهوة وأحياناً الشاي مع السكر بعد العشاء. وفي الغالب تتم الأحاديث قبل الطعام لا بعده. ولذا ما إن تحضر القهوة والبخور وماء الورد حتى يستأذن الضيوف بالانصراف يتقدمهم خادم يحمل قنديلاً يرافقهم إلى خيمتهم أو جناحهم.

كل ربيع ينتقل الملك وحاشيته إلى الصحراء حيث يمضون بضعة أسابيع في الصيد. وحين يعطي الملك الأمر، المنتظر بتشوق منذ فترة، يمتلىء القصر بجلبة وفرح. وعلى المسؤول عن المضارب أن يشرف على إعداد ٢٠٠ خيمة. وهناك أولاً السرادق الأبيض الكبير الذي يتألف من ممرّات مسقوفة مليئة بالتكايا والوسائد وخيمة رئيسية كبرى من أجل مقام الملك. وبعد ذلك هناك مجموعة من الخيم الصغيرة المزنرة بالحرير من دمشق أو القماش المزوّق من الهند، كما هناك أيضاً خيم مستديرة الشكل، حمراء وزرقاء اللون، ومن ثم هناك الخيم المصنوعة من جلد الماعز. وتنقل إلى البر أيضاً أوعية الطبخ النحاسية الضخمة من القصر الملكي ومعها أكياس الأرز والبهارات. وعلى الصقّار وآمني الأسلحة أن يستعدّا بدورهما، كما أن على مكتب سلاح الإشارة في القصر أن يستعد لنقل محطة الاتصال اللاسلكي. وفي النهاية يعطي الأمير المسؤول عن القافلة الملكية، الأمر بالانتقال إلى المكان الذي اختاره الملك.

بعد هطول الأمطار تظل برك كثيرة مليئة بالمياه في الأودية وينبت العشب وتعلو الأزهار، بحيث يمكن إقامة المضارب في منبطحات الصحراء بعيداً عن آبار الصيف. وتعتمد مراعي الربيع على الأمطار التي هطلت في الخريف. وتكون طلائع «الوسم»، أو المطر الخفيف، أزهار بنات الأطلس والهسيل. وإذا كان الوسم غزيراً كان الربيع مليئاً بالكماء (الفقع). وما إن يستقر أهل المخيم حتى يبدأ أهل كل خيمة بجمع ما يكفي من الحطب لإقامة سور ضد الريح في الليل، وتستخدم الأحطاب أيضاً في مواقد المساء. وينهمك الكل بضعة أيام في جمع «الحمد» و«السدر» التي لها رائحة حلوة، بعكس «العرفج» الحاد. وتكون رائحة «الحمد» في الربيع قوية تملأ الصحراء التي تنبت فيها. ويروي «زينوفون» في كتابه «أناباسيس» كيف أنه لاحظ الرائحة الجميلة تتصاعد من أجمات الصحراء إذ نزلت جيوشه ضفاف الفرات. وجاء في معجم ياقوت أن رائحة الأرض بعد المطر تشبه رائحة المسك والعنبر.

الهواء في الصحراء خلال الربيع منعش بشكل لا يصدق. وبدلاً من أن يحن المرء إلى أراضي أوروبا الخضراء، كما هو متوقع، فإنه يمتلىء بفرح غريب، وكلما طوته الصحاري كلما نسي ما ترك خلفه وغرق في مشاعره الجديدة. هنا، وسط عزلته الكبرى، يتذكر أن أقرب أوروبي إليه يبعد عنه خمسمائة ميل. وإذ يطلق الصقّارون

المرافقون له صقورهم خلف الحبارى في البعيد، تتزاحم في رأسه الأفكار حول روعة الحياة في الصحراء. وخوفه الوحيد هو أنه سيرغم على العودة إلى العالم الغربي المزدحم. إنه يرى ذلك العالم الآن على حقيقته. ويتذكر بخوف اجتماعي شديد أجواءه الملطخة، وكيف أنه كان هناك دائماً لا يملك الوقت للتفكير بسبب السرعة ولا الوقت للأمل بسبب الانهماك. إنه يتذكر بيوت أوروبا المتلاصقة وشوارع المدن الغربية وتلك السلاسل الطويلة من المخازن والمطاعم والقطارات. إنه يتذكر تلك المجتمعات السكنية التي يعيش فيها الناس مثل الحشرات لا مثل البشر، وقد حشرت في مختبر للتجارب.

تزدحم هذه الأفكار في رأس المرء وهو في بطاح الجزيرة، وكأنه في فانتازيا من أعمال ديزني إنما بألوان داكنة. وسرعان ما يتحول فرح المسافر إلى عطف حزين على الإنسانية المعذبة في أوروبا، ويزداد اقتناعاً بأن ما تحتاجه زهرة هذا العالم ليست البيوت الحكومية أو الضمان الاجتماعي، بل المغامرة في الرفقة الجميلة والحب والتناقض والضحك والانتصار.

* * *

دعانا الملك إلى حضور حفل يقام في ميدان السباق بعد ظهر غد شرق المدينة: وكانت الزيارة الرسمية شارفت على نهايتها وسوف تختم، تكريماً، بهذا الحفل وبمأدبة وداعية كبرى. وعندما انطلقنا في اليوم التالي نحو الميدان وجدنا الحشود تغادر المدينة متجهة نحو المنصة الملكية التي أقيمت على تلة. وارتفعت غيوم صغيرة من الغبار خلف الحشود المجتمعة قرب الجناح مما يعني أن الفرسان كانوا يقومون هناك بسباقاتهم التجريبية الأولى. وما إن جلسنا إلى جانب الملك حتى أعطيت الإشارة لبدء السباق الأول وكان طوله ٢٠ كيلومتراً، أي أربع دورات حول الميدان. يتمتع العرب بنظر ثاقب جدًا، وقد استطاعوا جميعاً متابعة الخيول بلا مناظير حتى وهي في أبعد نقطة من الميدان. وليس من عادة أهل نجد أن يطلقوا الهتافات حتى في نهاية السباق حين كان الملك يهنىء الفائز بكلمات التشجيع.

وبعد السباق الثالث نزل ولي العهد نفسه فاعتلى فرساً ووقف أمام المنصة الملكية يتبعه خيّال يحمل رمحاً. ثم تحلّق حوله بقية الفرسان وقد طرحوا كوفياتهم جميعاً على أكتافهم. وبعدما استأذن ولي العهد الملك بالبدء انطلق الخيالة بعيداً واتخذوا لأنفسهم مواقع في مواجهة بعضهم بعضاً، فريقان أو ثلاثة من كل جانب، ثم بدأوا يخيّلون ببطء حول بعضهم بعضاً، فيما راح فرسان آخرون يلعبون لعبة «الجريد»

بالرماح، إذ يطارد خيال خيالاً آخر وحين يقترب منه يرمي سرجه بطعنة رمح غير مؤذية. وشيئاً فشيئاً أخذ الفرسان يسرّعون حركتهم الدائرية. ومرة أو مرتان أطلق رجل النار في الهواء وهو يحمل البندقية ويطبق زنادها بيد واحدة.

أعطى الأمراء الآن أوامرهم فحلّت الحركة السريعة مكان البطيئة. وفي كل لحظة كانت تبدو وكأنها مبارزة حقيقة. وفجأة قام فريق بهجوم صاعق على آخر. لكن الفريق «المعادي» فتح صفوفه بطريقة ما فلم تصطدم الخيول ببعضها بعضاً. وكانت تلك إشارة إلى هجوم مضاد وهو ذروة الحفل. والآن راحت البنادق تطلق رصاصها كل لحظة، وكان الأمراء يتقدمون رجالهم في نوع من العدو الموسيقي السريع وبمهارة خيالية. وامتلأ الميدان بغبار الساحة ورائحة البارود. وفجأة مرّ أمامنا في انطلاقة سريعة الأمير فيصل، وقد طارت غطرته في الهواء وامتلأت عيناه بذلك الاعتزاز الذي يعرفه فقط الفرسان الشبان. ثم جاء خلفه رجاله، وخيولهم تقفز مثل فرسه، وجدائلهم تطير في الريح، وبعضهم نصف عار كما لو كان في معركة حقيقة وجميعهم يمتلئون حماساً. ثم انضم إلى الهجوم بالروح العسكرية نفسها لكن بالمزيد من النظام، فريق ولي العهد، فاندفع الرجال نحو «عدوهم»، وفي دقة هائلة توقفوا في اللحظة الأخيرة بطريقة مثيرة للإعجاب أمام المنصة الملكية وقد وقفت الخيول على سيقانها الخلفية. وحيا الأمراء الملك وانتهى الحفل.

وفي إشارة من الملك انطلقت الجموع عائدة إلى الرياض خلف الموكب الملكي.

في الوفرة
من أجل الحبارى (١٩٣٤)

بقلم ط.آر.ب. ديكسون

أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر، الثاني منه على وجه الضبط وقد طلبت من سليم المزيّن أن ينقل مخيمه إلى البرّ، على أن انضم إليه فيما بعد. لقد مضى علينا أسبوع والرياح جنوبية لا تتغير، وها هي الغيوم تتجمع في الغرب وفي البعيد رأينا البرق ومن البعيد سمعنا الرعود. وقد تركت معظم القبائل المياه وراحت تنتشر في المناطق الحدودية بحثاً عن الأراضي المعشوشبة، ذلك أن ثمة وعداً بأن المطر وشيك. وتخرج العائلات جميعها في هذا الموسم وتضرب خيامها بعيداً بعضها عن بعض، وإنما على سمع طلقة النار، تحسباً لأي طارىء إذ يهب الجميع آنذاك لمساعدة من تعرّض لأي هجوم.

وكان البدو الذين ضربوا خيامهم حول الكويت، قرب آبار الدسمة والشامية، قد أخلوها الآن وذهب بعضهم إلى منطقة الكبد والبعض الآخر إلى عدان، وذهب آخرون إلى الحزيم أو إلى منطقة القرين. وذهب «الفيداويون»، بقيادة أميرهم هايف بن حجرف، من فخذ سليمان من قبيلة عجمان، يرافقهم نهار وعبيد المتلكم، إلى منطقة الحميطات خلف المناقيش والشق، على بعد ٦٠ ميلاً من الكويت. وقد اختار هؤلاء منطقتهم بذكاء لأن الحبارى قد وصلت إلى الديدبة، وصيدها بالصقور رياضة مفضلة. ويمتلك الأمير، كما يمتلك كل شاب شجاع صقره، وهو غالباً من الحرّ أو من الشاهين، وينطلق الجميع في أول فرصة ويعودون إلى زوجاتهم بالطرائد يملأن بها الموائد. ويحب البعض منهم، وخصوصاً العوازم، صيد الغزلان والأرانب مع كلابهم السلوقية، وكم هو الفرح كبير حين يحمل أحدهم إلى البيت لحوم الغزال. ويذهب الصيادون الشبان بعيداً عن المضارب في طلب طرائدهم، وإذا ما شعروا أن لحم الغزال

لن يحفظ طويلاً، يسارعون إلى تقطيعه وتقديده بالملح، بحيث يسهل تناوله ساعة العودة إلى البيت.

هذا هو فصل الفرح. فالأمطار وشيكة وثمة قرصة باردة في الصباح، وفي المساء لا بدّ من إشعال المواقد. إنها الصحراء تعود مرة أخرى إلى الحياة بعد صيف طويل حار وبعد العواصف الرملية الحارقة الخانقة، والاضطرار إلى إبقاء المضارب قرب المياه فيما يتحكم بك ذلك الرعب الدائم من أن عدوك يعرف أين أنت، وأنه، عدوك، في غارة مفاجئة قد يحمل كل جمالك، أي كل ما تملك.

ويرسل سكان الخيم المختلفة الجمال في حمل المياه من الآبار الأقرب، التي قد تبعد أحياناً حوالى ٣٠ ميلاً، مرة كل خمسة أو ستة أو سبعة أيام. لا الإبل ولا الرجال ولا الماشية عطشى كثيراً في هذا الموسم، ولذا فإن المياه ليست بمثل تلك الضرورة الملحة للحياة. وما إن تهطل الأمطار الأولى ويبدأ العشب بالظهور حتى ينخفض طلب الماشية للمياه شيئاً فشيئاً إلى أن يكتمل الربيع ويعلو العشب ويخصب، فلا يعود سوى الإنسان في حاجة إلى المياه.

هذا أيضاً هو الموسم الذي يبدأ فيه شيوخ الكويت، والحكام الآخرون في الجزيرة العربية، بالذهاب إلى قلب الصحراء بحثاً عن الحبارى. ولم يعد أحد الآن يمارس الصيد من على ظهور الجمال، فالسيارة أفضل في هذه الحال. والصيادون الكبار مثل الشيخ أحمد (الجابر) والشيخ علي الخليفة والشيخ سليم الحمود، يطلعون مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. وهم يمضون تقريباً حوالى ليلة على الأقل في البرّ كل مرة، يمضونها في الهواء الطلق لا يغطيهم سوى عباءاتهم. ويرى الناس هنا أن طلب الملجأ أو الغطاء عملاً غير رجولي. أما الصيادون وحملة الصقور فجميعهم من الرشايدة ولهم عيون تشبه عيون الصقور التي يحملونها. وهناك أيضاً النزال، الممتلىء الجسم والمشهور في شمال الجزيرة ووسطها بمعرفته الثاقبة بالأرض، وهناك سعود بن نمران، الشديد المرح الشديد البأس، وهناك عدّاس الصقري العينين، وغرايب القادر على أن يشتم الحبارى من بعيد وهو أيضاً غوار قديم من أيام الحرب (مع الملك عبدالعزيز) وهناك سعد، الكشاف، ومرشد الشمري ابن قبيلة طوالا الشهيرة، والرجل المتقدم في السن سيف بن تهامي، رفيق مبارك الكبير في غير غارة.

من الصقور لدينا «الدياب» الشهير و«الكبريت» و«السلطان» وسيد الصقور القاتل الذي لا يتعب، «بترول»، صقر الشيخ الخاص الذي عرف عنه أنه يقتل ١٢ طيراً في يوم واحد!

لقد أمضى سليم، مرافقي، ثلاثة أيام قبل الوصول إلى آبار عريفجان، ومعه زوجته عمشة وابنته الجميلة حسا وشقيقته منيرة وبقية أفراد العائلة. وكان قد أرسل قبله قطعانه من السوداء في منطقة الأحساء حيث أمضت الصيف في حراسة فرج وفلاح، وكلاهما من قبيلة العوازم. كبيرة هي الفرحة بأن النعاج قد وضعت ٣٦ حملاً وثمة حملاناً أخرى ستولد في تشرين الأول/ أكتوبر. لقد تضاعف القطيع تقريباً منذ الربيع الماضي. والأحسن من ذلك أن خمسة عشر من الحملان ذكور يمكن أن تذبح في الأعياد. ويقول مزيد، الدفيري المسؤول عن الإبل (١٤ منها) إن الجمال في حالة ممتازة برغم الصيف الحار الطويل في منطقتي الهزيم والسودا. هو أيضاً قد جاء لتوه من الرياض مع سليم. وكانا قد ذهبا إلى هناك للاطمئنان عن رئيس العائلة، إبراهيم المزين، (الذي كان حامل العلم لدى مبارك الكبير وهو الآن مع الملك عبدالعزيز).

في ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر جمعت ما عليّ أن أحمل من متع وحوائج، كالدشك والمساند والشداد وبسط الكليم، وطلبت من صالح، سائقي النجدي الطيب، أن ينقلني إلى مخيمي. وكانت قد سبقتنا إلى هناك ناقة زوجتي، فرحة، وهي من نوع أمانيه المعروف، وكذلك خيولنا نايدي وفرحان وجروة الجميلة الطباع. وجروة هي هديتي من عبد العزيز آل سعود، الملك العظيم، وقد سميت على اسم أبيها الذي كان يملكه الراحل فيصل الدويش. وكانت زوجته، عمشة، قد أمرت بذبح الحصان حين استسلم الزعيم الكبير للإنكليز في الجهراء في العام ١٩٣٠. وقد كنت أنا وزوجتي معها حين تمّ هذا الحدث المؤثر.

سوف أذهب في اليوم التالي إلى منطقتي الهزايم والوفرة في المنطقة المحايدة، آخذاً معي سعود بن نمران وصقره، وكذلك خادمي جواد. ووصلت أخبار تقول إن البرازاني ابن شجعان، أحد رجال الدورية لدى الملك عبد العزيز، وصل إلى الوفرة على رأس ٢٠ رجلاً وسوف أقابله لكي استوضحه السبب. ولابن شجعان سمعة الرجال القساة لدى البدو، ومع أنه مطيري الأصل، فقد نشأ في الهفوف.

تركنا الكويت في الساعة ١٢,٣٠ بعد الظهر وبعد ساعتين ونصف في السيارة وصلنا إلى عريفجان. كانت هناك ريح شمالية باردة وكنا نسير معها، لكنني برغم ذلك مضطر إلى ارتداء كنزة وأيضاً إلى فروة، وهي من النوع الدارج كثيراً لدى عنزى وفي الشمال! عند الثالثة وقعت عيني للمرة الأولى على خيامي. إنها إلى يمين الطريق الوعر وعلى بعد ميل واحد من المكان الذي ضربنا فيه خيامنا في العام الماضي. لقد شدت الخيام بين أجباب العرفج الكثيفة التي تميز هذه المنطقة. وغير أن كل شيء لا يزال

جافاً، وباستثناء بضعة أجباب من عشب «الحمد» التي اكتملت تماماً، لا شيء أخضر يمكن رؤيته في المكان! لا. إنني على خطأ. ففي المربعات المالحة هناك بعض الحرم (من عائلة الحمد) الأخضر الذي ينمو بصورة غريبة في الريف.

نصبت خيامنا، المصنوعة من الشعر الأسود، في صف طويل، بحيث تواجه كل خيمة الجنوب الشرقي: «أ» خيمتي. «باء» خيمة خادمي. «جيم» خيمة سليم. «دال» خيمة الدويحي، ذلك العزمي البصير الذي يسكن مع ولديه فلاح ونصير (الراعيان) «هاء» خيمة جارنا صالح، المطيري الذي استأذننا في أن يخيم إلى جانب سليم لبضعة أيام. «واو» (خيمة حمامي الخاص) كل شيء هادىء وساكن هنا - ووصولي غير متوقع.

فجأة يلمحوننا، فيكثر الرواح والمجيء، ويسرعون في نقل الدشك وأسرجة الجمال من خيام سليم إلى خيامي، وتفرش بسرعة السجادات وبسط الكيليم، ويوضع قاطع الخيمة في مكانه، وما إن نوقف السيارة أمام خيمتي حتى يكون كل شيء جاهزاً لاستقبالي. يقف سليم وحيداً هناك لأنه من غير الجائز أن تظهر زوجته وابنته أمام سائقي أو أمام «الفيداوي» سعود، الذي أرسله الشيخ معي. غير أننا شعرنا بهما تسترقان النظر إلينا من خيمتهما.

أفضّ حوائجي وحقائبي وأمضي لترتيب الأشياء. وفيما يرتب جواد فراشي، تقدم لنا القهوة. وما إن يأوي الرجال إلى خيامهم حتى تأتي عمشة، ذات الصوت الدافىء، لكي تلقي علينا تحيات الترحيب في الجزء المعد للاستقبال من خيمتي. وتدخل بهدوء وخفر قائلة بصوتها الخفيض: «القوة يا بو سعود» وأجيب «الله يقويتشيي يا أم حسا». ثم يعقب ذلك سلسلة من طيبات الكلام «كيفك يا بوسعود؟ كيف أم سعود؟ كيف الخاتونة؟ وكيف سعود وزهرة (أبنائي) لعلهم جميعاً بخير. ما هي أخبار الكويت، وما هي أخبار المطر؟».

وقد جاءت خلف عمشة، منيرة، ثم المطيرية التي تساعد في خدمة المنزل، وحسا التي بلغت الخامسة عشرة (وقد حجّبت أخيراً دلالة بلوغها سن الزواج). وبعدهن دخلت بنات الدويحي وبنات مزيد والضفيري، وفي النهاية دخل مبارك الصغير، الصبي العبد الفاحم اللون، وهم يتحببون إليه بمناداته «بروك». أما شقيقه، الصبي الآخر مرزوق، فهو لا يزال مع القطيع على بعد ربع ميل، وكذلك حمود، ابن منيرة الصغيرة.

جلست النساء حولي، تتقدمهن، عمشة، ورحن يسألن عني وعن أخباري. والصغيرة حساء، التي عرفتها مذ كانت في السابعة، تشجعها أمها على أن تتقدم

وتجلس على مقربة مني لأعانقها، وبعد ذلك تعود بحياء لتجلس قرب أمها، ملتزمة الصمت، عادة البدو المهذبين في حضور كبارهم. فقط بروك، الصغير الخجول، يأتي إلى عمشة ويتركها تغمره بذراعيها. إنها تحبه تقريباً أكثر من ابنتها. إنها تقبله وتداعبه وتتركه يضع رأسه على كتفها وهو يتطلع إليّ بعينين واسعتين. إن عمشة تحب الطفلين العبدين بطريقة مثيرة للشفقة. أكبرهما في الخامسة والثاني في الثالثة من العمر. إن مثل هذا الحب والحنان لا وجود لهما في مكان، فمن يتحدث عن قسوة العبودية وكيف ذلك؟ الجواب بسيط. إن هذين الطفلين، وهما ابنا عبدها عبد الله (مات مريضاً في العام الماضي وهو في طريقه من الحج) يثيران في عمشة كل غريزة الأمومة. إنهما ملك لها. بل إنها أحياناً ترضعه، علامة إعطائه الحرية، وهي تقول له «اسكت يا حليلك. خلنا نسمع أبو سعود».

الآن يعود سليم ومعه ركوة القهوة، ومعه أيضاً الفناجين التي عاد بها من الرياض، وهي بيضاء صفراء الشفة، وغير معروفة لدى أهل الكويت.

باعتزاز يقدم القهوة لي مرة أخرى قائلاً «الفناجين؟ آه، لقد أحضرتها لأم سعود (زوجتي) حين تعود من إنكلترا. لقد كانت سنة خيّرة والحمد لله. الإبل سمان وأسنامها مستديرة حتى أنك لم تعرفها». وتتدخل عمشة لتقول «الله يا أبو سعود. إنك لن تعرف فرحة إلا من الخاتم الذي في أنفها. إن لها سناماً كبيراً الآن بحيث لا نستطيع أن نضع عليه هودجاً. والله يجب أن تهنئنا يا بو سعود: ٣٦ حملاً ولدت في الأيام العشرة الأخيرة ونعجة زهرة (ابنتي) السمراء التي كانت طفلة قبل عامين، وضعت حملاً الآن. قومي يا حسا هاتيه». تأتي حسا بالحمل الجميل. وأعطى ذيله لكي أرى ما إذا كان في ليته أي دهن بعد. والآن، تقول عمشة، «يجب أن تأتي وتشاهد بعيرنا الصغير». وتقتادني النساء إلى الخيمة الخلفية حيث تربض أمامها النوق. لقد عادت لتوّها من الشرب وسوف تحلب وتنام! يؤتى إليّ بالجمل الصغير الهادىء بشكل رائع فأمسك برأسه النبيل وأقبله.

بعد ذلك أتوا بكلب الحراسة الجديد ليعرضوه عليّ فامتدحه بما يليق به وأعرب عن أملي بأن يردّ الذئاب. تذهب النسوة الآن، فأغتسل وأستعد لتناول العشاء.

إنه الليل الآن. وقد تناولت أطيب عشاء عرفته في حياتي. فقط أيد مثل أيدي عمشة يمكن أن تعدّ مثل هذا العشاء: طبق من الأرز المطبوخ بالزبيب وشرحات البصل وفوقه حمل مشوي لم يعرف العشب بعد. ما أطيبه وأنعم لحمه!

ثمة قنديل يضيء في طرف الخيمة. تؤخذ بقايا عشائي بعيداً. يدخل سليم مرة

أخرى والقهوة معه. اسأله ما إذا كان الرجلان اللذان في رفقتي قد تناولا العشاء فيقول إنه قدم لهما طبقاً مثل طبقي. فأسأله إن كان قدم لهما القهوة فيجيب بالإيجاب ثم يقول «هل تريد أن تنام يا بوسعود أم ندعو النساء إلى بقية السهرة». إنها الثامنة مساء بعد. تدخل عمشة ورفيقاتها مرة أخرى ويجلسن بهدوء. هذه المرة سليم برفقتهن، أما حسا فقد بقيت مع الطفلين الصغيرين لتضعهما إلى النوم.

الآن يسألونني عن أخبار الكويت، وهم بدورهم يروون لي كل حكايات البدو التي بلغت مسامعهم منذ وصولهم. يعددون لي أسماء جميع الذين ضربوا الخيام على مدى عشرة أميال منهم! وقبل أن يذهبوا إلى النوم بعد قليل سألتني عمشة «هل تريد طعاماً للطريق غداً يا بوسعود؟» قلت نعم. فوعدت أن تفيق في الرابعة فجراً وأن تعدّ لي ثلاث دجاجات كنت قد أحضرتها معي من الكويت، ووعاء من الارز. وقالت لي إن الوعاء له غطاء، لكن إذا وضعت رغيفاً عربياً تحت الغطاء يظل الأرز ساخناً حتى الظهر. وكانت عمشة صادقة مثل وعدها. فقد كان غداء اليوم التالي لذيذاً.

ما كدت أغفو قليلاً حتى صحوت على نباح قوي، إذ بدا أن الكلاب الثلاثة أو الأربعة التي تحرس المضرب قد ارتاعت لشيء ما. وشعرت أن الكلاب تركض في دوائر حول المخيم، ثم سكتت لخمس دقائق وانفجرت تنبح وتعدو من جديد. كنت تعباً جدًّا فغفوت مرة أخرى ثم صحوت مجدّداً وبقيت على هذا المنوال إلى أن أصبح نباح الكلاب شيئاً مثل الصدى في رأسي المتعب. غير أنني ما لبثت أن أفقت على صوت الجمال، الرابضة قرب خيمة سليم، تنهض بسرعة وتعدو مذعورة نحو خمسين متراً، غير أن صوت سليم يعيدها، أعاد إليّ الاطمئنان أيضاً، وسمعته يقول: يا نصير شنو اللي خوف الإبل؟ وجاءه الجواب «ماكو شي!» وأمضيت الليل بطوله، بين نائم ويقظ، أسمع أصواتاً غريبة، لكنني كنت متعباً إلى درجة لم أستطع معها أن أتحرك. هكذا هي دائماً ليلتي الأولى مع أصدقائي البدو: لا أستطيع أن أنام.

قبل الفجر سمعت سليم يدعو إلى الصلاة، وبعد ذلك بقليل، وكان الليل ما زال حالكاً، راحت إحدى النساء تغني وهي تهزّ في الضرف لبن الماعز والزبدة: رق. رق. رق! إنه الصوت القديم الذي أعرفه جيداً والذي يبعث في نفسي اطمئناناً غريباً. لقد استيقظوا قبل طلوع الضوء هؤلاء الناس البسطاء، ويبدو أحياناً أنهم لا ينامون أبداً. لقد أدوا صلاة الفجر مع خيوطه الأولى.

سمعت الآن الرعاة ينادون على قطيعهم للتجمع والجمّالون يتحدثون إلى جمالهم. وكانت الإبل والخرفان قد أمضت الليل في العراء أمام خيمتي سليم والدويحي،

والحملان ناعسة إلى جانب أمهاتها. وراح «فلاح» يصرخ: هر. هر... وهو يدعو النعاج الأم لإرضاع حملانها قبل الذهاب إلى الرعي طوال النهار. وبدأت الخرفان تثغو كلها في وقت واحد. إنها ساعة وجبة الصباح التي لن تأكل بعدها شيئاً حتى الغروب، ولذا عليها أن تشرب الآن طويلاً وعميقاً. ومع خيوط الفجر أيضاً بدأ عدّ الخرفان. وسمعت فجأة صوتاً يقول «تعال يا سليم. إن القطيع نقص نعجة وحملها! الآن عرفنا أن ذئباً جاء في الليل، بل ذئباً وذئبة. وراح الجميع يتفقدون الآثار. ويبدو أن الذئب، بكل دهاء، ترك الكلاب تشمه من الجانب الذي تنسم منه الريح، وفيما طاردته الكلاب في جهة كانت الذئبة تزحف على المخيم من الجانب الآخر، كما تزحف هرة خلف فأرة، وجرت بكل هدوء نعجة وصغيرها. لم يكن هناك صوت في الليل. وقد شرح لي الرعاة أن الخروف يرتعد إذا ما أمسك به الذئب حتى لا يعود قادراً على الصراخ، وأن الماعز وحدها تصرخ ولذا يتجنّبها الذئب.

طلع النهار الآن وقمت لأتفقد بنفسي آثار الذئاب. وكانت بالفعل واضحة على جانبي المخيم، الذئب بآثاره إلى الشمال والذئبة بقوائمها الأصغر إلى اليمين، ويبدو أن الذئبة انتزعت النعجة من قلب الخيمة لأن صوف المدخل الذي ربط إليه عنق النعجة قد قطع وكانت آثار القوائم فعلاً في قلب الخيمة. وأظهرت الآثار الأخرى أن الذئبة دخلت الخيمة مرتين، الأولى لتعود بالنعجة والثانية بالحمل. وقد أسرعنا في تقفي الآثار لعلنا ننجح في إنقاذ الضحيتين، إلا أن الآوان قد فات، إذ عثرنا على عظام الخروفين على بعد ميلين. لم يكن قد بقي سوى العظام الضخمة وبعض الشعر. وقد عدنا إلى المخيم ونحن نشعر بالحزن. وخيم على الجميع جو من الانقباض. ولم يكن مفيداً أن نلوم الرعاة، فقد قامت الذئاب بعمل غاية في المكر والدهاء. والواقع أن أحد الرعاة كان يقظاً، يجلس وسط القطيع قرب موقدة صغيرة. لكن الذئبة كانت حاذقة إلى درجة هائلة والخرفان كانت خائفة إلى درجة مرعبة بحيث إنه لم يسمع أي شيء.

قالت عمشة «يا بوسعود. مكتوب أنهما سينفقان الليلة. لكن لا تخف. الذئاب جائعة كثيرة هنا لكننا سوف ننتقم. لا تخف».

إنه فجر يوم آخر! أعددت للذهاب إلى الوفرة مع سعود، مرافقي. مرة أخرى المخيم الصغير يغلي بالحركة. أعدّت سيارتي وأحضر غذائي من خيم النساء وقد لف جيداً في المقلاة. أما المياه فقد وضعت في «الضرف» المصنوع من جلد الماعز. انطلقنا، سعود وصالح وأنا. هما في مقدمة السيارة وأنا في الخلف ومعي الطعام والمسدسات

والبنادق والجفوت والذخيرة. بعد نصف ساعة صالح يصرخ وأرى طائر حبارى يركض على بعد ١٠٠ متر. قرفصت فوراً. ولم يكن سعود قد فك صقره لظنه أن لا طرائد هناك. إنه يفكه الآن. ترجّلنا واتجهت نحو الطائر فقام وحلّق لكنني أرديته عن بعد ٣٠ ياردة. لقد أصيب إلا أن إصابته قاتلة. وطار الصقر «كبريت» نحوه مثل شعلة وانقض على ضحيته قبل أن تتحرك. إن «كبريت» يؤدي عمله جيداً وكذلك سعود. فوراً تقطع حنجرة الطائر ويعطى الصقر قطعة يتلذذ بها. ثلاثة طيور أخرى قبل أن نصل إلى الوفرة. هذا كل شيء. لقد فرحت بما اصطدت وكان «كبريت» فرحاً بما فعل.

كانت الطريق مليئة بالمطبّات وكان الصيف الحار قد جفف وقسّى أجباب الثمام والعرفج فلم نعد نستطيع المرور عبرها. طب طب طب. ست ساعات ونحن بين تلة ووهاد. وفي أماكن قليلة فقط رأينا تلالاً صغيرة خالية من العشب الجاف الذي يغطي كل شيء. اتخذنا الطريق الساحلي في الداخل على بعد ٢٠ ميلاً من رأس الزور. لم أكن أعرف هذه المناطق، وقد جئتها الآن غير مشغول بنصيحة سعود «لن تجد طرائد هنا ولن تنقل سوى ألم في العظام». إنه عنادي البريطاني!

الطائرات تبدأ بالوصول:
من عدن إلى حريضة إلى رحبة!
(١٩٣٧ ـ ١٩٣٨)

بقلم فريا ستارك

في اليوم الأخير من الأسبوع الأول في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٧، حلقت بنا الطائرة شرقاً في عدن في هواء بارد يملؤه شعاع الفجر وقد ترك لوناً عسليًا على الشاطىء الرملي. حلقنا والمحيط الهندي إلى يميننا، تجعّده الموجات المتردّدة الرتيبة وتعلو سطحه الطريق البيضاء إلى الشمس. من هذا العلو الشاهق بدت لنا حافة الموج الكسولة، المطرزة، وكأنها تزحف ببطء، وكانت تتكسر وتنفتح كأنها محارة تخرج من صدفتها ببطء. كانت طائرتنا تحلّق فوق هذا العالم اللازوردي بأجنحة فضية.

مضينا نحلّق شرقاً وهذه الكرة الكبرى تحتنا تبحث في الأفق عن استدارتها الكاملة. وبدت لنا الحيتان في البحر بأحجام صغيرة وشفافة في المياه، وقد انتشرت فوقها زوارق الصيد السوداء. وهنا وهناك قرية أو قريتان بيوتهما بلون الأرض، تكادان لا تبينان لولا الحقول التي حولهما، وقد التصقتا بالصخور خوفاً من الرمل والريح. وعلى يميننا المحيط السابل مثل سيف دمشقي وإلى يسارنا الأرض الحادة العزلاء، وحولنا في الفضاء، مساحات من الجو اللامتناهي التي يملؤها ضجيج محركاتنا التي تصغي إلى صوتها وحيدة في هذا الصمت الكبير.

خلف شقرة، يصب نهر قديم من الحمم البركانية في البحر. حمم ثقيلة كالعجين تتدحرج في المياه العميقة. وإلى الشمال، خلف هذا المنحدر الحاد، يقوم جبل قور مثل سدّ لا يقاوم. وما إن نقطع جدول الحمم حتى ينبسط الشاطىء مرة أخرى لأميال عديدة. ثم تقترب الجبال مرة أخرى: أرض بيضاء تتصل بتلال بركانية والرمل يطير فوق المكان، فيتراكم في كثبان عالية حيث يزحف وادي مايفا الكبير نحو البحر. وغالباً ما تكون هذه الرمال المتحركة تلالاً وهضاباً تغطي بهذه السجادة المتحركة الأرض البركانية القديمة.

هنا، في مكان ما، وصلت طريق البخور إلى البحر ووجدت لنفسها ميناء طبيعيًا محفوراً في الصخور البركانية. نتطلّع إلى تحت بلحاف بفضول، لأننا ننوي لاحقاً أن نتفحص هذه الجزر الصغيرة، بلحاف هنا ثلاثة أبراج مربعة فوق خليج صغير مثل سنارة، وخلفه تل بركاني، ثم جورة بركانية فارغة ومستديرة. لكنني أُعجب إذ لا أرى أثراً لأي خرائب، وسوف أعرف السبب بعد أشهر حين أتفقد المنطقة مشياً على الأقدام: لا مياه هناك!

لكن خلف ذلك كله ينفتح خليج كبير، هو مدرج من الأرض البركانية، والرمال المتحركة، ثم منخفض بركاني آخر على حافة المياه تعلوه أشياء شبيهة بالجدران وقرية بير علي الشهيرة. هنا، كما خطر لي لاحقاً، قرية قنا، أما الآن ونحن نحلّق فأمامنا خيار كبير من المنخفضات البركانية، وبينها هذا المنخفض الذي يمتد إلى البحر مثل قرنين. وثمة جزيرتان، إحداهما سوداء والثانية بيضاء من روث الطيور البحرية، غارقتان في الشمس والرطوبة. إنها مداخل قنا المميزة التي كتب عنها ذلك الملاح الروماني الشهير قبل ألفي عام.

والآن عبرنا رأس كلب ورأس بوروم وها هي المكلا تبدو في الأفق وقد تجمعت في سفح تلتها. وأخذت طائرتنا تبطىء سرعتها بشدة وتهبط نحو فوا. وما إن نهبط حتى نرى يوسف في استقبالنا. وسوف نجد هناك الأميركي الشاب الذي جاء يبحث عن النفط بسيارته «الدودج» الجديدة التي يسرع بها فوق الرمال. تطرطشنا مياه البحر كأنها تجعل من هذه العزلة ملعباً وتلمع عند فقش الموج ألف فقاعة كأنها تطريز في طرف معطف، وتهرب من أمامنا آلاف السلاطعين، إلى أن نصل إلى الصيادين الذين يمشون حفاة على الشاطىء الصلب حاملين نيراً من السلال حول أعناقهم، ثم نأتي إلى مناخ الجمال قرب الجدول المليء بالمياه، وها هي القنطرة الحجرية المؤدية إلى بيت الحرس حيث يلعب رجال يافعون من الحرس النرد، ثم ها هو بيت المستشار المقيم (البريطاني).

جاء صالح، وهو أصغر أبناء محسن، لكي يساعدني في معالجة امرأة تعاني من سكينة في رأسها. والسكينة، أي تلك التي تسكن شخصاً ما، لا يستطيع رؤيتها إلا قلّة خارقة من الناس مثل والد صالح. إن لها شكل الإنسان، مع أنها أطول بكثير، وتستطيع أن تعيش في أي مادة: في الحجر، في الجدار، أو في الباب. وإذا ما ضحكت منها زحفت إليك وراحت تؤذيك ـ أما إذا أحببتها، أو بالأحرى هي أحبتك، فسوف تأتي وتنظف ثيابك حين تكون مريضاً. وإذا لم تحبك فإنها تبصق حين تمّر (البصاق شعبي

جدًا هنا) ويؤدي ذلك إلى انتشار الاحمرار في وجهك. ومن الصعب أن تتعرف إليه، لأنها تتجوّل محجبة مثل أي امرأة. وقد قلت للمرأة الشاكية إن «ملح أبسوم» الذي أحمل الكثير منه، هو أفضل وسيلة لطرد السكينة أما إذا لم ينفع، فنترك الأمر للأيام. وبعدما شكرتني وخرجت بقي صالح معي نتدارس الأمر. وقد أعرب عن اعتقاده بأن ما تعاني منه ليس سكينة كبيرة وإنما نوع أكثر اعتدالاً يدخل في الجسم من القدم مثل ريح باردة هادئة، ثم يستقر في الصدر ويروح يأكل كل ما تتناول من طعام بحيث لا تعود تشبع مهما أكلت، وفي استطاعة البعض في القرية أن يطردوه كما جاء، من رأس القدم.

نحن في بلد شديد الاعتزاز بالنفس لا يزال جديداً على الأوروبيين، ولعلنا أول أوروبيين نأتي إلى هنا منذ زمن طويل. وكم آمل أن نتركه هكذا من دون أن نعيث فيه الفساد، ومن دون أن نلمس هذا الشعور بالاستقلال، وأعتقد أن لا وسيلة لإبقاء العربي سعيداً بما لديه، إلا أن نتركه في عالمه يعيش حياته كما هي، إلى أقصى حدّ ممكن. إننا قد نختلف عنهم ببعض الأشياء المادية، وربما كنا نجلس على الكراسي ونستخدم الشوكة ونصغي إلى الغراموفون، لكن فلنحذر أن نضع أمام هؤلاء الناس، الذين يمكن أن يخدعوا بسهولة، مجموعة من القيم التي تختلف عن قيمهم. إن التذمّر من مستواهم الحياتي هو أول خطوة في انهيار الشرق. وقد تبدو تلك الفضائل التي تنبع من حياتهم القاسية، فقيرة وعبثية في أعينهم بالمقارنة مع تقدمنا الميكانيكي، على أن ذلك سيفقدهم كرامتهم في هذا العالم، وإيمانهم بالعالم الآخر.

«قبل أن تأتي إلى حريضة بوقت قصير»، قال لي منصور، «قتل أخي بطلق ناري من البيت المقابل لبيتنا في بستان النخيل. وكان علينا أن نحمل ثأر الدم. وكان ذلك أمراً متعباً حقًّا لأنه كان في الإمكان إطلاق النار على مدخل أحد البيتين من نوافذ البيت الآخر. ثم قبل عامين جاء سيد أبو بكر، شرح الله صدره، وأقام بيننا مصالحة تستمر أربعة أعوام، وأعطاني من جيبه الخاص مائة دولار فدية لدم أخي. والآن جاءنا السلام الإنكليزي ولم يعد الثأر مسموحاً من دون أن يكون في ذلك تعريض بشرفي. وهذا شيء مفرح حقًّا، لأن في إمكاني الآن أن أسير مع جاري جنباً إلى جنب، من دون أن يضطر أحدنا لإطلاق النار على الآخر».

بعد الظهر جاءنا قاضي البلدة ومعه حكم جديد. وأخذنا نتبادل أطراف الحديث، فذكر لي أنه ينوي فتح دكان صغير في حريضة من أجل «تمضية الوقت».

وسألته، ماذا ستبيع فيها؟

فقال، وهو يسحب من صدره ورقة صغيرة «إنني لم أفكر في الأمر بعد. لكنني بدأت من الآن في كتابة قصيدة سوف أعلّقها في الباب يوم الافتتاح. وسوف أقرأها عليك. إنها تروي كيف يرحب الدكان بزبائنه».

تناولنا طعام الغداء علي نور وأنا، مع أكبر الرجال سنًّا في حريضة. لقيته جالساً على الأرض في مطبخنا، وقد تركه قاسم هناك. وقاسم هذه الأيام مولّه ولا يعتمد عليه. وكان الرجل المسنّ متربّعاً، وقد انحنت كتفاه تحت عباءة قديمة مليئة بالزيوت ومخططة بالأحمر والأصفر، وخدّاه غائرتان بفعل السنين، وعيناه المكحّلتان يتموّج فيهما اللون الأخضر واللون الأزرق كأنهما بحر في يوم عاصف، وذقنه مصبوغة بالحنة. لم يبق منه شيء سوى دفقة بشرية تشبه الأشباح، وكأنه بقايا شمعة شارفت على الانطفاء. لقد كان رحّالة كبيراً في أيامه، وهو يعرف جنوب إفريقيا والهند وماليزيا، كما أنه غني ومحترم ويقال إنه تزوج ٥٥ مرة. إنه صديق جميع البريطانيين الذين يمرّون في طريقه. وقد دعانا إلى زيارته فلما ذهبنا رأيته ينتظرنا على عتبة بيته المربع الكبير، وقدمني إلى زوجته، وهي امرأة متوسطة العمر أخذت على الفور تهمس مشاكلها في أذني.

وقالت لي: «إنني أكرهه، إن الآلام تغمر جسدي كله».

وقلت لها، وأنا أتصنّع بأنني لم أفهم ما تعني «لعل السبب هو الجفاف».

إلا أنها رفضت هذا التفسير فوراً: «مَن لا يمرض مع زوج في الخامسة والتسعين».

وقلت أهدّئها: «إن لك منزل جميل». لكنها سخرت من ذلك أيضاً قائلة «إنه يخفي جميع المفاتيح معه ولا يترك أحد يلمسها». وفي غضون ذلك عاد الرجل المسنّ ومعه صحن من الزنجبيل في يد قديمة جدًّا، وفي الأخرى خاتم في بنصره و... مجموعة مفاتيح.

اعتذرت زوجته وانسحبت بينما تربعنا على الأرض حول وجبة ممتازة، فيما راح الأصدقاء والخدم يسلّوننا بالحكايات عن مضيفنا. أما هو فجلس صامتاً تغرق عيناه في حلم بعيد من الماضي، ثم بدأ يحدثنا عن أيامه في كيب تاون ونيروبي والبلاد البعيدة.

فوجئنا، خلال الحديث، بأنه يبني بيتاً في الجانب الآخر من حريضة. وقد سألته عنه.

قال: «إنه قبري. وسوف ينتهي قريباً». وقد أغمض عيناه العجوزتان في منتصف الحديث ونام.

وقال الضيوف للمرة العشرين: «إنه عجوز، إنه الأكبر سنًّا في حريضة».

عندما عدت إلى المنزل، «كبست» معاً بعض النباتات التي أحضرتها وطلبت من حسين أن يضع صندوقاً ثقيلاً فوق الكتب التي سأضع النباتات بينها.

«هذا مستحيل» قال حسين.

واعتقدت أنه يعني أن الصندوق ثقيل جدًّا، فقلت: هذا هراء.

لكن حسين اعترض من جديد: يجب على المرء ألا يضع أي شيء فوق الكتب. قد يكون فيها كلام الله.

أحياناً يخيّل إليّ أن ثمة نوعين من الناس في هذا العالم: الحضري المقيم والبدوي الرحل. وأعتقد أن ثمة عداء طبيعيًّا بينهما، مهما كانت البلاد التي ينتميان إليها. وربما لأننا نحن الإنكليز بقينا برابرة إلى زمن حديث ولأن العصر الحجري أطال المقام عندنا أكثر مما فعل على سواحل المتوسط، بقينا بدواً في أعماقنا. والإنسان الذي يحاول الشعور ببلوغ الاستقرار، هو كمن يتظاهر بالجلوس فوق تلة من نمل. والبدو، في أي حال، قوم أرجح عقلاً. وهم في قدريتهم يكتسبون راحة اجتماعية فائقة، لا يعرفها فلاح قلق أو مصرفي من أولئك الذين يمرّون بين أجمل المشاهد الطبيعية وقد أحنت رؤوسهم الأرقام.

كنا الآن بين نظامين، أبيض وأسود، حيث تنتهي السلاسل الجبلية الكلسية وتلتقي بقمم «أسود» البركانية، مقر بني نعمان. الوعل، ذروة جبل الوعل، هي العليا، في منتصف هذه السلسلة. غير أن الذروة القصوى إلى الشمال، والأخيرة هي «مرخم»؛ طريقنا تمتد تحت جذعها الأسود. وإلى الجانب الآخر منا، وعلى ارتفاع أعلى فوقنا، وللسلسلة الكلسية الأخيرة التي تنتهي عندها امتداداتها الطويلة، لا بل ذراها، كانت لها دعائم متهدمة في ثلاثة مرتفعات مهجورة، مسطحة الرؤوس، هي قدس، وكيشه، وحمر. ووراء الموقع الأول، حيث يتصل برأس جبل عليّ يقع مضيق فوغا الذي لا يصلح إلا لمرور الجمال الخفيفة الأحمال، حيث ينحدر مسار «جلجل» من «يبعث»، مروراً بأراض غير مأهولة. وهنالك مسار آخر من حصن غنمنام، منطلق من الشمال، ليلتقي بنا ونحن نهبط من المضيق. وهنا قافلة كبيرة من الجمال، كأنها نقش مصري، تمتد عبره حول طرق حِمَر الهرمي.

هنا يلتقي المساران، ثم يمتدان في اتجاه رتيب يغمره الرمل والحجارة الحديدية الصفراء. وفي طرف ذلك، في وهدة جرداء، وقفنا نستريح، بحثاً عما يمكن أن تجده

من الظل. هنا كان يحلق طائر أبو بليق بلونيه الأبيض والأسود. الناس يسمونه رُخَيمة الهضاب.

سرنا أربع ساعات ونصف الساعة. كانت أشعة الشمس قد أخذت تنحرف انحرافاً شديداً حين عدنا إلى السير ثانية.

ـ «ذلك الذي ليس لديه الكثير من الرجال، تدعمه الشمس في الليل وتأكله». هكذا كان صالح يردّد مغنّياً وهو يسرج الجمال. اللغة البدوية ممتعة باستمرار. وإذا ما شاؤوا أن يقولوا لي إن القرار لي، قالوا «إنه أقرب الى قلبي منه إلى قلوبنا». كانوا لا يزالون مستائين من علي، غير أنهم انطلقوا بقيادة صديق لصالح: هو ذو رشاقة طبيعية؛ شعره المجعد ملفوف بعيداً عن أذنيه في ضمة فوق قفا عنقه؛ في وجهه ويديه رقة ولطف حتى كادت اللحية القصيرة في ذقنه تبدو مبالغة نافرة، ضخمة.

ثم خرج بنا من الممرّ الضيق فوق مرتفعات مرخم الأخيرة عبر أراض قاحلة المرتفعات سوداء كأكوام الفحم. هنا كل شيء بركاني.

آنذاك كانوا مستائين من أحمد أيضاً. كذلك كنت بدوري مستاءة منه، إذ كان عليّ أن أمتطي جملاً. وقد تلاشى روبن كليًا، وأنفق صاحبه الأجور الإضافية التي دفعتها له لقاء مؤونة بعث بها إلى بيته. روبن مسكين؛ لم يدخل جوفه طوال اليومين الماضيين غير القليل من قشر الذرة. كان واهناً. سرنا هبوطاً في مسار ضيق طويل مظلّل قاتم، مدة ساعتين. المرتفعات البركانية تنتصب أمامنا عمودية كأنها اللهب الصاعد، إلى الجانبين، كثيرة الثقوب منخورة كأنها قرص عسل، حيث تنشأ سويقات بيضاء مشوهة. والصخر هادىء، ولا وميض إلا في حافته الموجهة نحو الفضاء، أشبه شيء بجلد الحذاء الأسود في الشمس.

كنت أتعثر في سيري على قدمي، بعد أن اضطررت إلى ذلك بنتيجة تعب الجمل ووهن روبن (حمارها).

«وجهك مسود يا أحمد» قلت. غير أن أحمد هو أحد أولئك الذين يعتقدون أن العالم كله، لا هو، مخطىء، إذا ما اختلف الرأيان؛ حملني على الشعور بالارتباك حين قال إن الله سيحكم ما بيننا. تلك هي فكرة مقلقة. كنت غاضبة، وقد تذكرت أن كيس الأرز الذي ادّعاه أحمد أجراً له، هو طعام للنسيبات الثماني. شربت من جراب جلد الماعز؛ بعد ذلك قدمته له ليشرب شيئاً منه، لكنه سرعان ما قضى عليه كله.

«يمكنه أن يذهب إلى دياره». قلت للسيد علي. «لن يذهب وحده في كل حال؛ إنه قد يموت. لينضم إلى أول قافلة نلتقي بها».

ـ «لقد كتبت للرئيس في يبعث»، قال علي. «طلبت منه أن يقبض عليه ويأخذ الدولارات الستة التي أعطيتها سلفة له».

ـ «مزّق تلك الرسالة» قلت له. «يمكننا أن نعتبر هذه الدولارات صدقة منحت لضعاف العقول». غير أنني كدت أندم على هذا القرار في الصباح التالي، حين جاء أحمد يطلب أجره ثانية. قال إنه بحاجة إلى ذلك. كان يعجز إلى حدّ بعيد عن قبول وجهة نظر الطرف الآخر.

شهدنا في وقت متأخر شعاعاً من نور، فيما كنا نخرج أخيراً من الممّر الطويل إلى فرجات الغابات التي تظلّل الوادي. وقد جئنا من الجهة اليسر من «جبل نهر» في سلسلة جبل أسود، يعرف بالأيسر. ثم استدرنا إلى الغرب، إلى بلاد المغيب ذات التلال المتنوعة المفاجئة، وبينها تنتشر ظلال بنفسجية. عند ذلك انحرفنا عن مسارنا ووجدنا مكاناً رمليًا وبقايا مواقد، عند بئر لجلج الفريد. هنا كان أبناء باقطمي يأتون سيراً على الأقدام على الرمال من غير أن يسمع وقع أقدامهم على الرمال، وهم يقودون جمالهم، ثم يسندون بنادقهم إلى شجرة ويتحدثون بجانب مواقد المسافرين.

ـ «هل يمكن أن نجلس بجانبها؟» هكذا يسألون إذا ما رأوني. ثم: «من أين أتيتم بها؟» يستديرون إلى صالح ويسألون: «من جاء بها؟». وهم يقصدون بذلك من أية قبيلة أتوا بي.

وحين يعالجون هذه القضايا، وهم ينظفون علب الخرطوم لملئها بالغسول لعيونهم، يسألون عن أخبار البدو بطريقتهم؛ يقولون: «أية حرب في واديك؟».

هم يعيشون موزعين في أكواخ أو كهوف في هذه التلال، ويخبرون عن رسوم في الصخور في كل مكان من الأودية النائية التي لا يمكن زيارتها آنذاك. أمراضهم التي عانوا منها حين لم يكن لديهم طبيب، يعرضونها علي: أفعى في الأمعاء، أو ريح في المرفق، مما يجد الخبير صعوبة في تشخيصها. البئر المجاورة المسيّجة بجدران جافة قليلة، والمغطّاة ببعض القضبان، حاشدة بأبناء المنطقة الذين جاءوا لسقاية ماعزهم في المساء، قبل أن ينضموا إلينا بعد وقت قصير حين يرسل القمر ضوءه كاملاً فوق الأشجار المسطحة الرؤوس، والتلال ذات الذرى الحادة.

هنا يأتي زوجان شعرهما منتصب، وملامحهما جميلة دقيقة، كأبناء هذه القبائل القديمة. العروس غير محجبة؛ الأساور الفضية في المعصمين؛ الضفيرة الناعمة تظهر من تحت فوطة مطوية تضعها على الرأس. خلاخلها نحاسية، ذات أزرار أو بكل.

وجهها جميل. وبحركة ساحرة ملؤها الثقة والحب تضع يدها على ركبة زوجها وهو يجلس القرفصاء بجانبها، فيما تمسك بيدها الأخرى كأساً من حليب لاستبدالها بالعلاج. بعد قليل يأتي نسيب لهما ليطلب دواء لسعال جدّه الذي لا معين له حتى الآن غير الله، وللحصول على علاج لمكافحة الذئاب التي تفترس الماعز حين يسوقها إلى المرعى. كان شديد الحماس والقلق حتى اضطررت إلى إعطائه بعض زيت الكافور الثمين الذي احتفظ به لنفسي. في هذه البلاد يصعب الاحتفاظ بأي شيء؛ عند كل منعطف يلتقي المرء بإنسان تكون حاجته أكبر من حاجتك. الفتنة ومحبة الصدقة في تقاليدهم، والقسوة التي لا بدّ أن تنشأ من حياة في وسط الفقر الدائم، تزداد وضوحاً مع التنقل بين هؤلاء الناس.

وفي الصباح سقينا جمالنا مرة ثانية، وانطلقنا باكراً إلى تلك الهضاب الصغيرة، باتجاه الغرب، عبر ممرّ منخفض أحمر، يدعى «نايد» حيث تنتشر المعالم الحجرية الصغيرة الكثيرة، وحيث يصلى على البدو الذين يقضون في رحلتهم الأخيرة، وهم ينتقلون من القفر الذي لا منازل فيه إلا حين ينون، حوالى المساكن، مدينة من قبور.

وعلى جانبي المضيق هضبتان. وفي المنخفض واحة أروما الصغيرة وفيها قلعة وبئر، ووراءها جبل يدعى هرهر. وكانت جمال كثيرة محملة تتعرّج مع الصخور باتجاهنا. وتصافح البدو الملتحون حين وصلوا إلينا، ومروا بنا. كانوا يتصافحون متعانقين، جنباً إلى جنب، أحدهم سأل عما إذا كنت سيداً، ودهش حين قال له علي إنني «سيدة».

استغرق وصولنا إلى أروما ساعة واحدة فقط. أمامنا حوض رملي فسيح، حملت رماله رياح البحر، وألقت بها عند أطراف التلال. مثل هذه التراكمات الرملية مألوفة هنا. هي تعرف «بالكوت». كنت حريصة على اجتياز المكان أثناء برودة الصباح. غير أن صاحب قلعة أروما وقف إلى جانب الطريق لملاقاتنا. أمسك بلجام جملي، وبدا عليه الغضب حين طلبنا أن نعود إلى السير بسرعة.

ـ «ماذا تقصد؟» قال وهو يلتفت إلى عليّ. «أيكون ذلك بقصد «إهانتي؟»».

كان عليّ يحمل على كتفه كيساً لي له حواش من الجلد، مليئاً بحبوب البن لتحضر في المنازل التي نستريح فيها، وفقاً لعادات البلاد. المضيف لا يتحمل أية نفقة. سمعته تصاب بالأذى إذا ما تجاوزه المسافر. لم يكن بوسعي إلا أن أشعر بالارتياح حين فكرت أننا نمرّ في مثل هذه الأراضي غير المأهولة. في المنطقة المجهولة لا يمكن للمرء أن يتقدم أبداً. وفي كل حال، جلسنا تحت أشجار العلب

لديه، مدة ساعة، فيما راحت الزوجة الجميلة التي تسيطر عليه وعلى القلعة تسحق حبوب البن على حجر. وفي حرارة النهار عدنا نواصل السير في الوادي التي لم تكن محروثة إلا في أماكن قليلة منثورة هنا وهناك. هناك رسوم على جانب الهضبة فوق أروما، شديدة الارتفاع لا يمكن الوصول إليها إلا إذا بقينا هنا يوماً آخر. وهنالك نقوش أخرى تحت صخر على جانب الطريق. كانت غير واضحة، كادت أن تمّحي. زحفنا إلى هذا المكان للنظر إلى النقوش، فرأينا أفعى ملتفة على ذاتها، منتفخة الخدين، طولها نحو ١٨ بوصة، بيضاء اللون، صفراء، وحمراء قليلاً، كألوان الرسوم. هي الحيوان الوحيد الذي شاهدناه في هذه الرحلة باستثناء بعض الأرانب بين صخور رحبة. بعد ذلك لا شيء إلا أن استدرنا شمالاً للمرور على طرف الرمال، ثم وصلنا البئر الثالثة والأخيرة في طريقنا، حيث ترتفع قلاع «مسفلة» الصغيرة المربعة، وهي عاصمة باقطمي، على تلال صغيرة.

أبو ظبي (١٩٤٨): في زيارة شاب في الثلاثين

بقلم ولفريد تيسيغر

كانت أبواب القلعة مقفلة والمكان قفر. أنزلنا أحمال جمالنا وتمدّدنا على الأرض لكي ننام قليلاً في ظل الجدار. وعلى مقربة منّا كانت بعض المدافع الصغيرة نصف مدفونة في الرمل. والأرض غير نظيفة تماماً. والعرب الذين شاهدونا قبل قليل نسقي الإبل اختفوا تماماً، في حين رأينا بعض الصبية يلعبون بالطائرات الورقية التي علت فوق أشجار النخيل. وفي المساء خرج عربي شاب من إحدى البوابات ومشى قليلاً في الرمل ثم جلس القرفصاء. وناداه محمد (المرافق) وسأله إن «كان الشيوخ جالسين» فأجاب الشاب «لا، لم يجلسوا حتى الآن». وطلب منه محمد أن يبلغهم بأن ثمة إنكليزيًّا وصل لتوه من حضرموت ويريد مقابلتهم. وسأل الشاب «أين هو الإنكليزي»، فأشار محمد إليّ، قائلاً «هذا هو».

بعد ذلك بنصف ساعة خرج عربي أشيب اللحية وطرح علينا بعض الأسئلة ثم عاد إلى القلعة، ثم ما لبث أن خرج ثانية ودعانا إلى الدخول، فسرنا خلفه وصعدنا الدرج الصغير المفروش بالسجاد، إلى حيث كان يجلس الشيخ شخبوط، حاكم أبو ظبي وشقيقاه هزاع وخالد. كانوا جميعاً يرتدون أثوابهم على الطريقة السعودية، بقمصان طويلة بيضاء وعباءات مطرزة ويعتمرون كوفيات بيضاء تدلّت فوق وجوههم وقد ربطت من أعلى بعقالات سوداء وكان خنجر شخبوط مرصّعاً بالذهب. وقد وقفوا حين دخلنا وصافحونا ثم دعانا شخبوط إلى الجلوس. كان رجلاً شاحباً نحيلاً ذا ملامح عادية ولحية سوداء مقلّمة بعناية وكانت له عينان سوداوان كبيرتان. كان شخبوط ودوداً جداً لكن بالكثير من التحفظ. وكان يتحدث بهدوء وبدا أنه يبذل جهداً لإخفاء طبعه العصبي. وقد ساورتني شكوك بأن الرجل لا يثق بأحد. أما شقيقه حيزا فكان

مختلفاً تماماً، مرحاً وضخم الجثة، له لحية كثة تغطي نصف صدره، في حين أن أكثر ما لفتني في خالد أن أحد أسنانه الأمامية كان على وشك السقوط، وكان لا يكف عن دفعه بلسانه.

طلب الشيخ شخبوط القهوة فجاء بها نادل يرتدي قميصاً برتقالي اللون، وبعد أن تناولنا القهوة وأكلنا بعض حبات من التمر، سألنا شخبوط عن رحلتنا. وبعد قليل ذكرت له أنني قمت في العام الماضي بزيارة ضواحي «الليوا» فقال الشيخ هزاع «لقد سمعنا من العوامير أن أوروبيًا قد دخل إلى هناك لكننا لم نصدقهم. لم يكن ممكناً أن نصدق أن أوروبيًا قد جاء وذهب من دون أن يُرى! إن أخبار البدو كما تعرف ليست دقيقة دائماً. وقد خيّل إلينا أنهم يتحدثون عن توماس «برترام» الذي عبر تلك الرمال قبل ١٦ عاماً».

بعد ذلك تحدث الشيخ شخبوط عن الحرب في فلسطين وانتهى بشن هجوم عنيف على اليهود. ويبدو أن الأمر قد اختلط على بن قابينا (أحد مرافقي المؤلف) فسألني هامساً «من هم اليهود؟ هل هم عرب؟». ومن ثم ذهبنا مع الشيوخ إلى نزل شبه مهجور قرب السوق، حيث صعدنا سلماً يهتز إلى غرفة غير مفروشة إلا بالسجاد، استعداداً لاستقبالنا. وأصدر شخبوط الأمر إلى اثنين من مرافقيه بالعناية بنا، ثم قال إنه سوف ينصرف الآن لأننا بدون شك متعبين، لكنه سيأتي مرة أخرى في الصباح، وحين سألته عن جمالنا قال إنها ستؤخذ إلى الصحراء كي ترعى ثم تعاد حين نحتاج إليها، إلا أنه أضاف أن ذلك لن يستمر طويلاً، وإنما إلى حين نكون قد أخذنا من الراحة ما يكفي بعد عناء السفر. وابتسم لي قائلاً «هذا هو بيتك ما دامت إقامتك بيننا»! وما إن حلّ الظلام حتى جاء الخدم يحملون صدراً مليئاً بالأرز ولحم الخروف وصحوناً صغيرة كثيرة مليئة بالتمر والحبوب. وبعد انتهائنا من تناول الطعام جلس الخدم بيننا بكل ارتياح وأخذنا نتبادل الحديث. والخدم في البيوت العربية جزء من الأسرة ولا تمييز اجتماعيًا بينهم وبين سادتهم.

وما هي فترة حتى جاء البائعون من السوق وبعض البدو الذين يزورون البلدة، لكي يصغوا إلى أخبارنا. وكان يضيء المكان قنديل واحد يتصاعد منه الدخان. كان الجوّ وديًا وحميماً، وقد شعرنا بفرح داخلي لأنه لا يتعين علينا إلى حين السفر والتنقل مرة أخرى، بل في إمكاننا أن نأمل وأن نستريح ما نشاء. وقد عجبت لماذا تملأ الناس بيوتها بالمفروشات، لأن هذه البساطة التامة هنا بدت لي أفضل ألف مرة.

تذكرت هنا كيف أنني وصلت إلى الطائف قبل عامين على ظهر حمار ومعي

رفيقان عربيان وثلاثة من الحجاج اليمنيين الذين انضموا إلينا. كنا قد قطعنا طريقاً طويلة عبر الحدود من اليمن، وعثرنا على غرفة في مسكن خاص بالحجاج، تطلّ على ساحة صغيرة. وكانت الغرف الأخرى كلها مليئة بالنزلاء. وقد كنسنا الغرفة ثم فرشناها بالسجاد الذي نحمله واستعرنا قنديلاً. وقام أحد اليمنيين فأتى لنا بطعام من السوق: لحم مشوي وأرز وطبقات من الخبز وبطيخ وحليب وعنب أسود لذيذ الطعم. وبعد تناول الطعام جاء جيراننا وراحوا يسامروننا! لقد كان لديّ كل ما أريد: الطعام والمأوى والرفقة الطيبة بعد أيام طويلة على الطريق. وفي الصباح قمت بزيارة حفيد الملك، الذي كان أمير المدينة، وقد كنت أحلم بالضيافة العربية الحقيقية لكن الأمير ظنّ أنه يرضيني أكثر حين تدبر لي أن أبيت في الفندق الجديد حيث امتلأت الغرف بالمفروشات الفيكتورية الطراز. وعلقت على جدرانها لوحات للأنهر الاسكتلندية والشاليهات السويسرية، كما كان هناك ضوء الكهرباء. والمراوح والطعام المعلّب الذي يقدمه «سفرجي» سوداني. وكان في الفندق بعض النزلاء المصريين الذين لم أستطع أن أفهم لهجتهم، وهكذا شعرت بالوحدة والملل ورحت أتعجب من العرب الذين يريدون تقليد الغربيين في طرق معيشتهم وسبلها.

أقمنا حوالى عشرين يوماً في أبو ظبي، وهي بلدة صغيرة من ألفي نسمة. وصباح كل يوم، كان الشيوخ يأتون لزيارتنا، يتمشون بتؤدة من القلعة: شخبوط، الهادىء الرصين بعباءته السوداء يتقدم شقيقيه قليلاً، وخلفهم جميعاً جماعة من المرافقين. كنا نتحدث لساعة أو أكثر ونأكل الحلوى، وبعدما يغادروننا كنا نذهب إلى السوق، حيث نتربع في المخازن الصغيرة، نثرثر ونشرب المزيد من القهوة. وأحياناً أخرى كنا نهيم على الشاطىء ونرقب المراكب تشد إلى المراسي ثم تدهن بزيت الحيتان استعداداً لمواسم صيد اللؤلؤ، فيما يلهو الأطفال بالاستحمام وينزل الصيادون حصيلة ذلك النهار، وبينها أحياناً «بقر البحر» أو «الأطوام» التي يقولون إن لحمها طيب ويصنعون من جلودها الصنادل.

كان بين زوارنا رجال كثيرون شعروا أنهم «في بيتهم» وغالباً ما كانوا ينامون الليل هناك. كان كل ما عليهم أن يفعلوا هو أن يلتفوا بعباءاتهم ثم يفترشون الأرض. وكان أحد هؤلاء رجل من الرشايدة يدعى بخيت الدهيمي، انضم إلى رجال الشيخ قبل عامين وصنع لنفسه سمعة قتالية. وكنت قد سمعت عن أعماله وأنا بعد على الساحل الجنوبي، وقد أمضى معنا ثلاثة أيام. وحين عرف أننا سنذهب إلى البريمي أعلن أنه يريد السفر معنا، لكنني كنت حذراً منه، ولذا تدبرت الأمر مع الشيخ شخبوط بأن يسبقنا إلى العين لكي يبلغ الشيخ زايد بن سلطان بقدومنا القريب.

كنت متشوقاً للتسلّل إلى عمان ولأن أقوم بزيارة الأماكن التي وصفها لي «سطيون» قبل عام ونحن في وادي العين ننتظر عودة الآخرين من «ابري»، وقد خيّل لي أن أفضل مكان أنطلق منه البريمي، لكن الموسم كان قد تأخر تلك السنة، وفي أي حال فإنني كنت في حاجة إلى الراحة، بالإضافة إلى أنني أستطيع من البريمي أن أقوم ببعض الاستفسارات السرية عن عمان!

تركت أبو ظبي مع مرافقي الأربعة ودليل زوّدنا به الشيخ شخبوط، في الثاني من نيسان/ أبريل، في رحلة طولها مائة ميل واستغرقت أربعة أيام. كان لدينا الكثير من الطعام ولم نكن تعبين كما كان هناك الكثير من الكلأ. وقد أعارني الشيخ هزاع جملاً رائعاً أمتطيه. وكان أهل البلد قد حاولوا التقليل من أهمية إبلنا مقارنة مع إبل شيوخهم، إلا أن «بن غابيشا» أثارهم بالقول «إن إبل شيوخكم جميلة بلا شك. إنها صورة للجمال، وأنا كبدوي أستطيع أن أقدر ذلك كل التقدير لكنني أحب أن أقول لكم في المقابل إنها لا تستطيع القيام بالرحلة التي قامت بها إبلنا»! وسكت الجميع لأنهم لمسوا الصدق في كلام الصبي الغاضب.

إن جمال البطينا التي تأتي من ساحل عمان، قد اشتهرت في كل الجزيرة بأنها سريعة ومريحة. غير أنها اعتادت أن تطعم باليد وهي تأكل التمر ولا تستطيع السفر إذا جاعت أو عطشت. ويملك الوهيبة في وسط عمان نوعاً شهيراً من الإبل هو «بنات فرحات» كما يملك الدورو «بنات الحمراء». وهذه الإبل أقوى بكثير من البطينا، غير أن البدو يقولون إنها لا تستطيع على الإطلاق تحمّل العيش في الربع الخالي.

عشية وصولنا إلى البريمي كنت أستلقي بهدوء وأنا أشاهد «بن غابيشا» يشوي بعض الفطر الذي عثر عليه وهو يرعى الإبل، وقد أكلناه لذيذاً طيّباً، كما كان هناك بعض «الفقع» أو «الكمى». وفيما نحن كذلك دغدغني «بن قابيشا» في قدمي فرفسته بصورة عفوية رفسة جعلته يغيب عن الوعي فدبّ بي الرعب وانحنيت فوقه أحاول مساعدته، غير أن «بن غابيشا» طمأنني قائلاً «لا عليك. إنه سيفيق بعد لحظات»! فعلاً أفاق، فقلت لبن غابيشا «ماذا كنت فعلت لو أنني قتلته فعلاً؟» فأجاب فوراً كنت قتلتك. وحين اعترضت أن الحادث عفوي قال «لم يكن ذلك ليغيّر أي شيء». بالطبع كان يمزح، لكنني أعرف على وجه اليقين أن البدو يطلبون النفس بالنفس سواء كان القتل عفويًا أو عمداً، مع أنهم يقبلون الفدية، خصوصاً إذا كان القتل غير متعمد.

صباح اليوم التالي وصلنا إلى المعيوق، إحدى ثماني قرى صغيرة، وهي مقر الشيخ زايد. وما إن خرجنا من الكثبان الحمراء فوق سهل مليء بالحصى حتى لاحت لي

قلعته، وهي مبنى مربع الشكل تعلو جدرانه المصنوعة من الطين حوالى عشرة أقدام. وإلى يمين القلعة، خلف جدار متداع شبه مدفون بتطايرات الرمال، تقوم حديقة من النخيل المغطى بالغبار، وفي البعيد استطعت أن أرى قمة جبل حافظ وملامح جبال عمان الزرقاء الشاحبة.

كان ثمة ثلاثون عربيًا يجلسون تحت شجرة شوك أمام القلعة. وأشار لي مرافقي بيده وقال «الشيخ جالس»! فأنخنا جمالنا على بعد ثلاثين ياردة تقريباً وتقدمنا ومعنا بنادقنا والعصي التي نسوق بها الجمال. ألقينا عليهم التحية وتبادلنا الأخبار مع زايد. كان زايد رجلاً قوي البنية في حوالى الثلاثين من العمر وله لحية مائلة إلى اللون العسلي. وكان له وجه قوي الملامح ذكي البشائر وعينان حادتا الملاحظة. وكان هادىء الطباع وإنما طاغي الحضور. وكان الشيخ زايد يرتدي، بكل بساطة، قميصاً أبيض اللون من القماش العماني وسترة قصيرة حتى الخصر غير مزررة. وكان متميزاً عن الرجال، الذين تحلّقوا حوله بكل شيء، وخصوصاً بغطرته التي أرخيت على كتفيه بدلاً من أن تلف حول العنق كما هي العادة المحلية. كذلك كان يضع حول خصره قماط الذخيرة وخنجراً بينما وضع بندقيته إلى جانبه على الرمال.

كنت أتطلع منذ زمن إلى اللقاء بالشيخ زايد بسبب صيته الذائع بين البدو.، وقد أحب هؤلاء فيه بساطته ولطفه، كما كانوا يحترمون فيه الطبع القوي والذكاء الحاد وقوته الجسدية. وكانوا يقولون عنه بإعجاب «زايد بدوي. إنه يعرف كل شيء عن الجمال ويستطيع مثلنا أن يسوقها ويستطيع أن يصطاد ويعرف جيداً كيف يقاتل».

أحضر إلينا خادم البسط لكي نجلس عليها أما زايد فكان يجلس على الرمال، وبعد ذلك أتى الخادم لنا بالذي لا مفرّ منه: القهوة والتمور. وقد طرح عليّ زايد الأسئلة حول رحلتي وحول المسافات وحول البدو الذين التقيناهم في «ليلى» و«صلايل». كان مطلعاً على أمور الصحراء بكل تفاصيلها وأثرت اهتمامه أكثر حين أخبرته أنني كنت في بلاد الدورو في العام الماضي. وقد تساءل كيف أنهم سمحوا لي بالمرور فأخبرته أنني ادعيت بأنني تاجر من سورية فضحك طويلاً وقال «إن الأمر ما كان يخفى عليّ». وأخبرني أيضاً أن إنكليزيًا آخر يدعى بيرد موجود في البريمي في إحدى القرى الأخرى، حيث يحاول أن يقنع القبائل بالسماح لشركته بالبحث عن النفط. وفهمت أنه لم ينجح في ذلك كثيراً.

كنت قد التقيت «ديك بيرد» قبل ثلاث سنوات عندما كان ضابطاً سياسيًا في البحرين. وقد شعرت أنه مهتم بشؤون العرب ويميل عاطفيًا إليهم بشكل واضح. غير

أنني أيقنت أنه إذا ما ربط البدو المحليون بيني وبين شركة نفطية، فإن ذلك سيقلّل من إمكانات ذهابي إلى عمان، ولذلك قررت البقاء مع زايد وليس مع بيرد ما دمت في البريمي.

في وقت متأخر من بعد الظهر أعلن أحد الخدم أن الغداء جاهز وتوجهنا جميعاً إلى القلعة. دخلنا بوابة صغيرة إلى رواق خارجي حيث كان رجال مسلحون يجلسون على مقعد رملي منخفض. وخلف الرواق كان هناك فناء رملي ربطت فيه غزالة أليفة وجمل وثور كان يهيج ويتململ لأي صوت. ودعانا زايد إلى غرفة ضخمة خالية، إلى شمال الرواق، يدخل النور إليها من نافذتين صغيرتين على مستوى الفناء. وفي هذه الأثناء أحضرت إلينا أكياس السروج وفرش السجاد على الأرض غير المبلطة. وتناول زايد الطعام معنا، وهو وجبة ضخمة من اللحم والأرز وصحون من التمر واللبنة.

بقيت في لدن الشيخ زايد حوالى الشهر.

في الصباح، كان فطورنا يتألف دائماً من الشاي والخبز، بعدما يأتي إلينا خادم ليعلن لنا أن «الشيخ جالس» فنمضي وننضم إليه. وكان زايد يجلس أحياناً في الرواق، لكنه في أغلب الأحيان كان يجلس في ظل شجرة خارج القلعة، وما إن نصل حتى يطلب لنا القهوة فنجلس لديه نتحادث حتى يحين موعد الغداء. وغالباً ما كان يأتي إليه الزوار معظمهم بدو من السعودية أو رجال قبائل من عمان، أو أحياناً زوار من أبو ظبي. وكان الجميع يقفون إذا ما دخل زائر فيدعوه زايد إلى الجلوس ثم يأخذ في الإصغاء إلى أخباره. وكنت أحاول دائماً أن أتفرّس في الوجوه لكي أرى ما إذا كان في إمكاني أن أعرف أصول أصحابها، من خلال ثيابهم أو طريقة تسريح إبلهم. وبعض الأحيان كان هؤلاء من الرشايدة أو العوامير وكانوا يسألون عن أخبار أقربائهم في الجنوب، كما كانوا مختلفين عن قبائل بني ياس والمناصير الذين كان معظمهم يعمل لدى الشيخ زايد.

أحياناً، كان أحد العرب يقوم من بين الناس ويجلس أمام زايد مباشرة ثم يضرب الأرض بعصاه ليلفت الانتباه ويقاطع الجميع ليقول «والآن يا زايد ماذا عن الجمال التي أخذت مني». وإذا كان زايد في منتصف جملة يقولها فهو سيتوقف ليصغي إلى شكوى الرجل. ومعظم هذه الشكاوى كانت عن الجمال. وغالباً ما يعلن المشتكي أن أحد الخارجين على القانون، الذي ربما كان جالساً بيننا، هو الذي أخذ جماله. وكان زايد أحياناً يأوي بعض قبضايات القبائل لكي يستطيع السيطرة عليهم ويضبط أعمالهم. وهكذا كان يدور جدال حاد بين الفريقين، غير أن زايد بحكمته ودرايته كان ينهي المأزق، ومن هناك سمعته الذائعة بأنه يحكم بالعدل.

وحدث مرة أن تركت إحدى النساء بيتها الزوجي، وكان أشقاؤها يصرّون على أن على زوجها أن يطلقها. وقال الزوج إنه مستعد لأن يطلقها إذا ما ردّ إليه مهرها. فاعترض أشقاؤها على ذلك بحجة أنها أمضت معه عدة سنوات. وتشاور زايد همساً مع المتقدمين في السن من الرجال المحيطين به، وفي النهاية أعلن أن على العائلة أن تردّ نصف المهر.

وكان الزائرون من رجال البدو يقتربون من زايد ويطلبون منه هدية ما قبل انصرافهم، ولعل أكثرهم كان يأتي فقط لهذا السبب. وكانوا يفعلون ذلك بإلحاح. وقد تذكرت آنذاك أن البعض كان يسافر مسافة ١٤٠٠ ميل إلى الرياض توقّعاً فقط للحصول على شيء ما من الملك عبد العزيز. وبعد ذلك بعام ذهب بن قابيشا وبن قابينا (المرافقان) إلى مسقط من البريمي في عزّ الصيف مع أن جمالهم كانت متعبة حتى الموت، وقد أعطى السلطان كلّاً منهما عشر شلنات فرحا بها فرحاً كبيراً مع أنهما قطعا رحلة من ٥٠٠ ميل.

خلال هذه الفترة كان الشيخ زايد منشغلاً معظم الوقت يساعد بيرد في محادثاته التي لا تنتهي مع شيوخ القبائل. وكان من عادة بيرد أن يأتي إلى المعيوق في سيارته (وكان لدى زايد أيضاً سيارة وهما السيارتان الوحيدتان في الأرجاء) وكان بيرد رجلاً لطيفاً لكنه كثير الشكوك ويخشى أنني أعمل مع شركة نفطية منافسة. وكنت أبتعد عنه حين يكون رجال القبائل الزائرون في القرية. وفي أي حال فإنني كنت أعارض وجود شركات النفط كلها خوفاً من التغييرات والتأثيرات الاجتماعية التي ستتركها على المنطقة.

حان وقت الرحيل. وقد عرض عليّ زايد أن أنقل في سيارته لكنني قلت له إنني أفضل السفر على ظهر الجمل. وعندها قال إنه سوف يعيرني «غزالة» ناقته التي كانت أشهر ناقة في عمان وربما أجمل ناقة في الجزيرة العربية كلها. وقال لي محمد إن «أي بدوي مستعد لأن يدفع ثروته كلها لمجرد أن يقول إنه ركب غزالة».

تركنا المعيوق في الأول من أيار/ مايو يرافقنا أربعة من رجال زايد كان يتعين علينا أن نمرّ في أراضي قبيلة بني كتاب التي كانت في حالة حرب مع آل الرشيد. اتجهنا شمالاً على حافة الرمال وفي خط متوازٍ مع الجبال. كان المنظر جميلاً حقاً، وكانت هناك جداول كثيرة تتدفق من سفوح التلال وتصب في الرمل، مما ملأ المنطقة بأشجار الغاف الأكاسيا التي وفرت لنا الظل ولإبلنا الطعام. كانت حرارة الطقس قد بدأت ترتفع في هذا الشهر. ورحنا نتسكّع في الطريق لأنني كنت أخشى الوصول إلى الشارقة. وقد

اصطدنا، بن غابيشا وأنا، حماراً وحشيًا وقتلنا اثنين، غير أنها كانت مختلفة عن الحمير الوحشية الجميلة التي عرفتها في بلاد «الداناكيل»، كما كانت جلودها قاسمة حين حاولنا سلخها والطقس حار جدًّا ولم يكن هناك أي ظل نأوي إليه.

أيام كنت في المعيوق اصطدت بعض الطهر في جبل حافظ، حيث خيمت لمدة أسبوع في سفح الجبل ومعي بن قابيشا وبن قابينا وأربعة من رجال زايد. ولم يكن أي أوروبي قد رأى من قبل الطهر العربية. وكانت هذه تشبه الماعز وذات قرون قصيرة ضخمة جدًّا. والواقع أن صيدها كان عملاً صعباً جدًّا إذ ارتفع الجبل فوقنا إلى علو أربعة آلاف قدم وكانت المنحدرات حادة في كل مكان وعارية من أي خضرة أو نبات. وكانت الطهر ترعى عادة حول سفح الجبال لكننا لم نر أيًّا منها إلا في أعاليها التي تسلّقناها في صنادل صنعناها لأنفسنا من الجلود.

وصلنا إلى الشارقة في العاشر من أيار/ مايو ومررنا بمطارها، متخطين أكواماً من علب التنك الفارغة والقناني المكسرة والأسلاك التي علاها الصدأ. وسمعنا في البعيد ضجيج محرّك كهربائي كما رأينا سيارة جيب تسرع والدخان يتصاعد من عادمها. وبعد قليل اقتربنا من بلدة عربية على الساحل، وكانت مهملة مثل أبو ظبي! وفي الشارقة ودّعت رفاقي على أمل اللقاء بهم بعد أربعة أشهر. ومن هناك ذهبت إلى دبي حيث سكنت مع إدوارد هندرسون الذي كان يعمل مع شركة نفط العراق والذي تعرّفت به في سورية خلال الحرب. وكان يسكن هنا في بيت وسيع يشرف على «الخور» الذي يقسم البلدة، وهي الأكبر على الساحل المتصالح ويبلغ عدد سكانها ٢٥ ألفاً. كان الخور مليئاً بالمراكب الصغيرة القادمة من كل مكان: «البوم» من الكويت و«السمبوك» من صور (عمان) وغيرها! وفي الوحل رأينا الأطفال يلهون وهم شبه عراة، بينما كانت المراكب المتحركة بالمجاذيف تعبر «الخور» ذهاباً وإياباً لكي تنقل الركاب من بيوتهم.

وخلف هذه البيوت المتنوعة الهندسة التي تمتد على طول الميناء، كانت هناك «الأسواق» وهي ممرات مسقوفة يتربع فيها الباعة فوق بضائعهم وأمام دكاكينهم الصغيرة. وكانت هذه الأسواق مليئة بكل الأجناس البشرية: عرب حضر وبدو مسلحون وزنوج عبيد، وبلوش، وهنود وفرس، كذلك لمحت بعض الصوماليين فوق قارب من عدن. هنا الزمن لم يتغير. وهؤلاء الناس لا يزالون يقدرون قيمة الود والكياسة والحادثة. إنهم لا يعيشون حياة «مستخدمة» تعتمد على السينما والهاتف.

عدن في الثلاثينات
أو الصراع البريطاني ـ الإيطالي ـ السوفياتي!

بقلم لاديسلاف فراغو

الورقة الصغيرة في مفكرتي المؤرخة في ١٦ شباط/ فبراير ١٩٣٧ كتبت عليها الآتي:

* جد اليمن على الخريطة
* ابحث عن المندوب القنصلي
* احصل على تأشيرة إلى عدن
* حاول الحصول على سلفة من دروبل
* اجتمع إلى كلار.

بالفعل، عثرت على اليمن على الخريطة بسرعة كافية، في حجم بوصة مربعة على آخر الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، في أطلس الجيب الصغير. لكن كان عليّ أن أمضي ذلك اليوم واليوم التالي ويومين آخرين، لكي أكتشف أنه لم يكن لليمن مبعوث، أو سفير، أو قنصل، أو حتى قنصل فخري، في لندن، في أوروبا، أو في أي مكان آخر في العالم. ولذلك ذهبت إلى دائرة الجوازات في حكومة صاحب الجلالة من أجل الحصول على تأشيرة إلى عدن التي أبلغت أنها بوابة اليمن!

تفحص الموظف المسؤول جواز سفري والطلب المرفق، ثم نظر إليّ وقال: «إذن، أنت تريد السفر إلى اليمن؟ لماذا بحق الله تريد الذهاب إلى هناك؟».

أبلغته أنني أنوي وضع كتاب عن الرحلة بعد عودتي، فقال: «أعتقد أنك تعرف بأن اليمن بلد غير متقدم وحافل بالأخطار». وأفادني بأنه قبل أن يمنحني التأشيرة لا بدّ له من أن يطلب موافقة وزارة الخارجية، ووزارة المستعمرات وصاحب السعادة حاكم عدن. وعدني بجواب سريع خلال أسبوعين، ثم صرفني.

على الهاتف استشرت موظف التأمين. قلت له إنني مسافر إلى اليمن وأريد بوليصة لتأمين الرحلة. وجاءني صوت الموظف صاعقاً: إلى أين قلت إنك مسافر؟ إلى الـ ي. م. ن، أجبت وأنا أشدّد على كل حرف. فعاد يقول «لم أسمع بهذا الاسم من قبل، لكنني سأبذل جهدي في أي حال».

بعد نصف ساعة اتصل بي من جديد، وقال في انزعاج واضح، «اسمع. إن لويد لا تقبل هذه الأيام التأمين إلى إسبانيا أو البلقان، هل يُمنك هذا في البلقان». قلت له «لا، ليس تماماً، إنها مملكة مستقلة في جنوب الجزيرة العربية». أخيراً اتفقنا. وقد توجّب عليّ أن أدفع ٣٢ شلناً من أجل بوليصة قيمتها ٢٠٠٠ جنيه، في حين أنني كنت قد دفعت قبل أشهر ٢٠ جنيهاً للتأمين على رحلة إلى إسبانيا. إن أوروبا المتحضرة قد أصبحت دون شك أقل أماناً من صحارى الجزيرة.

لم يكن المستر جيمس دروبل، رئيس تحرير «الصنداي كرونيكل» التي كنت أعمل مراسلاً متجولاً لديها، متحمساً لمشروع الرحلة إلى اليمن على الإطلاق. وخلال السنوات الثلاث الماضية كان قد أرسلني إلى تغطية كل حدث حول العالم تقريباً: من حروب الحبشة وفلسطين إلى حرب إسبانيا إلى خطوبة الأميرة جوليانا إلى إضراب عمال المناجم في هنغاريا. لكنه بقي معانداً في أمر الرحلة إلى اليمن. وبالتالي لم يكن من الممكن الحصول على سلفة مالية للقيام بما وصف برحلة مجنونة.

صرخ في وجهي حين فاتحته بالأمر قائلاً: «لماذا تريد الذهاب إلى اليمن. ليست هناك أي إثارة في رحلة من هذا النوع. إليك ما أعتقد أنه رحلة مثيرة. إذهب إلى تشيكوسلوفاكيا حيث يقول الألمان إن المطارات ليست سوى مدارج هبوط طارىء لحساب الروس. اذهب إلى هناك ومعك بركتي، أما اليمن؟ اليمن؟ آه، أرجوك حاول أن تكون عاقلاً».

بقيت أفضّل اليمن على المطارات الروسية. وفي نهاية ذلك النهار اليائس ذهبت لاستطلاع آخر أمل لديّ. كنت أحاول، منذ أسابيع، العثور على شخص يعرف شيئاً ما عن اليمن لكن محاولاتي كلها ذهبت سدى. فالكتب المتوافرة كانت كلها قديمة، وحتى المسؤولون البريطانيون الذين عملوا في الشرق الأدنى لم يكونوا يعرفون شيئاً عن اليمن. قمت بزيارة الضابط الذي كان رئيس «لورانس العرب» خلال الحرب الأولى، والذي كان قد أمضى النصف الأفضل من حياته في بلدان البحر الأحمر. استقبلني في بهو داره الفسيح وهو محاط بالذكريات والمقاعد الفيكتورية. وكانت جدران البهو مغطاة بصورة لورانس وبالسيوف العربية النادرة. لكن الجنرال لم يكن يعرف شيئاً عن اليمن!

قبل أن أفقد الأمل بالعثور على من يعرف اليمن عشية السفر إليها، التقيت، بمحض حسن الحظ، المسيو كلارا لم يكن ضابطاً بريطانياً سابقاً ولا مسؤولاً حكوميًا. كان قد جاء إلى لندن من باريس لشراء معاطف الفرو من المزاد العلني الذي تقيمه شركة «الهدسون باي». كان تاجر فراء. وكان قد ولد، منذ ستين عاماً، في أحد أحياء بولونيا الفقيرة ثم هاجر إلى باريس بحثاً عن الرزق. من أحياء بولونيا الفقيرة والمظلمة إلى جادات باريس المضيئة. سافر وتنقل كثيراً. ذهب إلى كندا لشراء فراء الثعالب الفضية، إلى الصين إلى روسيا من أجل فراء النعاج الفارسية، إلى الحبشة من أجل جلود النمور. أما اليمن فكانت رائعة حياته، لقد اكتشفها بعين تاجر الفراء.

أخبرني حكايته قائلاً «ذات مرة، في طريق العودة من الهند، شاهدت قطيعاً من الماعز الغريب يرعى في ميناء عدن. أعجبتني جلودها وأحضرت عيّنة منها معي إلى باريس، حيث قمنا بمعالجة الجلود وصبغها. وقد صحّت توقعاتي وأعجبت الناس بها إعجاباً فائقاً. ومنذ أشهر قليلة ذهبت إلى اليمن لكي أشتري الآلاف من هذه الجلود! لقد عثر صاحبنا على كنز من اليمن، لكن وصفه للبلد كان محزناً.

قال «لقد كتبت على بوابة اليمن ما كتبه دانتي في مقدمة ملحمته، الجحيم: اترك خلفك كل أمل! إن اليمن هي تيبت الشرق الأدنى. ثمة ثلاثة ملايين إنسان يعيشون داخل حدودها لكن ثلاثين منهم فقط عرفوا السفر إلى الخارج. ليس هناك بوصة واحدة من الخطوط الحديدية ولا كهرباء وهناك فقط ثلاثة أطباء في طول البلاد وعرضها. السفن الكبيرة لا تعرف موانئها. ولا فنادق هناك للزوار. وقبل أي شيء، عليك أن تغيّر مهنتك. هناك ثلاثة مهنيين لا يطيقهم اليمنيون: الصحافيين والمعلّمين والكتّاب. إنهم يعتبرونهم دون شك جواسيس إنكليز».

تطوّع المسيو كلار بأن يقدم لي المساعدة. أعطاني كتاب توصية إلى وكيله في الحديدة (الميناء الرئيسي في اليمن) قال فيه إنني تاجر فراء أعمل لحسابه. ولولا رسالة المسيو كلار هذه لما كنت وصلت إطلاقاً إلى شواطىء اليمن المحرّمة.

جاءتني التأشيرة إلى عدن بأسرع مما أتوقع، لكن كان عليّ أن أوقّع وثيقة غريبة أعلن فيها أنني أقوم بالرحلة على مسؤوليتي الكاملة، وأن حكومة صاحب الجلالة لا تتحمل مسؤولية أي صعوبة أو خسارة أواجهها خلال رحلتي. كان احتفالاً طويلاً لم ينسَ الموظف في نهايته أن يذكرني بأن الإمبراطورية لن ترسل سفينة حربية لإنقاذي إذا ما تعرضت لأذى!

في اليوم التالي استقلّيت الطائرة إلى نابولي، ومن هناك أبحرت على الباخرة أوكسفورد، التابعة لشركة «أورينت».

كانت تلك رحلتي الثالثة عبر قناة السويس إلى البحر الأحمر خلال عامين. الآن صرت ألتقي التيارات البحرية العاصفة والجزر الصخرية مثل أصدقاء قدامى. كنتُ أعرف كل موجة من تلك المياه اللماعة. وثمة شيء في داخلي ظلّ يكرر «ما الذي يجعلني أذهب إلى هذا المكان البعيد، ما هذا الشيء الغامض الذي يدفعني مرة بعد أخرى إلى هذا البحر التوراتي».

طالما شدني صمت هذه المياه الرائعة في الرحلتين السابقتين إلى الحبشة. وإذ عبرت البحر الأحمر رأيت من بعيد قمم جبل سيناء ورمال الصحراء الليبية، داكنة وجرداء. رأيت حجارة ورمالاً وصخوراً. لا رجال، لا وحوش، لا نبات، ولكن، إذ أتطلع الآن عبر الأفق الضبابي، أشعر بحنين إلى تلك الجبال الداكنة والصحراء الخالية.

هذا الساحل كان ذات يوم الشقيق التوأم لمدنيتنا. لكن فيما ازدهرت الحضارة الأوروبية بقيت الحضارة العربية طفلاً أبديًا لا يتقدم. لقد كانت الجزيرة العربية بالنسبة إليّ هي الجمال الراقد، أو حكاية الجميلة النائمة.

قبل ثلاث سنوات خامرني حدس ما وذهبت إلى الحبشة. وبعد ثلاثة أشهر من وصولي إلى هناك قامت بريطانيا بغزو ذلك البلد السيء الحظ. الآن يخامرني الحدس مرة أخرى. قبل أشهر كنت قد التقيت في فندق الملك داود في القدس برجلين عرفت فيما بعد أنهما على علاقة وثيقة جدًا بالمخابرات البريطانية. وقد قالا لي إنهما يمرّان بالقدس في الطريق إلى جنوب الجزيرة العربية لمحاربة الدعاية الإيطالية المتزايدة هناك. وبعد ذلك اللقاء بقليل عرفت في روما الخطط التي وضعتها إيطاليا للسنوات التالية. ولم يكن سرّ في روما أن موسوليني غير مرتاح إلى نجاحاته في الحبشة، ولذا فهو كان عازماً على المضي في سياسة التوسع. وهذا ما كان يعنيه بالضبط حين قال في ميلانو في العام ١٩٣٦ «إن حملة الحبشة قد انتهت لكن لا يزال أمامنا الكثير».

إن الحبشة تعتبر دائرة واحدة من إمبراطورية الدوتشي الرومانية. وهو من دون شك ينوي توسيع الإمبراطورية بضم بلدان أخرى إليها. وقد أبلغه مستشاره أن مملكة اليمن المستقلة سوف تكون طريدة سهلة.

بالإضافة إلى الاعتبارات السياسية كانت قد أثارتني أيضاً تلك المغامرات التي قام بها ثلاثة من رجال القرن الماضي في شبه الجزيرة العربية، وطالما حلمت بأن أعيش هذه المغامرات من جديد.

كان أحد هؤلاء، غيفورد بالغريف، وهو يهودي اعتنق النصرانية وكان ضابطاً مع شركة الهند الشرقية وداعية سلام لدى الإمبراطورية البريطانية. كان بالغريف هذا رجلاً كثير الحركة، كثير الحماس، ذا طبع فائر. وهكذا بدا العمل مع شركة الهند الشرقية أمراً مملاً بالنسبة إليه، ولذا سرعان ما غادر الهند وسافر إلى سورية حيث انضم إلى سلك الكهنوت اليسوعي لكي يصبح مبشّراً. غير أن حماسه الديني المفاجىء كان يخفي هدفاً ما. ففي ذلك الوقت، أي حوالى العام ١٨٦٠، كانت لدى الفرنسيين طموحات أشبه بالطموحات الإيطالية اليوم. فقد كانت الأفكار الامبريالية تخامر نابوليون الثالث جدياً ولذا راح يحاول العثور على موطىء قدم في سورية ومصر - وفي حلم ضعيف أيضاً - في شبه الجزيرة العربية.

كان بالغريف هو رجل نابوليون، وقد أرسله الإمبراطور إلى شبه الجزيرة لكي ينشر المسيحية بين المؤمنين الصادقين ويجتذبهم إلى جانب نابوليون. وقد سافر بالغريف كعربي من دمشق وتسلّل إلى مناطق لم يعرفها أي أوروبي من قبل. غير أن أحداً لم يعرف بعد ذلك ماذا كان مصير مهمته. فقد دمرت الحرب الفرنسية - البروسية في العام ١٨٧٠ أحلام نابوليون الإمبراطورية. وهكذا عاد بالغريف من دون أن يُقنع العرب بالنصرانية ومن دون أن يحتل أي بلد للفرنسيين. غير أنه عاد ومعه وصف هائل الدقة للجزيرة، مليء بالمغامرة والحكمة.

لم يكن نابوليون يثق كثيراً بهذا المشرّد السياسي. إذ بعد أن غادر بالغريف دمشق بقليل أرسل الإمبراطور إلى المنطقة رجلاً آخر من عملائه، هذه المرة الإيطالي كارلو غوراماني. وكان الغطاء الرسمي لمهمته أنه ذاهب لكي يشتري الخيول للجيش الفرنسي. غير أن تجارة الخيل في الحقيقة لم تكن سوى خيول طروادة، أما الهدف الأساسي فكان البحث عن النفوذ لحساب الفرنسيين.

وقد تخفى غوراماني في شخصية تاجر تركي وسافر عبر الصحراء إلى تيماء وخيبر ثم طلوعاً إلى جبال شمّر. وقد استطاع هذا مصادقة الناس حيثما ذهب، ولدى عودته وضع أول عمل موثوق به عن شبه الجزيرة.

تشارلز داوتي، الذي تبع بالغريف وغوراماني إلى الصحراء، رفض أن يتخفى أو أن يخفي أهدافه. وقد سافر كإنكليزي من سورية إلى نجد ثم الحجاز ومن هناك بلغ مع إحدى القوافل أسوار مكة المكرمة، فأثار بذلك غضب بعض المتدينين الذين انهالوا عليه ضرباً حتى أغمي عليه، فأنقذه حاكم الطائف وعالجه ثم نقله إلى جدة.

هؤلاء الثلاثة عادوا من شبه الجزيرة العربية من دون أن يحققوا أهدافهم ومثلهم

أخفق رجال كثيرون. فأولئك الذين ذهبوا لكي ينصرنوا العرب عادوا وقد أشهروا إسلامهم بدلاً من ذلك. وأولئك الذين ذهبوا لغرض سياسي هو اجتذاب الشعوب العربية إلى دائرة النفوذ الأوروبي، اختاروا البقاء كمستشارين لدى الملوك الذين جاءوا في الأساس للتآمر عليهم.

كنت غارقاً في قراءة كتاب داوتي «الصحراء العربية»، أفكر في الصعوبات التي التقاها في رحلته، حين وصلت باخرتنا السريعة والمريحة إلى بور سعيد. وفي اليوم التالي، في حرّ الشمس المصرية الشارقة، دخلنا قناة السويس. ومن خلال أشعة الفجر الحمراء الرمادية أطل تمثال فرديناند دوليسبس (مهندس القناة) بهيبته الواضحة. ومقابل هذا المشهد المهيب لفرنسي مجتهد، بدا لنا مثيراً للشفقة مشهد الشرطي الإنكليزي يوقم بأعمال الدورية: صورتان رمزيتان لماضي القناة وحاضرها.

لقد فتحت القناة أبواب شبه الجزيرة أمام الرحالة الأوروبيين. والآن لا تستغرق الرحلة من ميناء متوسطي إلى عدن أكثر من ستة أيام. وهذه الحقيقة لا قيمة عاطفية لها لدى أولئك الديبلوماسيين القابعين في غرف رسم الخرائط. إن القيمة السياسية الوحيدة للقناة هي كونها الممر المائي الذي يربط إنكلترا بأملاكها الهندية والأوسترالية، كذلك تحولت القناة إلى شريان حيوي للإمبراطورية الإيطالية الجديدة بعدما أصبحت الحبشة من ممتلكات الدوتشي (موسوليني) الإفريقية.

خفضت السفينة أوكسفورد سرعتها! لقد أبطأنا السرعة إلى أربع عقد في الساعة لكي نتجنب إثارة الأمواج التي قد تهدد الضفاف الاصطناعية التي حفرت في رمال الصحراء الناعمة. وفي الإسماعيلية توقفت السفينة تماماً. كان القسم الأسفل من القناة مكتظاً. وبالمنظار استطعت أن أرى صفاً من المراكب الصغيرة يتجه نحو البحر الأحمر. كانت هذه ثلاث غواصات إيطالية من حجم الجيب. وفي وقت لاحق، عندما بلغنا البحر في خليج السويس، رأيناها مرة أخرى. كانت تبحر بنصف سرعة في محاذاة الساحل العربي. وقد تفحص المسافرون البريطانيون على الباخرة هذه الغواصات بضيق ظاهر. وقد قال لي مهندس بحري بريطاني كان إلى جانبي الآتي:

«هذه المرة الأولى في التاريخ تتمركز غواصات في البحر الأحمر. وقد أنشأت إيطاليا مؤخراً قاعدة للغواصات في مصوع، في أريتريا، غير أنه ليس لهذه الغواصات أي قيمة دفاعية ما دام ليس في البحر الاحمر أسطولاً تحاربه. إن القوارب الحربية الفرنسية والإنكليزية الموجودة في البحر الأحمر تقوم فقط بأعمال الدورية ضد تجارة العبيد. ومع ذلك فإن إيطاليا تضع نصف أسطولها من الغواصات، أي حوالى ٤٠ منها، في البحر الأحمر».

كان وجود هذه الغواصات الإيطالية الصغيرة يعني تباشير نزاع مقبل لن يستطيع أحد تجنبه. وقد أبحرنا بسرعة تفوق كثيراً سرعة تلك الغواصات التي ما لبثت أن اختفت عن أنظارنا. وفي وقت لاحق رحت أقرأ التوراة، التي هي دليل جيد للمسافرين في البحر الأحمر. قرأت المقطع الذي يقول إن اليهود الذين لاحقتهم خيول فرعون وعرباته عبروا البحر بمعجزة. أين حدث ذلك تماماً؟ لا بدّ أنه جرى هنا، في مكان ما، قرب المنطقة التي واجهتنا فيها الغواصات الإيطالية. استوقفت أُحد البحارة وقلت له «هل تعرف أين عبر اليهود البحر؟».

نظر إليّ البحار في حرج. ثم تطلّع إلى البحر كمن يبحث عن تلك البقعة، إلا أنه ما لبث أن أقر: «إنني آسف يا سيدي لكن لا أعتقد أنني أعرف». كانت تلك رحلته السابعة والثلاثين عبر البحر الأحمر. وقد أضاف «هل تعرف يا سيدي أنه لأمر رتيب جدًّا السفر في البحر الأحمر. لا شيء سوى المياه طوال أربعة أيام. إن المياه تتشابه في كل مكان. هل تريد يا سيدي كوباً من عصير الليمون؟».

البحر الأحمر، في الحقيقة، هو بحر منسي. ألوف المسافرين يبحرون فيه بانتظام، لكنه بالنسبة إلى الكثيرين منهم ليس سوى مجسم ضخم من المياه. وإذ تبحر هذه الفنادق العائمة بهم، تكويهم الشمس الاستوائية ويجفّفهم الحر. لكن حين يهبط الليل وتضاء ملايين النجوم تعود الحياة من جديد إلى هذه الأجساد المتعبة، فيدخلون إلى القاعة الكبرى ويرقصون، ناسين أنهم عائمون فوق هذا البحر الهائل.

الآن، تقترب «أوكسفورد»، هذا المبعوث الأوروبي، من سواحل الجزيرة القاحلة. وعلى متن هذه السفينة عصر آلي لا وجود له بعد على اليابسة. وأحياناً، حين كان البحر يضيق وتقترب الباخرة من الشاطىء كان يخيل إليّ أنني أرى ظلال رجال يقفون على الضفة الشرقية يحملقون في هذا العجب العائم. لقد غبطت هؤلاء الرجال الواقفين على الشاطىء، يحملقون في أضواء لا يملكون شيئاً منها، تماماً على الأرجح، كما كانوا هم يغبطوننا.

هناك وآنذاك، قررت أن أعود إلى البحر. لكن ليس على باخرة فخمة، بل في أحد القوارب الصغيرة المحلية الصنع التي مخرت البحر الأحمر منذ البدء!

الصباح الخامس من رحلتنا أمضيناه في باب المندب، الممر الضيق الذي يؤدي إلى المحيط الهندي والذي أطلق عليه العرب اسماً مناسباً جدًّا: باب المندب! إلى اليمن، الساحل الإفريقي، وإلى اليسار كانت آسيا، وكلاهما بدا شديد الوضوح في هذا الصباح الربيعي الإشراق. لم يكن الطقس حاراً وكان هواء خفيف يطالعنا ونحن ندخل خليج عدن بعد أربعة أيام من مغلاة البحر الأحمر.

بعد المضيق اتخذت الباخرة منحرفاً حاداً يساراً نحو الشرق. تركنا إفريقيا خلفنا، الشواطىء تغرق ببطء خلف الأفق. وفيما اقتربنا من اليابسة بدت عدن وكأنها صخرة حارة خلف ضباب شفاف. البلدة نفسها كانت مخبأة في حضن صخور بركانية كانت ألوانها تتغير كمثل مزاج متقلّب. مرة تبدو زرقاء مثل أديم البحر ومرة بنيّة داكنة ولما ازددنا اقتراباً بدت سوداء تماماً. لقد كان هذا المشهد كله بطولياً وقاتماً. غير أن هذا القحل القاسي رطبته سماء زرقاء وموجة هواء دافئة آتية من فوق المياه.

هذا الهواء هو شريان الحياة في عدن، رفيق عدن عبر العصور. فإن هذه الرياح هي التي سهلت التجارة وفتحت البحر أمام القوارب الصغيرة المحملة بالجلود والعاج القادمة من الصومال أو التوابل والحرائر الآتية من الصين، تعبر هذا المضيق في الإياب وفي الذهاب. بسبب هذه الريح كانت عدن هي البوابة التي حولت عبرها طرق القوافل إلى إفريقيا الاستوائية، فيما رست سفن التجارة مع الهند في مينائها، تماماً كما ترسو اليوم كل البواخر الذاهبة أو الآتية من الشرق الأقصى وجنوب إفريقيا.

عدن اليوم محطة مهمة للتزود بالوقود، حيث تتموّن السفن أيضاً من المياه والفحم الحجري. أما المسافرون فيتركون بواخرهم لساعات قليلة فقط خوفاً من حوادث الشارع الرئيسي في المدينة، والقلائل منهم يأتون إلى هنا ويبقون.

بالإضافة إليّ، لم يكن هناك سوى مسافر واحد كانت عدن وجهته النهائية على الباخرة «أوكسفورد». وإذ راح المرشد يدل سفينتنا إلى الرصيف بدت لنا بيوت عدن عن قرب للمرة الأولى، وكانت بجدرانها البيضاء، مثل شموس صغيرة منتشرة في كل مكان. ومن خلال هذا الإطار الصخري الداكن بدت المدينة مثل دهان أبيض ألقي بإهمال على لوحة سوداء. وبدا كل شيء مرتباً وبطيئاً وهادئاً. كانت الشوارع نظيفة وخالية تقريباً من الضوضاء.

كان وصولنا مملاً في البداية، لم يكن هناك شيء من الصراخ المدوي الذي سمعناه في مصر. لا أحد من أولئك البهلوانيين الذين يخرجون الديوك الخائفة من أكمامهم أو من أفواه المسافرين الأكثر خوفاً. لم تكن هناك بضائع يونانية أو بطاقات بريد فرنسية. إن عدن مدينة جدية. إنها مستعمرة بريطانية!

كان يمثل سلطات الميناء طبيب أوروبي وضابط أوروبي أيضاً، يرافق كل منهما، ثلاثة مواطنين لمساعدتهم في حمل اللوازم: الدفاتر، الأختام، المحابر. وكنت لا أزال أجيب عن أسئلة الضابط حين اقترب منا قارب بخاري سريع عليه رجال يهرجون ويمرجون في صوت عال. لقد امتلأ الجو بأصوات الشرق. واقتحم هؤلاء سفينتنا لكي يعرفوا من منا الزائر الجديد.

لم يكن هناك غيري. المسافر، أو المسافرة الأخرى، كانت عائدة إلى هناك. وراح الدلالون الشبان يتحدثون بلغة هي مزيج من الكلمات الألمانية والإيطالية والحبشية والفرنسية، ولكن دائماً بلكنة إنكليزية. ومن بين الرجال الذين كانوا يحومون حولي لمحت وجهاً حزيناً أسمر بدا وكأنني أعرفه من قبل.

هو أيضاً كان يعتمر قبعة أدلاّء الفندق، لكنه لم يشارك في هذا التدافع الهائل نحو حقائب المسافر الوحيد. لقد وقف جانباً، يحاول أن يقول شيئاً ما، كلمة واحدة، لكنه استسلم للأمر قبل أن يقول شيئاً. كان واضحاً أنه أجنبي هو أيضاً، ولكن أين تراني شاهدته قبل الآن؟

دفعت جانباً الآخرين واتجهت إليه سائلاً: أين التقينا قبل الآن؟ وقال في خجل «لا أدري يا سيدي. أنا حديث العهد هنا وقد جئت من الحبشة». عندها تذكرت فجأة. إنه آتوتامارو الذي كان بمثابة وكيل وزارة المال في أديس أبابا. لقد التقيته قبل عامين فقط، وكان لا يزال في منصبه الرفيع ومتفائلاً بكل شيء. لكن بعد ذلك قامت إيطاليا بغزو بلاده، وكان عليه أن يفرّ.

جاء آتو تامارو إلى عدن وراح يكسب معيشته من إرشاد السياح إلى الفنادق والمخازن. وقد وجدت عدداً كبيراً من وجهاء الحبشة في منطقة البحر الأحمر، كانوا جميعاً يعملون في مهن بسيطة، تماماً مثل الأرستقراطيين الروس الذين شردتهم ثورة تشرين أول/ أكتوبر. كانوا يعيشون هنا حياة فقر رهيب. وبعد ذلك بأسابيع، وأنا أعبر من جيبوتي إلى عدن، التقيت مندوب الحبشة السابق لدى عصبة الأمم المتحدة سعادة السفير تكلا هواريات. كان مسافراً على ظهر السفينة ينام فوق أسمال بالية ولم يكن لديه ثمن وجبة واحدة طوال ٣٦ ساعة هي فترة الإبحار بين جيبوتي وعدن. وعندما اكتشفت وجوده حاولت أن أنقله إلى الدرجة الأولى حيث كنت، لكنه رفض قائلاً: «إنني سعيد تماماً حيث أنا». إنه يكره جميع الأوروبيين. إن إيطاليا في أوروبا!

وبدا لي أن آتو تامارو أيضاً لم يكن مسروراً بتعرفي إليه. لقد شعر بالخجل من الحال التي صار إليها. حاولت أن أذهب إلى «فندق الهلال» الذي يعمل لديه، لكنه أبلغني أن لا غرفة خالية هناك. وكان هناك فندق آخر واحد في عدن هو «المارينا»، وقد حاول جميع رفاقه إقناعي بالذهاب إلى هناك.

وشرح لي آتو تامارو هذه المنافسة الغريبة بين فندقين. قال لي إن هؤلاء الأدلة يعملون للتسلية أكثر من أي شيء آخر. إذ خلال الحملة على الحبشة كان في عدن ستة فنادق حاشدة برجال الأعمال الذين جعلوا من عدن مقرّاً لهم وراحوا يتاجرون مع

الإيطاليين أو مع الحبشيين عبر المياه. وبعد الحرب أغلقت أربعة من هذه الفنادق أبوابها... لكن هؤلاء الأدلة ظلّوا هناك. ويملك الفندقين رجل واحد، هو السنيور بيريرا، البرتغالي الأصل.

بدأت الحياة في فندق «المارينا» بمفاجأة غير مألوفة. فقد كنت تحت «الدش» حين سمعت قرع الباب. وبعد قليل دخل رجل مع خادمين. وكان هذا السنيور بيريرا، الذي قدم لي، بكل تأدب، دفتراً قال إنه سجل الشرف للنزلاء وطلب مني أن أكتب فيه اسمي وعنواني. ذلك، في الواقع، كان طلب الشرطة التي تشترط أن يسجل الغرباء أسماءهم خلال ٢٤ ساعة من الوصول.

وقال لي بيريرا «إلى متى سوف تتشرف بوجودكم». وقد كلفني هذا التشرف جنيهاً في اليوم. لم أكن أنوي في الأساس أن أمضي أكثر من أيام معدودة في عدن. وكنت أنوي السفر إلى اليمن في أسرع وقت ممكن. وقد استوضحت الأمر بعض الذين حملت إليهم رسائل توصية: التاجر العربي الشيخ علي برارة عمر، وتاجر التبغ الكبير نيقولاس أتانا سكوبولس الذي كان أيضاً مراسل «التايمس».

كانت المعلومات التي تلقيتها غير مشجعة. هنا، على بعد ١٦٠ ميلاً من حدود اليمن، لم أكن أقرب إلى هدفي مما كنت عليه وأنا في لندن.

في اليوم التالي لوصولي قمت بزيارة المفوضية البريطانية كبادرة لياقة ومن أجل طلب المساعدة. وقد استقبلني هناك المعتمد البريطاني السير برنارد رايلي والسكرتير السياسي الأول الكولونيل م. سي. ليك الذي كتب على بطاقته أنه يحمل أحد أرفع الأوسمة.

كان أحد الذين سبقوني إلى هناك، الكاتب الزميل أمين الريحاني، قد رسم صورة سيئة جدًّا للمفوضية، موحياً بأنها مركز للدسائس والشرّ. ولذلك لم أكن أتوقع الكثير من زيارتي. غير أن مفاجأتي كانت معكوسة وسارة. فقد أظهر المسؤولان لطفاً فائقاً، وسوف أكتشف في الكولونيل ليك فيما بعد خبرة كبرى في شؤون اليمن والبحر الأحمر، والحق أن الرجل أمضى معي الساعات يحاول مساعدتي في العثور على أفضل الطرق للذهاب إلى اليمن.

وقال لي الكولونيل ليك «لقد توصلنا، بعد سنوات طويلة من المتاعب، إلى إقامة علاقة حسنة مع صاحب الجلالة ملك اليمن». ومع أننا كنا على انفراد فإنه لم يذكر الإمام يحيى إلا وذكر معه لقبه الملكي. ومضى ليك يقول «إننا قادرون على المحافظة

عل هذه العلاقات الطيبة فقط باحترام سيادة الملك الكاملة. لا اعتراض لدينا على ذهابك إلى حدود اليمن، لكن خلف تلك الحدود لا سلطة لنا إطلاقاً، ومن أجل أن تدخل اليمن لا بدّ من إذن خطي مختوم مباشرة من جلالته».

أذهلني الاحترام الذي يكنّه الكولونيل ليك لحاكم محلي. لكنني سألته في كل حال، «وكيف لي الاتصال بصاحب الجلالة»؟ وأجاب ليك أن «أفضل شيء تفعله هو أن تتقدم بطلب خطي من صاحب الجلالة وتبعث به مع مراسل خاص إلى صنعاء. وسوف تجد في أسواق عدن دائماً تجاراً يمنيين عائدين إلى بلدهم. وهؤلاء سوف ينقلون رسالتك. بعد ذلك عليك أن تنتظر. فقد تتلقى جواباً خلال أسبوعين إذا كنت سعيد الحظ. لكن بعض الأحيان تمضي أشهر قبل أن يرد جلالته الجواب. انسَ أنك على عجلة من أمرك وتذكر أنك هنا. وفي غضون ذلك ابحث حولك في عدن. إن لدينا الكثير من الأمور المسلّية هنا».

أطلعني الكولونيل ليك على الاسم الكامل للإمام وكافة ألقابه الرسمية التي يجب أن أوردها في الطلب «صاحب الجلالة محمد يحيى حميد الدين المتوكل بن أحمد الدين محمد المنصور». أما المواطنون فكانوا يضيفون إلى ذلك ألقاباً تحببية أخرى، كمثل المستنير والمعتمد بالله!

اتبعت تعليمات الكولونيل ليك. وأرسلت في طلب حسن أشهر كتاب «العرض حال» في عدن، فجاءني في الفندق. كانت مهنة حسن أن يكتب الطلبات والشكاوى ورسائل الغرام لأولئك الذين لا يجيدون الكتابة، وأن يفعل ذلك بلغة عربية مزوّقة. وقد طلبت منه أن يجعل من رسالتي رائعته الأدبية. وجلسنا نؤلف معاً رسالة شديدة التواضع، وكان عليّ أن أوقع اسمي تحت عبارة «عبدكم المطيع فلان».

وقد تطوع تاجر عربي من تعز، كان عائداً إلى بلده، أن ينقل رسالتي إلى تعز ومن هناك يبعث بها إلى العاصمة صنعاء. وما إن اطمأنيت إلى أن الرسالة اتخذت طريقها حتى رحت أبحث عن أمور تساعدني على قتل الوقت. وقد عثرت على ضالتي في فندق «مارينا» الذي أسميته «فندق الشرق الكبير». فلقد وجدت في «المارينا» مجموعة من النزلاء المثيرين الذين حملهم قدرهم وأعمالهم وهوسهم إلى هنا، إلى خليج عدن.

كان هناك ستة رجال وامرأة في هذا النزل المختلط. المرأة، كانت زوجة رجل إنكليزي كان سابقاً موظفاً في الحبشة أما الآن فهو ـ حسناً، إنني لست أدري ما هو الآن! كان هناك أيضاً رجلان من كشافة النفط، يعملان لحساب شركة أميركية متفرعة عن ستاندرد أويل. وفي غرفة مجاورة كان المستر «باء» وهو تاجر خردة. وفي الجهة

المقابلة من نهاية الممرّ، كان يقطن منافسه اللدود، الهر «جيم» وهو أيضاً تاجر حديد وفولاذ مستخدم. أما الغرفة الرقم واحد، وهي الأوسع والأكثر راحة، فقد كان يحتلها البارون «لام»، الرجل الغامض.

كان البارون أول من أثار فضولي بين النزلاء. ففي السجل الضخم الذي قدمه إليّ بيريرا، ذكر البارون أنه «عالم». وقد حاول بيريرا أن يقنعني بذلك فعلاً، مؤكداً أن «البارون رجل ممتاز حقًّا». غير أن كلماته بدت فارغة من معناها. وقد لاحظت أنه يحاول أن يصارع أفكاره ولسانه معاً. كان بيريرا يحاول أن يخبرني شيئاً ما، لكنه كان يخشى على ما يبدو أن يضع ثقته وأسراره في رجل لم يتعرف إليه إلا حديثاً. وأخيراً لم يعد يستطيع أن يضبط نفسه، فقال: «إنك تعرف النمسا أليس كذلك». أجبت بالإيجاب، وقال السنيور بيريرا «إن هذا الرجل يقول إنه من نبلاء النمسا»!

فأجبته على الفور «لا بدّ أن ثمة خطأ ما، إذ ثمة عدد لا يحصى من البارونات في النمسا لكنني لا أعرف عائلة بهذا الاسم على الإطلاق». وهنا انفجر بيريرا مثل بركان «إنك إنما تؤكد ظنوني. هذا الرجل محتال». فاعترضت قائلاً «محتال؟ لقد قلت لي قبل خمس دقائق فقط إنه رجل ممتاز».

وأجاب في شيء من اليأس «نعم. نعم. هذه هي المشكلة. رجل طيب ونصاب في وقت واحد»! وسرعان ما تبين لي أن البارون مقيم في «المارينا» منذ سبعة أسابيع من دون أن يسدّد حسابه. وبدا لي الأمر بطوليًا حقًّا مما أقنعني بأنه بارون نمساوي بالفعل. وحاولت أن أسأل بيريرا لماذا لا يطرده من الفندق فقال «لقد تأخرت في ذلك. إن عليّ أن انتظر إلى أن يستلم بعض المال المرسل إليه من باريس، وفي أي حال إلى أين سيذهب من هنا؟ إن في عدن فندقاً آخر واحداً فقط، وهو أيضاً ملك لي»!

في المساء انتظرت ظهور البارون في صالة الطعام المشتركة. كان رجلاً وسيماً وكان الأنيق الوحيد بيننا. وقد حمل معه إلى طاولته أحجاراً براقة راح يتظاهر بأنه يتفحصها عبر مكبر زجاجي، بين تناول الحساء والتهام السمك.

كان البارون «لام» نموذج أهل المدن الحالمين الذين لا يلحقون الأذى سوى بأصحاب الفنادق. وكان يربح معيشته بإنشاء شركات يصعب غالباً أن تنجح، وبكتابة المقالات لبعض الصحف. وبهذه الأموال كان يسافر إلى بلدان الأرض، مع أنه لم يجمع من المال في أي مرة ما يكفيه للبذخ. كان البارون «لام» يتميز بعينين سودانيين حزينتين وبصوت هادىء يروي به القصص المثيرة عن رحلات الصيد في إفريقيا

ومغامرات الغابات في أميركا اللاتينية وتفليس الكازينوهات في مونتي كارلو. وقد كانت كل هذه القصص ذات طابع أدبي مثير.

قامت بين أسرة النزلاء في الفندق صداقة سريعة، وكان البارون هو محرك السهرات. لكن في الليلة الثالثة لاحظت أن البارون قد اختفى. وخامرتني شكوك بأن بييرا وراء المؤامرة فاستدعيته سريعاً وسألته في غضب: أين هو؟ ماذا حدث للبارون؟

احمرّ وجه بييرا فوراً.

ثم قال معترضاً «لا تلمني أنا! إن الخطأ خطأه. لقد جعلتهم يوقفونه. إنه الآن في السجن»! غير أن هذا التحول المفاجىء في مجرى الأحداث لم يبعث الراحة في نفس بييرا. فقد كان غاضباً من بعض قوانين عدن التي لا تخدم سوى المجرمين: «عندما تطلب اعتقال زبون مدين عليك أن تدفع خمس روبيات في اليوم نفقات إقامته. صدقني أنه كان من الأوفر عليّ أن أبقيه هنا في الفندق. إن الفنادق في عدن أقل كلفة من سجونها».

أمضى بييرا الليل بأكمله يضرب أخماساً بأسداس. وفي اليوم التالي أفرج فجأة عن البارون الذي أعطاه أحد أصدقائه في عدن شيئاً من المال، فاستقل السفينة الأولى المسافرة وكانت وجهتها كراتشي، لكن بعد أن وقع كتاباً يعترف فيه بديونه للسنيور بييرا. وقد ذهبنا جميعاً إلى الميناء لوداعه، بمن فينا السنيور بييرا نفسه.

افتقدنا البارون وحكاياته إلى أن انفجرت المنافسة فجأة بين تاجري الخردة. فقد ارتفعت أسعار الحديد من جديد حين راح العالم يستعد مرة أخرى للحرب. وراحت اليابان وألمانيا، وحتى بريطانيا الآن، تشتري كل أونصة من الحديد المرمي من أجل تحويلها إلى مدافع جديدة وطائرات وسفن وخوذ. وقد أرسلت شركات تجارة الخردة عملاءها إلى كل جهات الأرض طلباً للحديد الصدىء. وفيما كان صائدو الكنوز في الماضي يطاردون الذهب والمعادن الثمينة، راحوا الآن يطاردون الحديد.

لم يكن تاجرا الخردة يخاطبان أحدهما الآخر. وقد شرح لي المستر «باء» السبب قائلاً «إنه مجرد إجراء احترازي. فإذا تكلمت إليه ربما كشفت له عرضاً شيئاً من أسراري. إن ملاحظة بسيطة يرميها المرء أحياناً قد تكون لها مضاعفات خطيرة. نحن لسنا أعداء، إننا منافسون، لكننا نحارب بعضنا بعضاً بأحدث أنواع القتال».

كان التجسس جزءاً مهمًا من حرب الخردة في عدن. وقد استقدم الرجلان جيشاً من العملاء السريين للبحث عن مخزونات الخردة في الجوار. وكان معظم العملاء،

وفقاً للتقاليد الشرقية، يتقاضون المال من الرجلين ولذا كانوا يسلمون البضائع إلى التاجرين على دفعات صغيرة: بعض الأطنان هنا وبعض الأطنان هناك.

كنت صلة الوصل بين التاجرين وبذلك عرفت كل أسرارهما. وفي صباح اليوم الذي غادرنا فيه البارون، أبلغني المستر «باء» أنه سوف يسافر تلك الليلة سرًا على مركب خاص إلى جزيرة قمران حيث أبلغ أن ثمة خطوطاً حديدية للبيع. وحين استأجر المركب لم يعلن الوجهة التي يريد السفر إليها، بل إنه لن يبلغ القبطان بتفاصيل الطريق إلا بعد مضي ست ساعات في البحر. ومن أجل المزيد من السرية، سوف يعمد بعد ذلك إلى مراقبة عامل اللاسلكي لكي يتأكد من أنه لم يبرق النبأ المشير إلى عدن. كان كل شيء معدًّا بسرية تامة. لن يدع أي منافس يهزمه.

بعد منتصف الليل بقليل شاهدت المستر «باء» يغادر الفندق النائم، على أطراف أصابعه، وقد تسلّل نحو الميناء مثل لص ماهر، وهناك أخذ قارباً صغيراً تحت جنح الظلام إلى المركب الذي كان في انتظاره لكي يبحر على الفور.

صباح اليوم التالي جاء الهر «جيم» إلى غرفة الفطور وهو يشعر بالغبطة. لقد أبلغه جواسيسه بسفر المستر «باء» لكن لم تكن لديه معلومات مفصلة بعد. وفجأت دبّت في الفندق حركة تشبه تلك الحركة التي تدب في قاعات الصحف لحظة الصدور. وخلال نصف ساعة كان «جيم» قد عرف وجهة «باء».

ارتفعت نسبة الحركة الآن. فقد عمد المستر «جيم» على الفور إلى استئجار طائرة صغيرة من تاجر عدني ثري، وفيما كان المستر «باء» يظن أنه في مأمن، كانت طائرة المستر «جيم» تحلّق فوق مركبه بسرعة ١٢٠ ميلاً، وقد بلغ قمران في ثلاث ساعات، وراح يعمل سريعاً فعقد الصفقة وعاد إلى عدن. في المساء، كان يتناول العشاء معنا كالعادة.

بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة ألقى مركب المستر «باء» مراسيه في قمران. وحين عرف المسكين بعد نزوله إلى الشاطىء أن منافسه قد نظف الجزيرة من الخردة أغمي عليه وأعيد إلى المركب محمولاً.

عاد «باء» إلينا غاضباً ويائساً. لقد كان لديه سبب شخصي يحتم عليه النجاح بأي ثمن. إن رئيس الشركة التي يعمل لديها ليس سوى والد زوجته، وهذه أول مرة يعطيه مسؤولية عمل ما! بعد ذلك بأيام جاء إلى غرفتي يسألني النصيحة. لقد باعه أحد المخبرين للتو خبراً جديداً ثمة سفينة يونانية محملة بالخردة قد ضلت الطريق وغرقت

في الرمال قرب عدن! وكانت مثل هذه الأخبار حلم التجار الكبير: خردتان، السفينة وحمولتها. إنها فرصة العمر!

لكن كانت هناك بعض الصعوبات! فالقبطان اليوناني معتقل ومتهم بأنه اتجه عمداً إلى الرصيف الرملي طمعاً في قيمة التأمين، التي ضوعفت خلال الرحلة. والواقع أن مثل هذه «الحوادث» تقع غالباً حول عدن، وخصوصاً مع السفن اليونانية. وأحد هذه الأرصفة الرملية القريبة من باب المندب قد أسيء استخدامه من قبل قراصنة التأمين هؤلاء بحيث لم يعد له مظهر الأرصفة على الإطلاق. وقد رفضت شركة لويد هذه المرة رفضاً قاطعاً أن تدفع أي شيء ولذا قرر مالكو السفينة بيع الحطام في خليج عدن.

هكذا، أصبحت السفينة وحمولتها ملكاً لأقرب نافذ عربي، لأن الحادث وقع ضمن ٣ أميال من المياه الإقليمية. وكان الرجل النافذ هذه المرة الشيخ محسن بن فريد، الذي يخشى الجميع سطوة قبيلته! تردّد المستر «باء» قبل الإقدام على المغامرة لكنني أقنعته بالذهاب وطلبت مرافقته. وقبل ذلك ذهبت معه إلى الكولونيل ليك لكي نرى ما إذا كان من الممكن لنا الحصول على الحماية البريطانية. ولم يبد ليك أي اعتراض على الرحلة لكنه أيضاً لم يقدم أية حماية. وقال لي ضاحكاً: «إذا كنت مصرًا على المغامرة بحياتك تدبر أمر حراسك بنفسك».

راح المستر «باء»، في سرية تامة، ينتدب الرجال لمرافقتنا. وخلال يومين كان قد جمع جيشاً مؤلفاً من ستة من العرب الذين زوّدهم بالسلاح والذخيرة. ثم استأجرنا قارباً وأبحرنا في اتجاه أونكالا.

عند الفجر رأينا السفينة المحطمة من بعيد، فاقتربنا منها وراح «باء» يتفحصها بدقة. وقال لي في حماس: الآن سيعرف العالم أجمع من هو أعظم تجار الخردة. كل ما آمله هو ألا يكون هذا الرجل اللعين صعباً».

الآن، بدأت المرحلة الأكثر إثارة في رحلتنا، أي الرسو في منطقة «يشبوم» التابعة للشيخ محسن. اتجهنا إلى الشاطىء في قاربي نجاة. في الأول كان قبطان السفينة مع أربعة من الحراس، وفي الثاني المستر «باء» وأنا والحارسان الآخرن. وكنا جميعاً نحمل البنادق تحسباً لأي طارىء.

على الشاطىء كان الأطفال العرب يراقبون بفضول. رسونا في حذر وتقدمنا ببطء بحيث يبقى الانسحاب السريع ممكناً، وحين وصلنا إلى كوخ الشيخ محسن خرج إلى

ملاقاتنا ومعه بعض كبار القرية. وقد فوجئنا بلطف هذا الشيخ وضيافته الشرقية الأصيلة. وتساءلت في نفسي لماذا تروى كل تلك الإشاعات في المحمية عن قسوته. لا شك أن أحداً من الذين يهاجمونه لا يعرفه شخصيًا. وهو أحد الشيوخ القلائل الذين لا يذهبون إلى عدن كل شهر لتقاضي الجعالة، كما أنه لم يسبّب أي مشكلة للإدارة السياسية. إننا أول زوار أوروبيين ندخل عرين الأسد، خلافاً طبعاً لرجال المفوضية.

دعانا الشيخ محسن إلى كوخه الذي بدا مثل غرفة الملاحة في السفن. وكان فرش الكوخ من مفروشات السفينة اليونانية الغارقة، وقد جلس الشيخ محسن هناك وسط الخرائط البحرية وأحزمة النجاة المعلّقة على الجدران. وقدم لنا صاحب المنزل الطعام والقهوة لكنني وسط هذا الديكور البحري شعرت بشيء من الدوار.

شرع المستر «باء» في مفاتحة الشيخ محسن بالهدف من الرحلة. مسكين هذا المستر «باء». سوف يعود مرة أخرى خالي اليدين. فقد أبلغه الشيخ محسن أن عليه مراجعة وكيله التجاري في عدن الذي يتولى أيضاً كل شؤونه المالية. وقال لنا «إنني أشعر بسرور شديد لتشريفنا بزيارتكم، لكن إذا كنتم هنا من أجل السفينة اليونانية، فليس لكم سوى وكيلي في عدن لأنني لا أفقه شيئاً في شؤون التجارة».

كانت الرحلة قد كلفت «باء» حوالى ٥٠٠ روبية! وهكذا أسرعنا عائدين إلى عدن لمقابلة ذلك الوكيل التجاري الذي تبين لنا أنه لم يكن سوى المخبر الذي دلّنا إلى «يشبوم». كانت المغامرة كلها دعابة قاسية! فقد عرف «باء» فيما بعد، أنه فيما كان يعد الرجال ويستأجر القوارب، كان الهر «جيم» جالساً على شرفة غرفته يشرب عصير البرتقال البارد المنعش، بعدما ابتاع السفينة الغارقة بـ ٨٠ ألف روبية!

كان هذا أكثر مما يستطيع المستر «باء» تحمّله، فجمع حقائبه وقفل عائداً إلى بومباي، وبقي الهر «جيم» وحيداً على جبهة الخردة. لقد مضى عليّ الآن أسبوعان في «المارينا» ولم أتلق بعد أية أخبار من الإمام يحيى. هذه المرة تقدمت بطلب جديد، برقيًا. وكان هذا العمل مكلفاً، إذ إن شركة التلغراف تفرض شلناً و٤ بنسات لكل كلمة إلى اليمن، أي أغلى من كلفتها إلى لندن. ويبدو أن السبب هو الرسوم التي تفرضها حكومة اليمن. وقد كلفتني كتابة اسم الإمام وعنوانه وحدهما حوالى جنيه و٥ شلنات و٤ بنسات.

في فندق الشرق الكبير، هذه القطعة الأوروبية الصغيرة في الشرق الأدنى، لم يبق سوى كشافي النفط والإنكليزي الذي كان موظفاً لدى الإمبراطور في الحبشة. وهو في أي حال لم يكن يحبني بسبب ما ذكرته عنه في أحد كتبي! كان دائم التنقل بين

زيلة وجيبوتي وعدن. وكان يجلس في الغرفة المجاورة لمكتب الكولونيل ليك. وكان يعقد جلسات سرية مع رجال أعرف أنهم يتعاطون بالأسلحة. بكلام آخر لم يكن يبدو أن كل هذا النشاط هو شأن موظف متقاعد، وقد أحسست أنه يخفي قصة مثيرة.

قبل انتهاء حرب الحبشة بقليل وصلت إلى ميناء زيلة، في الصومال البريطاني، شحنة كبيرة من المواد العسكرية التي دفع ثمنها الإمبراطور مقدماً. وقبل أن تسلم الشحنة استولى الإيطاليون على البلد واضطر الإمبراطور إلى الفرار. وهكذا فإن البضاعة كانت قانونيًا ملك الإمبارطور لكنه لم يكن في حاجة إليها. ولذلك كلف صاحبنا الإنكليزي بيع الشحنة كلها إلى البريطانيين وعندما أخفق في ذلك حاول بيعها إلى الإمام. وأعتقد أن الرجل فقد كل ثروته في الحبشة وكان يحاول الآن استعادة بعضها عن طريق تصفية أملاك الإمبراطور.

لست أدري من هو ذلك الرحالة الذي تأمل في هذه الصخور الداكنة المحيطة بعدن، وأطلق عليها يومها لقب «مختصر الجحيم»، أو الغرفة الملاصقة للجحيم. ومنذ ذلك الوقت والسياح يتجنّبونها خوفاً من الحر والملل والصخور السوداء! والآن وأنا أتأمل من شرفتي في «المارينا» في ساحة المدينة تذكرت قول ذلك الرجل. لقد بدت عدن هادئة ورتيبة وخالية مثل شارع رئيسي في إحدى مدن الجنوب الأميركي.

كانت غمامة من الملل تغطي الساحة الرئيسية والخليج. وقد أحسست آنذاك وكأنني بشر تحطمت سفينته فوق جزيرة صحراوية قاحلة. لكن من حسن حظي أن علي حسن بن محمد قد هبّ إلى مساعدتي. والواقع أنه منذ لحظة وصولي وعلي حسن بن محمد يلاحقني مثل ظلي أينما ذهبت. ومن وقت إلى آخر كان يرفع طربوشه باحترام ويقول «كيف حال سيدي اليوم». وكان واضحاً أنه يعدّ العدة لأمر ما لكنه لم يعثر على الفرصة المناسبة.

لكن الآن، وقد خلا فندق «المارينا» من جميع النزلاء عداي، فقد أرسل إليّ بطاقته الشخصية فوراً. وهي بطاقة غريبة حقًّا، عليها اسمه وصورته مرسومة بالحبر، وعليها أيضاً طلبه الرسمي. إنه يريد عملاً، أي عمل. إن مهنة المناداة على السياح واقتيادهم إلى الفنادق، فن رائع في هذه المنطقة وعلي حسن يجيدة إجادة فائقة. لكنه الآن يطلب عملاً لدي. وقد أثر بي تأثيراً شديداً حين قال «إنني أعتقد أنك تشعر بالوحدة. إن جميع القادمين الجدد يشعرون بالوحدة، لكن ذلك فقط لأنهم لا يملكون أدلة يرونهم المكان، ويرافقونهم إلى الأحياء الشعبية، ويعرفونهم إلى الناس المثيرين للاهتمام. إنك إذا اتخذتني دليلاً ضمنت لك بأنك لن تشعر بلحظة ملل واحدة في عدن».

حدّد لي الأجر الذي يريده، وكان زهيداً لدرجة أننا اتفقنا على الفور. وقبل الآن كان يناديني «سير» أما الآن فراح يناديني «صاحب»، لأن هذا الشرقي العتيق عرف أن الأجانب تطربهم المناداة بلقب عربي. وقد باشر علي حسن مهامه باحتراف مطلق فسألني ما هي الأماكن التي زرتها حتى الآن، وحين اعترفت بأنني لم أر شيئاً بعد، هتف قائلاً «هلم بنا إلى كل مكان».

وقد ذهلت حين رأيت سيارة تنتظرنا أمام الفندق. وكانت مقدمة علي حسن للجولة في المدينة رائعة، حين راح يقود السيارة وسط خمسة آلاف سنة على الأقل من التاريخ البشري.

تقول أسطورة محلية جميلة إن جنة عدن تقع في مكان غير بعيد من هنا، في جزر «السيشل»، وإن وجود عدن، في زمن التكوين إلى جانب الجنة، جعلها جزءاً مما جرى في سفر التكوين. وقد أصرّ علي حسن بأنه «عندما طرد سيدنا آدم من جنته، جاء إلى عدن وعاش هنا لفترة حيث رزق بقايين وهابيل، وهنا قتل قايين أخاه».

ثم أوقف علي حسن السيارة تحت سلسلة هائلة من الصخور المرتفعة وأشار إلى مغارة فوق الطريق وقال: «هناك دفن قايين». كان موقعاً هائلاً حقًّا كأنما الطبيعة أرادت أن تنحت بنفسها نصباً ضخماً لأولى الجرائم التي ارتكبها الإنسان.

وعلى مدرج ضيّق في غرب المدينة أشار علي حسن إلى البقعة التي حاول فيها الإنسان أن يتحدى العزة الإلهية بأن يشرع في بناء برج بابل. ولم يكن قد بقي من ذلك المشروع العبثي سوى كتلة من الصخور والحجارة تربض في ظل الأبراج الفولاذية التي بناها الجيش البريطاني. وقد رأيتني أقف هناك، شاهداً صامتاً على الجريمة الأولى والغرور الأول. وفجأة بدت لي عدن بأهميتها التاريخية التي تختفي وراء هذا المظهر من الرتابة.

في عودتنا اتخذنا طريقاً صخريًّا إلى تلة أخرى حيث يقوم نصب آخر عمره ثلاثة آلاف عام فقط: كانت هناك سبع خزانات مياه ضخمة معلقة الواحد بعد الآخر، وهي خزانات بنتها بلقيس ملكة سبأ. وقد نحتت هذه الخزانات من الصخور الصلدة وهي تتسع لعشرين مليون غالون من المياه. إن الوقت يمضي سريعاً في عدن. إذ قبل عقد واحد، كانت هذه الخزانات لا تزال تستخدم أما اليوم فلم تعد أكثر من مجتذب سياحي. وفي عدن الآن شبكة مياه حديثة تنقل المياه النقية من الآبار الارتوازية الواقعة في واحة تبعد ١٢ ميلاً عن البلدة.

ويبدو أن أهل عدن يفضلون هذا الضخ الجديد غير المرئي، على هذه التحفة

الهندسية الفنية القديمة. وفيما رحت أتأمل أكبر الخزانات الذي بدا عميقاً بلا قعر، قال لي علي حسن «إلى سنوات قليلة خلت كنا نرغم على الشرب من هذه الخزانات، مياهها ذات طعم رديء تسبب المرض، الذي سميناه هنا «الأمعاء العدنية». وكنا نصلي إلى الله دائماً أن يمنّ علينا بالمطر فإذا هطل جاءت الناس إلى هنا تحتفل وتحمدل وتبسمل، أما الآن فصار يزعجنا المطر مثل الإنكليز الذي ينغص عليهم مباراة كرة المضرب».

غير أن أقدم أثر في عدن هو من دون شك هذا الإطار الصخري الذي يحيط بالمدينة. إنه يتعرّج بطريقة مزاجية غريبة. وقبل آلاف السنين كانت كل هذه المنطقة بركاناً ثائراً على الدوام كأنه جحيم الأرض. وقد غيّرت الحمم ملامح شبه الجزيرة فمزّقت فجوات هائلة في عمق الأرض ورمت صخوراً ضخمة إلى البحر، مكونة بذلك جزراً وقنوات وفيضانات. وقد بنيت المدينة فيما بعد في وسط البركان وسميت «الكرتير». وقد سألت علي حسن كيف تجرأ الناس على العيش وسط بركان، فقال إن البركان قد انطفأ نهائيًا ولن يعود بإذن الله إلى الظهور.

في هذه الحفرة الهائلة التي فرزها كبد الطبيعة، يعيش معظم سكان عدن البالغ عددهم ٢٠ ألف نسمة. وفي منطقة لا تزيد مساحتها على بضعة أميال مربعة يعيش، جنباً إلى جنب، العرب واليهود والباريسيون والبونيا. والتجارة هنا هي مصدر الرزق الرئيسي، وفي هذا الفن تتنافس هذه الشعوب المعروفة جميعاً بالفطنة والدهاء. وبرغم أن هؤلاء يعيشون دائماً تحت ضغط المصالح المتضاربة وحدة المنافسة، وبرغم أنهم منهمكون في ربح المال وفي ربحه بسرعة، فإن شيئاً لا يعكّر سلام عدن وصفاءها. ويبدو أن هؤلاء متفقون على قواعد المنافسة كما لو كانوا في لعبة نرد، وبذلك يحترمون القواعد والأصول ويحافظون على الصداقات.

ما كدت أعتاد الحياة في عدن حتى تعرفت إلى ما وصفه علي حسن «بصديق العرب الدائم ورفيقهم المفضل»: عشبة خضراء مائلة إلى الحمرة تنمو في تلال اليمن حول تعز. ويبدو أن «القات» يؤمن كل أنواع السعادة الدنيوية لهؤلاء السادة المشارقة. وهو يوصف في محمية عدن وبقية المستعمرات البريطانية بأنه «كرمة العرب».

عدت من أول جولة لي حول عدن لكي أجد في انتظاري دعوات كثيرة كتبت بلغة لطيفة، بينها واحدة تقول «سوف يشرفني جدًا أن تتفضل إلى بيتي غداً في ساعة القات».

ويقابل هذه الدعوة عندنا، شاي الساعة الرابعة أو حفلة الكوكتيل. وبين الرابعة والسابعة من عصر كل يوم تفرغ شوارع عدن ومقاهيها، لأن هذه الساعات الثلاث هي ساعات الفرح الغامض في مضغ القات! كنت سعيداً بتلقي الدعوة، وفي الربعة تماماً من بعد ظهر اليوم التالي وصلت إلى منزل أحد أعز أصدقائي، وهو تاجر عربي ثري، لكي أشارك في «احتفال القات». وقد جاء إلى ذلك الحفل الذي أقيم على شرفي نحو ثلاثين رجلاً من أقرباء المضيف وأصدقائه.

حين دخلت الغرفة كانوا جميعاً يتربعون على الأرض، وخلفهم مساند مطرزة وعلى الجدران علقت سجاجيد نادرة جدًّا. كانوا يدخنون أنابيب مياه تسمى في الشمال النراجيل. إنها أدوات شرقية قديمة صنعت بحيث يمرّ الدخان عبر المياه ثم من خلال نربيش طويل قبل أن يصل إلى شفتي المدخن. وينقسم الناس جماعات صغيرة حول النراجيل، يوزعها عليهم رجل ينوب عن المضيف. والنائب يتولى النفخة الأولى ثم يسلم النربيش إلى الرجل الجالس إلى يساره، إلى أن يدور الدورة كاملة ويعود إليه ليأخذ منه نفساً عميقاً. وكان الخدم يتنقلون حولنا على رؤوس أصابعهم، يحملون المياه والتبغ والجمر المشتعل لإشباع النراجيل. لم يتبادل أحد أي كلام ولم يكن يقطع الصمت المخيم سوى هدير النراجيل.

لكن فجأة أومأ مضيفنا برأسه إلى كبير الخدم الواقف متأهباً إلى يساره، وحدثت على الفور همهمة بدّدت صمت الغرفة. ثم دخل خدم كثيرون يحملون النبتة الثمينة التي راحوا يوزعونها كوماً في وسط الغرفة، فيما راح آخرون ينقلون النراجيل خارجاً. وقد تجمع الضيوف الآن في حلقة واحدة حول كومة القات، وتحولت جلستنا الصامتة إلى مجلس مرح، وأخذت ألمح في عيون زملائي من الضيوف بريق الانتظار. وفيما كنت أرقب الناس مال عليّ جاري قائلاً في شيء من الدعابة «إنه الشيطان الأخضر».

بعد ذلك قام مضيفنا واتجه إلى القات الملقى مثل براعم يافعة. وانتقى رزمة من الأوراق الأكثر جمالاً وسماكة وقدمها إليّ، ضيف الشرف. وقد تيقّنت الآن فقط، وقد أعطيت هذه الأوراق، أنني خائف من مضغ القات، إنها نبتة خطرة، مخدّرة، يتناولها العرب كبديل للسيجارة والكحول وحتى النساء. والواقع أنها عشبة مؤذية أيضاً وقد تردّدت في تناولها خوفاً من الإدمان. لكن كان من المستحيل أن أرفض كرم مضيفي، فأغمضت عيني وأخذت الورقة الأولى.

سرعان ما تحول هؤلاء العرب المعتبرون إلى رجال يهرجون. وكانوا يمضغون القات إلى أن تسحق الورقة الخضراء ويصير لون المضغة رمادياً، فيبصقون المضيغ

الذي لا طعم له في الزاوية ثم يتناولون ورقة أخرى ويكررون ما فعلوا. استمر ذلك حوالى ساعتين حتى لم يبق في الغرفة ورق أخضر، فانتهى الحفل وانصرف الجميع.

وجدت صعوبة في مشاركة أهالي عدن حماسهم. فقد كان طعم النبتة نيئاً مثل أي عشب آخر. وإذا كان لها من طعم على الإطلاق فهو مائل إلى المرارة. وكلما مضغت كلما ازداد الطعم مرارة. وكلّ ما شعرت به بعد ذلك كان تلك الحموضة المرّة ولا شيء آخر على الإطلاق، مع أن أصدقائي العرب راحوا يصفون بحماس الشعور الذي يخامر المرء بعد مضغ القات.

الذي بدأ عادة مضغ القات، التي مضى عليها الآن قروناً طويلة، لم يكن رجلاً بل الماعز. وقد لاحظ أحد الرعاة قرب تعز، في الجزء الأسفل من اليمن، أن الماعز بعد أن ترعى هذا العشب تشعر بخدر غريب وتروح تقفز فرحة، وهكذا قرر أن يجرّبها بنفسه. وفي جرأة الرواد راح يأكل من العشب حتى مضغ ستين ورقة، فتغير مزاجه تماماً وتغير كل شيء حوله كما تقول الأسطورة.

لم يحوّل الراعي مضغ القات إلى عادة فقط بل إلى تجارة أيضاً. وحيث اكتشفت النبتة صدفة تزرع الآن للتجارة. والواقع أن صادرات اليمن من القات تفوق صادراتها من البن. وكل يوم تغادر القوافل الطويلة محملة بالقات اليمن الأسفل، كما أن طريقاً قد عبدت بين تعز وعدن للإسراع في نقل العشبة بكميات ضخمة.

في تلك الحفلة التي كلفت مضيفنا حوالى ١٥٠ روبية، أو ١٢ جنيهاً، استهلكنا طنًا كاملاً من القات. لكن في طريق العودة إلى الفندق قال لي أحد الضيوف إن مضيفنا كان بخيلاً بعض الشيء. وأخبرني أن ثمة حفلات يمضغ خلالها من القات ما تزيد قيمته على ألف روبية. والواقع أنني شاهدت بنفسي رجالاً يشترون لاستهلاكهم الخاص ما قيمته ٤٠ روبية من القات.

إذ من أجل أن يصل المرء إلى مبتغاه، لا بدّ أن يمضغ من القات ما قيمته روبيتين على الأقل، أي ضعف الأجر الذي يناله المدمن العادي إذا عمل عشر ساعات في اليوم. ويشتري هؤلاء عادة، نوعاً رخيصاً من القات. وقد شاهدت كناسي الطرقات يقفون في الصفوف الطويلة في السوق، قابضين على «الأنات» القليلة التي معهم أو التي تسوّلوها في الطريق، ثم يلبثون أن يصرفوها كلها بحيث لا يبقى لديهم بدل طعام أو مأوى، فيجوعون وينامون في الطرقات، لكنهم لن يتخلوا عن هذا الزاد اليومي.

وينظر الجيل الجديد من العرب إلى هذه المسألة بخوف متزايد. وقد لاحظت

خلال حفل بعد الظهر أن بعض الشبان لم يمسّوا الورق الأخضر، بل جلسوا هناك صامتين، فخورين بأنهم بداية الاعتراض على عادات جيل غارق. وقد قال لي أحد هؤلاء «إن القات هو مفسد أهلنا. إننا لن نحقق أي أحلام كبرى ولن نستعيد أمجادنا الغابرة إذا ما استمرت عادة هذا المضغ السيئة. ويجب ألا تنسى أن هذه الورقة الخضراء البريئة المظهر هي أخطر مخدّر في العالم، وأن مضاعفاتها أكثر خطورة من مضاعفات الأفيون. إنها تفقد الجسم البشري مناعته وتعرضه للإصابة السريعة بالمرض. والقات يبعث الكسل في النساء والرجال، فيتحولون وهم بعد في الشباب من العمر إلى جثث لا تقدر على فعل شيء غير مضغ المزيد من القات. إننا نحارب القات كما نحارب الكحول، لكن للأسف لم ننجح وهذه النبتة لا تزال توقع المزيد من الضحايا».

والواقع أن الحظر هنا لا يشمل حتى المخدِّرات الأشد خطورة من القات. ولا أستطيع أن أفهم كيف أن المخدرات الممنوعة والمطاردة في كل العالم تباع هنا علناً في المخازن. ولم أصدق عيني حين رأيت مكتوباً بالخط العريض على باب أحدها «مجاز في بيع الأفيون والحشيشة».

إن «أقبية الأفيون» في عدن هي عبارة عن مخازن صغيرة، نظيفة، يديرها جميعاً الهندوس. وحتى بضاعتهم تأتي أيضاً من الهند. وقد أمضيت صباحاً كاملاً في أحد هذه المحلات، لكن برغم أنني أمضيت أربع ساعات فإنني لم أشاهد سوى زبون واحد. كان هذا فقيراً معدماً ومن منبوذي المجتمع، وقد غطى جسده الناحل بثياب بالية واحمرّت عيناه ولم تكن له عضلات بل مجرّد جلد وعظام. لم يكن في هذه الخرقة البشرية سوى الحشيشة. وقد اشترى ما ثمنه «اثنين» اثنتين، وأعطي مع المخدر الأبيض غليوناً وضع فيه المسحوق، ثم راح يدخن. كان يبتلع الدخان ويحفظه في رئتيه، ثم يضع يديه أمام شفتيه بشكل جيب وينفخ الدخان في هذا المستودع، ثم يعود فيتنشقه بعمق مرة أخرى. وسرعان ما تغيّرت ملامحه وارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية.

إن الأفيون ليس مرتفع الثمن في عدن وكل تالة (٢٥ غراماً) تكلف أقل من شلنين. غير أن القلائل من العرب يفضلونها على القات. ومعظم زبائن المخازن الهندية من كناسي الطرقات، لكن في الآونة الأخيرة أخذ يرتادها أيضاً أطفال تحت العاشرة من العمر. وبدلاً من أن يشتروا بقروشهم القليلة الحلوى، يشترون الحشيشة، ثم يختبئون تحت الشجر في حديقة الملكة فيكتوريا إلى أن يكتشف أمرهم شرطي ما وينتزع منهم المخدر. وليس هناك قانون يمنع دخول الأطفال إلى دكاكين الحشيش، لكن القيد

الوحيد هو عدم إعطاء أي فرد أكثر من زنة تالة واحدة كل مرة! وهؤلاء الشبان العرب الذين يحاربون القات يحاربون المخدّرات أيضاً ويقومون بأعمال الدورية بحثاً عن المدخنين الصغار الذين تزداد أعدادهم باضطراد.

هناك أربعة دكاكين مرخصة لبيع الأفيون والحشيش في عدن وواحد في التواهي. وتبلغ ضرائب الحكومة على هذه التجارة ٣,١٥٠ روبية في العام بينما تبلغ الضرائب على القات مئات الآلاف.

كان علي حسن رجلاً لا يقدّر بثمن. وحين عرف أنني انتظر بيأس شديد أي أنباء من اليمن، حاول أن يفعل أي شيء من شأنه أن يفرحني. وقد ترك خلفه مهنة الدلاّلين وهو الآن مترجمي الخاص. ومن أجل أن يملأ فراغ المدينة كان يحضر إلى غرفتي كل يوم الكثيرين من العرب، طيبين وملاعين. ومن خلال علي حسن استطعت أن أكوّن الكثير من الصداقات في عدن، وخصوصاً بين المواطنين.

أخذني علي حسن إلى الكثير من النوادي العربية حيث بدأت أعيش حياة مثقف عربي. وكان في عدن حوالى دزينة من هذه النوادي، أهمها «نادي الأدب العربي» الذي يرئسه سمو السير عبد القادر سلطان لحج. وقد منعت السياسة رسميًا من هذه النوادي التي أصر أصدقائي العرب أنها أقيمت لأسباب اجتماعية فقط. لكن مع ذلك فإن يقظة العقل السياسي لعرب عدن قد بدأت هناك. وكانت الأحاديث تدور عادة حول تزايد النفوذ الإيطالي في شمال إفريقيا والبحر الأحمر وحول ضعف الموقف البريطاني في هذه المنافسة، كما كانت تدور حول معاناة عرب فلسطين.

وكان يتزعم هذه النوادي الشبان العرب الذين تلقوا علومهم في جامعات القاهرة وبيروت وعادوا إلى عدن محمّلين ببذور الحداثة السياسية. وكانت جدران هذه النوادي مغطاة بالشعارات القومية «الجزيرة للعرب» و«أيها الشعب العربي اتحد»، كما ألصقت عليها صور مقطوعة من الصحف المصرية للجنود الأوروبيين يقومون بتعذيب المواطنين.

وفي النادي العربي كانت هناك صورتان يقدرهما الجميع: الأولى لزعيم عربي معتبر (عمار المختار) أعدمه الإيطاليون في طرابلس، والثانية لصف طويل من المشانيق العرب تتدلى أجسامهم من الشجر، وهم جميعاً من ضحايا الجنرال غرازياني حين كان حاكم ليبيا. لقد كانت هذه الصور شواهد على مزاعم موسوليني الذي أعلن نفسه «حامي الإسلام». وبدا لي أن السلطات البريطانية لم تكن تعرف أهمية هذه النوادي ولم تكن على أي صلة بأصحابها.

ذات مرة عرفني علي حسن إلى «صديقه» إسماعيل وقال فيه مديحاً كثيراً. لكن ما إن انصرف إسماعيل حتى انفجر علي حسن قائلاً: «لقد أبلغتك أن إسماعيل هو أعز أصدقائي، لكن تلك كانت كذبة كبرى. الواقع أنه أسوأ أعدائي، وهو أيضاً عدوك وعدو الجميع. إن الأجانب يدفعون له لكي يزودهم بالمعلومات المفيدة. هل ترى أنك لا تزال حديث العهد بعدن؟ إنك لا تعرف أن المدينة تعج بالجواسيس وجميعهم يعملون للإيطاليين. إنهم يدفعون لهم جيداً. إن إسماعيل يتلقى ٣٠ روبية في اليوم. اسمع جيداً ٣٠ روبية». وكان راتب علي حسن لديّ ٦٠ روبية في الشهر، بينما كان معدل رواتب العاملين في الميناء ١٥ روبية شهريًا.

ومضى علي حسن يروي لي ما يعرفه: «هناك قنصلان في عدن، القنصل الحقيقي بينهما لا يعرف شيئاً عن هذا العمل السري، أما القنصل الآخر فهو رئيس المنظمة السرية، ونحن هنا نسميه القنصل الفاشيستي».

طالما أثار نشاط القنصلية الإيطالية فضولي. وقد كان مقرّها الرئيسي في قصر صغير على الشاطىء استؤجر من سلطان لحج. وفي زيارتي الأولى إلى المكان لم ألحظ أي أمر غير عادي. فقد كان القنصل ينهمك في الاهتمام بالتجارة الإيطالية عبر الميناء، بينما كانت دائرة الجوازات تعالج مشاكل الصوماليين الإيطاليين والأحباش. لكن كان لا يطالب مركز آخر يقع قبالة فندق الهلال، وهو مبنى يسمى «كازا ديتاليا» حيث جعل القنصل الفاشيستي مقرّه الرسمي. ظاهريًا لم يكن في المبنى أي شيء غير طبيعي. فقد استأجرته الحكومة الإيطالية من أجل أن تحافظ على الروح الفاشية لدى رعاياها الذين يعيشون في عدن.

في هذه المكاتب كان القنصل الفاشيستي يلتقي المواطنين الذين كانوا على استعداد لأن يؤدوا له الخدمات المأجورة. وهنا أيضاً كان يدعو الوجهاء العرب إلى أمسيات مجانية تلقى خلالها المحاضرات أو تعرض الأفلام التي تظهر قوة إيطاليا الفاشية وعظمتها.

وقد قال لي علي حسن إن «إسماعيل أخذني معه إلى هناك قبل أشهر قليلة حين كنت مثقلاً بالديون. يومها روى لي كل شيء ورحت أصغي وأنا غير قادر على تصديق ما أسمع».

ومضى علي حسن يقول «كان القنصل الفاشي لطيفاً جدًا معي. قدّم لي الحلوى والعصير وقال لي: إنك ولد ذكي يا علي، ويجب أن تربح المزيد من المال، فما رأيك في أن تذهب إلى حضرموت لكي تبيع بعض البضائع الإيطالية هناك؟ معلّبات غذائية

مثلاً؟ إنني أعرف شركة إيطالية كبرى وأستطيع أن أقنعهم بمنحك وكالتها. وسوف تغطي الشركة تكاليف رحلتك إلى هناك، ولدى عودتك تعال إليّ فقد يكون لديّ شيء أفضل لك».

وتابع علي حسن «لم يكن هناك شيء في العرض. وفي أي حال كان هو القنصل وكنت أعتقد أنه يمثل التجارة الإيطالية فعلاً ولذا قبلت عرضه. وحين عدت بعد بضعة أشهر راح يطرح علي أسئلة غريبة مثل: هل الناس هناك مرتاحة؟ هل هناك أي تذمر في الداخل؟ هل أرسل الإنكليز أي حملات تأديبية إلى هناك! وطلب مني أن أعطيه أسماء مشايخ القبائل البارزين، وعندها فهمت أنه يستخدمني كجاسوس، فشعرت بندم شديد وذهبت فوراً إلى ضابط في السلاح الجوي الملكي أعرف أنه حقيقة في الاستخبارات وأطلعته على كل شيء ومنذ ذلك الوقت امتنعت عن الذهاب إلى «كازا ديتاليا» وحين أرى القنصل الفاشي في الشارع أحاول تجنّبه. لكنه في أي حال استطاع أن يثأر مني. إذ قبل شهرين ذهبت إلى الحبشة في عمل تجاري. ولدى وصولي إلى جيجيغا اعتقلني الإيطاليون فوراً قائلين لي: أنت جاسوس بريطاني وسوف نعدمك غداً. وأبقوني في السجن أسبوعاً كاملاً ثم أفرجوا عني فجأة. إنني أخاف من الإيطاليين».

ووعدني علي حسن بالمزيد من المعلومات: «تعال إلى منزلي الليلة وسوف أعرفك إلى عدد من العملاء الإيطاليين. إننا نعرفهم جميعاً ولا بدّ لك أن تتعرف إليهم أنت أيضاً».

ما إن غادرني علي حسن حتى دخل عليّ إسماعيل من جديد. لقد كان من ذلك النوع من الرجال الذي إذا رميته من الباب عاد من النافذة. كان يأتي ويجلس في غرفتي ولم أكن أملك إلا أن أقذف به خارجاً حين يأتيني زائر ما. لكن حتى هذه الرفسة كان يتقبّلها بطيبة خاطر، فيعود بعد ساعة من الطرد كأن شيئاً لم يكن. وهذه المرة جاء وقال لي: «سامحني يا معلمي. أن ثمة فيلماً يعرض الليلة في البيت الإيطالي وقد خطر لي أن الأمر قد يهمك». طبعاً كان الأمر يهمني.

لقد تسنى لي ذلك اليوم أن أعرف كيف يحاولون التأثير على السكان. وقد عُرض تلك الليلة شريط سينمائي عن الحبشة يصوّر التغييرات العجائبية التي حدثت هناك منذ أن استولى الإيطاليون على البلاد. وإلى جانب الفيلم ألقى القنصل محاضرة بالإيطالية نقلها إلى العربية موظف في القنصلية. وكان واضحاً أن المسألة كلها لم تقم من أجل الإيطاليين القلائل الحاضرين بل من أجل المواطنين الذين جاءوا بفرح إلى هذا الحفل المجاني بناء لدعوات شخصية.

ذهبت إلى «البيت الإيطالي» برفقة إسماعيل والشيخ صالح، وهو إمام في مسجد التواهي، يتمتع بالشهامة والخلق. وقد حاولت أن أمتحن مدى تأثير الدعاية الإيطالية من خلاله، فرأيت أن الشيخ صالح لم يكن معجباً تماماً بما رأى، بل على العكس أدهشه التسامح البريطاني بالسماح بمثل هذه الدعاية على أرض بريطانية، وقد قال لي بعد العرض «هل تتخيل أن يسمح لبريطاني بإقامة عرض دعائي مثل هذا في ليبيا أو في الصومال الإيطالي؟». ويبدو أن الشيخ لم يفاجأ كثيراً بهذا التسامح، فقد قال لي «إنه خلال الحرب (العالمية الأولى) حين كانت بريطانيا تحارب الأتراك، كانت مشاعرنا مع الأتراك لأنهم مسلمون مثلنا. وقد شنّ الجنرال التركي علي سعيد باشا حملة ضد الإنكليز في عدن ووصلت قواته إلى مسافة ١٢ ميلاً من البقعة التي نقف عليها الآن. لقد استقبلناهم استقبال المحررين ورفضنا أن نحيي العلم البريطاني بينما انحنينا لعلم السلطان. ولم تبذل السلطات البريطانية أي شيء لمنع ذلك. وإني أسألك، أين هم الأتراك اليوم؟ لقد اختفوا من هذا الجزء من العالم بينما البريطانيون لا يزالون معنا. إن مصير إيطاليا سوف يكون ذات يوم مثل مصير الأتراك أما بريطانيا فهي باقية».

من البيت الإيطالي توجهنا إلى منزل علي حسن حيث كان بعض الشبان في انتظارنا، ولم يكن هؤلاء سوء «الجواسيس الإيطاليين» الذين وعدني بهم علي حسن. لم يكونوا طبعاً يعرفون أنني أعرف سرّهم، وما لبثوا أن بدأوا في إلقاء العظات الموكلة إليهم. إن العربي لا يستطيع أن يحفظ سرًّا، وإذا ما أُمنت أحدهم على سرّ راح يشعر بألم الكبت، ولذا ما إن تشجعه ببعض كلمات حتى يبوح بكل شيء.

لذلك نادراً ما تستخدم بريطانيا مخبرين عرباً. وحيثما هناك يونانيون أو أرمن يكون هؤلاء الأوروبيون المساكين هم المخبرون. وفي عدن حيث ليس هناك يونانيين على اتصال بالمواطنين، فإن اليهود هم الذين يعملون للبريطانيين. أما الإيطاليون، فإنهم يعتمدون على المخبرين العرب ولذا فإن أسرار القنصل الفاشي ليست سوى أسرار معلنة. ويعرف البريطانيون هذه الأسرار قبل وصولها إلى الإيطاليين مع أن الإيطاليين هم الذين يدفعون ثمنها. وهنا، في بيت علي حسن، في هذا الاستعراض للعملاء الإيطاليين، راح هؤلاء الرجال يتبادلون باعتزاز المعلومات التي يملكونها.

بعض هؤلاء الشبان في منزل علي حسن كانوا من الذين يجمعون الإشاعات التي تمتلىء بها الأزقة الضيقة في سوق عدن. وكان البعض الآخر من النوع الذي توكل إليه مهمة بث الإشاعات بين المواطنين حول وحشية البريطانيين واضطهادهم للناس في مصر وفلسطين والعراق. وكان على البعض الثالث أن يؤمن القنصل الفاشي لائحة

بأسماء جميع سكان عدن. وكانت هذه اللائحة ترسل فوراً إلى روما حيث تستخدم أفضل استخدام. إذ لا يمضي وقت قليل حتى يبدأ أهالي عدن بتلقي الرسائل من... روما. وكان مثل هذا الأمر حدثاً كبيراً بالنسبة إلى أولئك الناس الذين لم يتلقوا رسالة واحدة في حياتهم من أي مكان. والآن، مثل سهم من السماء الزرقاء، تأتي هذه الرسائل من روما.

وكانت هذه الرسائل تتضمن منشورات وبرامج المحطة الإذاعية في «باري»، جنوب إيطاليا، التي تبث برنامجاً يوميًا خاصًا إلى العالم العربي. ولم تكن أكثرية الناس تملك أجهزة استماع، لكن البرنامج المطبوع بأناقة كان يلقى استحساناً كبيراً. كذلك عثرت في بيت علي حسن على كتب مطبوعة في إيطاليا وموجهة إلى العرب الذين تحت الحماية البريطانية.

غير أن الإذاعة العربية من راديو باري كانت الأكثر خطورة. وقد أبلغني هؤلاء الشبان أن القنصل الفاشي قد عثر على طريقة لتخطي ندرة أجهزة الراديو في عدن، إذ أمر أفراد الجالية الإيطالية بأن يرفعوا صوت كل مذياع لديهم أثناء بث برامج «باري» العربية وأن يفتحوا النوافذ كليًا. وكان العرب يتجمعون عادة لسماع الأنباء ثم يدخلون في مناقشات حادة بسببها.

كنت في منزل أحد الوجهاء العرب حين بثت «باري» نبأ تحوّل إلى وقود جيد للنقاش. فقد ذكرت الإذاعة أن قبائل عدة في المناطق المحيطة بعدن قصفت وأن الطيران الملكي استخدم الغاز السام ضد هؤلاء المساكين!

تنتشر الأخبار في شبه الجزيرة كلّها «بسرعة التلغراف» كما يقول برترام توماس! لكن لو كانت المنطقة قصفت فعلاً لكنا عرفنا ذلك الآن، غير أن عدن لم تسمع شيئاً عن القصف لأنه في الحقيقة لم يقع. ولذا اتفقنا جميعاً على أن الغارات كانت من صنع المخيلات في روما. إلا أن هذا الكلام لم يعجب الشبان الذين كانوا في بيت علي حسن «من يدري؟ إن أشجار الغابات لا تتحرك ما دام ليست هناك رياح».

وحين وصلت الصحف اللندنية بعد أسابيع قليلة قرأت أن ذلك النبأ قد أثار الحكومة وأن وزير الخارجية أنطوني إيدن أبلغ مجلس العموم بأنه طلب من السفير البريطاني في روما الاحتجاج لدى الحكومة الإيطالية. وقد قبلت روما الاحتجاج مع اعتذار رسمي، إلا أن العرب لم يعرفوا شيئاً عن حقيقة تلك الأكاذيب الدعائية.

مضت الأيام طويلة وبطيئة ورحت أفكر بالخروج من عدن والسفر إلى الداخل،

لكنني سرعان ما تذكرت أن لا أمل هناك بالتسلّل خارج حدود عدن. فالمناطق الداخلية كانت مفتوحة فقط أمام المواطنين الذي كان في إمكانهم الدخول إلى عدن والخروج منها بحرية. أما بالنسبة إلى الأوروبيين، بمن فيهم الإنكليز، فإن كل ما هو خلف عدن كان أرضاً محظورة.

وقد حذرني الكولونيل ليك من أن «في إمكانك التنقل بحرية في عدن وأن تسافر حتى منطقة «الشيخ عثمان» لكن إذا أردت السفر أبعد من ذلك فتعال إلى مكتبي. سوف تحتاج إلى إذن خاص».

ويتولى العسكر مراقبة طرق السيارات وطرق القوافل على السواء. وقد حاولت مرات عدة أن أغافل أولئك الحراس، لكن لا المال ولا الكلام المعسول أقنعهم بأن يديروا وجوههم عني. وتفضل الحكومة أن تراقب باستمرار أولئك الذين يحاولون، لسبب أو لآخر، أن يعبروا أراضي الجزيرة الواقعة تحت الحكم البريطاني. ومنذ أن زادت إيطاليا محاولات الضغط هنا، صار من الأكثر صعوبة على المسافرين الأوروبيين الحصول على أذونات التنقل. ولا جدوى لأحد بمحاولة التسلّل عبر هذا الحصار، لأن أي محاولة تعرض صاحبها للترحيل.

لذلك عندما رحت أستعد للسفر إلى مملكة لحج الصغيرة، بناء على دعوة سلطانها، صاحب السمو السير عبد القادر، كان أول ما فعلته هو الحصول على إذن بالسفر. وقد شعرت بشيء من التميز حين تبين لي أن لا اعتراض على رحلتي. لكن برغم تأشيرة المرور، كان لا بدّ من بعض الصعوبات.

كانت هناك، أولاً، مسألة النقل.إذ إلى سنوات قليلة خلت، كانت لحج تتصل بعدن عبر خط حديدي يبلغ طوله ٢٥ ميلاً. وفي الآونة الأخيرة تخلّت الحكومة عن هذا الخط، بدعوى أنه غير مجد تجاريًا، فيما قال آخرون إن له قيمة استراتيجية تضايق حكام عدن الحاليين. مهما كان السبب، فإن الخط قد اختفى واختفت معه سكة الحديد الوحيدة في منطقة تبلغ مساحتها ١,٢٠٠,٠٠٠ ميل مربع، أي ثلث أوروبا.

وقد استبدلت قطارات لحج البدائية بباصات لخدمة الركاب الوطنيين فقط. وكان معظم النقل في أي حال يتمّ عبر القوافل التي لا عدّ لها، تماماً كما كان يتمّ عبر القرون، أي في الصراع بين الخط الحديدي الحديث وبين الجمل، لا شك أن الجمل خرج منتصراً.

عرف حاجب الفندق بمحنتي فجاء يعرض عليّ المساعدة. وقال لي إن ثمة سائقاً صوماليًا يستطيع أن ينقلني في سيارته. كان اسمه محمد.

ولم يكن لمحمد سوى طموحين في الحياة: الأول، أن يعمل في خدمة الملك عبد العزيز آل سعود، والثاني أن يتمكن ذات يوم من أن يقود سيارة رولز رويس. وتأكيداً للأمنية الأولى، فقد غطى جدران منزله بصور العاهل السعودي.

كان اليوم جمعة حين بدأنا الرحلة، محمد وأنا، إلى لحج. وبعدما غادرنا عدن، كان علينا أن نعبر مركزين حدوديين، وقد كانا في عالمين مختلفين برغم أنه لم تكن تفصل بينهما سوى مسافة ٥٠ ياردة فقط. في المخفر البريطاني تفحص الجندي إذن المرور بسرعة، ولما قرأ توقيع الكولونيل ليك رفع الحاجز الخشبي وأشار علينا بالتقدم: ها هي المنطقة المحرمة تنفتح أمامي!

على مرمى حجر فقط كان هناك مخفر جنود السلطان، وهو مبنى من الطوب العتيق. وحين أوقفنا السيارة كان الحراس في قيلولة، فأيقظهم محمد بنفخة قوية من البوق، فدبت فيهم الحياة وجاءوا يتفقدون تأشيرتي. وعندما علم رئيس المخفر إنني بريطاني راحت الأمور تتباطأ، وحاولت أن أشرح له إنني ضيف السلطان، لكنه طلب أن يرى الإذن المعطى من السلطان.

وقال لي «إن كل ما معك هو إذن إنكليزي. والإنكليز أسياد في عدن، أما هنا فهم لا شيء. نحن أسياد في هذا البلد وإرادتنا تسود»! تلك كانت كبرياء طفولية تعيش في قلب كل عربي وتمنعه من أن يقر بخضوع بلاده للغريب.

بعد مساومة قصيرة، دعمت فيها حجتي بشيء من «الأثاث»، رفع الحاجز أخيراً وخرجنا من المنطقة المحايدة التي تفصل عدن عن لحج. وإذ رحنا نتعمق في الصحراء أخذت الطريق المعبدة تختفي شيئاً فشيئاً، كأن ساحراً ما يسحبها من تحتنا. وبدأ مركز الجمارك، الذي يسمونه هنا «دار الأمير» يتضاءل هو أيضاً في البعيد خلفنا إلى أن أختفى تماماً كأنما ابتلعته الصحراء التي أحاطت بنا من كل جانب.

هذا البطاح الرملي الذي يربض مثل فاصل ضخم بين عدن ولحج، هو جزء من الربع الخالي، أو شعلة الصحراء التي أطلق عليها (عبدالله) فيلبي لقب «الربع الخالي». وإلى الشمال والجنوب تفصل سلسلة جبلية هذا المهماز عن الصحراء الأم، لكن حتى هذا الوليد الصغير يعطي فكرة كافية عن خواء الصحراء العربية العظيم.

كانت هناك ريح لطيفة ترسل أنسامها فيما أخذنا نقطع هذه الغابة الرملية، فترفع

الحبات المخملية البراقة وتملأ الجو بالملايين منها. وما إن اشتد وهج الشمس حتى لمعت كأشعة الذهب. ثم هبت من الشرق فجأة ريح معاكسة، وحيث التقتا توقف الرمل المتراقص وراح يتساقط على الأرض مثل النيازك. كانت الريح تداعب الرمال مثل أطفال على الشاطىء، فتكوّن منها أحياناً كتلاً في شكل قلاع مصطفة في وجه الشمس عبر الأفق.

هذه الرتابة المحزنة في الفراغ، لم تكن تقطعها تلك الأشجار القليلة أو أجمات العشب المكسوة بالغبار. ولم يكن هناك شيء يرشدنا: لا مراكز، ولا حفر، لا طرقات، لا قرى، لا بيوت. وكان مذهلاً أن ترى محمد يعبر المسافة كمن يبحر من دون بوصلة.

رحت أفقد، ببطء، الإحساس بالوقت. ولم أعد أعرف إن كانت هي الساعات أم الدقائق قد مرّت. فزرقة السماء وصفرة الرمال لم تبقِ مجالاً لمعرفة المسافة أو الزمن، وما كان هناك شيء سوى السماء والرمال. ومن حين إلى آخر، كنا نلتقي قوافل متجهة إلى عدن حاملة منتوجات تلك الأرض الواقعة خلف الجبال: الخضار والقات والجلود وأكياس البنّ. وحيثما مررنا كنا نقطع على الصحراء هدوءها اللامتناهي، وكان أطفال القوافل يصرخون بنا «بقشيش. بقشيش».

لقد لاحقتني كآبة الصحراء ورتابتها المخيفة حتى وأنا في سيارتي الحديثة والمريحة، إلى أن وقعت عيناي فجأة على مشهد مذهل، فعرفت أنه حتى في هذا العراء القاسي، ثمة أيادٍ بيضاء! إذ كل بضعة أميال، كانت تتدلى من شجرة يابسة، جرتان من الفخار مليئتان بالمياه. وهذه الجرار تعلق في كل طريق تمرّ بها القوافل، وتعلق إلى جانبها جرة صغيرة للطيور التائهة. ليس هناك من يعرف من وضع قانون الصحراء هذا. لا أحد يعرف من يعيد ملء الجرار. لكن أي تائه جففت الهواء الحار حلقه يستطيع دائماً العثور على نقطة مياه منعشة.

ورأيت عند أحد هذه الأشجار ـ الينابيع مجموعة من الرجال يشربون. وعندما رأوا سيارتنا أخذوا يلوحون ويقفزون ويرقصون في الطريق طالبين إلينا الوقوف. توقفنا. واتجه إلينا رئيس المجموعة، وهو شاب عربي وسيم أجعد الشعر، ووقف أمام السيارة قائلاً «السلام عليك يا سيدي النبيل والحمدلله أنه أرسلك في طريقنا لكي تدلنا على حياة أفضل».

كان هؤلاء الرجال يمنيين من قرية «شهارة» الواقعة خلف صنعاء، وكنت أنا أول رجل أبيض تقع عليه عيونهم. ويبدو أنهم قد تجولوا في الجبال والصحاري لأشهر

طويلة، يدفعهم إلى ذلك حبهم لرؤية العالم، وها أنا أمامهم، أول إنسان من العالم الخارجي.

أوضح لي أحدهم هدف الرحلة: عرفنا من رجال يبحرون في البحار أنه خلف المياه، حيث الأسياد الإيطاليين، هناك حاجة إلى رجال الشرطة من أجل ضبط سكان الحبشة المتمردين. ونحن كنا في الشرطة في «شهارة» والآن نريد أن نصبح شرطة إيطاليين. لكننا نخشى إن نحن وصلنا بيذلاتنا الممزقة من قسوة الترحال الطويل فإنهم سوف يرفضون خدماتنا بسبب مظهرنا السيء. لكن إن كنت أنت، أيها السيد النبيل، تستطيع أن توصي بنا لدى هؤلاء الإيطاليين الأبرار فإنهم بالتأكيد سيقبلون بنا».

نظر إليّ محمد من خلف المقود وقال «افعل ما يطلبون يا سيدي وإلا لن تستطيع التخلص منهم». وهكذا رحت، رغماً عني، أنص رسالة إلى «الدولة الإيطالية الكريمة» وأوصي بأصدقائي هؤلاء إلى عطف نائب حاكم الحبشة. لا أدري إن كانت رسالتي قد وصلت أم لا. ربما. إنهم بالتأكيد في حاجة إلى الشرطة في الحبشة.

بدأت الطبيعة تتغير بعدما تركنا اليمنيين بقليل وراحت تتبدى لنا البساتين والأشجار الخضراء والخصب وسط هذا الإطار الرملي. كانت هذه مزرعة صاحب السمو السلطان الذي أنشأ هنا، في قلب الصحراء، حدائق غناء تنمو فيها الأزهار والخضار. وقد صارت هواية السلطان ممكنة بسبب وادي دوغى القريب وهو جدول غني بالمياه معظم أيام السنة. وقد حولت مياه النهر ووجهت نحو الحدائق البدائية القديمة التي تركها أجداد السلطان. لكن حتى وسط نظام الري البدائي هذا، تزدهر أشجار المانغو والبابيا المستوردة من الهند وأشجار التفاح والإجاص التي استوردت من أوروبا وأشجار البرتقال والموز التي استقدمت من الحبشة.

وفي ظل تلك الأشجار بانت لنا سطوح قصور الحوطة، عاصمة لحج وعنوان اعتزازها! لقد غادرنا عدن في الثامنة صباحاً ووصلنا إلى الحوطة بعد العاشرة مساء بقليل، حيث راحت السيارة تعبر الأزقة الضيقة ببطء. كان اليوم يوم جمعة، وقد جاء الريفيون من قرب لحج للتسوق في المدينة أو لتمضية الوقت في هذه المدينة المثيرة. فقد كانت الحوطة بالنسبة إلى هؤلاء جميعاً ذروة الحضارة، فإن معظمهم لم يذهب إلى هناك.

يعيش في الحوطة حوالى ١٢٠٠٠ شخص، جلهم من عرب لحج ومن الهجور، وهم قوم طوال القامات أشداء ونشيطون جدًّا. ومعظم سكان شبه الجزيرة مختلطو العروق والأصول، إذ يتزوج الآباء من إفريقيات فتغلب على الأولاد الملامح الإفريقية

التي تخفي الجمال العربي. غير أن مواطني لحج يفاخرون بأنهم حافظوا على ملامح عرقهم المجيد. إن معظمهم أسمر اللون، لكن ملامحهم لم تتغير عبر القرون.

في ضواحي الحوطة، وأيضاً في «الشيخ عثمان» رأيت الصناعة الوحيدة التي يقوم بها المواطنون: زراعة نبتة النيلة، حيث يقف العرب في طوابير طويلة من أجل أن يصبغوا أجسامهم وعمائمهم. كانوا يأخذون بضعة ياردات من القماش ويغطونها في السائل النيلي، ثم يلفون القماش حول أجسادهم ويعودون إلى بيوتهم وهم متشحون بهذا الرداء الأزرق، حيث يمضون الليل ملتفين به، فيستيقظون صباح اليوم التالي وقد دكنت ألوانهم مثل النيلة.

كان اليوم يوم جمعة إذن، وقد انصرف العرب إلى اللهو، فتجمع كثيرون حول فتيات أخذن يرقصن في الرمل وهن يرددن أغنيات رتيبة متكررة، ترافقهن موسيقى الربابة ذات الوتر الواحد. وتجمع آخرون في مقاهي ومطاعم لحج المزدحمة. وملأت رائحة الخروف المشوي الأجواء وبدت البلدة كلها كأنها في مهرجان، كما تفعل كل يوم عطلة.

وصلنا إلى الساحة الكبرى حيث يقوم قصر سموه القديم. وأوقفت سيارتنا الجموع المحتشدة هناك فاخترقنا الجماهير بصعوبة، إلى أن وصلنا باحة القصر حيث كانت تقف حامية الحوطة المؤلفة من ٣٠٠ جندي، وهي القوة التي يسمح لسموه الاحتفاظ بها. بدت الحامية، التي يدرّبها بريطاني يدعى روبرتسون، في حالة تأهب بانتظار مرافقة السلطان إلى المسجد حيث يؤدي الصلاة. وعلى رأس الحامية كانت هناك فرقة موسيقية من ١٥ رجلاً. وكان الموسيقيون والجنود يرتدون بزات نظيفة غير أنهم كانوا حفاة، كما كانت كل الآلات الموسيقية الحديثة موجودة مع الفرقة.

وما إن عثرنا على نقطة مطلة حتى عمت المكان موجة من الحماس. وقد بدا في مدخل القصر رجل عملاق يحمل على كتفه بندقية قديمة، رفع يده وأصدر الأمر، وعم الصمت فيما تأهب الجنود تماماً واستعد الموسيقيون، ثم ظهر صاحب السمو، يتبعه شقيقه ثم ابنه ثم الحرس الخاص. وهدر المواطنون هديراً مهمهماً إشارة الترحيب، ثم راحت الفرقة الموسيقية تعزف نشيد لحج الوطني، وهو مزيج من الألحان العسكرية وضعه مساعد السلطان، وهو الأوروبي الثاني والأخير في السلطنة بعد روبرتسون، وقد عرفت أنه يهودي روسي.

تقدمت الفرقة الموكب ثم تبعتها الحامية وسار بعدهما صاحب السمو الذي راح يمشي بخطى بطيئة، جليلة، فيما الناس ترقبه بإعجاب واحترام. خلف السلطان سار

فصيل آخر من الجيش، وبعد مروره انضمت الجماهير إلى الموكب من أجل أداء الصلاة في المسجد.

لم يخل المشهد من تلك الأبهة الشرقية برغم بدائيته. وقد كان يتميز، قبل أي شيء بذلك المغزى الرمزي الذي يعطي السلطان صورة الأب الذي ينضم إلى مواطنيه البالغ عددهم ٣٠ ألفاً، مرة كل يوم جمعة. وما إن نزل من سيارته الفخمة حتى مشى إلى جانب أكثر مواطنيه بساطة. وفي هذا اليوم ترك السلطان جانباً ثيابه شبه الأوروبية، وارتدى سترة فوق الفوطة التي تصل إلى ركبتيه وتشبه لباس رجل اسكتلندي من الجبال. وكان السلطان يتحرك بجلال واضح ولم يكن جسده مصبوغاً بالنيلة مثل المواطنين.

كان موعدي مع السلطان مقرراً بعد الصلاة، وفي الانتظار استقبلني «الوزير عبدالله» وهو شاب يتولى شؤون الدولة. وقد خاطبته بلقب «معالي» غير أنه احتج على ذلك قائلاً يا له من لقب كبير لرجل صغير مثلي ودولة صغيرة. إنني لست سوى عبد سيدي السلطان ومنفذ أوامره، لا أكثر ولا أقل.

كانت سيارته «الاوستن» الصغيرة تقف أمام منزله الضخم، فدعاني للجلوس إلى جانبه ثم توجهنا إلى حدائق سموه الخاصة والاوستن الصغيرة تخوض معركة قاسية ضد الطرقات الصعبة، وأخيراً وصلنا وقد خُضِخْضْنا مثل زجاجة عقاقير. هنا كان الريف جميلاً وأخاذاً حقاً. وعلى حدود الحدائق استطعت أن أرى خزانات «وادي دوربار» المليئة بمياه الأمطار التي سقطت على لحج قبل أيام. والمطر ليس نادراً في لحج مع أنه نادر في عدن.

المطر في لحج ضروري كما هو أساسي بالنسبة إلى جميع الفلاحين في العالم. والذين يعيشون من الزراعة هنا يعتمدون طبعاً على الري الطبيعي الذي لا يملكون الكثير منه، لكن بين حين وآخر يتساقط المطر وتمتلىء الأنهر. وأحياناً تندفع المياه قوية من جبال اليمن فيطوف الريف بالمياه ويمتلىء وادي دوربار حتى يفيض، فتبتلع الأرض المياه وتخصب خصباً شديداً.

وتشبه حديقة سموه الخاصة، حديقة اختبارية، إذ إن كل نبتة في العالم ممثلة هنا. وبالإضافة إلى الزهور والنباتات المذهلة هناك مسبح جميل وملاعب لكرة المضرب، وأشياء كثيرة لم أكن أتوقعها في هذه الصحراء، غير أن سموه حريص، باعتباره ملكاً بريطانياً، على أن ينقل إلى بلاده الحضار البريطانية التي تبدأ، طبعاً بملاعب التنس.

لقد اكتشفت في «الوزير عبدالله» أكثر العرب ذكاء بين الذين قابلتهم خلال رحلتي كلها. كان على علم بكل ما يدور في العالم، وكان قلقاً لما يجري في أوروبا خوفاً على مصالح بلده التي لا يمكن أن تتأمن إلا إذا كانت القارة هادئة. وقد شكا من موقف بريطانيا الضعيف تجاه الدول الفاشية. ولما قلت له إن سبب ذلك رغبة بريطانيا في السلام اعترض قائلاً «أي سلام؟ أين هو ذلك السلام الذي تحاول الحكومة البريطانية الحفاظ عليه؟ أليست هناك حروب في الحبشة وإسبانيا وفلسطين؟ ألا يموت ألوف الأبرياء كل يوم؟ ألا يفوق عدد هؤلاء أولئك الذين قتلوا في معارك الحرب (الأولى)؟ لماذا المحافظة على سلام خيالي في حين أن حرباً حاسمة قد تؤدي إلى سلام حقيقي؟».

وأخبرني «الوزير عبدالله» أن «دخل سموه ضئيل. حوالى ٢٧٥ ألف روبية (نحو ٢٠ ألف جنيه) في العام. إن هذا المبلغ الضئيل لا يمكننا من بذل أي مصروفات غير ضرورية، إذ على السلطان أن يدفع منه جميع مصاريف البلد ومصاريف الجيش وتكاليف قصوره الثلاثة في عدن والحوطة وعليه أن يساعد أقرباءه. ومع ذلك كله فقد وفرنا المال لإقامة بعض المؤسسات على الطريقة الأوروبية هلمّ بنا نتفقدها».

ومن الحديقة أخذني «الوزير عبدالله» إلى المستوصف الذي يكلف خزينة السلطان عشرة آلاف روبية في العام. وحين قابلت السلطان بعد الظهر هنأته على المستشفى الصغير فارتاح إلى ذلك وقال «إن بلدي مليء بالأمراض، الملاريا، السل والزنطاري وغيرها. إلا أننا نجحنا في خفض الإصابات القاتلة ومنعنا انتشار الأوبئة كلها. وهذا هو المستشفى الحديث الوحيد، ليس فقط في لحج بل في اليمن أيضاً. وفي إمكانك أن تدرك مدى أهميته حين تعرف أن ١,٥٦٥ يمنياً عولجوا فيه خلال عام، وبعضهم سار على قدميه لمدة أسابيع طلباً للعلاج. إنني سعيد لأن بعض أهلي يلقون المساعدة الطبية».

بدا السير عبد القادر سلطان لحج رجلاً عصرياً بكل معنى الكلمة. وفي السنوات الماضية كانت الإدارة البريطانية تواجه مشاكل كثيرة مع القبائل المتمردة في الداخل ولذا كانت ترسل حملات تأديبية كل يوم تقريباً إلى الأرياف. وقد حاولت حكومة بومباي أن تعثر على حل لهذه المشكلة، فكان أن استنبط أحد الموظفين الهنود ما عرف فيما بعد باسم «نظام قداح»، وهو الوسيلة التي تستخدم في الهند لترويض الأفيال. وقد اعتقد البريطانيون بقوة أن في إمكانهم تطبيق هذه النظرية على العرب.

وبموجب هذه النظرية يعمد صيادو الأفيال إلى أسر فيل واحد، ثم يمضون عاماً

كاملاً في ترويضه. وفي نهاية العام يطلق هذا الفيل في الأدغال وتطلق حريته. وقد تبين أن تأثير هذا «الفيل المتمدن» على الغابة كبير جداً، إذ هو الذي يتولى بعد ذلك تدجين الفيلة الأخرا

في العام ١٩٠٥ اختبر السلطان لأن يكون هو «القداح» في لحج. وفاقت نتائج هذا الاختبار كل التوقعات. فالمدنيّة التي حقنت في سلفه حقناً اصطناعياً أصبحت تقليداً مقدساً بالنسبة إلى السير عبد القادر، إنه رجل متحضر عن اقتناع، وهو في تصرّف السلطات البريطانية كلما برزت أي اضطرابات في الداخل. إنه محترم ومقدّر، ليس فقط من البريطانيين بل أيضاً، وهذا الأهم بكثير، من مواطنيه. وحين تنعقد أي طاولة مستديرة في عدن لحكام المنطقة يكون صاحب السمو هو رئيس التجمع. لقد نجحت نظرية القداح!

بدا السلطان متحمساً جداً للمنجزات المعاصرة التي رآها متمثلة في البريطانيين. غير أنه كانت لديه أيضاً بعض الشكوى منهم. ذلكم أن سلفه، الذي هو شقيقه، قتل في المعركة وهو يدافع عن البريطانيين ضد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى. لقد كانت تلك خاتمة محزنة لحادث غريب! كانت قوات سعيد باشا قد ألحقت الهزيمة بجيش السلطان الذي اضطر إلى ترك الحوطة على عجل والانسحاب نحو «الشيخ عثمان» التي كانت تحميها قوات هندية تابعة للجيش البريطاني.

غير أن الانسحاب كان مفاجئاً بحيث لم يستطع أن ينذر أحداً بذلك. ولما وصل في ظلام الليل مع خيالته إلى جوار «الشيخ عثمان» ظن البريطانيون أن الأتراك شنوا هجوماً جديداً فراحوا يطلقون النار وقتلوا بذلك عدداً كبيراً من مقاتلي لحج الأشداء وألحقوا بالبعض الآخر إصابات قاتلة، كان بينهم السلطان نفسه.

وقد حزن عبد القادر حزناً شديداً على أخيه لكنه لم يكن لهم الضغينة. وهو يقول بإيمان «الله أعطانا إياه والله أخذه». وينعكس حماس السلطان لكل ما هو بريطاني في فرش القصور الذي استورد كله من لندن، مع أن الهندسة المعمارية وضعها مهندسون عرب على الطراز العربي الجميل. وقد اختار السلطان أن يفرش بهو الاستقبال الرئيسي بطريقة بدا معها وكأنه بهو الملك جورج السادس.

في المساء، ساعة استقبال السلطان للناس، ألتقيت شقيقه السلطان أحمد، الذي كان أكثر تحضراً منه أيضاً، وكان هذا يعثر أن أحلامه أكبر من حجم بلده. سررت كثيراً بزيارتي إلى لحج، لكنني لم أبق هناك سوى يوم واحد لاضطراري إلى العودة إلى عدن.

في طريق العودة من الحوطة إلى عدن لم تكن سيارتي سوى واحدة من موكب مختلط. انضممت إلى سلطان لحج المسافر إلى عدن لحضور احتفالاتها الرسمية بكونها أصبحت إحدى مستعمرات التاج. وكانت تتقدم الموكب سيارة السلطان «الاوستن» الرائعة، التي صممت على طراز السيارات التابعة لبلاط السان جيمس، تتبعها سيارة «الوزير عبدالله» العتيقة وأخيراً سيارتي، أو بالأحرى سيارة محمد الجديدة من طراز «غراهام - بيج».

وصلنا إلى عدن بعد حلول الظلام، وكانت المدينة مضاءة بالزينة خصوصاً لهذه المناسبة، وقد رفعت الأعلام فوق سطوحها، وأقيمت قبالة تمثال الملكة فيكتوريا منصة خشبية لكي يجلس عليها الحاكم العام وضيوفه. أما أنا فكنت ذلك المساء على موعد، وكان عليّ أن أسرع إلى الفندق لكي أغسل نفسي من غبار الطريق.

لم يكن مضيفي سوى الضابط السياسي، الذي كان أول سؤال طرحته عليه بعدما رويت له تفاصيل الرحلة إلى لحج، «ما هي سياسة إنكلترا الحقيقية في حكم عدن؟».

كان جوابه هادئاً: «نحن البريطانيون نفتخر بأننا قوم غير فخورين، كما قال تشسترتون ذات مرة. وسياستنا هي أنه ليس لدينا سياسة محددة، بل نحن نعالج المشاكل وفق حدوثها. لا أحد يستطيع أن ينكر أننا نواجه هذه المشاكل بشجاعة وكفاءة! إنك تحدثني عن الدعاية الخطرة التي يقوم بها الإيطاليون. لكن اذهب واسأل المواطنين رأيهم. إنهم يثقون بنا لا بالإيطاليين. إن الإيطاليين ينجحون فقط مع أولئك الذين يمكن شراؤهم، ولن يكون من الصعب علينا أن نشتري هؤلاء عند الحاجة بمجرد أن ندفع روبية إضافية واحدة. فلماذا نصرف المال على هؤلاء المحتالين؟».

قلت معترضاً: «لكن الكولونيل جاكوب، السكرتير السياسي السابق، قال قبل سنوات قليلة إن شبه الجزيرة تطلعت إلى بريطانيا منذ الحرب كصديقة لها، أما اليوم فإن بريطانيا مهددة بأن تخسر هذا الموقع»!

أجاب «نحن في عدن منذ مائة عام، ونحن نعرف البلد وشعبه. لقد مروا بأوقات حسنة وأوقات صعبة خلال هذه الأعوام المائة، لكنهم في كل الحالات حافظوا على ولائهم لنا لأنهم يشعرون، بطريقة ما، أننا موالون لهم. إن هذه الثقة تجعلني مطمئناً إلى المائة عام المقبلة».

كان محدثي حجة في تاريخ عدن، وقد راح يروي لي حكاية الأحداث التي أدت إلى السيطرة على المدينة قبل ٩٩ عاماً تماماً! ففي العام ١٨٣٩ قام «البلاط الموقّر

لمدراء شركة شرق الهند»، التي كانت في الواقع تملك الهند كلها، بإرسال «الكابتن هينز» إلى عدن بهدف شرائها من السلطان محسن، سلطان لحج! وكانت عدن يومها قرية يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ نسمة، معظمهم من الفقراء الخاضعين للسلطنة ومركزها الحوطة.

في تلك المرحلة كانت السفن البخارية على وشك أن تحل محل السفن الشراعية، وكانت شركة شرق الهند في حاجة ماسة إلى مركز لخزن الفحم الحجري من أجل سفنها المبحرة من إنكلترا بطريق رأس الرجاء الصالح. كانت عدن هي النقطة الوحيدة الصالحة لذلك، ولذا كان يجب أن تخضع!

لم يكن «المدراء الموقرون» يستسيغون كثيراً كلمة «الغزو» ولذلك تقدم الكابتن هينز من السلطان بعرض الشراء «ووجد هذا العربي العجوز مليئاً بكل صفات الخبث والدهاء والبخل التي يتمتع بها أي آسيوي». وكان مستعداً للمساومة، وقد عرض الرقم الذي يريده. غير أن ابنه أحمد وزعماء القبائل المستقلين رفضوا الصفقة. وبعد محاولات إقناع يائسة والكثير من الرشاوى تعلم هينز المثل العربي القائل إن رفسة يجب أن تسبق أي نقاش. وهكذا عاد إلى بومباي وأبلغ رؤساءه أن عدن يمكن أن تضم فقط بالقوة العسكرية.

بعد مضي وقت عاد هينز إلى عدن على رأس جيش مقاتل. وكانت شركة الهند تبحث عن أية ذريعة للقيام بالغزو، ولذا عندما هاجم قراصنة السلطان سفينة الشركة «داريا دولا» جاءت الذريعة على طبق من ذهب، وهذه المرة جدد الكابتن هينز العرض في ظل مدافعه.

وأوضح مضيفي أن جيش هينز كان صغيراً لقد جاء ومعه ٣٠٠ أوروبي و٤٠٠ هندي. وجه هينز مدافعه المهترئة فقط إلى قلاع العرب وبطاريات المدافع على الشواطىء، وظل يحاول الوصول إلى تسوية. واستقبل على ظهر السفينة موفد السلطان وعرض عليه ٨ آلاف ريال (وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت) لقاء استسلام عدن. لكن ما إن وصل العرض إلى السلطان محسن حتى كان قد انخفض إلى ٦ آلاف ريال، ذلك أن مبعوث السلطان فكر في نفسه وفي ثروته الخاصة في هذا الوقت العصيب.

«كان جواب السلطان مليئاً بالاعتزاز والثقة: فليأخذ الإنكليز عدن،أما أنا فإني لن أبيعها»! كان هينز يتوقع هذا الجواب ويستعد للهجوم. وفي ١١ كانون الثاني/ يناير ١٨٣٩، في الساعة ١١,٤٥ قبل الظهر نزلت القوات البريطانية في عدن وقام العسكري «مات روندل» برفع أول علم إنكليزي فوق بيت السلطان.

في معظم الحالات، كان الدور للمال لا للسلاح. وكان الضباط السياسيون يغادرون عدن ويسافرون إلى الداخل حيث يعقدون اتفاقات رسمية مع زعماء القبائل، وهي في غالب الأحيان اتفاقات مكتوبة بالكثير من البلاغة العربية وخالية من أي التزامات بالنسبة إلى الطرفين.

لم تكن العقود تأتي على ذكر أية جعالات، والواقع أن المعتمدية تنفي دفع أي مساعدات شهرية. وكان حجم هذه المساعدات يتوقف على أهمية الرئيس. لكن حتى أكبر تلك الجعالات بدت صغيرة لي. فقد كانت هذه من نصيب حاكم لحج، وقدرها ٥٠ جنيهاً في الشهر. لكن هناك زعماء قبائل في منطقة اليفاعي لا تزيد جعالاتهم على جنيه واحد شهرياً.

كانت بريطانيا توفر الأمن وتعاقب قطاع الطرق والقراصنة. وقد قال لي أحد الأوروبيين إنه في الوقت الذي توقف نظام الجعالات سوف يتوقف الولاء لها. إن العربي يحب المال لكنه لا يحب الحرص عليه. وثمة مثل عربي يقول «إن حسنة المال فقط في صرفه». والذين يتلقون المال من البريطانيين يعملون بهذا المثل، ولذا فهم في متاعب مالية دائمة.

في الأول من نيسان/ أبريل احتفلت عدن بالانضمام إلى التاج، بعدما كانت حتى الآن جزءاً من الإمبراطورية الهندية. وقبل أن أغادر بيت الضابط السياسي قال لي «اليوم تتحد عدن بالإرادة الحسنة والثقة المتبادلة. إن العرب يثقون فقط في الحكومات التي تتركهم لشؤونهم الداخلية. وقد اكتشفنا هذه العقلية العربية في وقت مبكر وحاولنا أن نتذكر دائماً هذه المهمة التي تعني، في رأينا، أن تتحكم بالعرب من دون أن تحكمهم».

أخيراً أبلغت أن الإذن بالسفر إلى اليمن قد وصل في رسالة حملها من صنعاء إلى عدن أحد التجّار الذي سلمها إلى علي حسن، الذي حملها إليّ فرحاً وأبلغني أن سفينة تسمى «أيامونتي» سوف تبحر إلى الحديدة تلك الليلة. فضضت الرسالة فإذا هي من وزير خارجية اليمن القاضي محمد بن راغب الذي كتبها بخط يده وبلغة فرنسية مهذبة جداً، وأشار في نهايتها إلى أنها وضعت «بأمر من ملك اليمن». وقالت الرسالة «إن جلالته يتكرم بإعطاء موافقته على دخولكم الحديدة باسم صديقنا المحترم المسيو كلار من أجل شراء جلود وفراء لشركته».

ذلك النهار كان قد هاجمني في مركز البريد رجل انهال «بالشتائم على الإنكليز». وقد قال لي علي حسن إنه محتال يغير دينه وفقاً لما يدفع له، وإنه كتب مقالات ضدي

في بعض صحف مصر، وهو الآن مخبر لدى السلطة اليمنية. لذلك ساورتني بعض المخاوف، لكن لم يكن لدي وقت أضيعه، فإذا لم أستقل الباخرة المبحرة تلك الليلة كان عليّ الانتظار أربعة أسابيع أخرى للباخرة التالية.

السفن المبحرة إلى اليمن قليلة جداً. ولذا حملت رسالة راغب بك واتجهت مسرعاً إلى مقر المعتمدية البريطانية وطلبت من أحد المسؤولين هناك إذناً بالسفر. وأعطاني المسؤول بدوره رسالة تعريف إلى رجل يدعى صالح جعفر قال إنه وكيل الحكومة في الحديدة، وهو ضابط سياسي محلي أدى خدمات جلّى في حضرموت، غير أنه كان مشلول الحركة تماماً في اليمن. وقال لي السكرتير السياسي إنه يجب ألا أتوقع كثير مساعدة من جعفر الذي يعتبر في اليمن غريباً غير مرغوب فيه.

كان يملك السفينة التي ستقلني بارسي يدعى كواسجي دنشاو، وهو ثري يملك ثلاثة بواخر صغيرة تعمل بين السويس والمكلا. ولم تكن لهذه البواخر أي رحلات منظمة بل هي تبحر من حيث تكتمل حمولتها وغالباً ما تغير وجهاتها وهي في عرض البحر. المسافرون غير مهمين ولا سفينة مخصصة لمنتجات البحر الأحمر: البن والجلود من الحديدة والجواهر واللآلىء من جيزان. وأحياناً كان المسافرون على هذه البواخر يستقلونها في عدن طلباً للسفر إلى بور سودان، لكن القبطان يتلقى في الحديدة تعليمات بالسفر إلى جدة فيغير وجهته فوراً. وآنذاك لا يعود أمام المسافر من بديل سوى أن يلف حول البحر الأحمر، يزور تقريباً جميع مرافئه فيما عدا المرفأ الذي ينشده، وبعد أربعة أسابيع يرى نفسه من جديد في... عدن!

أكدوا لي أن الباخرة مبحرة إلى الحديدة لأنها، في أي حال، المرفأ الأول. وقبل منتصف الليل بقليل كنت أصعد إلى الباخرة ومعي علي حسن، مرافقي، وخادم يدعى علي أيضاً! سميت الباخرة «أيامونتي» على اسم قرية صغيرة تقع على الحدود بين إسبانيا والبرتغال، لكن أحداً لا يعرف من اختار هذا الاسم لسفينة لا علاقة لها بإسبانيا أو بسمك السردين الذي يعيش على صيده سكان «أيامونتي» البالغ عددهم تسعة آلاف شخص.

لقد صنعت هذه الباخرة قبل أربعين عاماً في مدينة «كيل» الألمانية وبنيت خصيصاً للتجارة في بحر البلطيق حيث الشتاء طويل وقارس، ولذا فقد وضعت كل غرفها إلى جانب خلقين الوقود بحيث يشعر الركاب بالدفء. لا شك أن مثل هذا الأمر بركة في البلطيق لكنه لعنة في البحر الأحمر. وقد تركت غرفتي بسبب الحر الرهيب وصعدت إلى ظهر السفينة أمضي الليل كله نائماً على كرسي.

لكن ما إن طلعت أشعة الشمس الحارة في الصباح حتى هربت عن السطح من جديد. كانت «الأيامونتي» قد عبرت لتوها مضائق باب المندب وأخذنا نبحر قرب جزيرة بيريم بسرعة ٨ عقدات في الساعة. متجهين شمالاً. وكان الجانب الشرقي من الشاطىء يبين لنا بوضوح لأن البحر الأحمر يضيق في هذه المنطقة بحيث لا يزيد عرضه على ١٢ ميلاً. وقد اتخذنا طريقنا في محازاة الشاطىء الشرقي.

توجهت إلى الدفة لكي أقابل الكابتن سترونغ الذي كان تحت إمرته طاقم من ٢٠ بحاراً. كان سترونغ صديقاً لي من أيام عدن، حيث كنا نمضي الكثير من الأمسيات على شرفة «المارينا»! ثمة قدر غريب دفع بالكابتن سترونغ الذي كان ضابطاً كبيراً خلال الحرب، إلى بلاد الشرق. إذ ما إن أعلنت الهدنة حتى تقاعد وذهب إلى بيته في دورهام.

وفي ليالي دورهام الشتائية الطويلة تعرف إلى بحار قديم راح يروي له الحكايات والأساطير عن أسفاره إلى أن أقنعه بأن ينشئا معاً شركة تعود عليهما بالمال، وذلك بجمع روث الطيور وبيعه. وكان هذا الرجل محتالاً فما وجد سترونغ نفسه إلا مفلساً في عدن، وهو في السبعين من العمر، مما اضطره إلى قبول العمل الوحيد الذي عرض عليه، وهو قيادة «أيامونتي».

وقد نجح هذا الرجل الخبير، في ما يبدو للوهلة الأولى، في مهمة لا تحتاج إلى الكثير من العناء. فالبحر الأحمر بالنسبة إليه لم يكن يحمل أية أسرار، إذ إنه خلال السنوات التي مخر عبابه، طولاً وعرضاً، أصبح يعرف مزاجية التيارات في هذه المياه المتقلبة والرياح السريعة التغير، أكثر من أي إنسان آخر. كان يعرف عمق البحر الأحمر في أي نقطة منه، كما كان يعرف كل الموانىء الطارئة والعادية، وكان يعرف الخلجان المخبأة التي تتحول إلى ملاجىء في العواصف، ويعرف الجزر المرجانية فوق المياه وتحتها. لم يكن البحر يستطيع أن يفاجئه بشيء.

الواقع أنه كان القبطان الوحيد في البحر الأحمر الذي لم يتعرض لحادث، بعد ٣٦ ساعة بانت لنا الحديدة فرحت من على الجسر أتأمل ملامحها البعيدة، إلى أن اقتربنا منها أكثر فأكثر. وبدت لنا الحديدة الآن مثل أي مدينة ساحلية كبيرة، بيوتها عالية، بيضاء السقوف. ومن بعيد بدا رصيف الميناء مثل منتزه جميل على الشاطىء في جنوب فرنسا.

ما اعتقدت أنه ضيافة شرقية حقيقية ما لبث أن تبين أنه العكس تماماً. إذ ما إن استقريت في المنزل الذي قدم لنا حتى هممت بالقيام بجولة في المدينة، لكن ما إن

خطوت خارج الباب حتى أوقفني اثنان من رجال الشرطة كانا يقفان عند العتبة، بينما وقف آخرون في غبار الشارع يتكئون على بنادقهم. وقد بدا واضحاً من نظرات هؤلاء أنهم ليسوا حرس شرف على الإطلاق، بل إن رئيسهم دفعني إلى الداخل بفظاظة، وهو أمر لا يمكن أن يحدث في أي بلد شرقي آخر غير اليمن، حيث أهل البلد لا يزالون هم الأسياد ونحن الأجانب غزاة غير مرغوب فيهم.

شعر علي حسن بالحرج أمام هذا المشهد لكن حاول أن يطمئنني «ممنوع علينا يا سيدي أن نغادر المنزل إلى أن ندعى إلى المثول في حضرة الحاكم. لا شيء غير عادي في المسألة. فالتقاليد تقضي بأنه إذا حل أجنبي بالمدينة يجب أن تكون زيارته الأولى للمسؤول الأعلى فيها».

بتقاليد أو من غير تقاليد، عرفت أنني سجين هذا المنزل. لكن لحسن الحظ سمح لي باستقبال الزوار في هذه المدينة التي لا يزال وصول الأجنبي إليها يشكل حدثاً مهماً. وقد أبلغني علي حسن أن جميع المثقفين في الحديدة يريدون زيارتي، لكنهم ينتظرون لكي يعرفوا ما هو موقف الوزير مني. أما الوزير نفسه فهو لم يقرر بعد إن كنت صديقاً أو عدواً. وهكذا فإن الذين غامروا بزيارتي كانوا فقط أوروبيين أو رجالاً لهم عمل.

كان زائري الأول عربياً هو الوكيل المحلي للتاجر العدني الثري علي بزارة عمر، الذي أبلغني أن التاجر أوصاه بأن يقدم إليّ كل مساعدة أحتاجها. وبعد ذلك جاءني رجل من قبل صالح جعفر، الوكيل السياسي لصاحب الجلالة ملك بريطانيا، وقد أبلغني هذا تحيات سيده كما أبلغني أسفه لأنه، أي جعفر، ليس أفضل حالاً مني في الحديدة.

ثم فجأة وقف في الباب المستر «دي»، وهو شاب بريطاني هادىء، بالغ الوسامة. كان المستر «دي» واحداً من ثلاثة أوروبيين سمح لهم بالبقاء هنا، يشكّون بأمره في المئة من سكان المدينة البالغ عددهم ٣٠ ألفاً، أما الآخران فهما إيطالي وأرمني.

أخبرني المستر «دي» أنه حين أبلغته الشركة بنقله إلى الحديدة شعر بسعادة فائقة. وقد جاء إلى هنا و(معه «الغرامافون» وأدوات لعب كرة المضرب. لكن بعد قليل بدأت متاعبه في الظهور. وروى لي أنه ذات يوم من أيام الشتاء، أدرت موسيقى «الغرامافون» (الحاكي) وقد فتحت نوافذ البيت. وبعد قليل تجمع على النافذة عدد كبير من الناس وقد أثار فضولهم ما يسمعون. لكن أنباء العلبة الموسيقية الغامضة انتشرت بسرعة هائلة

ووصلت إلى الحاكم، فجاء رجال الشرطة وفرقوا الناس أما أنا فطلب إليّ أن أذهب في اليوم التالي للقاء الوزير.

«حين دخلت إلى ردهة الاستقبال صرخ فيّ قائلاً، أي أداة من أدوات الشيطان أحضرت إلى الحديدة؟ ما هي هذه الأداة الجهنمية التي تقلد صوت الإنسان؟ أحسست أن كلامي لن يكون ذا فائدة، فأرسلت خادمي إلى المنزل فأحضر إليّ «الغرامافون» فأدرته. ثم ذهبت إلى أبعد من ذلك كي أبدد شكوكه، ففككت الآلة كلها. وبعد ذلك اقتنع على الأقل أنني لم أكن أخفي قزماً شريراً في العلبة، لكنه مع ذلك رفض السماح لي بالإصغاء إليها قبل الحصول على إذن خاص من صنعاء».

بالفعل جاء الإذن من صنعاء، لكن الحاكم أوضح للمستر «دي» إصراره على الاقتناع بأن في الأمر مسألة شيطانية، ولذا يجب ألا يدع أحداً من المواطنين يصغي إليها! كذلك منع المستر «دي» من لعب كرة المضرب إلا وحيداً. وهكذا انصرف إلى القراءة.

لكنه أيضاً انصرف ـ كما أخبرني ـ إلى الاهتمام بأمر اثنين من الأوروبيين اللذين جاءا للتنقيب عن النفط لحساب شركة أميركية. غير أن صنعاء رفضت البحث في أمر النفط! وقد أخذ المنقبان يتفقدان سراً آبار المياه التي لها طعم زيتي. غير أن الإمام يحيى منع إقامة أي آلات حفر قبل هذه الآبار،لأنها تقوم في الأراضي اليمنية الأكثر خصباً، قائلاً للرجلين: «أن لدينا ما يكفي من الصحاري، فلماذا لا تنقبان عن النفط في الأماكن غير الآهلة بدلاً من أن تهلكوا أراضي فلاحينا؟». وعندما أخفق الرجلان في العثور على نفط في الصحراء تركا اليمن خاليي الوفاض. غير أنني أعجبت بموقف الإمام الذي فضل الخضار على النفط.

ما إن انتهى المستر «دي» من روايته حتى وصل الأوروبي الآخر، وهو تاجر أرمني، ثم وصل الثالث، وهو الإيطالي! وبين كل الدول التي لها مستعمرات في الشرق الأدنى، تبدو إيطاليا الأكثر اهتماماً باليمن. ومنذ أن أنشأوا المستعمرة الاريترية على الشاطىء المقابل والإيطاليون يتطلعون عبر البحر الأحمر وعينهم على اليمن يضمونها إلى امبراطوريتهم الاستعمارية. لكن بينما استخدم السنيور موسوليني وسيلة الغزو في الحبشة فهو يستخدم في اليمن وسائل أكثر رقة.

من أجل هذه الغاية وقّع مع الإمام معاهدات صداقة وتجارة كثيرة، أولها في العام ١٩٢٦ وآخرها في العام ١٩٣٧. وقد مكنت هذه المعاهدات، هذا الإيطالي الصغير من أن يأتي ويسكن هنا، أما مهمته فهي، بالطبع، جمع المعلومات وبث النفوذ. إنه

ليس طبيبا، كما يدعي، على الإطلاق، بل هو ضابط مخابرات، موظف سياسي، لكنه اضطر أن يدعي الطبابة لأن الإمام لا يسمح بوجود قنصلي هنا، بمعاهدات أو من دونها.

ثمة ١١ أجنبياً في اليمن كلها، سبعة منهم إيطاليون. ويعيش الستة الآخرون في صنعاء كمهندسين وأطباء وفنيين، لكنهم جميعاً عملاء سياسيين من أفضل ما لدى إيطاليا. إنهم يضعون أصابعهم على نبض اليمن، ونتيجة لنشاطاتهم الذكية تقع اليمن سريعاً في دائرة النفوذ الإيطالي. إن الصلة الوحيدة التي تربط اليمن بالعالم الخارجي هي محطة التلغراف التي يديرها العملاء الإيطاليون. وبما أن الخط التلغرافي نفسه يمرّ في عصب، اريتريا، فإن كل كلمة تطلع من إيطاليا تعرف فوراً عبر المياه.

إن صديق إيطاليا الأول في اليمن هو القاضي محمد بن راغب. وهو كابتن تركي سابق من بقايا أيام السيادة العثمانية. وعندما انهارت الإمبراطورية العثمانية وطرد الحلفاء الأتراك من البحر الأحمر بعيد الحرب الكبرى، بقي الرجل هنا حيث أصبح وزير الدولة لدى الإمام. ويبدو أن إعجابه بإيطاليا وموسوليني كبير إلى درجة يعتبره المواطنون الإيطالي الثامن في البلد، وهو يسافر كثيراً إلى إيطاليا وابنه يتلقى العلوم هناك.

في حين سمح لإيطاليا بأن يكون لها سبعة مندوبين، لم يسمح لبريطانيا بأن يكون لها مندوب واحد. وبرغم معاهدة «الصداقة والتعاون المتبادل» التي وقعتها في العام ١٩٣٤، فإنها لم تؤد إلى أي تعاون أو صداقة. وإعطاء الإنكليز الكثير من لا شيء، هو موقف الإمام الدائم الذي بدأ خلال الحرب العالمية حين قال الإمام بكل حكمة «دع الإنكليز والأتراك يخوضون حربهم»، ثم تراجع إلى شهارة، عاصمته الثانية في الجبال.

وفي نهاية الحرب حاول وفد بريطاني الوصول إليه لكنه لم يستطع بلوغ شهارة. وبعد ذلك بسنوات قليلة تم أسر وفد بريطاني كان في طريقه من الحديدة إلى صنعاء ولم يفرج عنه إلا بشرط أن يعود إلى عدن بدلاً من إكمال الطريق إلى العاصمة. وفي العام ١٩٢٥ استطاع موفد بريطاني هو السير غيلبرت كلايتون الوصول إلى صنعاء لكن من دون أن يحقق أي شيء. وسبب تردد الإمام في قبول الحماية البريطانية أو حتى المعونة البريطانية عائد إلى سياسة وطنية. فالإنكليز بالنسبة إلى اليمن هم الذين يسيطرون على عدن «عين اليمن» بصورة غير شرعية منذ العام ١٨٣٩. وقد أوضح الإمام يحيى مراراً أنه لن يقيم أي اتفاق مع الإنكليز ما لم تعد عدن. وبما أن هذه المسألة غير واردة فالصداقة الحقيقية تبدو أيضاً غير محتملة. وقد قال لي صديق عربي باختصار، إن من يحاول الجمع بين اليمنيين والإنكليز هو كمن يحاول استدرار اللبن من تيس الماعز.

بين تلك الحملة الفاشلة التي قام بها الكولونيل جاكوب في العام ١٩٢٥ وبين توقيع المعاهدة المشتركة في العام ١٩٣٤، تحول العداء إلى معارك مفتوحة. ولم يعترف الإمام يحيى أبداً بالحدود الاصطناعية بين عدن واليمن ولا احترم مقاتلوه وجود الإنكليز عبر هذه «الحدود». وكانت خروقات الحدود عملاً شبه يومي، وكذلك المعارك التي اشترك فيها السلاح الجوي الملكي.

هذا الغارات المؤسفة، الوحشية أحياناً، كما بالنسبة إلى قبيلة الصبيحي التي كادت أن تباد على بكرة أبيها في شمال عدن، أدت إلى قيام حرب غير معلنة بين بريطانيا واليمن، وإلى كره كل ما هو بريطاني والشك في أي شيء يأتي من بريطانيا.

وفي حين أن بريطانيا أخفقت في تحقيق أي نجاح ديلوماسي في العام ١٩٢٨، دخل المسرح منافس كبير آخر. إذ فور انتهاء البريطانيين من قصف قوات الإمام، وصل إلى البلاد عملاء سوفيات تحت راية «معاهدة التجارة والعلاقة الودية». وقد كانت أهداف الروس المعلنة تجارية فقط. وما لبث البلد أن أغرق بالبضائع السوفياتية النافلة التي بيعت بخسارة من أجل ضمان الأولوية في السوق. لكن الهدف الحقيقي للسوفيات كان «بلشفة» شبه الجزيرة، وكانت الأوامر في هذا الشأن تصدر من موسكو مباشرة.

تماماً كما هو الحال مع الإيطاليين، جاء العملاء السوفيات متنكرين في ثياب مهنية. وفي السنوات الأولى كان هناك العشرات من الروس في اليمن، أما اليوم فمن أصل أحد عشر أجنبياً، ليس هناك سوى اثنين هما رجل وزوجته، وكلاهما طبيب. إنهما، وأطنان عيدان الثقاب التي لا تشتعل، بقايا الطموح السوفياتي هنا. إن بلشفة المنطقة عمل يائس، وقد قبل الإمام هذه العاطفة الروسية المفاجئة لكنه لم يبادلها بأي شيء، وقد سمح باستيراد البضائع الروسية التي طلب السوفيات البن في مقابلها لكنهم لم يحصلوا عليه أبداً.

وحين راحت الرسائل الروسية الملحاحة تتكرر، أرسل اليمنيون بعض البالات التي تحتوي نظرياً على كميات من البن، لكنها ما إن فتحت في ميناء أوديسا حتى تبين أن الحمولة هي عبارة عن الحصى الجميل المنتشر على السواحل اليمنية، وعندها أيقن الروس فشلهم وأخذوا يسحبون عملاءهم. وثمة من قال لي إن آخر روسيين في صنعاء هما أيضاً على وشك السفر.

مع اختفاء الروس، ظل الإيطاليون وحدهم في الساحة. ومنذ توقيع أول معاهدة في العام ١٩٢٦، لم يتوقف تدفق هؤلاء على البلاد. ومعظم هؤلاء كانوا يمضون هنا ستة

أشهر ثم يعودون إلى بلادهم ليحل غيرهم محلهم، وهكذا تكوّن لدى روما جيش كبير من العملاء الذين يعرفون اليمن جيداً والذين قد يكونون مقدمة لغزو ناجح، سلماً أو حرباً. لقد اعترفت إيطاليا علناً بأهدافها الاستعمارية.

غير أن هذا الإيطالي الصغير، الذي يحتسي القهوة معي، بدا أنه قد يكون أي شيء إلا استعمارياً. وكان مظهره الخارجي وأسلوبه جزءاً من سياسة بلاده. كان عليه أن يبدو متواضعاً لا يثير أي انتباه وأن يعيش حياة بسيطة مثل أهل البلد!

بعد زيارة الأوروبيين الثلاثة لم يأت أحد. وببطء راح الليل يهبط على الحديدة من دون أن تصلني أي كلمة من الحاكم. تذكرت المثل الإفريقي القائل «مبارك الذي يمنح النوم بدلاً من القلق» ثم توجهت إلى غرفتي لكي أنام. كانت الرطوبة قاتلة في الداخل فأخرجت الفراش إلى باحة المنزل، أملاً بنوم لم يأت. لقد أمضيت الليل أحصي النجوم وأفكر في حل.

إن شروق الشمس هنا هو المؤسسة الوحيدة التي تعمل بانضباط. في هذه الأرض المليئة بكلمة «غداً» الأزلية، بالوعود التي لا تحين، بالمواعيد التي لا تؤخذ جدياً، وحيث الدقة عيب، هنا فقط الشمس وحدها تتقيد بمواعيدها! وفي كل البلدان الشرقية التي زرتها يشكل الشروق نوعاً من الدعوة العامة فتمتلىء الشوارع فوراً بالناس. لكنني حين تطلعت إلى الحديدة في السادسة صباحاً وجدتها خالية ومهجورة. كانت ظلال البيوت الطويلة وحدها تقطع هذه الرتابة الهائلة في المدينة.

وفي الشوارع كان ينام أولئك الفقراء الذين لا يملكون بيوتاً خاصة بهم. وفجأة ظهر متجول وحيد في هذا الشارع الحالم. والواقع أن وجوده في الحديدة قد فاجأني لأنني أيقنت الآن أن ثمة أربعة رجال أوروبيين في المدينة. كان هذا طويل القامة، ضخم الجسم، أشقر الشعر وقد أحمرّ لون وجهه من الشمس الحارقة.

وبدا لي من خطواته المتمهلة أن الملل، لا العمل، هو الذي انتزعه من فراشه إلى شوارع الحديدة المهجورة، وقد راح يصفّر لحناً عسكرياً، فما إن اقترب من النافذة حتى تعرفت إلى هذا النشيد الألماني. وانحنيت من الشباك وألقيت عليه التحية بالألمانية: «صباح الخير». وخيل إليّ أنه أصيب بالخوف من المفاجأة، ثم تحول من متجول يتمتع بما حوله إلى رجل جدي ينتصب كما لو أنه يؤدي تحية عسكرية، ورد التحية بشيء من الحذر.

بدأت محادثاتنا بتردد. ولم يكن الرجل سخياً في إعطاء المعلومات عن وجوده هنا.

غير أنه قال لي إنه يدعى الهر هرمان هاينز وإنه نقيب متقاعد في الجيش الألماني. جاء من صنعاء في زيارة قصيرة لبضعة أيام. وقد بذل جهداً لإقناعي بأنه في الحديدة لغرض شخصي وبصفة شخصية، ثم استأذن ومضى مسرعاً.

كنت أعرف، بالتجربة، أن الألماني حين يكون في الشرق الأدنى، إنما يأتي في واحدة من مهمتين لا ثالثة لهما: إما تسجيل الألحان الشعبية على اسطوانات، أو بيع الأسلحة إلى المحاربين المحليين، وغالباً ما تختلط المهمتان، بحيث تغطي الأولى حقيقة الثانية.

وبما أنني أردت أن أعرف في أي المهنتين يبرع هنا الكابتن هاينز، ناديت علي حسن من فراشه وأرسلته إلى المدينة يتقفى أسرار الضابط الألماني. وسرعان ما عاد علي حسن ومعه القصة الكاملة: الكابتن هاينز يمثل شركة لصنع الأسلحة! والواقع أن الكابتن لم يكن مضطراً على الإطلاق لأن يحيط نفسه بمثل هذه السرية، فتجارة السلاح حرة في اليمن. ولأكثر من خمسين عاماً كانت هذه المنطقة جنة تجار السلاح الألمان والبلجيكيين والتشيكيين.

وقد قيل لي إن في اليمن من البنادق أكثر مما فيها من الرجال. ولذا فإن إحدى أسس السياسة البريطانية هي تجريد الناس من السلاح. وقد صودر السلاح من أهالي عدن وحضرموت ولم يسمح لهم سوى باقتناء البنادق القديمة التي لا ذخيرة لها. ولم تفعل بريطانيا ذلك من أجلها فقط، بل أيضاً من أجل أنها حالة القتال الدائمة التي جعلت كل قبيلة ضد الأخرى وكل عائلة ضد أخرى. والواقع أنه ما إن جمع السلاح من الناس حتى توقفت النزاعات، فاستقر البدو الرحل في أراضيهم وأخذوا يزرعونها، وبدلاً من أن يقاتلوا بعضهم بعضاً راحوا يصارعون قسوة الطبيعة.

وفي مملكته المترامية فعل الملك عبد العزيز آل سعود الشيء نفسه، فأخذ البنادق من الناس وأعطاهم بدلاً منها المعاول والرفوش، وبدأت شبه الجزيرة العربية تعرف نمواً وتقدماً كبيراً.

وفي شبه الجزيرة كلها فقط في اليمن لا يزال القتال أكثر اعتباراً من الزراعة. ويستغل تجار السلاح الأوروبيون هذه القاعدة فيأتون إلى هنا محملين بالسلاح ويعودون محملين بالمال.

عاد علي حسن إلى البيت لكي يخبرني أن الهر هاينز قد اعترض على وجود «صحافي إنكليزي» شاهداً في المدينة على صفقة السلاح التي عقدها. كذلك قال إن

الرجلين اللذين كانا ينقبان عن النفط قد اعترضا على وجودي. وكان علي حسن، الذي أمضى النهار يختلط بكل أنواع الناس، يحمل أنباء غير طيبة على الإطلاق.

قال علي حسن «إن وجودك هنا متوقف على قرار من الإمام. وقد قام الوزير بإرسال برقية طويلة إلى صنعاء يعلم جلالته بوصولك ويخبره بالإشاعات المتناقضة حولك. إنه الآن ينتظر وصول التعليمات من صنعاء».

وقمت بدوري بإرسال برقيتين: الأولى إلى راغب بك، وزير الدولة، حاولت أن أوضح فيها دوافع الزيارة وأن أنفي معلومات الوزير الساذجة، والثانية إلى الدكتور ب.و.ر. بيتري، وهو اسكتلندي كان الإمام قد دعاه مؤخراً لإقامة مستشفى في صنعاء، وطلبت منه التوسط لصالحي.

يبدو أن موظفي البريد في الحديدة لا يؤمنون بالسرية كثيراً، إذ سرعان ما عرفت المدينة كلها بأمر البرقيتين وبمحتوياتهما أيضاً. وقد جاءني السيد صالح ليحذرني من ألا أتفاءل كثيراً بنتائج البرقية التي أرسلتها إلى الدكتور بيتري. وقال لي «من هو هذا الحكيم في أي حال؟ إنه رجل إنكليزي. ومن هم الإنكليز في اليمن؟ إنهم غرباء. إن الدكتور بيتري ليس مستشار الإمام بل هو خادمه. هناك إرادة واحدة في اليمن هي إرادة الإمام. فإذا كان وجودك يسرّه فإنك ستبقى، أما إذا لم يكن كذلك فعليك أن ترحل. وأعتقد أن الأرجح هو أنك سترحل».

أصبح الإمام يحيى الآن رجلاً متقدماً في السن، بين الستين والسبعين من العمر. ولأنه كلما تقدم في العمر زادت قوته الذهنية فإن مواطنين يخافونه ويعتقدون أنه يملك قوة خارقة.

اليوم التالي شهد نهاية حياة الكسل التي عشتها. ففي الساعة الثامنة صباحاً دخل أحمد، رئيس الميناء إلى المنزل بتجهم لكي يبلغني أن سعادة الحاكم يريد رؤيتي. شعرت فوراً باليأس! عندما وصلت إلى الحديدة قبل يومين كنت أظن نفسي متفوقاً على هؤلاء الناس غير المتمدنين، مليئاً بالثقة الذاتية التي يشعر بها الأوروبيون عادة حين يسافرون في بلاد مستعمرة. إلا أن العزلة التي عرفتها خلال يومين فعلت فعلها بي وأخذت أفقد أعصابي وتفوقي بسرعة، شاعراً بدلاً منها بعقدة النقص. لقد كان علي أن أسافر إلى اليمن لكي أتيقن من أن الرجل الأبيض ليس، في نهاية الأمر ملك العالم. نحن، في اليمن، لسنا مبعوثي الحضارة الأوروبية التي نتحدث عنها، بل متسللين، كفاراً، وكلاباً.

رافقني إلى مقر الوزير، أحمد وشرطيان. وكان المقر عبارة عن مبنى أبيض اللون في شمال المدينة، يتجمع في باحته العبيد وأصحاب الشكاوى، وكان سعادته ينتظر في صالة الاستقبال الكبرى، المفروشة بالسجاد الفارسي الجميل، محاطاً بالضيوف المتربعين إلى مساند جميلة. وحين دخلنا همهم الجميع «سلام» ووقف الوزير لتحيتي وصافحني بحرارة. كان رجلاً نبيلاً ذا ملامح ودية. وقد عرفت من دفء عينيه أنه لو كان القرار قراره لكان سمح لي بالبقاء ما شئت، لكنه هنا فقط لكي ينفذ أوامر الإمام!

ولو أنني جئت إلى هنا قبل سنوات قليلة لما منعت من دخول اليمن. ففي ذلك الحين، كان الأمير أحمد، نجل الإمام البكر، نائب الحاكم في المدينة. ولم يكن الأمير أحمد يشارك والده هذه الكراهية العمياء للأجانب، بل كان يرحب بهم ويطلب منهم البقاء طويلاً. وخلال ولايته كانت الحديدة مدينة ناشطة على البحر الأحمر، وكان الرجل يحب الرياضة ويسمح حتى بمباريات كرة القدم. وذات مرة نظم سباقاً في السباحة، وحين أصيب أحد المتسابقين بتصلب في العضلات غطس الأمير بنفسه لإنقاذه، غير أنه لسوء الحظ واجه تيارات البحر الأحمر العاتية وغرق. وقد اعتبرت هذه الحادثة تحذيراً ربانياً ومنعت الرياضة والكفار من المدينة إلى الأبد.

كان سعادة الوزير عازماً على أن يجعل إبعادي لطيفاً بقدر المستطاع. وقد قدمت إليّ تكاية للجلوس قبالته، ثم جاء العبيد بالشاي. إنهم يقدمون الشاي في أشهر بلدان القهوة في العالم! كذلك وضعت النراجيل أمامها وكان لي شرف مشاركة سعادته تدخين إحداها. وبعد قليل قدم إلينا القات فرحنا نمضغه بهدوء.

فجأة استدار الحاكم نحو علي حسن قائلاً له «لقد وصل سيدك إلى هنا زاعماً أنه تاجر فراء، مضللاً بذلك ملكنا قائد المؤمنين. لكن شيئاً لا يخفى على هذا الحكيم حلاّل الأحاجي. لقد أخبرنا أصدقاؤنا في عدن بالأهداف الحقيقية من زيارته. إنه ليس تاجر فراء، بل هو صائد كنوز يبحث عن كنوز ملكة سبأ. وقد أبلغنا أيضاً أنه يريد التنقيب عن النفط في تراب اليمن. وأخيراً تلقينا معلومات تقول إنه عميل بريطاني يبحث عن مدارج تهبط عليها طائرات الإنكليز. لكن مهماً كانت هويته الحقيقية، فهو ليس تاجر فراء في أي حال وليس صادقاً في مقاصده». ثم توقف لكي يتسنى لعلي حسن ترجمة الكلام، الذي اختصره علي حسن بقوله «إنه يريد طردك»، فيما أكمل سعادته كلامه.

«قل لسيدك إننا تشرفنا جدًّا بزيارته إلى الحديدة ونشعر بصغرنا في حضوره. وإننا سنكون سعداء حقاً لو استطعنا إقناعه بتمديد زيارته لنا، غير أن ملكنا الإمام قد قرر غير ذلك. أبلغ سيدك أننا أمرنا بأن نطلب منه العودة إلى الباخرة ومغادرة اليمن فوراً».

حاول علي حسن أن يفاوض قليلاً. قال للوزير إنني لست صائد كنوز ولا منقباً عن النفط ولا عميلاً بريطانياً. بل ذهب إلى حد إطلاعه على حقيقتي كمؤلف كتب ومراسل. لكن أمر الإمام لا يرد. لا بدّ أن أترك اليمن فوراً!

غادرت مكتب الحاكم حزيناً! تطلعت إلى الميناء فوجدتها خالية ولم تكن هناك باخرة في المرسى. إذن، أستطيع البقاء يوماً آخر. غير أن ظني قد خاب! فقد أرغمني رئيس الميناء على الصعود إلى مركب شراعي، أبحر بنا إلى عرض البحر حيث رحنا ننتظر وصول باخرة مبحرة إلى عدن.

كان هذا النوع من المعاقبة يشبه عقاباً من القرون الوسطى. ولم يكن ملاحو المركب يعرفون إلى متى سننتظر لكن أحدهم قال إن باخرة ستصل خلال فترة وجيزة ولا يعرف متى بالتحديد، إلا أنهم أكدوا لي في أي حال أن الخبز والمياه سيرسلان إلى المركب مهما طال الانتظار! لكن عند منتصف الليل رأيت أضواء «الأيامونتي» تشق الظلمة من جديد، وبعد نصف ساعة كنت على ظهرها عائداً إلى عدن.

كانت حكومة عدن ودية للغاية معي. وقد بعث سعادة الحاكم السير برنارد رايلي برقية إلى الامام يحثه فيها على السماح لي بالعودة إلى اليمن... بلا جدوى! وبعد أيام جاء الردّ التالي من الإمام:

«تلقينا برقيتكم ونسارع إلى الإجابة عليها لأننا نشعر بأنه شرف كبير لنا أن نستجيب لرغباتكم وأن نلبي طلباتكم.

«إلا أننا نعلمكم ببالغ الأسى أنه في الوقت الحاضر ليس في اليمن أي حرب من شأنها إثارة اهتمام المراسل الأجنبي المذكور في برقيتكم أو أن تتطلب حضوره.

«وإننا نعتبر أنه من واجبنا أن نتشرف بإعلامكم فور تعرض السلام في اليمن لأي قلاقل، بحيث يستطيع هذا المراسل الأجنبي الوصول في الوقت المناسب لكي يجمع معلوماته ويكتب تقريره».

«وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير».

المحتويات

القسم الأول

قافلة الحِبْر: متى جاءوا ومن أين

القسم الثاني

نصوص وشهادات

«قافلة الحبر» وثائق كثيرة في حكاية واحدة يرويها الكاتب سمير عطالله، مختاراً من مجموعة الرحالة المعروفين منهم والذين يعرّفنا اليهم، فصولاً زمنية تتحول لوحة تاريخية منسجمة ورسماً بيانياً جغرافياً كأنه نحت فسيفسائي من بلدان الجزيرة والخليج.

ليس هناك تسلسل يومي واحد، بين ١٧٦٢ و ١٩٥٠. لا يراه القارئ عن البداوة والصراع بين البدو على القوت اليومي، وبين دول العالم على ثروات الصحراء وسحرها.

لقد ساهم الرحالة في تأريخ مرحلة من الزمن العربي، عبر منطقة عبروها وجالوا فيها، وكشفوا واكتشفوا زواياها. لهذا فهي «قافلة الحبر».

سمير عطالله صحافي لبناني عمل وتولى مسؤوليات في «النهار» و«الاسبوع العربي» و«الصياد» [illegible] و«الأنباء» الكويتية. ومنذ ١٩٨٧ يكتب في «الشرق الأوسط».

له مؤلفات عديدة منها «مسافر بلا ميناء» و«مسافات في أوطان الآخرين» و«ناس ومدن». كما له [illegible]

[illegible] يجمع بين الأدب والسياسة، وبين السهل والممتنع.

ISBN 1 [illegible]

